الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية

مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكّمة

رئيس التحرير: أ.عمار غرايسة

Issn 2437-0584
العدد
08
رقم الايداع القانوني 471-2015

الرئيس الشرفي : عمر فرحاتي - مدير الجامعة
المدير الشرفي للمجلة : عبد الرحمان تركي -عميد الكلية

مجلة المعارف

للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكّمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الثامن – نوفمبر 2016

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف
للبحوث و الدراسات التاريخية
ص ـ ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر ـ
الهاتف / الفاكس 032223005
العنوان الالكتروني:
el-maaref@univ-eloued.dz

التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة و في إطار الاحتفالات بالذكرى الستون المخلدة لها ، جاءت فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة بمجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية التي حازت على موافقة المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية لتكون فضاء متميزا للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا شك الطريق الأنسب لمحاولة الاقتراب أكثر من الحقيقة التي هي أمل السالكين دروب العلم على أمل ملامستها في ظل أجواء الفكر الإنساني الحر و الذي لا يلتزم بغير ضوابط الموضوعية و الحقيقة المستندة للوقائع و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن توجد لنفسها مكاننا بين الدوريات التاريخية المتخصصة لتسهم بفضل جهود الأقلام المتألقة في فضاءها في الغوص في مجال البحوث و الدراسات التاريخية لتخرج بها نحو أرحب الآفاق الدالة على مدى قدرة التاريخ في الإسهام إلى جانب العلوم و المعار الأخرى في صناعة واقع الأمة انطلاقا من فهم واقعها و محاولة لرسم مستقبلها. و تبقى المعرفة التي جاء بها أول غيث الوحي السماوي خير ما تستهدي به البشرية في دروب الحياة .

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي. الجزائر.

recteur@univ-eloued

المدير الشرفي :

الأستاذ الدكتور عبد الرحمان تركي ، عميد كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية.

hotmail.com@39- - - adab

مدير المجلة :

الدكتور محمد السعيد عقيبه ، نائب عميد الكلية المكلف بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الاتصال و التظاهرات العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

الأستاذ عمار غرايسه ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

gheraissa-ammar @univ-eloued

هيئة تحرير المجلة

أ. رابح رمضان . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الطاهر سبقاق . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. غانية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. بلال بن عمر. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. رشيد قسيبه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الجباري عثماني . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ.عبد الحميد العابد. جامعة الشهيد حمه لخضر. الوادي

الهيئة العلمية الاستشارية

أ . د . ابراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية.	أ . د . إبراهيم بن محمد بن حمد المزيني . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.
أ . د . أحمد شريفي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	أ . د . أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة
أ . د . بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانه .	أ . د . جمال حجر . جامعة قطر. قطر
أ . د . صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية.	أ . د . عبد الوهاب شلالي . جامعة العربي التبسي . تبسة.
أ . د . علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة.	أ . د . محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس.
أ . د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة.	أ. د . عمر حاج الزاكي. جامعة أم درمان السودان.
	أ. د . وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق.
أ.د بوبه مجاني . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.	أ.د جمال يحياوي. جامعة أبو القاسم سعد الله. الجزائر.
د . أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس.	د . العمري مومن . جامعة قسنطينة2 قسنطينة.
د . الوفي نوحي . جامعة محمد الخامس . المغرب.	د . أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن.
د . بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين . سطيف.	د . بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة.
د . جمال بلفردي . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د . خير الدين شترة . جامعة محمد بوضياف. المسيلة.
د . دلال لواتي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	د . رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د . طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا.	أ.د . عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د . عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا.	د . عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس.
د . علي بن سعد آل زحيفه الشهراني . جامعة ملايا . ماليزيا.	د . علي غنابزية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د . عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت .	د . لزهر بديدة . جامعة الجزائر2أبو القاسم سعد

الأردن.	الله . الجزائر.
د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه.	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواقشط . موريتانيا.
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف. المسيلة.
د . محمد رشدي جراية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة.	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة2 قسنطينة.
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت.	د . هيوا عزيز سعيد . جامعة السليمانية . العراق.
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر.	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر.
د. أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر.	د. علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان.
د. مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار.	د. نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة.
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر. باتنة د . اسماعيل وارشيد EH SS ismail warscheid فرنسا. أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براثالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا.	أ .Juan Castilla Brazales خوان كاستيه براثالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا.
د . Augustin Jomierأوغسطين جومييه(fondation thiers – cnrs/ce rhio)جامعة لومان . فرنسا.	د. البشير غانية . قسم العلوم الانسانية. جامعة الشهيد حمة لخضر. الوادي

قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

1- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.

2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.

3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.

4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني بالغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.

5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabicمقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي simplified 16 Grasالعناوين الفرعية simplified Arabic مقاسه 14.

6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).

7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية Not de fin على أن تعرض في نهاية المقال.

8- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.

10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.

11-يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : el-maaref@univ-eloued.dz

كلمة العدد

ان حياة الأمم انما هي في جزء مهم منها ارتباط وثيق بماضيها بما حمله من مآثر تستحق الوقوف أمامها بإجلال قصد الحفاظ عليها والاستمرار على نفس منوالها والزيادة عليها، أو ما كان من مآسي تستوجب الوقوف عندها لاتخاذ القرار والموقف الذي يقتضيه الحال بما يتواقف و الرؤية المستقبلية التي من شأنها أن تحدد المسارات الرئيسة التي تحتاج الأمة السير عليها في سبيل الوصول الى الأمل المنشود في الغد المنظور.

أمام هاته الحقيقة تأتي احتفالية الجزائر بالذكرى الثانية بعد الستين من عمر ثورتها المجيدة التي استطاعت علاوة على تحريرها البلاد أن تؤسس لعمق تاريخي أكد الترابط الوثيق بين الأقطار المغاربية لما بين شعوبها من توافقات تاريخية متجذرة توحي بالأمل المنشود لبلوغ ما هو أفضل في ظل الرهانات المنظورة و المخاطر المحدقة. كما كرست في ذات المنحى البعد التحرري الانساني الذي من شأنه أن يتيح لجميع الشعوب تنفيذ ارادتها المستقلة و ممارسة سيادتها بعيدا عن أي املاء.

ان عملية التحرير التي طالت البلاد تفرض أن تتبع أيضا بالاستمرار في ان يحقق الأفراد تحررهم من أي سلطان قد يكبل طاقاتهم أو أن يثني عزائمهم على المضي قدما في سبيل المساهمة الفاعلة في عملية البناء بمختلف جوانها كلا من مكانه و حسب امكاناته . فما كان بالأمس قد تحرر بسواعد الجميع هو ذاته ما يقتضي من أن يشترك في بنائه الجميع بعيدا عن أي تهميش أو ابعاد .

و ان حالة الالهام التي امتلكتها ثورة الجزائر، لا تزال بحاجة الى ضرورة تكريسها في ظل استمرار بعض الأوضاع التي لاتزال تعيشها أمتنا العربية في مختلف الأقطار ،

لأجل أن تنحو نحوها و تحقق الأمل و المنى التي كان مفدي زكريا قد تناجا بها في الياذته ليرى ذاك الأمل يروق حرية و انعتاقا ترفرف ظلاله على أرض فلسطين التي هي حلم كل من يحمل في نفسه نبظا تجاهها بما تمثله من رمزية.

ان الأمة انما تحيا برجالها و تعقد الأمل في أجيالها لتبلغ أمالها.

رئيس هيئة التحرير

أ . عمار غرايسة

الفهرس

المـــوضـــــوع	الصفحـة
كلمة العدد	07
كنفدرالية شمال إفريقيا للطلبة : تأسيسها ونشاطها ❁ د/ محمد السعيد عقيب/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي	12
الحدث المناخي والتحول السياسي: هل من علاقة؟ ❁ د/ لوبنى زبير / جامعة القاضي عياض/ مراكش/ المغرب ❁ د/ كريم العرجاوي/ جامعة القاضي عياض/ مراكش/ المغرب	31
تسليح جيش التحرير الوطني عبر الحدود الغربية خلال الثورة الجزائرية(1954–1962) ❁ د / الطاهر جبلي/قسم التاريخ / جامعة تلمسان.	71
المرائي الصوفية عند صوفية زواوة – ابو محمد الزواوي انموذجا – ❁ د/ خلفات مفتاح / قسم التاريخ / جامعة المسيلة	97
البنية الاجتماعية و المؤسسات المدنية و الدينية داخل المدن النوميدية تحت الاحتلال الروماني ❁ د/ توفيق حموم /معهد الآثار/ جامعة الجزائر 2	112
حركة انتصار الحريات الديمقراطية –MTLD–(1945–1954) من الأزمة إلى القطيعة. ❁ د/سعاد يمينة شبوط / قسم التاريخ / جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان.	132
ملامح من الأدب السومري القديم ❁ د/ شباحي مسعود/ قسم التاريخ وعلم الآثار/ جامعة الحاج لخضر–باتنة1	163
الضرائب غير الشرعية في دولتي المرابطين والموحدين وأثرها على علاقتهما مع الرعية ❁ د/غانية البشيـر/ قسم العلوم الانسانية / جامعة حمه لخضر/ الوادي	178
الجغرافيا التاريخية والبشرية لبلاد المغرب القديم في القرن السادس الميلادي – دراسة من خلال ملحمة الحرب الليبية الرومانية للشاعر فلفيوس كريسكونيوس كوريبوس– ❁ د/بعيطيش عبد الحميد/ قسم التاريخ والآثار / جامعة باتنة1	196
اقتصاد الحرب والمغازي وآثاره بالأندلس خلال فترة الفتح والولاة ❁ أ. رابح رمضان – قسم العلوم الانسانية – جامعة الشهيد حمة لخضر – الوادي	214
التعليم الابتدائي في الجزائر بين المدرسة الفرنسية والكتاتيب القرآنية (1880–1914) ❁ أ/عبدالحميد عومري / جامعة الجيلالي ليابس /سيدي بلعباس	246
التحولات المناخية في الصحراء الوسطى خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة ❁ د / لخضر بن بوزيد / جامعة محمد خيضر بسكرة / الجزائر	269
نشاط الحركة الوطنية الجزائرية في مواجهة السياسة الفرنسية: تجربة المظاهرات الجماهيرية خلال النصف الأول من القرن العشرين أنموذجا	298

❁ أ/عبد القادر خليفي / قسم التاريخ / جامعة محمد بوضياف/المسيلة	
الدعم العربي للثورة الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة ❁ د/بشير سعدوني/ قسم التاريخ / جامعة الجزائر 02	329
أثر السلطة العالمة في الإبداع الفكري والأدبي العصر الصنهاجي أنموذجا ❁ د/ عبد المالك مغشيش / جامعة عباس لغرور /خنشلة	352

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة

يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا مكانته العلمية

كنفدرالية شمال إفريقيا للطلبة : تأسيسها ونشاطها

د/ محمد السعيد عقيب– قسم العلوم الانسانية– جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي.

ملخص:

يعالج هذا المقال الإطار التنسيقي بين المنظمات الطلابية لكل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى، والذي توج بظهور كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة، والتي كان تأسيسها قد تزامن مع العديد من التطورات التي شهدتها الثورة الجزائرية على الصعيد العسكري والسياسي والطلابي بظهور الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وعلى الصعيد الطلابي ما لحق الطلبة الجزائريين في فرنسا، وحل الاتحاد للطلبة المسلمين الجزائريين في جانفي 1958، فأخذت هذه الكونفدرالية على عاتقها مهمة التنسيق بين المنظمات الثلاث والعمل في المجال الطلابي والدبلوماسي خدمة للقضية الجزائرية، فأتاحت بذلك بديلا مناسبا للطلبة الجزائريين للنشاط على الصعيد الدولي.

RESUME:

Cet article traite la question de coordination entre les organisations des étudiants de Tunisie et l'Algérie et le Maroc, et qui a abouti à la constitution de la Confédération des étudiants de L'Afrique du Nord, qui a été créé a coïncidé avec des nombreux développements dans la révolution algérienne sur le plan militaire, le niveau politique et le niveau estudiantine, comme l'émergence du Gouvernement provisoire de la République algérienne, et le niveau des étudiants algériens en France, la résolution de l'Union des étudiants des musulmans algériens en Janvier 1958, il a pris le confédéré assumé la coordination entre les trois organisations et le travail dans le domaine estudiantine et le domaine diplomatique pour aide la cause algérienne,

ce qui permet à l'auteur de faire un substitut approprié pour les étudiants algériens de l'activité au niveau international.

المقدمة:

تعتبر الحركة الطلابية أحد الروافد الهامة التي شدت عضد الحركة الوطنية في البلدان المغاربية (تونس- الجزائر- المغرب الأقصى)، ومن خلال مسيرتها أمدت الأحزاب والتشكيلات السياسية الوطنية بالعديد من العناصر التي صار البعض منها ضمن قيادات النشاط الوطني ضد القوى الاستعمارية.

وعند الإطلاع على مسيرة المنظمات الطلابية المغاربية، نلاحظ عملها على التنسيق والتضامن فيما بينها ، وتعود جذور هذا العمل لما قبل اندلاع الكفاح المسلح بالأقطار الثلاث، وتعتبر "جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا " نموذجا للحاضنة التي تمثل العمل الوحدوي الطلابي المغاربي خلال فترة الحركة الوطنية منذ نشأتها حتى خمسينيات القرن العشرين.

ولقد جنحت الحركة الطلابية إلى تأسيس اتحادات خاصة بكل بلد فنشأ بتونس" الاتحاد العام للطلبة التونسيين" جويلية 1953، وتأسس " الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" جويلية 1955 كمنظمة خاصة بطلبة الجزائر، وظهر بالمغرب الأقصى"الاتحاد الوطني لطلبة المغرب" في أوت 1956.

ومنذ ظهور هذه المنظمات وارتفاع وتيرة العمل المسلح خلال الثورة التحريرية بالجزائر بعد اندلاعها في غرة نوفمبر 1954، حدث التنسيق بين هذه المنظمات الطلابية الثلاث في العديد من القضايا الخاصة بكل قطر تحديدا .

وعملت هذه الاتحادات الطلابية الثلاث بعد استقلال تونس والمغرب الأقصى سنة 1956م على إظهار وثائق وعرى المساعدة والتضامن فيما بينها ، والمساهمة الدفاع عن القضية الجزائرية والقضايا الطلابية ، وتوج ذلك بتأسيس " كونفدرالية شمال إفريقيا للطلبة " .

فكيف ومتى تم تأسيس كونفدرالية شمال إفريقيا للطلبة؟ وماهي أهم نشاطاتها؟ وما مدى إسهامها في خدمة القضية الجزائرية على الصعيد الإفريقي والعالمي ؟.

أولا: نبذة عن الاتحادات الطلابية بتونس والجزائر والمغرب الأقصى:

1- الاتحاد العام لطلبة تونس:

تأسس الاتحاد العام لطلبة تونس [1] في ظرفية تاريخية عرفت حركة احتجاجية شاملة للأوساط الطلابية و التلاميذ في مختلف مناطق بلاد تونس المستعمرة ، استمرت ما بين 20-01-1952 و30 أفريل من نفس السنة، ولا يزال الجدل يدور في أوساط مؤرخي الفترة المعاصرة من تاريخ تونس حول الزمن الحقيقي لنشأة تلك المنظمة الطلابية .فمنهم من يرى أن الاتحاد العام لطلبة تونس قد تأسس في السرية في فيفري 1952 بتونس بدعم من الاتحاد العام التونسي للشغل وخاصة من قبل أمينه العام فرحات حشاد. فقد انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد بحضور مجموعة من النواب قدموا من تونس قدر عددهم في حدود 15 بين تلاميذ وطلبة وقد ألقى الطالب " منصور معلى " الكاتب العام للمؤتمر التأسيسي وهو دستوري الانتماء خطابا يمكن وصفه بالسياسي في افتتاح أشغال المؤتمر أشار فيه إلى معاناة تونس بسبب ما تعيشه البلاد والشعب التونسي والشباب التونسي من أنهم ليسوا ببلدهم وأنهم تحت الرقابة الكاملة من قبل الأمن الفرنسي وهم ممنوعون من الكلمة والكتابة الحرة [2].

2- الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين:

تم تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين [3]. اثر المؤتمر المنعقد من 8 إلى 14 جويلية 1955، بقاعة لامتيالتي بباريس، يعدما انتهت اللجنة التحضرية من كافة الإجراءات اللازمة للمؤتمر، وحضره ممثلون عن عدة منظمات مغاربية وافريقية وفرنسي، وممثلون عن الطلبة الجزائريين بفرنسا وبتونس وبالمغرب [4].

وزكى هذا المؤتمر أحمد طالب الإبراهيمي رئيساً للمنظمة، وإثرها قدم خطاباً حدد فيه برنامج الاتحـاد [5] ، ووضح باسم المؤتمر الأهداف الأساسية للمنظمة والتي من بينها توحيد الطلبة ، وربط مصيرهم كمثقفين بمصير شعبهم المكافح، وإزالة جميع الفوارق التي أقامتها وكرستها التقاليد الاستعمارية ، التي كانت تعمل على جعل الشباب المثقف بعيداً عن مجتمعه ، ومنفصلاً عن أصوله[6].

ولم يكن الاتحاد لينفصل عن طموحات الشعب الجزائري الذي كان يقاسي من تنكيل، وتضييق الاستعمار، ولذلك نجد أن مؤسسيه جعلوا في اهتماماتهم مناهضة السياسة الاستعمارية ، وذلك تحت غطاء توفير الشروط الواقعية لبعث الثقافة الوطنية (العربية – الإسلامية) ، وهي بدورها تخفي الأمل في تحقيق التغيير الجذري للبنية الاستعمارية الموجودة بالجزائر[7] .وكان من أهم ما قام به المؤتمرون انتخاب أول لجنة تنفيذية للاتحاد [8]، والتي تكونت في البداية من خمسة أعضاء سيسهرون على تسيير شؤون المنظمة [9] .

وهكذا فإن إنشاء الاتحاد لم يكن فقط مبادرة للتعبير عن تمسك الطلبة الجزائريين بأصولهم الحضارية ومبادئهم الوطنية، بل كان أيضاً في جوهره عملاً سياسياً مرتبطاً بالمسار الذي اتخذه الشعب الجزائري ، تحت لواء جبهة التحرير الوطني ، ابتداء من الفاتح من نوفمبر 1954 .

ويؤكد هذا ما ذكره السيد أحمد طالب الإبراهيمي بأنه : " يمكن القول أن إنشاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين هو نتيجة حركة جدلية ، تعبر في آن واحد من جهة عن رغبة الطلبة الجزائريين في الالتحاق بصفوف الشعب والمساهمة في الثورة ، وتعبر من جهة ثانية عن رغبة جبهة التحرير في احتواء طاقة الطلبة ، وتوظيفها لصالح قضية التحرير المقدسة "[10].

و يضاف إلى هذا ما قاله السيد مسعود آيت شعلال في المؤتمر الرابع للاتحاد بأنه : " لن نستطيع فهم رسالة الاتحاد ما لم تضعه في إطاره الطبيعي ، الذي هو الكفاح التحريري الذي يخوضه شعبنا ... فضمن هذا الإطار ندرك أن المشاكل الطلابية الثقافية هي في حقيقة أمرها ثانوية ، ومرتبطة بظروف المعركة التحريرية التي يتوقف عليها مصير الجزائر بأجمعها، فإتحادنا قد كون ليكون وحدة نضالية في إطار ثورتنا "[11].

3– الاتحاد الوطني لطلبة المغرب:

عرف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب[12] الظهور على ساحة الحركة الطلابية في ديسمبر سنة 1956، وأنجزت هذه المبادرة في غمرة الحماس الوطني ضمن إطار

الحركة الوطنية ، وكان ميلاد الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وتطوره النضالي و الإيديولوجي، و ميلاد الاتحاد و.ط.م لم يكن مجرد رغبة ذاتية لدى الطلاب المغاربة الذين اجتمعوا في المؤتمر التأسيسي عام 1956،لبلورة الحركة الطلابية المغربية في إطار تنظيمي بل كان ضرورة موضوعية واستجابة قسرية يفرضها التطور الموضوعي لحركة الجماهير التواقة إلى التحرر السياسي والاجتماعي، وتأسيس الاتحاد للطلبة بالمغرب تأطيرا للحركة الطلابية المغربية [13].

وشكل تأسيس منظمة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بتاريخ 26 ديسمبر 1956 بالرباط، حيث انعقد المؤتمر التأسيسي لهذه النقابة الطلابية، لحظة تؤرخ لولادة عسيرة ووعي شقي، و كان أيضا تتويجا لمسار العديد من الجمعيات والتنظيمات الطلابية السابقة، مثل جمعية الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا (1927)والجمعية العامة لطلاب الرباط (1947) وجمعية الطلاب المغاربة (1948 (واتحاد الطلاب المغاربة بفرنسا (1950). ويمكن اعتبار الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بمثابة مدرسة نضالية رائدة وإطار للتكوين السياسي والفكري والمعرفي والتأطير الأكاديمي بالنسبة للعديد من الأفواج والكوادر والأطر في مختلف المجالات التي تخرجت من الجامعة المغربية وأصبحت تحتل مواقع هامة داخل المجتمع [14].

ثانيا . كونفدرالية شمال إفريقيا للطلبة تأسيسها ونشاطها:

تعود جذور العلاقة بين طلبة الأقطار الثلاث (تونس – الجزائر – المغرب). إلى « جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا» التي كانت تجمعهم في صفها، لكن مع بداية الخمسينيات خلال القرن العشرين أسس طلبة كل قطر منظمة وطنية محلية خاصة بهم.

ورغم ذلك فإن التقارب ظل قائما بينهم، وحلم الوحدة ملازما لنضال عدد كبير منهم، وبقيت الفكرة الوحدوية موجودة كشعور وإحساس ارتقى في أحيان كثيرة إلى ميدان التجسيد، وكان من أبرز مظاهره المساعدات، والمساندة التي حظي بها الطلبة الجزائريون في كل من تونس والمغرب.

وعندما نظم ا ع ط م ج أسبوعه التضامني مع الطلبة المعتقلين في سجون فرنسا، وذلك في الفترة الممتدة من 14 إلى 10 نوفمبر 1957، فإن الاتحاد العام للطلبة التونسيين، قد اتخذ موقفا حازما، وأعد برنامجا زاخرا بالأعمال[15].

وإثر حل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من طرف السلطات الفرنسية وذلك في 28 جانفي 1958، سجل الاتحاد العام للطلبة التونسيين موقفه تجاه هذه القضية، وأصدر بيانا أوضح فيه أن الطلبة التونسيين : « يلفتون نظر الحكومة الفرنسية إلى خطورة مثل هذا الصنيع الذي يشوه سمعة الجامعة الفرنسية، ويمس بتقاليد الديمقراطية. وأنهم يعتبرون هذا القرار لا يؤثر على وجود الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين»[16].

ولقد أصدر بهذه المناسبة بلاغا مشتركا مع الاتحاد الوطني للطلبة المغاربة، وكذا الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وأعلن ذلك إثر ندوة صحفية عقدت يوم الأربعاء 30 جانفي 1958، وتضمن هذا البلاغ تنديدا بتصرفات القوات الفرنسية اتجاه الجمعيات الثلاث، وكذا بالممارسات التي تمس الحقوق النقابية للطلبة، وبأمن طلبة الشمال الإفريقي في فرنسا.[17]

و حينها صرح ممثل الطلبة التونسيين السيد : محمد العلاوي بأنهم : « ...مقتنعون بأن الأهداف المقصودة من حل ا ع ط م ج هي إفشال تلك الإجراءات التي كانت نتيجتها يوم 01 جانفي 1958 بإنشاء الاتحاد الشمال إفريقي للطلبة الذي تم بتونس ، و يؤكدون بأن هذا القرار لن يمس أبدا بوحدة حركة الشمال الإفريقي»[18]

أما بالنسبة للاتحاد الوطني للطلبة المغرب فإن علاقاته مع ا ع ط م ج كانت متميزة، إذ أنه ، كلما وقعت أحداث على صعيد كل دولة – وما يمس الطلبة بالخصوص – سواء كان الموقف : تضامنا ومساندة، أو احتجاجا وتنديدا، بما تستعمله السلطة الفرنسية من أساليب وسياسة قمعية.

ومن جملة المواقف الشاهدة على العلاقة الحسنة بين الطرفين تلك الحملة التضامنية التي نظمت بينهما، إثر قرار حل ا ع ط م ج. ولقد تحدث

تقرير لفرع ا ع ط م ج بالرباط عن هذا متعرضا للنشاط المقام كالتالي : « ... قمنا رفقة إخواننا الطلبة المغاربة، وبتصرف تلقائي بحملات تضامن فعال وأخوي، إزاء قرار حل اتحادنا ونظمنا داخل الحرم الجامعي يوما للإضراب، وتبعته احتجاجات كبيرة، أمام سفارة فرنسا بالرباط »[19].

وبعد هذه الحركة الاحتجاجية تم تنظيم أسبوع تضامني مع الطلبة الجزائريين، ومن جملة النشاطات التي تضمنها هذا الأسبوع ما جاء في التقرير المذكور بأنه « ... شرع بالتنسيق مع الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبقرار من لجنته التنفيذية، في تنظيم تجمع كبير بجامعة العلوم بالرباط، وحضره عدد كبير من الشخصيات الجزائرية والمغربية)).[20]

ولقد رافق هذا التحرك الطلابي، تحرك الحكومة المغربية حيث قام وزير الخارجية المغربي باتصالات لدى الحكومة الفرنسية عندما حلت ا ع ط م ج، حيث أبلغها احتجاج السلطات المغربية على الأعمال التعسفية ضد منظمة طلابية أحرزت على مساعدة وعطف جميع الاتحادات الوطنية، والمنظمات الدولية للطلبة[21].

ومن الجدير بالذكر أن التنسيق بين الاتحادات الطلابية الثلاث لكل من : تونس، الجزائر، المغرب، أدى إلى نتيجة عملية، تمثلت في إنشاء " كونفدرالية شمال إفريقيا للطلبة" وجاء تأسيس هذه الكونفدرالية، بعد اجتماعات تنسيقية حضرها ممثلو اللجان التنفيذية لكل اتحاد. وتم الإعلان عن تأسيسها رسميا بعد المؤتمر المنعقد بتونس من 31 ديسمبر 1957 إلى 2 جانفي 1958. وحضره عن اللجنة التنفيذية للاتحاد ع ط م ج كل من : آيت شعلال – جلول بغلي – الطاهر حمدي [22].

ولقد جاء في قانونها الأساسي ما يلي : ((...إن وحدة الشمال الإفريقي حقيقة طبيعية و تاريخية ، ورغم الحواجز الاصطناعية المتميزة حاليا، فإن شعبنا لم يكن إلا واحدا في حضارته، وثقافته، وينتظره نفس المصير، وتحدونا نفس الآمال.))[23]

وقامت هذه المنظمة الجديدة بنشاط معتبر، إذ أنها بمجرد نشأتها تعرضت لامتحان عسير، وهو حل- ا .ع .ط .م .ج وفق القرار الذي اتخذته السلطات الفرنسية بتاريخ 28 جانفي 1958م، فكان ردها سريعا، تجسد في البلاغ التي تضمن ما يلي : « إن حل اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وإيقاف مسيريه، في الوقت الذي يعلن فيه تأسيس الجامعة الشمال إفريقية للطلبة، يرمي إلى خلق صعوبات في وجه الاتحاد الشمال إفريقي، ويعتبر مساسا بكرامة الطلبة المغاربة، والتونسيين. أجل إن هذا التعسف ليس إلا انفعالا وردا على بروز الجامعة الطالبية الشمال إفريقية إلى الوجود ...»[24].

ونظمت احتجاجا على القرار المذكور مظاهرات، وذلك يوم الثلاثاء 4 فيفري 1958، وذلك بالحي اللاتيني، انطلقت من ساحة السربون (فرنسا). وحضرها أكثر من ألفي طالب وطالبة بمشاركة 16 منظمة طلابية. وفي يوم الجمعة 7 فيفري، عقدت اجتماعا بقاعة الجمعيات العلمية بباريس، حضره ما يزيد عن 700 شخص، من طلبة وأساتذة، للاحتجاج على قرار الحكومة الفرنسية، والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين[25].

إضافة إلى هذا فإنها طلبت من الكتابة العامة للجنة التنسيق بين الاتحادات الوطنية الغربية للطلبة، عقد ندوة طارئة لمعالجة قضية حل ا ع ط م ج. والمشاكل الناتجة عنه، وقد تم ذلك بعقد ندوة بلندن يومي 17 و 18 أفريل 1958. و حضرها ممثلين عن 23 اتحادا وطنيا قدموا من أوربا وأمريكا، وأعربت القرارات المتخذة بكل وضوح وقوة، عن عطف العالم الطلابي ومؤازرته الفعالة للطلبة الجزائريين، ولقضية الشعب الجزائري، كما عبرت عن استنكارها لوسائل العنف التي تستعملها الحكومة الفرنسية لقمع الطلبة الجزائريين.[26]

وتوصل عمل الاتحادات:المغربي والتونسي والجزائري للطلبة منسقا على مستوى الهيئة المذكورة، إذ عقدت أيام 19 حتى 22 أوت 1958 اجتماعا بتونس، بهدف تثبيت دعائم الوحدة الطلابية المغربية، وتدارس وضعية الطلبة

الجزائريين بالمغرب وخصوصا بالقرويين، والنظر في ضرورة مساعدتهم بمنح إلى عدد من البلدان الأجنبية.[27]

وباستمرار هذا التكتل الطلابي، أخذت الأواصر الوحدوية تتدعم بين الطلبة أكثر فأكثر، وأخذت تتسع إلى خارج دائرة الفئة الطلابية، وهذا شئ طبيعي عرفته الأقطار الثلاث حتى قبل هذا التاريخ، وأصبح المعمول به أنه كلما حلت مشكلة بأي قطر من الأقطار إلا وسجل التضامن بين الطلبة، والمنظمات الأخرى للبلدين الآخرين تترجم من خلاله عملية المساندة المادية، والمعنوية، والتنديد بما يتعرض له، والأمثلة عن هذا متعددة وكثيرة.

فعندما أخذت فرنسا تعد للقيام بتجاربها للأسلحة الكيماوية – القنبلة الذرية – في الصحراء الجزائرية، تحركت كونفدرالية الطلبة، وعقدت اجتماعا لها بالرباط (المغرب) وذلك في جويلية 1959، وبعد نقاش طويل، تبنى المجتمعون قرارات تضمنت المواضيع الآتية : « – اعتبار التجارب النووية، ذات مخاطر مرعبة للإنسانية، وان العناد الإجرامي للحكومة الفرنسية وضع حيز التنفيذ هذه التجارب، وتوعدت بإجرائها في كولمب – بشار رغم المعارضة، والاحتجاجات الرسمية للحكومات الإفريقية .... ولهذا فإن مجلس الكونفدرالية يحذر الرأي العام العالمي ويخبره، بخطر مشروع الحكومة الفرنسية على أمن الشعب الإفريقي، ويوجه نداء عاجلا لكل الحكومات الإفريقية من أجل القيام بعمل مشترك لمنع فرنسا من ارتكاب هذه الجريمة. وتطلب من كل المنظمات الوطنية، والدولية للطلبة والشباب. بعمل كل ما تستطيع لإفشال عزم فرنسا على القيام بعملها ...)).[28]

ولم تتوقف نشاطات هذه الكونفدرالية عند هذا بل نجد أنها وبمناسبة إعلان الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عن يوم الخامس من جويلية 1961 يوما وطنيا ضد التقسيم، نظمت باسم طلبة المغرب العربي يوما عالميا للتضامن مع الشعب الجزائري عبر من خلاله الطلبة عن مساندتهم، ومساعدتهم للجزائريين للصمود في وجه السياسة الفرنسية القاسية.[29]

هكذا كانت المنظمات الطلابية الثلاث : التونسية والجزائرية والمغربية. تعبر عن مواقفها التي تظهر التعاون والمساندة في أوقات المحن والشدائد، التي عاشها كل قطر، وذاق ويلاتها كل شعب، مما يوحي بأن الفكر الوحدوي ظل متجذرا، وبقي مطمحا كلما سنحت الفرصة إلا وبرز إلى الواقع، على عدة صور، ومستويات، وكذلك يظهر لنا مما سبق ذكره، أن العلاقة القائمة بين هذه المنظمات الثلاث، كانت علاقة ود، ارتقت إلى درجة التضحية بأغلى ما يملك الإنسان في سبيل دعم ومساندة أخاه من القطر الآخر. وهنا نشير إلى أن هذه المواقف لم تكن منحصرة في فئة الطلبة فقط، بل كانت منتشرة في أغلب الفئات الاجتماعية لشعوب الأقطار الثلاث، وأبرز مظهر لهذا هو أن أصبحت كل من المغرب وتونس بعد استقلالها تمثلان قاعدتين خلفيتين هامتين، لدعم الثورة الجزائرية بالرجال والسلاح.

ثالثا. كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة والقضية الجزائرية :

استطاع الاتحادات ربط علاقات ودية، مع مختلف المنظمات الطلابية، الوطنية والعالمية، على اختلاف توجهاتها الإيديولوجية ومشاربها الثقافية، وانتماءاتها الفكرية، وحتى السياسية. خاصة في ظل الصراع الذي عرفه العالم عقب الحرب الإمبريالية الثانية، والذي عرف بالحرب الباردة.

وعندما عقدت الندوة العالمية للطلبة مؤتمرا لها بنيجيريا من 11 إلى 22 سبتمبر 1957، شاركت الكونفرالية – التي كانت قيد التأسيس – فيها، وضمنت للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الحضور ضمن وفدها، فاستغل الاتحاد مشاركته في إطار الكونفدرالية ليعرف الحاضرين بوضعية الطلبة الجزائريين وحالة التعليم . وعلى ضوء ما قدمه ، أصدر المؤتمر ملاحظات وتوصيات شملت عدة مجالات [30].

ففي المجال الطلابي جاء فيها : ((إن وضعية الطلبة الجزائريين لا تسمح لهم بأن يتلقوا تعليمهم كما يتلقاه غيرهم من الطلبة في العالم ، وإن هذه الوضعية لا يمكن أن تتغير مادامت الحرب قائمة ، ويلاحظ أنه منذ عامين لم ينفك الطلبة

الجزائريون يستهدفون للسجن والتعذيب والطرد والنفي والقتل ....ولهذا فالمؤتمر يدعوا الحكومة الفرنسية لتغيير سيرتها مع الطلبة الجزائريين ، ويوصي جميع الاتحادات الطلابية في العالم اجمع بتنظيم أسبوع للتضامن مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وحدد ذلك من 4إلى 11 نوفمبر 1957)). [31]

أما في المجال السياسي فإن المؤتمر :((يأمل أن يتوصل الطرفان الجزائري والفرنسي إلى حل عادل وسريع للمشكل الجزائري على أساس الاعتراف بالاستقلال الوطني الذي هو الشرط الأول لإقامة تعليم حر وديمقراطي في الجزائر)) [32] .

هذا ونجد أنه عندما أقدمت الحكومة الفرنسية على حل الاتحاد سجلت العديد من المنظمات موقفها ، وكان لذلك صدى كبيرا ترجم التضامن والتأييد الواسع ، إذ انه وبطلب من كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة عقدت الكتابة العامة للتنسيق بين الاتحادات الطلابية الوطنية ندوة طارئة يومي 17و18 أبريل 1958 بلندن خرجت بلائحة اشتملت على عدة ملاحظات منها أن : ((1- زيادة الحالة التي عليها الطلبة الجزائريين سوءا خصوصا بعد انعقاد المؤتمر العالمي السابع للطلبة.

الطلبة الجزائريون معرضون لقمع يزداد عنفا وشدة يوما بعد يوم مما يجعلهم محرومين من أبسط الحريات والحقوق ، ويضعهم في حالة دائمة من عدم الاستقرار و اللأمن ، وقد برهن على ذلك إيقاف الطلبة الأخير .

- إن الحالة قد بلغت من الرداءة إلى درجة أن حرم الطلبة الجزائريون من اتحادهم الوطني الوحيد الذي يمثلهم ...)) [33].

وبعد توضيح المأساة التي يعاني من ويلاتها الطلبة الجزائريين اتخذت هذه الندوة موقفها الذي تمثل في أنها :((1- تستنكر بكل شدة الأعمال العدوانية التي يذهب ضحيتها الطلبة بالخصوص ،كما تستنكر بكل صرامة حل الاتحاد العام للطلبة الجزائريين في فرنسا ، والذي هو منظمة طالبية ديمقراطية ممثلة.

2- لا تعير أية قيمة لقرار حل الاتحاد بل هذا الخير المنظمة الوحيدة التي تمثل الطلبة الجزائريين.

3- تعبر عن عطفها العميق على الطلبة الجزائريين ضحايا القمع ، وتعبر لهم مرة أخرى عن تضامنها الكامل .

- تؤكد الاعتراف بحق طلبة المناطق غير المستقلة في التطور التقدمي داخل المجتمع كأشخاص أحرار مستقلين.تؤكد سوء حالة الطلبة الجزائريين ، هي أثر مباشر للحرب الدائرة في الجزائر .

- تعبر عن يقينها بأن جعل حد للحرب في الجزائر بوسائل سلمية ، [34] وبالمفاوضة والاستقلال هي الوسيلة الوحيدة الكفيلة بحل جميع المشاكل التي تعترض سبيل الطلبة الجزائريين ، والمجموعة الطالبية.تطلب الندوة أخيرا من لجنة حقوق الإنسان ، ومن هيئة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن أن يعيروا اهتمامهم لهذه اللائحة))[35].

هكذا بدت هذه اللائحة واضحة في مطلبها وتضامنها الصريح مع الطلبة الجزائريين خاصة بعد حل الاتحاد ، وتعدى هذا الأمر ليشمل الشعب الجزائري وقضيته ، اعتبارا من أن حالة الطلبة ليست بمعزل عن الظرف العام الذي تشهده الجزائر، مما يوحي باقتناع هذه المنظمة بطروحات الاتحاد من جهة ولإيمانها بحقوق الإنسان في العالم من جهة أخرى ، ومما لا ريب فيه أن الحضور المستمر للاتحاد في مختلف المحافل الدولية الطلابية كان له الأثر البالغ في كل ما ذكر.

ونشير إلى أن الندوة السابقة الذكر أرفقت ملاحظاتها ومطالبها التي تضمنتها اللائحة بجزء عملي تمثل في ما يلي : ((ترفع نداءها إلى جميع الاتحادات الوطنية كي يخصصوا منحا مالية تساعد الطلبة الجزائريين على مواصلة تعليمهم كما تطلب من جميع الاتحادات أن يؤسسوا صندوقا للإسعاف لفائدة الطلبة الذين لجأوا إلى تونس والمغرب وتطلب كذلك منح أدوات علمية للطلبة الموقوفين واستدعاء ممثلين عن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ليقدموا معلومات عن مشاكل الطالب الجزائري ، وتنادي الندوة أخيرا جميع الاتحادات الطلابية

لإبلاغ قرارا تها إلى السلطة الفرنسية وإلى حكوماتهم المحلية ، وإلى الصحافة وفي النهاية فإن لجنة تنسيق بين الاتحادات الوطنية الغربية أنيطت بها مهمة السهر على تنفيذ هذه القرارات ونشر أعمال الندوة بواسطة منشورات مختلفة.)). [36]

وبعد هذه الندوة شاركت كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة في المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي للطلبة الذي جرت أشغاله بالعاصمة الصينية – بكين – وذلك خلال شهر سبتمبر 1958. وحينها تم عرض تقرير من طرفها ، والذي أعد بعد دراسة عامة للوضعية السائدة في الجزائر وانعكاساتها على المشاكل الطلابية.

ولقد تضمن هذا التقرير نقطتين هامتين كالتالي : ((1- أن الحرب الاستعمارية التي تقودها فرنسا قد عرفت تطورا خطيرا بعدا لمؤتمر الرابع ببراغ (سبتمبر 1956) .مما أدى إلى خسائر مادية وبشرية فأصبح واضحا تهديدها للسلام العالمي ، ويظهر هذا من خلال استمرار التزايد التدريجي للقوات الفرنسية وتجهيزاتها بالجزائر، حتى أصبحت اليوم 700000رجل مع سقوط العديد من الضحايا في السنتين الأخيرتين، واستعمال التعذيب وتعدد المناطق المحرمة أو مناطق الموت. أنه خلال هذين السنتين الحكومات الفرنسية المتعاقبة[37] .
رفضت كل حل تفاوضي للمشكلة الجزائرية رغم أن الأمم المتحدة في دورتها الحادية عشرة والثانية عشرة [38] صوت على ذلك ورغم انقلاب 13ماي1958 ، فإن الحكومة الفرنسية ظلت بعيدة كليا عن فكرة التفاوض.)). [39]

ونظرا لهذه التطورات التي عرفتها الجزائر طيلة السنتين 1956 حتى 1958 فإن هذا المؤتمر وبناء على الملاحظات والتقرير المقدم أكد أنه : ((1- يندد بالموقف اللامتغير للحكومة الفرنسية المعادية لكل حل تفاوضي.
2- يعتبر أن المساندة الدبلوماسية والمادية لفرنسا من طرف حلفائها في الحلف الأطلسي .ترخيصا باستمرار الحرب الاستعمارية في الجزائر.

3- المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي للطلبة ، يندد بتواطؤ الدول الأعضاء في الحلف الأطلسي مع الاستعمار الفرنسي.

4- أن الحرب في الجزائر أدت إلى نتائج جد خطيرة على الدراسة ، وعلى مستقبل الطلبة الجزائريين، الذين دفعوا ضريبة غالية للقمع المسلط على جميع الشعب الجزائري ن مما جعله يساند الثورة من أجل الاستقلال.

5- يؤكد رسميا دعمه لكل الطلبة والشعب الجزائري في ثورته من أجل الاستقلال ، ويذكر بأنه يعتقد أن فتح المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني على أساس قاعدة تقرير المصير هو وحده الكفيل بوضع نهاية للصراع.

6- يطلب بإلحاح من كل المنظمات الوطنية العضوة في الاتحاد العالمي للطلبة تكثيف التأييد للطلبة والشعب الجزائري من طرف حكومات بلدانهم من أجل التأييد السياسي والدبلوماسي لجبهة التحرير الوطني ، خاصة في الدورة القادمة للأمم المتحدة)). [40]

ورغم هذه النداءات التي وجهتها المنظمات الطلابية والشبانية المنددة بالقمع فإن السلطات الفرنسية لم توقف هذه السياسة العنجهية بل زادت من وتيرتها باعتقال الطلبة ووضعهم داخل أسوار السجون سواء بفرنسا أو بالجزائر . إزاء هذا الوضع لم يقف ا.ع.ط.م.ج.موقف المتفرج الساكت بل قام بالعديد من المساعي للضغط على فرنسا وإثنائها عن هذه الأساليب الوحشية.

حيث أنه رفع إلى كل الاتحادات الطلابية الوطنية والعالمية قائمة للطلبة المسجونين ضمت ثلاثون طالبا وعلى رأسها الاتحاد العالمي للطلبة ، مما أدى بهذا الأخير إلى المصادقة في اجتماع اللجنة التنفيذية له من 20 إلى 26 جانفي 1959على لائحة نددت بالوسائل القمعية التي تقوم بها فرنسا. واستنكرت اعتقال الطلبة الجزائريين وجهود فرنسا لإشراك دول أخرى في الحرب الجزائرية ، واعتبرت أن هذا يمثل تهديدا خطيرا للسلام العالمي ن وطالبت بوجوب التفاوض مع الحكومة الجزائرية في بلد محايد، وقدمت اللجنة حينها شطرها للمنظمات الطلابية في جميع أنحاء العالم على إعاناتها المختلفة للطلاب الجزائريين. [41].

وحين عقدت الندوة العالمية للطلبة مؤتمرها العالمي الثامن للطلاب من 15 إلى25 فيفري 1959بعاصمة البيرو –ليما- تم التنسيق في إطار كونفدرالية طلبة المغرب العربي، وتم دراسة القضية الجزائرية وحالة الطلبة الجزائريين، والمشاكل التي يعانون منها وذلك من خلال التقرير من طرف لجنة البحث والإعلام .وخرج هذا المؤتمر بلائحة تضمنت العديد من النقاط: كمشكلة التربية والتعليم في الجزائر. وإجراءات الحكومة الفرنسية ضد الطلبة واستعمالها أساليب وحشية ضدهم. و قضية حل الاتحاد وما انجر عنها من انعدام الأمن مما أجبر الطلبة على مغادرة فرنسا واللجوء إلى الخارج. ووجه المؤتمر رسالة واضحة إلى السلطة الفرنسية مما نصت عليه : ((استنكار القمع الذي تسلطه الحكومة الفرنسية منذ أكثر من أربع سنوات على الطلبة الجزائريين، ويشهر بالاعتداءات المتكررة على أبسط وأقدس الحقوق الإنسانية –خاصة بأساليب التعذيب- ويطلب بكل الحاج باحترام القوانين الدولية ويفند سياسة الإدماج لأنها مناقضة لوجود ثقافة وطنية مطابقة لماضي الجزائر وتقاليدها.)) [42]

وبعد هذا الاستنكار المسجل ضمن هذه الرسالة نجد أن هذا المؤتمر اتخذ مواقف جريئة جدا تجاه القضية الجزائرية، وبين بأن حل مشاكل الطلبة لا يتم إلا بإنهاء المشكلة الجزائرية بصورة عادلة ومرضية لكل الأطراف ، وصرح المشرفون عن المؤتمر عبر لائحة خاصة كما يلي: ((...يعترف المؤتمر بشرعية الكفاح الذي يقوم به الطلبة الجزائريين من أجل الاستقلال الوطني، الذي هو شرط أساسي لكل تربية كاملة ، كما يعرب عن تضامنه الكامل مع كفاح الطالب الجزائري ... ويعبر عن ابتهاجه للجهود التي بذلها المكتب العالمي للطلاب والاتحادات الوطنية في سبيل تأييد ومساعدة الاتحاد الجزائري أثناء حملة التضامن مع الطلاب الجزائريين، كما يحث المكتب المذكور الاتحادات الوطنية على مضاعفة تلك الجهود ، والمؤتمر يؤكد اقتناعه العميق بأن التسوية النهائية ، والناجحة لمشاكل المجموعة الطالبية الجزائرية تتوقف على إنهاء الحرب واستقلال الجزائر ، عن طريق التفاوض بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية)). [43]

وهكذا فإن التنسيق بين الاتحادات الطلابية لتونس والجزائر والمغرب في إطار الكونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة، أعطت دفعا كبيرا للقضية الجزائرية خاصة على الصعيد الدبلوماسي ، وكملت العمل الذي باشرنه الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ووسعت التعريف بالقضية الجزائرية للدوائر التي لم تستطع الحكومة الوصول إليها، وشكلت رافدا آخر للضغط على الحكومة الفرنسية والحكومات الغربية داخل الدوائر الطلابية و الشبانية.

الخاتمة:

هكذا نلاحظ أن الاتحادات الثلاثة لم تألل جهدا في سبيل إظهار القضية الجزائرية على المستوى الدولي، وذلك من خلال التنسيق في المواقف المختلفة، والذي توج العمل التضامني بتأسيس كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة، التي كانت عبارة عن إطار جامع للاتحادات الثلاث شبيه بجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا .

ولقد اتبعت الكونفدرالية في نشاطها أساليب ووسائل متنوعة كالنداءات ولجان المساندة والحضور إلى مختلف النشاطات الطلابية و الشبانية التي تعقد في أنحاء العالم واستطاعت الدفع بالقضايا الشمال افريقية عموما والقضية الجزائرية خصوصا، والنشاط بصورة فاعلة على الصعيد الدبلوماسي خدمة للقضية الجزائرية خاصة وأن تونس والمغرب نالتا استقلالها منذ سنة 1956، وشهدت الجزائر تطورات هامة إثر اشتداد الثورة التحريرية، وظهور بوادر الدعوة للحلول السياسية عن طريق تقرير المصير والمفاوضات بين الطرف الجزائري والفرنسي .

و بفضل هذا ساهمت كونفدرالية الطلبة بحجم معتبر في كسب المسألة الجزائرية العديد من المؤيدين والأنصار ، الذين كان لهم دور في الضغط على فرنسا مما دعم الانتصار الذي حققه جيش التحرير الوطني في الداخل، وأدى إلى رضوخ فرنسا إلى مطالب الشعب الجزائري والدخول في مرحلة المفاوضات بمراحلها المختلفة، والتي كانت نتيجتها تحقيق طموح الشعب الجزائري وأمله المتمثل في الاستقلال وإعلانه في 5 جويلية1962.

(1)- سنرمز للاتحاد العام لطلبة تونس بـ: ا ع ط ت.

(2)- سالم لبيض، ((الحركة الطلابية التونسية، النشأة والتأسيس، وقضايا الهوية))، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، موقع:

www.opentech.me/~laes/.../Salem-Labiad-**Student**s-**Mouvement**--.**pdf** ،

تاريخ الاطلاع :2016/04/13.

وكذلك: Mokhtar Ayachi, **L'Union Générale Des Etudiants De Tunisie au cours des années** 50/60,ISHMN, Tunis,2003, p50.

(3)- سنرمز للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بـ: ا ع ط م ج.

(4)- محمد السعيد عقيب، **الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ودوره في الثورة 1955-1962**، ط1، الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص77.

(5)-مما ورد في هذا الخطاب : " ... أن الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، يصارع أولاً للتغلب على الصعوبات المادية التي تواجه طلبتنا في مختلف المجالات : السكن ، المنح ، وغيرها ، وكذلك الدفاع عن الشخصية الجزائرية بجعل اللغة العربية لغة رسمية بوطننا ، وتنظيم التعليم وحرية الثقافة الإسلامية ، و المشاركة في بناء بلادنا " أنظر :

-UNEF, **Le syndicalisme étudiant et le problème algérien**, France : Lille, 1960, P/03

(6)- يحي بوعزيز ، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط2، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996، ج2، ص372.

(7)- André Mandouze, **la Révolution Algérienne par textes**, France, Édition d'aujourd'hui, paris, p141.

(8)-انبثق عن المؤتمر لجنة مديرة مكونة من 25 عضوا ، انتخبوا لجنة تنفيذية من خمسة أعضاء ، ونشير إلى أن هذا العدد للأعضاء لم يكن ثابتاً ، بل نجد أن اللجنة المديرة عددها يتراوح من 17 إلى 25 وأحياناً حتى 30 عضوا ، واللجنة التنفيذية بين 5 و7 أعضاء ،الأولى عبارة عن

هيئة إدارية تقرر السياسة العامة ، وتجمع ممثلي فروع الإتحاد ، أما الثانية فتنفذ قرارات الأولى ، وتسيير هياكل الإتحاد ، ويعد المؤتمر أعلى الهيكل التنظيمي للإتحاد .

- أنظر: مركز الأرشيف الوطني بالجزائر , CAN, Rapport du G.P.R.A Boite :21 Dossier 06.

([9])-تشكلت هذه اللجنة من السادة : أحمد طالب الإبراهيمي (رئيساً) ، العياشي ياكر (نائباً) ، ميلود بلهوان (أمين عام) ، عبد الرحمان شريط (مساعداً له) ، محمد منصور (أمين مال) ، حسب ما ذكره لي السيد عبد الرحمان شريط في لقاء شخصي معه ، ببيته (بن عكنون بالجزائر) ، يوم الأربعاء 1999/08/04 مساءاً.وحسب مراسلة شخصية مع الدكتور : مسعود آيت شعلال، بتاريخ 1999/08/20.

([10])-الإبراهيمي ، المرجع السابق ، ص/118. وكذلك : محمد السعيد عقيب، المرجع السابق، ص ص 79-80.

([11])-مركز الأرشيف الوطني ، رصيد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، " التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع للإتحاد " ، من 26 جويلية إلى 01 أوت 1960 ببئر الباي ، العلبة/225 ، الملف/03 .

([12])- سنرمز للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بـ: ا و ط م.

([13])-الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، اللجنة التنفيذية المؤتمر الثالث عشر، الدار البيضاء 9-11 غشت 1969، المغرب، ص3.

(14)-محمد الزاهد، ((الحركة الطلابية المغربية: الولادة العسيرة والوعي الشقيّ))، **جريدة هسبريس الالكترونية المغربية**، الأربعاء 03 أبريل 2013 .

([15])- **المجاهد**، العدد 12، 1957/11/15، ص 09.

([16])- **المجاهد**، العدد 17، 1958/02/01، ص 10.

([17])-**المجاهد**، العدد 18، 1958/02/25، ص 10.

([18])-**Le Monde**, N° 4051, 31/01/1958, P 03

([19])-مركز الأرشيف الوطني C.A.N "Rapport Moral" Section de Rabat. Boite / 300. Dossier / III.

([20])- Ibidem

([21])- المجاهد ، العدد/18 . ص /10

([22])- محمد السعيد عقيب، المرجع السابق، ص214. وكذلك: Mokhtar Ayachi, op.cit, p82.

(23)- التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع لـ ا ع ط م ج.

(24)- المجاهد، العدد / 17، ص / 10.

(25)- المجاهد، العدد / 18. ص /10.

(26)- المجاهد، العدد / 23. 1958/05/07، ص / 13.

(27)- التقرير الأدبي لفرع الرباط. وحضر هذا الاجتماع ممثلا عن فرع ا ع ط م ج بالرباط وهو الطالب : رحموني.

(28)- C.A.N « Rapport des activités de l'UGEMA » 1959. 27 septembre 1959, Boite / 300, Dossier / III.

(29)- المجاهد، العدد 100، 1961/07/17، ص 09.

(30)-المجاهد ، العدد 12 ، 15 نوفمبر 1957 ، ص/ 9.

(31)-نفس المصدر .

(32)-نفس المصدر .

(33)- نفس المصدر .

(34)-المجاهد، العدد23، 1958/05/07، ص13.

(35)-نفس المصدر .

(36)-نفس المصدر.

(37)-هي حكومات : منديس فرانس . إدغار فور- قي موللي - بورجيس مونري - فيليكس غيار ثم غي موللي مرة أخرى.

(38)-الدورة11 لهيئة الأمم المتحدة (جوان1956) وال12(نوفمبر1957).

(39)-UGEMA, **les étudiants Algériens en lutte**,. 88 -89- Tunis.1961. pp

(40)- Ibidem

(41)-المجاهد ، العدد/ 35، ص02.

(42)-**المجاهد** ، العدد /38 ، 1959/03/17، ص ص/02-10. ، ص/11

(43)-نفس المصدر.

الحدث المناخي والتحول السياسي: هل من علاقة؟

لوبنى زبير
دكتوراه تخصص تاريخ وحضارة
جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

كريم العرجاوي
دكتوراه تخصص تاريخ وحضارة
جامعة القاضي عياض،مراكش، المغرب

ملخص :

هذه المحاولة هي رؤية تاريخية، نوضح من خلالها دور التطرفات المناخية في فهم وتفسير الأحداث السياسية لمغرب القرنين 16 و 17 م، وهي مقارنة قائمة على الربط بين التحولات السياسية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترة، و علاقتها بالأحداث المناخية، وذلك وفق متلازمة عامة تراعي أهمية المعطى الطبيعي في خلق نوع من اللاتوازن بين القوى السياسية المتصارعة على السلطة:

حدث مناخي ← انهيار اقتصادي ← تدهور اجتماعي

خلل سياسي

لقد شكل العامل المناخي، أحد أهم الأسباب المساهمة في قيام دول وانهيار أخرى، فلعل ما شهده العقد الثاني من القرن 16م ومطلع القرن 17م من تطورات سياسية له ارتباط . ولو في حدود معينة . بالأزمات المناخية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترات، مما يجعلنا نفترض وجود علاقة بين أطوار الدولة السعدية والأزمات الطبيعية التي عرفه عهدهم خاصة التطرفات المناخية، وذلك بوضعهما في سياق واحد، وفق منظور كرونولوجي، مما يعطينا خطاطة أولية توضح أن تاريخ السعديين مر بثلاث دورات: أزمة البدايات تزامنت مع مرحلة التأسيس، تلاها انتعاش وصلت فيه عظمة الدولة إلى أوجها مع أحمد المنصور فأزمة طويلة انتهت على إثرها الدولة، ممهدة بذلك الطريق لسلطة جديدة هي سلطة الأسرة العلوية، تصادف قيامها هي الأخرى بالمأساة التي عصفت بمغرب ما بعد منتصف القرن 17م.

Résumée :

Ce regard historique est une tentative à travers laquelle nous essayerons de démontrer le rôle des changements climatiques dans la compréhension et l'explication des événements politiques qui se sont déroulés au Maroc du 16ème et 17ème siècles. Il s'agit en effet , d'une étude comparative basée sur l'interaction entre les événements politiques qu'avait connus le Maroc à l'époque et les changements climatiques. C'est une analyse qui tient compte de l'importance du facteur naturel dans la création d'un déséquilibre entre les différents protagonistes et rivaux politiques de l'époque.

Le facteur climatique était sans doute déterminant dans la naissance d'une nouvelle dynastie régnante et la disparition d'une autre. Nous considérons que c'est une règle qui s'applique parfaitement au cas de la naissance et l'évolution de la dynastie Saàdienne , entre la deuxième moitié du 16ème et le début du 17ème siècle. Il s'agit en effet d'un schéma évolutif qui a marqué l'histoire des saadiens à travers trois phases :

1- Les difficultés du début, qui coïncident avec la naissance de l'Etat.

2- L'épanouissement de l'Etat, qui a connu son apogée avec Le Roi Ahmed Al Mansor.

3- Une longue crise qui a entrainée le déclin de cette dynastie.

La nouvelle dynastie Alaouites qui a succédé les Saadiens a elle-même commencé son règne par une crise climatique qui a secoué le Maroc de la deuxième moitié du 17ème siècle.

تقدم دراسة الأزمات المناخية، مشروعا جديدا لفهم الأسباب العميقة لانهيار دول وقيام أخرى، فرغم صعوبة قبول التفسير"**الطبيعي**"، الذي يحتاج إلى تدعيمه بتفسيرات أخرى ديمغرافية واقتصادية، فإن التساؤل حول هامش تأثير الأزمات المناخية في التحولات السياسية يظل مشروعا، خاصة وأن المتمعن في التاريخ السياسي للمغرب يلاحظ العلاقة المتينة بين الأحداثالسياسية والأحداث المناخية.

ولعل هذا ما انتبه له عدد من المهتمين[1]، حيث شكل المناخ وتطرفاته، وما يرافقه من أزمات صحية، عامل من العوامل المؤثرة على السلطة والتحول السياسي[2].

يشكل مغرب القرنين 16مو17م فترة زمنية متميزة، يمكن التعويل عليها لملامسة جوانب عديدة من هذه العلاقة، خاصة وأنها فترةالتحولات والتوترات السياسية بامتياز، فلعل ما شهده العقد الثاني من القرن 16م، ومطلع القرن 17م من تطورات سياسية له ارتباط -ولو في حدود معينة- بالأزمات المناخية التي عرفها المغرب خلال تلك الفترات، مما يجعلنا نفترض وجود علاقة بين تاريخ الدولة السعدية وأزماتها الطبيعية، وذلك بوضعهما في سياق واحد، وفق منظور

كرونولوجي، مما يعطينا خطاطة أولية توضح أن تاريخ السعديين مر بثلاث دورات: أزمة البدايات تزامنت مع مرحلة التأسيس، تلاها انتعاش وصلت فيه عظمة الدولة إلى أوجها مع أحمد المنصور، فأزمة طويلة انتهت على إثرها الدولة، ممهدة بذلك الطريق لسلطة جديدة، تصادفت هي الأخرى والمأساة التي عصفت بمغرب ما بعد منتصف القرن 17م.

يمكن رصد هذه العلاقة انطلاقا مما يوضحه الجدول التالي:

الجدول رقم1: الحدث المناخي وعلاقته بالتحول السياسي بمغرب القرنين 16م و17م

السنة	الأحداث المناخية	الأحداث السياسية	انعكاسات الأزمة
1520 - 1524 1603 - 1608 1661 - 1662	كارثة مطلع العقد الثاني من القرن 16م. ↓ جفاف مطلع القرن 17م. ↓ مجاعة العقد السادس من القرن 17م	تأسيس الحكم السعدي ↓ حروب أهلية، بداية انهيار السلطة السعدية. ظهور حركة ابن أبي محلي (المهدوية) ↓ توطيد الحكم العلوي.	**دوراتجفاف متلاحقة نتج عنهاحدوث المجاعات وانتشار الأوبئة، أو ما عرف بأزمة 1520-1524م.** **انهياراقتصادي وديمغرافي، ناتج عن مجاعات وأوبئة خطيرة** **أزمة غذائية وديمغرافية، خاصة في المناطق الشمالية.**

يكشف لنا الجدول مجموعة من الأحداث التي تبين التلازم بين التحولات السياسية والأزمات المناخية بمغرب القرنين 16و17م، فكيف يمكن أن نفسر هذه المتلازمة؟ وهل للمناخ أثر على الواقع السياسي لمغرب القرنين 16و17م؟.

هذا ما سنحاول توضيحه، انطلاقا من رصد أثر العلة المناخية في قيام وانهيار الدولة السعدية، وتبيان العلاقة بين أزمة 1071-1072هـ/1661-1662م وتوطيد الحكم العلوي.

I- أزمة البدايات: مجاعة 1520-1524م وترسيخ النفوذ السعدي

يشد انتباه الدراس لظروف قيام الدولة السعدية، التزامن بين هذا الحدث السياسي والأحداث المناخية التي رافقته، إذ يسجل حضور العامل الطبيعي ووقوفه إلى جانب الأشراف السعديين في صراعهم من أجل الوصول إلى الحكم، فكيف يمكن أن نفسر هذا الحضور؟ وهل فعلا يعد العامل المناخي أحد أهم العوامل المساهمة في قيام الدولة السعدية؟.

ا- الجفاف و الأزمة[3]

يذكر برناردو رودريكس (B. Rodrigues) صاحب حوليات أصيلا (1508-1534م) المعاصر للأحداث، ضمن الفصل الخامس والسبعون من كتابه، المعنون بـ: **"عن مجاعة 1521م وكيف باع المسلمون أهلهم"**، أن مجاعة سنة 1521م (927هـ) التي عرفها المغرب وكل إفريقيا كان السبب فيها جفاف السنة قبلها (926هـ/1520م)[4]. وقد كان تأثير الجفاف بالمغرب أقوى وأحد من تأثيره بشبه الجزيرة الإيبيرية التي عانت بدورها في نفس الفترة الجفاف والمجاعة، وذلك حسب المؤرخ أندرد (de Andrade) عائد إلى كون مناخ إفريقيا أكثر جفافا وحرارة من مناخ الجزيرة مما جعل مجاعة 928هـ/1521م كارثة حقيقية[5]، أو كما سماها محمد المهدي الفاسي "**الجوعالكبير**"[6].

ومما يزيد من أهمية ووقع تأثير الجفاف هو اعتماد أغلب المغاربة على المحصول الزراعي، سواء كانت الأراضي بورية أو سقوية، لأن الماء هو المحدد الأساسي لكميات الإنتاج ولأن قلة التساقطات تتسبب في تقليص الإنتاج الغذائي، وتقلص هذا الأخير يؤدي إلى حدوث المجاعات فيتراجع المستوى الصحي للمغاربة وتنتشر الأوبئة مما يؤدي إلى انهيارات ديموغرافية كبيرة[7].

استتبع جفاف ومجاعة 926-927هـ/1520-1521م مجاعة أخرى ووباء[8]، ومن المحتمل أن توالي المجاعات راجع لاستمرار الجفاف[9]، فالمصادر لا تشير إلى حدوث تساقطات أو ما يفيد بذلك. وفي تعبير رودريكس (B. Rodrigues) القوي دلالة عن شدة الكوارث وعن الأزمة التي بدأت تتبلور بفعل تتابع عناصرها في حيز زمني ضيق وتراكبها بدءا من جفاف 926هـ/1520م، يقول رودريكس (B. Rodrigues): "**سئمت من الحديث عن سنة إحدى وعشرين، بسبب ما عرفته من محن ومعاناة، وكنت أود الانتقال إلى السنة التالية توقعا مني أنها ستكون أحسن...غير أن المصائب والمعاناة التي صاحبت بداية سنة اثنين وعشرين جعلتنا ننسى ما عانيناه خلال السنة السابقة. فقد انعدمت الأقوات في بدايتها،...كما عرفت بداية السنة تفشي وباء الطاعون بشكل واسع، بحيث قلت الأماكن التي لم يشملها بالفواجع، ولم يختطف منها جل سكانها**"[10].

حصدت المجاعة الثانية (928هـ/1522م) كل من نجا من المجاعة السابقة بفضل تدبيره وبفضل الحبوب المخزنة[11]. وفي نص دو سوسا (de Sousa)[12] يتضح الخلط الذي وقع فيه المؤرخ في ضبط تواريخ الكوارث وتتابعها، فهذا الأخير يجعل بداية المجاعة سنة 928هـ/1522م، بسبب جفاف السنة قبلها في حين أن بدايتها كانت سنة 927 هـ/1521م كما سبق، ويفسَّر تحديد دو سوسا (de Sousa) بتراكب الكوارث الطبيعية التي أصابت المغرب ولتلاحق الواحدة تلو الأخرى في سنوات متصلة، كما أن رودريكس (B. Rodrigues) في نصه

السالف يخبرنا بحدوث مجاعة أخرى سنة 928هـ/ 1522م تسببت في الطاعون الذي عرفه المغرب في نفس السنة، وربما هي التي يقصدها دو سوسا (de) Sousa. نفس الأسباب تفسر الارتباك في ترتيب الكوارث المسببة للأزمة لدى ابن القاضي[13] إذ يجعل الغلاء والمجاعة والوباء الذين عرفتهم سنة 927هـ/ 1521م سابقين عن الجفاف، في حين كان العكس وفي سنوات متتالية وليس في سنة واحدة.

أما الناصري فقد كان أكثر تدقيقا في تحديد السنوات ومراحل تطور الأزمة: "**في سنة ستة وعشرين وتسعمئة انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس إلى استخراج السواقي من الأودية والأنهار لسقي زرعهم وثمارهم، وفي سنة سبعة وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخا في الناس مدة، وفي سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب، سنة الله في خلقه**"[14].

2- كيف تمكنت السلطة السعدية من مواجهة الأزمة والاستفادة منها؟

نتوفر على ثلاثة نصوص مصدرية تنبه إلى ارتباط الأزمة بدخول السعديين إلى مدينة مراكش، أولا نص برناردو رودريكيس (B. Rodrigues) يشير إلى أن الشريف استغل ظروف خسارة مملكتي فاس ومراكش لآلاف البشر للتحكم في مراكش التي وجدها شبه مقفرة:"**فقدت مملكة فاس ومراكش بسبب(ها) آلاف البشر، كما أن الشريف استغل تلك الظروف العصيبة وتحكم في مراكش،...وقد وجد تلك المدينة الذائعة الصيت شبه مقفرة فتزوج إحدى بنات الملك، واستحوذ على السلطة بها، وبمرور الوقت...، تحكم في رقاب الجميع، وساس البلاد دون حسيب أو رقيب، كما هي حاله اليوم**"[15].

والنص الثاني لابن القاضي ربط فيه بين الكوارث ودخول الشرفاء لمراكش: "**كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف ولم ينزل في هذه السنة نقطة مطر (927هـ)ودخل سادتنا الشرفاء مراكش**"[16].

وأخيرا نص دييكو دي طوريس(D. de torres) يوضح فيه أنه بالرغم من أن المجاعة والوباء أساءا كثيرا إلى الشريفين فإن الأخيرين لم يدخرا جهدا لتوفير الطعام للناس بمناطق نفوذهما[17]:"**كان الشريفين في ذلك العهد قد عزما على اتخاذ لقب ملكي إفريقيا، فاعترف المغاربة بقداستهما المزيفة وبمكرهما، حدث ذلك حوالي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وألف، حين انتشر الوباء والمجاعة بحدة كبيرة في المنطقة، ...دام الوباء سنة كاملة وأساء إلى الشريفين، لأن الشعب كان يعتقد بأن الله ومحمدا أرسلا الوباء بسبب خطايا هذين الجبارين، انتقاما لموت ملك مراكش،...غير أن الشريفين تصرفا بحذر كبير جعلهما يتوفقان في جميع أعمالهما، فلم يدخرا وسعا ولا نفقة للحصول على المؤن بأثمنة معقولة، وكان أكثر الناس حصولا على الطعام هم أهل مراكش وتارودانت وسائر المناطق الخاضعة للشريفين"[18].**

يستفسر كل من روزنبرجي والتريكي (B.Rosenberger, H.Triki) في دراستهما حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين 16 و17م عن كيفية تمكن السعديين من مواجهة المجاعة، فيطرحان فرضيتان أولهما: هل يمكن أن نتحدث- كما هو بالنسبة للجانب العسكري- عن مساعدات غذائية مرسلة من طرف الأتراك؟ ثانيهما: هل الفضل راجع إلى مؤسسة أثبتت نجاعتها في الجنوب المغربي خاصة بالأطلس الصغير هي مؤسسة خزانات الحبوب الجماعية: "أكادير" أو "اغرم"؟.

استنادا إلى إشارة رودريكس (B. Rodrigues) حول انعدام وسائل وإمكانات جلب الأقوات من الخارج،يُستبعد احتمال استفادة المغاربة من مساعدات خارجية تركية أو أجنبية بصفة عامة[19]، واعتمادا على ملاحظة دو سوسا(de Sousa) حول نفاذ الحبوب المخزنة والمخبأة عند حدوث المجاعة الثانية[20]يتأكد لدينا الإستعانة بالحبوب المخزنة التي نفذت عند حلول مجاعة ووباء 929هـ/1522م، لهذا فإن نص كتاب روضة التحقيق في ذكر مناقب أبي بكر الصديق لعلي بن الحسين لا يبدو أنه يحمل فقط دلالة عن فرار الشريف أحمد

الأعرج من الوباء في اتجاه أقا سنة 932هـ/ 1525م وإنما أيضا البحث عن موارد إضافية، وهو ما يعكسه اشتغاله باستخراج المعادن من منجم تامدولت[21]، ثم بعد سنتين حسب نفس النص عاد المولى أحمد الأعرج إلى مراكش[22] التي وجدها فارغة[23] ومتمردة بقيادة بوشنتوف فقضى على التمرد وملأ الفراغ الديموغرافي الذي أحدثته المجاعة والوباء بقبائل موالية جلبها عند عودته إلى مراكش من سوس[24].

تمكن السعديون من الاستفادة من الأزمة لضعف تأثر مناطقهم منها، فحسب ما توصلنا إليه لم نجد ما يفيد بتضرر القسم الجنوبي من المغرب باستثناء إشارة عن فراغ مدينة مراكش[25] استفاد منه السعديون أيضا، بعكس ما حصل لسلطة الوطاسيين فقد كان القسم الشمالي من المغرب الأكثر تضررا من الجفاف وما استتبعه من إزم، كما أن الوجود البرتغالي بالمغرب وإن كان يستفيد من المساعدات التي تصله من البرتغال والتي كانت تعاني بدورها من أزمة الخبز فإنه تضرر بدوره من الجفاف والمجاعة، ودليل ذلك انحصاره في الثغور المحتلة سابقا وإخلاء الحامية البرتغالية لحصن أكوز سنة 932هـ/1525م بسبب ضغط السعديين ولقلة فوائده، فانعدمت بذلك الفائدة من الثغور وأصبح التخلي عنها مقترحا مطروحا.

إذن ساعدت الكوارث بانعكاساتها الديمغرافية والاقتصادية على اختلال توازن القوى، فمنطقة النفوذ السعدي كانت أقل تضررا من مناطق النفوذ الوطاسي والبرتغالي، وإذا قمنا بمقارنة بين سلطة الوطاسيين انطلاقا من أخبار الحسن الوزان والسلطة السعدية انطلاقا من أخبار دييكو دي طوريس(D. de Torres)، سنلاحظ أن الحسن الوزان يصف في مواقع عديدة الملوك الوطاسيين **بالعاجزين**[26] وأن **مداخيل خزينتهم ضعيفة جدا**[27]، في حين يصرح دييكو دي طوريس (D. de Torres) أن الشريفين لم "**يدخرا وسعا ولا نفقة للحصول على المؤن بأثمنة معقولة، وكان أكثر الناس حصولا على الطعام هم أهل مراكش**

وتارودانت وسائر المناطق الخاضعة للشريفين"[28]، فأصبح المجتمع ينظر إلى الشرفاء السعديين كالمنقذين: المنقذين من اعتداء النصارى برفع شعار الجهاد ومن حالة الضعف السياسي والمنقذين أيضا من الجوع بتوفيرهم الطعام.

هكذا نصل إلى خلاصة مفادها أن السلطة السعدية كانت أكبر مستفيد من الجفاف وما سببه من كوارث، فالانتماء الجغرافي للسعديين ومجال انطلاقهم ساعدهم كثيرا على مواجهة انعكاسات ضعف التساقطات المطرية، حيث من المعلوم أن المناطق الصحراوية تكون الأقل تضررا من قلة التساقطات أو انعدامها بحكم اعتمادها على تخزين الأقوات والسقي، في وقت أضعف فيه الجفاف القِوى المنافسة وأصبح واضحا –كما رأينا– التباين بين القدرة على مواجهة الأزمة بين سلطة في طور الضعف وأخرى في طور النشأة[29].

ومن المعبِّر، كما برهن روزنبرجي والتريكي (B.Rosenberger, H.Triki) عن تحول ميزان القوى[30]، أن نجد إحدى الشخصيات التي برزت بوضوح خلال المجاعة: يعقوب بن الغريبة[31] يفر من أزمور ويتملص من ولائه للبرتغاليين ويلجأ إلى الشريف السعدي[32] فمثل هذه الشخصيات تتحسس التغيير وتتبع حسب مصالحها من سيكون أقوى مستقبلا.

II– أزمات مطلع القرن 17م وبداية النهاية

ورد في كتاب الفوائد الجمة:"وفي سنة اثني عشرة وألف (1603م)، بلغني وفاة أبي العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر رحمه الله، وكانت وفاته بمدينة فاس...فنزل الأرض بذلك ما نزلها من الفساد والفتن ما نالها طاش لها الوقور...ووضع النفيس وارتفع الخسيس وفشا العار وخان الجار ولبس الزمان البؤس وجاء بالوجه العبوس وأوردنا الاختلاف ونضب ماء الوجوه والائتلاف وطأطأ الحق رأسه وأحنى المحق نفسه...ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع...فإنا لله وإنا إليه راجعون فيا لها من مصيبة ما أعظمها"[33].

بهذه الأوصاف ينقل لنا عبد الرحمن التمنارتي الأوضاع السياسية لمغرب ما بعد أحمد المنصور السعدي، فهل لهذه الأوضاع علاقة بالأزمات المناخية والأزمات الصحية التي عرفها المغرب خلال نفس الفترة؟.

الملاحظ أن معظم الباحثين في تاريخ الدولة السعدية، لم ينتبهوا للعامل الطبيعي في تفسيرهم للانهيار السريع الذي وقع في جهاز المخزن السعدي، فاقتصرت تفسيراتهم على ما هو بشري، وعلى اعتبار الصراعات بين الإخوة السبب الوحيد في ذلك الانهيار[34]؛ غير أن هذه الصراعات لم تكن في حقيقة الأمر، سوى ترجمة سياسية لما وقع في المخزن من اختلال فادح وعميق، ساهم فيه المكون الطبيعي بدرجة كبيرة إلى حد ما.

ولعل هذا ما طرحه أحد المهتمين[35]، عبر تقديمه قراءة جديدة لتاريخ المغرب السعدي، مستحضرا فيها أثر العنصر الطبيعي كأحد العوامل التي لعبت دورا أساسيا في هذا التاريخ، فإذا كانت الكوارث الطبيعية التي شهدها مغرب العقد الثاني من القرن 16م، قد مهدت الطريق أمام السعديين للوصول إلى السلطة، فإنه على ما يبدو، شكلت في جانب آخر، أحد العوامل المؤدية إلى اضمحلالهم مع بداية القرن 17م. ويمكن أن نرصد مساهمة العامل الطبيعي في انهيار السلطة السعدية انطلاقا من ملاحظتين: الأولى تتعلق بطول أمد الأزمات التي عرفها النصف الأول من القرن 17م، وتواليها لفترات متعددة. والثانية تتعلق بتراجعالأسس المادية للدولة السعدية، كنتيجة لتلك الأزمات الطويلة الأمد.

1- وفاة المنصور وبداية أزمات مناخية طويلة الأمد

شكلت السنوات الجافة التي شهدها مطلع القرن 17م، أحد أهم العوامل المؤدية لضعف المخزن السعدي، ولعل ذلك مرده لطابع التواتر والاتصال فيما بين هذه الأزمات لأكثر من سنة،وهو الشيء الذي لم يسمح للمخزن السعدي بالتقاط

أنفاسه، فما أن تنتهي انعكاسات الأزمة المناخية الأولى، حتى تليها أزمة أخرى أشد وأقوى.

فبعد الجهد الكبير الذي بذله السلاطين السعديين في بناء دولتهم، والذي توج بعصر وصفه المؤرخون ب"**الذهبي**" مع السلطان أحمد المنصور (986-1011هـ/1578-1603م)،غلبعليهلاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي، ستبدأ الإرهاصات الأولى لاضمحلاله مع نهاية القرن 16م، وبالضبط مع الوباء الخطير الذي عصف بالمغرب سنة 1006هـ/1598م[36]، حيث بدأ الضعف يدب في سلطة المنصور، وظهرت معه تمردات القبائل؛ "لقد أصبح شخص السلطان مهدد من كل صوب، ففي الداخل وباء وفتن وتخريب للمعامل وغياب السلطة في أكثر من جهة، وفي الخارج قوى متربصة"[37]، وهو ما جعل المنصور يضطر إلى إخلاء عاصمته مراكش[38]. لتتوج هذه المحن بالمجاعة الرهيبة لأعوام 1011-1016هـ/1603-1608م، والتي انطلقت ووفاة أحمد المنصور، الذي راح هو الآخر ضحية للوباء المنتشر في البلاد[39].

أعقبت هذه الأزمة، أزمات أخرى جديدة، فمن أصل عشرين أزمة عصفت بالنصف الأول من القرن 17م، سبعة عشر منها كانت أزمات متصلة، بحيث لم يخلو أي عقد من أزمات مناخية جافة، باستثناء الأربعينيات التي شهدت تحسنا في الأوضاع المناخية. وتعد الأزمات الحقيقية تلك التي تتلاحق سنتان جافتان متتاليتان (1022-1023هـ/1613-1614م)، أو ثلاث سنوات فأكثر (1011-1016هـ/1603-1608م) (1035-1038هـ/1626-1629م) (1061-1063هـ/1651-1653م)[40]. وقد كان لتوالي هذه السنوات الجافة نتائج خطيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي[41]، خاصة وأنها خلفت نزيفا ديمغرافيا حادا، جاعلة بذلك النقص السكاني السمة الغالبة على تعداد المغرب البشري[42]، وهي نتائج لعبت دورا أساسيا في الاضطرابات السياسية التي ستعرفها المرحلة؛ فهذا عبد الملك الذي خلف زيدان سنة

1036هـ/1627م عانى من المجاعة التي وقفت ضده في صراعه مع إخوته على العرش، "**ولم يكن في تفاقم المجاعة ما ييسر له (أي عبد الملك ابن زيدان) مراده وأوشك الناس أن يخرجوا عليه لانعدام القمح**"[43].

لا نروم من خلال استعراض هذه الأزمات السقوط في حتمية عمياء، نربط من خلالها أفول نجم السعديين بالعلة المناخية، لكون العامل البشري والصراعات السياسية شكلت السبب الرئيس في هذا الأفول، بقدر ما نهدف إلى إثارة الانتباه إلى جانب أغفله الدارسون في فهم الأسباب العميقة لتراجع المخزن السعدي، فالمسألة الديمغرافية[44]، والانهيار الاقتصادي، والتأزم النفسي، كلها عوامل تراكمت فيما بينها، وتداخلت، لتأثر على الوضع السياسي المتأزم آنذاك، مانعة الدولة السعدية من التقاط الأنفاس، فما أن تنتهي أزمة مناخية، حتى تعقبها أزمة جديدة أشد وأقوى، فتأثر على الوضع المادي للدولة، وعلى إمكانياتها الجبائية.

2- تراجع الأسس المادية للدولة السعدية

أكد أحد المهتمين على أن الخاصية الأساسية التي تتمتع بها الدولة المغربية عبر مراحلها التاريخية، هو تميزها بعدم الاستقرار السياسي؛ وفي محاولة لفهم أسباب هذا التميز، استحضر الباحث التفسير الاقتصادي الذي يرى أن الضعف المادي للدولة المغربية جعلها تعاني باستمرار من عدم الاستقرار، وبأنها كانت دائما تعيش في أزمة اقتصادية[45].

ذلك أن البنية الاقتصادية للسلطة السعدية، كانت قائمة على الحياة الزراعية التي تسمح للدولة بالحصول على الموارد، وإن لم تكن دائما كافية، إلا أنها كانت تساهم في الكثير من الأحيان في الحفاظ على استمراريتها، ويتجلى ذلك على الخصوص في أنه في الوقت الذي تشح فيه الموارد المالية الخارجية المستمدة من التبادل التجاري والغزو، فإن الدولة المغربية كانت تستطيع الحفاظ على استمراريتها من خلال الاقتصار على الموارد المستحصلة من النشاط الفلاحي،

بحيث شكلت الضرائب على الإنتاج الفلاحي والحرفي،المورد الأساس للمداخيل المنظمة والثابتة لدول المغرب[46]؛ "**فالفلاح في مجموع النظام الزراعي في البادية المغربية – كان– مجرد مورد للخزينة**"[47]. وعليه لعب النشاط الفلاحي دورا مهما في تأمين موارد الدولة، ليس من خلال تزويدها بالضرائب التي غالبا ما كانت تتخذ شكلا عينيا فقط، وإنما في ضمان استمرارية الكثير من المدن التي كانت مركزا للتجمعات الحرفية، وحلقة من حلقات التبادل التجاري سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي[48].

إن هذا الارتباط بين موارد الدولة والنشاط الزراعي، الذي هو الآخر مرتبط بالظروف المناخية، جعل من الأزمات المطرية عاملا أنهك المخزن السعدي، واستنزف طاقاته الجبائية والعسكرية والسياسية، فعلى الصعيد الجبائي، تقلصت مداخيل الدولة، بعد أن عرفت نوعا من الاستقرار زمن المنصور الذهبي، كما تراجعت الأنشطة الاقتصادية، فالانهيار الديمغرافي كان عادة ما يتسبب في ظاهرة الخلاء النسبي (خراب العديد من المدن والقرى، وتراجع العديد من معالم العمران والاقتصاد الزراعي القائم على الاستقرار، في مقابل تفشي البداوة وتوسع الاقتصاد الرعوي وشبه الرعوي)، وأصبح بذلك من المستحيل تأمين المداخيل الجبائية من قبل السكان الذين بقوا على قيد الحياة، خاصة وأن المخزن لم يعد قادرا على الإنفاق على الجيش والعمليات العسكرية، بل الانهيار عادة كان يشمل قوته العسكرية نفسها، ولعل هذا ما سرع من وثيرة الانهيار الذي كان يشهده المخزن السعدي؛ "**فبمجرد ما قلت الموارد، التي تضمن استقلال الخزينة عن مؤثرات المجتمع، انهارت السلطة السعدية كما لو كانت بناء من ورق**"[49].

هكذا إذن كانت لأزمات النصف الأول من القرن 17م، من مجاعات وأوبئة، نتائج خطيرة، ساهمت في القضاء على المجهود الذي بذله المخزن السعدي طيلة نصف قرن من الأعمال لبناء اقتصاد ومخزن قويين، فكانت أن تظافرت مع

الصراعات السياسية والقلاقل الاجتماعية، لتجسد لنا بداية مرحلة جديدة في تاريخ المغرب الحديث، فاسحة المجال بذلك لظهور حركات سياسية جديدة، خصوصا وأن تأثير الموت جوعا كان أشد وقعا على الدولة، في إطار سيكولوجية الأهالي ووعيهم، وذلك باعتبار الموت جوعا يضرب شرعية الدولة في الصميم، خاصة إذا كان هناك طرف سياسي مناوئ، يستغل الظرفية التي تمر منها البلاد ليفرض وجوده على الساحة السياسية، كحركة ابن أبي محلي وغيرها[50].

III- جفاف 1661-1662م: جغرافية الأزمة وتوطيد الحكم العلوي.

شكلت مجاعة 1701-1072هـ/1661-1662م أحد العوامل الحاسمة في التحول السياسي الذي شهده مغرب القرن 17م، فقد أنهكت هذه الأزمة القوى المتصارعة على السلطة، وجعلتها تصب في صالح العلويين؛ حيث كانت ضمن أسباب عجز الكيانات السياسية عن المقاومة، وسقوطها تباعا تحت سيطرة المولى الرشيد في ظرف وجيز لم يتجاوز خمس سنوات.

صحيح أن بروز العلويين على الساحة السياسية وافق سياقا تاريخيا[51]، كان يخدم مصالح الدولة الناشئة، غير أن أزمة 1071-1702هـ/1661-1662م ساهمت في تعميق ضعف القوى الأخرى، وهو ما ساعد على توطيد الحكم العلوي والقضاء على المنافسين السياسيين.

لكن كيف يمكن أن نوضح الصلة بين أزمة الجوع التي شهدها المغرب آنذاك، وبين صعود الحكم العلوي؟.

نتلمس طريقا للإجابة على هذا السؤال انطلاقا من البحث في مكونين اثنين: أولا من خلال تتبع جغرافية الأزمة، ومدى اختلاف وقعها على المجالات الجغرافية للمغرب. وثانيا عن طريق البحث في ثقافة الندرة، ودورها في الحد من تأثير الأزمة لدى المجموعات البشرية التي خبرت كيفية التعامل مع مثل هذه المحن. لكن قبل

ذلك يبدو من المفيد البحث في الوضع السياسي للمغرب قبيل الكارثة، باعتبار ذلك محطة مهمة في فهم السياق العام لقيام الدولة العلوية.

1- الوضع السياسي قبيل الأزمة:

ليست غايتنا هنا استعراض الأحداث السياسية التي عرفها مغرب القرن 17م، لكون ذلك من شأنه أن يبعدنا نسبيا عن موضوع بحثنا، بقدر ما نهدف إلى استحضار بعض الملامح العامة للسياق السياسي الذي طبع المغرب قبيل مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662م، ورصد أهمية الطواف الذي قام به المولى الرشيد حول مناطق متعددة من المغرب، أثناء فراره من أخيه المولى محمد.

فقد المغرب خلال هذه المرحلة دوره كقوة سياسية في حوض البحر الأبيض المتوسط، بحيث توزعت السلطة فيه بين إمارات وكيانات سياسية متناحرة، كان أهمها؛ الدلائيين في منطقة الأطلس المتوسط وملوية، والسملاليين في سوس، والعلويين بتافيلالت.

ودون الخوض في الواقع السياسي لهذه الإمارات، فإن الاطلاع على الوضع السياسي للمغرب قبيل مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662م، يسمح لنا بالخروج بملاحظتين: **أولا**: حالة الضعف التي عرفتها الإمارتين الدلائيةوالسملالية، وهو ضعف جعل وقع الأزمة أكبر على هذه الكيانات السياسية، مقارنة مع الإمارة العلوية.**ثانيا**: أهمية الطواف الذي قام به المولى الرشيد حول مجالات متعددة بالمغرب إبان الأزمة، حيث استطاع من خلاله أن يتعرف على الوضعية المضطربة التي طالت المغرب آنذاك، ولمس عن كتب مظاهر الضعف ومكامن الخلل، مما مكنه من حسم الصراع لصالحه بعد أن تفرد بالسلطة العلوية.

2- جغرافة الأزمة:

نهدف من خلال تناول جغرافية الأزمة، إلى رصد المناطق التي تضررت من جراء الكارثة المناخية الجافة لعام 1671-1072هـ/1661-1662م، والتي يمكن من خلالها تبيان الدور الذي قامت به في إضعاف الخصوم المناوئين للسلطة العلوية.

فالواضح من خلال ما جاءت به الإستوغرافيا المعاصرة، أن المجاعة كانت أكثر وقعا على سكان مدينة فاس، حيث توفي بالجوع اثنا عشر ألفا "**وكلهم له وارث هناك في المدينة يرثه**"[52]، أي أن كل هؤلاء هم من أهل المدينة الأصليين، وهذا رقم مهم ناهيك عن باقي السكان، حيث كانت الخسائر البشرية فادحة[53].

أما زاوية الدلاء، ومنطقة تادلا، فهي الأخرى شهدت نزيفا ديمغرافيا أضعفها من الناحية السياسية، فقد تعددت الوفيات حتى كانت بها في "**كل يوم من أيام مدة شدة الغلاء ما يزيد على مائة جنازة**"[54]. تسمح لنا هذه المعطيات بتصور هول الكارثة على مناطق الشمالية والشمالية الغربية، يشير العياشي كذلك، إلى تعرض كثير من القرى والمداشر في تادلا ونواحي فاس وزاوية الدلاء وملوية، للخراب بسبب ارتفاع عدد الوفيات[55].

في المقابل تفيد الإشارات إلى تأخر حلول المجاعة بالصحراء والواحات الجنوبية، وهو أمر راجع للأسباب التالية:

أ- لأن المجال الواحي هو مجال سقوي، يعتمد أساسا على الزراعات المسقية الممتدة على جنبات الأودية[56]، وبالتالي مكنه هذا المعطى من الصمود لمدة أطول مقارنة مع المجالات البورية الغير سقوية.

ب- لكون النخيل وهو مصدر حيوي لعيش السكان، يمكن أن يصمد إزاء النقص الظرفي للمياه، ويتحمل الجفاف نسبيا أكثر من المزروعات الأخرى[57].

ج- لأن موسم جني المحاصيل يصادف فصل الخريف، ومن ثم فإن سكان الواحات ظلوا يعيشون على مدخر السنة الماضية (1071هـ/1661م)، والذي ينبغي أن يكفي إلى بداية جني المحصول الجديد[58]. وهو ما يفسر كون المجاعة دامت فقط بهذه المناطق مدة أربعة أشهر[59].

وهي أسباب ساهمت في التخفيف من وقع الأزمة على المناطق الواحية، والتي كانت تحت النفوذ العلوي.

الخريطة رقم 3: جغرافية أزمة الجوع إبان مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662، وعلاقتها بمجال النفود العلوي.

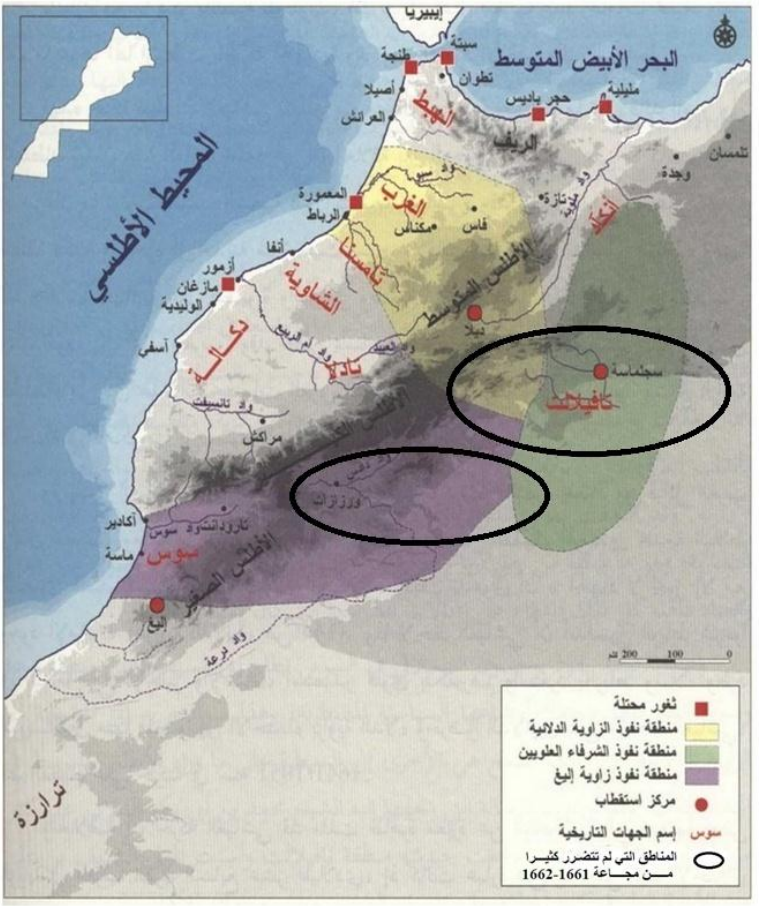

المصدر: القبلي محمد، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، م.س، ص 396 (بتصرف).

3- ثقافة الندرة

ساهمت ثقافة الندرة في خدمة مصالح أهل الجنوب، الذين يتمتعون بنظام غذائي مكنهم من الصمود ومقاومة هول الكارثة، وهو نظام ناتج عن ثقافة الجوع التي يتمتع بهذا الإنسان الواحي والصحراوي عامة، وتتجسد هذه الثقافة في سلوك الجائع الذي يختلف بالطبع عن سلوك "الشبعان"، أو الذي ألف عيشة البذخ والترف، ومعنى ذلك أن الثقافة الغذائية لدى المجتمعات المهددة بالجوع تختلف

عن المجتمعات التي تجهل محن الندرة، أو التي ألفت ظروفا معيشية لا بأس بها؛ ففي ثقافة الجوع تحضر روح المقاومة ويتعمق الاقتناع بالصبر[60]، وهي قيم إيجابية مرتبطة بثقافة القهر التي تسود في المناطق ذات الإمكانيات الطبيعية المحدودة.

إلى جانب ذلك أكد أحد الباحثين على أهمية ثقافة الجوع[61]، وإلى كون الإنسان الذي يملك هذه الثقافة، يكون جسمانيا أكثر مقاومة للجوع من الذي ألف الرخاء والتنوع الغذائي. لقد مكنت مقاربته البيولوجية لتاريخ التغذية، من تبيان أهمية شظف العيش وطبيعة المأكولات، في فهم تاريخ الجسد ومدى صموده ومقاومته للآفة الجوع، وما يرافق ذلك من إنتاج وإعداد وخزن؛ "**بيولوجيا يعد الإنسان الذي يملك ثقافة الندرة أكثر مقاومة للجوع**"[62]. لقد استطاع السكانتنمية آليات لتدبير الطاقةمن الناحية الفيزيولوجية، نتج عنها تكيف مع الشروط البيئة، وقدرة على تحمل قساوة الطبيعة، وهو ما ذكره ابن خلدون، ذلك أن المجاعة إذا حلت، فإنها تسرع أكثر بهلاك "**المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته**"[63]، بينما لا تنال من المتعودين على التقشف وشظف العيش "ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع..."[64].

لقد ردد الناس الذين عاشوا في ظروف القلة والخصاص قولة عربية شهيرة، تخلص في ما نقوله: "**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع**"[65]، وهو قول يحيل على ظروف الحياة القاسية بسبب الإكراهات البيئية، واقتصاد القلة، وتردد القحوط والمجاعات، ولعل هذا الطرح هو ما يمكننا من افتراض وجود إمكانية للصمود، تمتع بها الإنسان الواحي ضد ظروف القلة التي ألف العيش فيها.

وبالرجوع إلى مجاعة 1071-1072هـ/1661-1662م، يتضح لنا أن الإنسان بالجنوب المغربي، وخاصة الواحي استطاع التكيف مع الصعوبات البيئية، وهو تكيف راجع لطبيعة نمط التغذية الذي يعتمد أساسا على التقشف والزهد، يقول الوزان: "أما غذاؤهم فإن لم يراهم **لا يصدق مدى صبرهم على الجوع،**

ليس من عادتهم أن يأكلون الخبز ولا أي طعام آخر مطبوخ، ويقتاتون على لبن نوقهم...ومادام عندهم اللبن فلا حاجة لهم بالماء لاسيما في فصل الربيع"[66].

كما أن النظام الغذائي لدى الإنسان الواحي يعتمد بدرجة كبيرة على مادة التمر: يقول مارمول كربخال: "وكلها (أي بلاد تافيلالت) محاطة بالنخيل الذي يحمل كمية هائلة من التمر، حتى إنها تغمر بلاد البربر ويعلف بها السكان خيلهم بدل الشعير، **ذلك لأن التمر يشكل ثروتهم الرئيسية**"[67]؛وهي معطيات تفيد طابع التميز الغذائي الذي يعتمد على مادة التمر لدى المجتمعات الواحية مقارنة مع المجتمعات أخرى[68].

هذا فضلا عما يحظى به تخزين الحبوب والمواد الغذائية من عناية فائقة لدى الإنسان المهدد بشيء من الجوع، والخوف، ونقص في المال، ولعل هذا ما يفسر الانتشار الواسع لمخازن الحبوب بالجنوب المغربي[69]، وهي ثقافة جاءت كإفراز لطبيعة العيش ونمطه، القائم على التخوف الدائم، والاحتياط المستمر من هول المجاعة.

كل هذه المعطيات تعد عوامل يمكن من خلالها تفسير تباين درجة وقع الأزمة على المجالات المغربية، وهو وقع كان أكبر على مناطق التي تسيطر عليها القوى السياسية المناوئة لتطلعات السلطة العلوية الناشئة.

وإذا ما أضفنا إلى هذه المؤشرات، ما مارسه الحكام وأدعياء السلطة من ضغوط جبائية على السكان، يمكن أن نستنتج أن حالة الإرهاق المالي كانت فادحة، الشيء الذي ترتب عنه ضعف المداخيل الجبائية للدولة، وهذا ما عرَّض مختلف الإمارات كالدلائيين والسملاليين والشبانات إلى الإفلاس، وجعل الناس يتشوفون إلى الزعيم السياسي الذي يستطيع أن يعيد الأمن والاستقرار للبلاد، خاصة وأن منطقة نفوذ الدولة العلوية تتمركز حول مجال إستراتيجي يتجلى في سيطرتها على تجارة القوافل، واستفادتها من هذا العامل المهم.

هكذا انضافت أزمة 1071-1072هـ/1661-1662مإلى عوامل أخرى، لتفسر السرعة والسهولة اللتين أمكن لمولاي رشيد أن يخضع بهما البلاد، فقد خضعت له الدلاء في 1078هـ/1668م من غير مقاومة، أفلم يكن سقوطها على ذلك النحو بسبب ما وقع فيها من إنهاك؟، بيد أنه لم يجد كذلك من مقاومة ذات بال من غيرها من المناطق، لا من مراكش التي خضعت له في عام 1079هـ/1669م، ولا من إيليغ التي استسلمت له في عام 1080هـ/1670م، فقد كانت منهكة تعجز عن المقاومة، مما سهل على الدولة العلوية توحيد وتوطيد حكمها على المغرب.

وخلاصة القول، أن الأزمات المناخية وما يرافقها من تدهور صحي وديمغرافي، ساهمت، إلى جانب عوامل أخرى، في خلخلة الاستقرار السياسي للبلاد، وفي بروز أسر حاكمة على حساب أخرى، كما أنها شكلت من جانب آخر أحد العوامل التي أفرزت لنا حركات سياسية دينية كالمهدوية، أو تمردات قبلية ضد سلطة الحاكمة، وهي تمردات فرضت على المخزن القيام بعمل جبار للقضاء عليها. وهو ما يجعلنا نربط من جانب آخر **الحَرْكَة السلطانية بالأزمات المناخية**، ولما لا؟، خاصة وأن مسار الحَرْكة وزمن وقوعها، غالبا ما جاء في سياق معطيات طبيعية فرضت عليها مكانا وزمانا معينين[70]، كما أنها شكلت من جانب آخر مجالا خصبا لفرض سيطرة المخزن الذي يجد في بؤس الرعية، أداة للمحافظة على سلطته، مقارنة بما قد يحدث عند رغد العيش الذي يؤدي إلى انتفاضة القبائل.

---

1. لاحظ عدد من الباحثين التزامن الذي يصادف التحولات والقلاقل السياسية الكبرى وحدوث الأزمات المناخية، وهو تزامن لم يكن من باب الصدفة، وإنما

يكاد يكون من باب العلاقة ما بين العلة والمعلول، ولعل النماذج كثيرة في هذا الباب:

- فقد ساهمت الأزمات الطبيعية بقدر كبير في توثر العلاقة بين السلطة السياسية والرعية في المغرب المرابطي، انظر ما جاء عند جسوس عزالدين: **"الكوارث الطبيعية والأوبئة وتأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين"**، ضمن أعمال ندوة "المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب"، منشورات ك.آ.ع.إ بالجديدة،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م، ص ص: 53-74.

- كما نبه المغراوي محمد إلى دور الأزمات المناخية في تاريخ الدولة الموحدية، وكيف ساهمت في زعزعة الاستقرار السياسي للدولة، خاصة بعد معركة العقاب التي شكلت بداية نهاية الدولة الموحدية. انظر ما أورده في كتابه: **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر والتوزيع، ط1، الرباط، 2006م، ص ص: 164-173. يراجع أيضاً ما جاء في مقالة المغراوي محمد: "**المغرب في العصر الموحدي: جدلية القوة والأزمة**"، ضمن أعمال ندوة "المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب"، منشورات كلية ك.آ.ع.إ بالجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، 2005م،ص ص: 75-104. راجع أيضا: بولقطيب

الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، الرباط، 2002، ص ص: 68-80.

- ونشير كذلك للأزمات التي عرفها المغرب المريني، وكيف ساهمت في إيصال دولتهم إلى السلطة، وتغلبهم على خصومهم من الموحدين، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: " انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم وذهب بأهل الجيل، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل **وضعفت الدول والقبائل**"،أنظر: **المقدمة**، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2005، ص 53.

- في جانب آخر، أكد استيتو محمد على الدور الذي لعبته الكوارث الطبيعية في التأثير على ميزان القوى السياسية في تاريخ المغرب السعدي، فإذا نجح السعديون في استغلال الأزمات التي عصفت بالمغرب عند بداية حركتهم على حساب الوطاسيين، فإنهم عجزوا أمامها لما تزامنت مع ضعفهم وبداية اندحارهم، أنظر في هذا الصدد أطروحته حول: **الكوارث الطبيعية بمغرب القرن 16م**، دبلوم الدراسات العليا، ك.آ.ع.إ، ظهر المهراز، فاس، 1988، (مرقونة)، ص ص: 345-446.

– أثار البزاز محمد الأمين في كثير من فصول بحثه، وقع المجاعات والأوبئة على السلطة، وكيفية تدخل المخزن للتخفيف من تداعياتها، خاصة وأنها كانت تضرب في صميم مشروعية الدولة، كما نبه إلى دور السلطة المركزية والاستقرار السياسي في مقاومة هذه الأزمات، كما هو الحال بالنسبة لعصر مولاي إسماعيل (1672-1727)، عكس ما كان يقع زمن الاضطرابات الداخلية كما حدث في أزمة الثلاثين سنة (1727-1757)، أنظر كتابه حول: ، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات ك.آ.ع.إ بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، ص ص: 35-78.

– والواضح كذلك أن ما شهده مغرب الثمانينات (1981-1983) من سنوات جافة، قد انعكس سلبا على الوضع السياسي للمغرب، والانتفاضات الشعبية التي رافقت هذا التأزم (**انتفاضة الكوميرة** 20 يونيو 1981م) .

[2]. أشار ابن خلدون إلى دور المناخ في انهيار دول وحضارات بأسرها، فقد نبه إلى أن كثرة المجاعات والأوبئة دليل على نهاية عمر الدولة، فيقول: "**ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول**"، يراجع: ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، م.س، ص 282.

[3]. حول مفهوم الأزمة ينظر:

Cheddadi (A.), **Le concept de crise dans l'historiographie musulmane**, **in Historiographie et crise**, Etudes historiographiques et culturelles, pub. De la faculté des Lettres et des Sciences humaines-Rabat, série colloques et séminaires n° 34, pp.5-14.

والمدخل الذي وضعه المغراوي تحت عنوان: "**الأزمة والتاريخ تأملات منهجية**"، كتوطئة لدراسته:

المغراوي محمد: **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م، ص ص: 9-17.

[4]. رودريكس برناردو: **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007م، ص 297.

[5]. Ricard (R), **Les portugais et l'Afrique du nord sous le Règne de Jean III (1521-1557) d'après la chronique de Francisco de Andrade**, in Hes., t .XXIV, tri.3 ,1937,p.265.

[6]. المهدي محمد الفاسي، **ممتع الأسماع في الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع**، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي- عبد الكريم مراد، ط 1، 1989م، ص 61

[7]. القدوري عبد المجيد، **ابن أبي محلي ورحلته الإصليت الخريت**، منشورات عكاظ، الرباط 1991م، ص 22.

[8]. « Si la mauvaise alimentation et un brusque déficit énergétique facilitent et provoquant à coup sûr la propagation des maladies ».

B.)نستشف أيضا سوء التغذية خلال هذه المجاعة من إشارة لرودريكس(Rodrigues حول طعام قدمه له أحد الأهالي بعد أن اشترى منه ابنته وحفيدته، يقول: "...واشتريت من شخص يسكن خيمة ابنته وحفيدته، دفعت في الأولى اثنين وثلاثين (طوشطاو)، وفي الثانية ثمانية وعشرين، وبعد أن أنهيت دفع ثمن الطفلتين اللتين لا يتجاوز سنهما معا الخامسة والعشرين، دعاني لأكل قليل من لحم الجمل، لكني لم استسغه، وعافته نفسي"، فبالانتباه إلى تحديد رودريكس لنوع الطعام، لحم الجمل، ووصفه له بكونه معيف عافته نفسه فلم يستطع التذوق منه يمكن أن نفترض أن اللحم إما أنه من اللحوم التي تخزن لمدة طويلة (القديد)، أو أنه لجيفة ذلك أن الفترة فترة جفاف ومجاعة حادين جدا لم تستثني البشر والدواب من الموت، وذلك هو المرجح إذ يستبعد جدا أن يكون الجمل ذبح حديثا للاستفادة من لحمه، خاصة وأنه في مثل هذه الظروف تنتشر ظاهرة أكل الجيف.

Lumeau (J. de) et Lequin (Y), (sous la direction), **Les malheurs des temps**, **Histoire des fléaux et des calamités en France**, Larousse, 1987, p. 151.

برناردو رودريكس، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 299.

[9]. "سنة سيئة المحاصيل نادرا ما تنجم عنها مجاعة خطيرة أو نفاذ مخزون المؤن، لكن إذا توالى الجفاف وتوال معه سوء المحصول أو انعدامه فإن ذلك يؤدي حتما إلى مجاعة شديدة تترتب عنها انعكاسات أخرى".

Rosenberger (B), **Culture Complémentaire et nourriture de substitution au Maroc** : **XVe–XVIII siècl**e, in Annales., n° 3-4, 1980, p. 481

[10]. رودريكس برناردو ، **حوليات أصيلا**...، م.س، ص 327.

[11] . "Cette misère si grande fut suivie de la plus grande de toutes, une épidémie qui emporta beaucoup de ceux qui, grâce â leur prévoyance ou a du blé caché ; avaient échappé aux rigueurs de la famine "

Sousa(l.de), **Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557**, **extrait des** « **Annales de Jean III** » Traduction française avec introduction et commentaire par Robert Ricard, éd.Les belles lettres, Paris, 1940, p. 26.

[12]. "ففي سنة 1522م ابتدأت مجاعة كبيرة بكل إفريقيا، نتيجة للجفاف الذي عرفته السنة السابقة لها".

Sousa (l.de), **Les Portugais …**,Op.cit. p. 25.

[13]. "كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف ولم ينزل في هذه السنة (927هـ)نقطة مطر، ودخل سادتنا الشرفاء مراكش". ابن القاضي أحمد المكناسي، **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، ضمن ألف سنة من الوفيات**، تحقيق محمد حجي، الرباط،1976م، ص927.

[14]. الناصري أحمد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، تحقيق جعفر الناصري- محمد الناصري، ج4، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ص 125.

[15]. رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** …، **م س**، ص 300.

[16]. ابن القاضي أحمد، **لقط الفرائد** …، م.س، ص927.

[17]. دييكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، م.س، ص 64-65.

[18]. المصدرنفسه، صص: 64-65.

[19]. "فقد ماتت الآلاف منهم (من المغاربة)، ولاسيما في مملكتي فاس ومراكش المجاورتين لنا، بسبب انعدام وسائل وإمكانات جلب الأقوات من الخارج...". رودريكس برناردو ، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 297.

[20] .Cette misère si grande fut suivie de la plus grande de toutes, une épidémie qui emporta beaucoup de ceux qui, grâce â leur prévoyance ou a du blé caché ; avaient échappé aux rigueurs de la famine ". Sousa(l.de), **Les Portugais …**,Op.cit, p.26.

[21]. " فحين نزل الوباء هناك، وكثر الموت وكان الأمر عظيما إلى الغاية يفر المرء من أقاربه، خرج من مراكش وذلك عام 932هـ فنزل في تامدولتبأقا ستة أشهر فاشتغل هناك باستخراج المعادن فيها".

علي بن الحسين، **روضة التحقيق في ذكر مناقب أبي بكر الصديق**، عند المختار السوسي، **المعسول**، ج 7،مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963م، ص40.

[22]. المختار السوسي، **المعسول**، ج 7 ، ص42.

[23]. رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 300.

[24]. "ثم بعد سنتين أقام فيها الأمير في تامدولت رجع إلى الحمراء ومعه قبائل تكنة وحريبلوأمربيض وسلام والأدارسة والعرب الكثيرون المعافرة والسباعيين وغيرهم". المختار السوسي، **المعسول**، م.س، ص 42.

[25]. "...كما أن الشريف استغل تلك الظروف العصيبة وتحكم في مراكش،...وقد وجد تلك المدينة الذائعة الصيت شبه مقفرة...". رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا** ...، م.س، ص 300.

[26]. الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، م.س، ج 1، ص 198.

[27]. المصدرنفسه، ص 215.

[28]. دي طوريسدييكو، **تاريخ الشرفاء**، م س، صص: 64-65.

[29]. زبير لوبنى، **الماء والحرب**...، م س، ص 41.

[30]. Rosenberger (B.), Triki (H.), **Famines et épidémies au Maroc…**,Op.cit, p.143

[31]. يعقوب بن الغربية Aco Bengarba، من المغاربة المتحالفين مع البرتغال كان يقوم بعمليات نهب وأسر للمغاربة غير المتعاهدين، اغتنى كثيرا من مجاعة

1521م، فحين اضطر إلى الفرار من أزمور واللجوء إلى الشريف سنة 1523م ترك بالمدينة الغربية 40000 كروزادو ما يعادل 16000000 ريال برتغالي.

Cenival (P. de), S.I.H.M., 1er série, Portugal, t.II, 1er partie, p. 319.

بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481– أكتوبر 1541م)**، الطبعة الأولى 1984م، ص 260.

[32]. Cenival (P. de), S.I.H.M., 1er série, Portugal, t.II, Op.cit, p321.

[33]. التمنارتي أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، إعداد محمد بن عبد الله الروداني، وتحقيق اليزيد الراضي، مطبوعات السنتيسي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 328.

[34]. أرجع كريم عبد الكريم أزمة المخزن السعدي لعوامل سياسية تتجلى أساسا في **مشكل ولاية العهد**، يراجع: كريم عبد الكريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية**، ط 2، 1978، ص ص: 328-336.

[35]استيتو محمد، **الكوارث الطبيعية**...،م.س، ص ص: 346-407.

[36]Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XV,1974, p 77.

[37]. استيتو محمد، **الكوارث الطبيعية**...،م.س، ص 397.

[38].اليفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1988، ص 180.

[39]Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XIV, 1973, p 113.

[40] أنظر: العرجاوي كريم،**المطر بين الوفرة والندرة: مساهمة في دراسة تاريخ المناخ بمغرب القرن 17م**، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 2013-2014، (مرقون)، ص ص: 66-72.

[41] حول النتائج الاقتصادية والاجتماعية للأزمات المناخية يراجع: العرجاوي كريم، **المطر بين الوفرة والندرة**...،م.س، ص ص: 97-154.

[42]. جاء عند أخبار العائلة اليهودية: "ليس هناك يوم إلا ويموت فيه عشرة أو عشرون شخصا بالمجاعة"، أنظر: **كتاب التواريخ أو تاريخ فاس**، تأليف أخبار

من عائلة أبن دنان الغرناطيةالفاسية، ترجمة عن العبرية عبد العزيز شهير، منشورات جمعية تطاوون أسمير، ط1، 2002، ص 17،

[43].Rosenberger B et Triki H : « **Famines et épidémies**... », Op.cit, Vol XV, 1974, p 9.

[44]. نبه أحد الباحثين إلى العلاقة بين المسألة الديمغرافية وقيام أو انهيار الدول، واستنتج أن الميزة الأساسية للوضع الديمغرافي خلال هذين الفترتين، هو سيادة طابع النقص والتراجع في عدد السكان، أنظر: القادري بوتشيش إبراهيم: "**أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)**"، ضمن مجلة كنانيش، منشورات ك.آ.ع.إ، وجدة، ع 1، صيف- خريف 1999، ص ص: 40-52.

[45] شقير محمد، **تطور الدولة في المغرب – إشكالية التكون والتمركز والهيمنة – من القرن الثالث ق.م إلى القرن العشرين**، إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ط2، 2006، ص 62.

[46]جغلول عبد القادر، **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط**، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة، ط1، 1982، ص 77.

[47]استيتومحمد، **الفقر والفقراء**...،م.س، ص 123.

[48] شقير محمد، **تطور الدولة في المغرب...**، م.س، ص 102.

[49]. العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص 474.

[50] ننبه إلى الدور الأساس الذي لعبته الأزمات المناخية في بلورة مهدوية ابن أبي محلى، ولعل هذا ما جعلنا نتساءل في محطات سابقة حول العلاقة بين الكارثة الطبيعية والمهدوية، خاصة وأن ظهور ابن أبي محلي جاء وسياق الأزمة التي طبعت وضعية المغرب خلال تلك الفترة، مما يفرض وجود ارتباط عضوي بين المهدوية والفعل السياسي، في سياق شروط تتسم بالأزمة غالبا، فضعف السلطة المركزية، والضائقة الاقتصادية المتجلية في القحوط والأوبئة، وما يترتب عن ذلك من خوف، كلها عوامل أغرقت البلاد في الفوضى والفساد، وهي شروط خصبة لظهور المهدوية. يراجع: العرجاوي كريم، **المطر بين الوفرة والندرة...**،م.س، ص ص: 190-194.

[51] شكلت منطقة تافيلالت محط أطماع عدد من المتنافسين السياسيين، كالدلائيين والسملاليين، في الوقت الذي كان فيه الأشراف العلويين يعملون على تركيز وجودهم بالمنطقة، خاصة مع مبايعة أهل تافيلالت للمولى الشريف سنة 1040هـ/1631م، ثم بيعة ابنه المولى محمد سنة 1050هـ/1640م، حيث ستبدأ الإرهاصات الأولى لتحول الزعامة العلوية بتافيلالت نحو النشاط السياسي

والسعي لتوحيد البلاد. (أنظر في هذا الصدد: الناصري خالد، **الإستقصا**...، ج7، م.س، ص ص: 13-15)، وفي مقابل ازدياد قوة العلويين وتناميها في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى، بدأ نفوذ باقي الزعامات الأخرى في التراجع، إذ انهار الحكم السعدي بمراكش، في حين أن خليفة أبي حسون السملالي سيدي أوعلى لم يستطع الحفاظ على نفوذ إمارته بالمناطق الواحية، وفقد الدلائيون سيطرتهم على الشمال والغرب، لتصبح البلاد على "حالة من الوهن الاقتصادي والفوضى الاجتماعية والتمزق السياسي، مما جعلها مهيأة أكثر من أي وقت مضى لقبول طاعة من استطاع القضاء على مختلف هذه القوى المنهارة"، أنظر ما جاء عند:القبلي محمد، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011، ص 401.

[52]. العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، عدد د1433، ص 256.

[53]. يقول العياشي: "وأما جملة من مات فيها من غير أهلها ممن كان يريد المدينة، فقد تعارضت فيه الأخبار وتخالفت، فمن بين قائل يقول أربعة وعشرين ألفا، ومن بين قائل يزيد على ذلك زيادة كثيرة تكاد في العقل تكون من المحال". المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[54]. ما يؤكد كذلك شدة الفراغ السكاني بالمنطقة استحالة انعقاد سوق المدينة، الذي أصبح معطلا، ليقوم الناس بعمليات الدفن، فقد ارتفع عدد الموتى حتى تعذر على الناس دفن موتاهم، بعدما صاروا غير قادرين على غسلهم، بل لقد تركوا الصلاة عليهم، مما يدل على أن عدد الوفيات كان مرتفعا جدا. أنظر المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[55]. نفسه، ص 257.

[56]. أكد قسطاني بن محمد على رسوخ الثقافة الزراعة القائمة على السقي بالمجتمع الواحي منذ عصور غابرة في القدم، راجع كتابه حول: **الواحات المغربية قبل الاستعمار –غريس نموذجا–**، م.م.م.ث.أ، الرباط، 2005، ص ص: 39-42.

[57]. عمالك أحمد: "**الأزمة وتوطيد الحكم المركزي مجاعة عام 1071–1072 نموذجا**"، ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب ك.آ.ع.إ، الجديدة، ص ص: 272-288.

[58]. لعل هذا ما جعل المناطق الواحية مقصدا للسكان الفارين من المجاعة، القادمين من المناطق الداخلية، أنظر: العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش**...،م.س، ص 252.

[59]. تحدث الوزان عن الأخطار والأضرار التي كانت تسبب فيها الأمطار في فصل الخريف على النخيل ومحاصيله، يقول في هذا الصدد: "وإذا هطل المطر في شتنبر فسد معظم الثمر، وكانت الغلة مزرية، وتحتاج جميع أراضي نوميديا (الجنوب الشرقي) إلى السقي لكي تزرع...**وعندما ينحبس المطر تجود غلة التمر**"، أنظر: الوزان حسن، **وصف إفريقيا**، ج1، م.س، ص 65.

[60]. أيت لفقيه لحسن: "**فصول من ثقافة الجوع**..."، م.س، ص ص: 22-27.

[61].Houbaida M, **Le Maroc végétarien**, **15e–18e siècles**. **Histoire et biologie**, Edition Wallada, Casablanca, 2008, p 90.

[62]Houbaida M, **Le Maroc végétarien…**, Op.cit, pp: 41-49.

[63]. ابن خلدون، **المقدمة**، م.س، ص 89.

[64]. المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[65]. حبيدة محمد، "**الخبزيون في المغرب**"، ضمن مجلة زمان، ع 5، 15 فبراير-15 مارس، 2014، ص 47.

[66]. الوزان حسن، **وصف إفريقيا**، ج1، ج.س، ص 48.

[67]. كربخالمارمول، **إفريقيا**، ج2، م.س، ص 44.

[68]. نجد بالزاوية الدلائية مثلا إسرافا كبيرا في تناول الطعام، يقول القادري في هذا الصدد: "وكان (أي محمد ابن أبي بكر الدلائي) آية باهرة في إطعام الطعام للأضياف وغيرهم، وكانت له برمة أقل ما قيل أنها تسع من اللحم بقرة أو ثور وكسكاسها، أكثر من وسق دون ما يخص به العطايا. أنظر ما جاء في كتابه:**التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار الحادية والثانية عشر**، جزآن، تحقيق هاشم القاسمي العلوي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بيروت، 1983، ج2، ص 104.

[69]. للتوسع أكثر حول هذه المخازن أنظر :

- Zainabi A T : « **Les magasin collectifs du JbelSirwa** », In Les Igoudar : Un Patrimoine Culturel à Valoriser, publication de l'Institut Royal de la Culture Amazighe Centre des Etudes Historiques et Environnementales, Rabat, 2009, pp : 201-216.

[70]. اللافت للانتباه أن معظم الحركات السلطانية جرت خارج المواسم المطيرة، لأن الجيوش قد تصبح عرضة لمداهمة العواصف والسيول أو الثلوج، ولعل هذا ما يفسر فشل كثير من الحملات، وتعرض الجيش لأهوال شديدة عندما يتحرك في الفصول المطيرة" أنظر مقالة استيتو محمد: "**الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة؟**"، ضمن أعمال ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات ك.آ.ع.إ، عين الشق، الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، صص: 175-190، وأيضا الفصل المخصص للماء وتنظيم المجال الحربي ضمن دراسة : لوبنى زبير، الماء والحرب...، م س، صص 73-117.

تسليح جيش التحرير الوطني عبر الحدود الغربية خلال الثورة الجزائرية(1954-1962)

د- الطاهر جبلي- قسم التاريخ - جامعة تلمسان.

تمهيـــد:

شكلت تلك الجهود والمساعي الرائدة التي قام بها قادة الثورة خلال مرحلتها الأولى (1954-1956) للبحث عن مصادر لتمويل الثورة بالأسلحة والذخيرة سواء في الداخل انطلاقا من المناطق الحدودية الشرقية والغربية (المنطقة الأولى والثانية والخامسة)بفضل الدور البارز الذي لعبه كل من: مصطفى بن بولعيد، وعباس لغرور، ولزهر شريط وعمارة العسكري(بوقلاز)ومحمد العربي بن مهيدي، أوفي الخارج بفضل جهود أحمد بن بلة، وعلي مهساس، وقاضي بشير؛ بالإضافة إلى دور محمد بوضياف الذي تكلَّف بمهمة التَّسليح على الجبهة الغربية بالتعاون والتنسيق مع محمد العربي بن مهيدي؛ الأرضية لمشروع إمداد الثورة بالسلاح والذخيرة الذي تجسدت معالمه بعد صائفة 1956،من خلال النَّشاط الحيوي لشبكات الدَّعم اللوجيستيكي في عمليات الإمداد بالأسلحة والذخيرة الذي عرفته الثورة التحريرية على الجبهتين البريَّة والبحريَّة انطلاقا من قواعد عسكرية خلفية للإمداد في طرابلس وتونس ووجده والناظور، ثم قواعد ومراكز حدودية للتموين في الشرق والغرب لتصل إلى المقاتلين في الولايات الداخلية بواسطة قوافل للتسليح عبر مسالك وممرات برية، أو خطوط إمداد بحرية تربط شبكة التَّسليح في الخارج (أوربا والمشرق العربي) ببعض الموانئ في الغرب الجزائري والسواحل المغربية.

وانطلاقا من المادة التاريخية المتوفرة ،سنحاول من خلال هذه الدراسة التركيز على عمليات إمداد الثورة بالأسلحة والذخيرة على الجبهة البريَّة مع رصد أهم المسالك والممرات عبر الحدود الغربية التي شكلت المنافذ الحساسة لتهريب الأسلحة القادمة من وأوربا والمغرب.

1- الجبهة البريَّـة (البعد التاريخي والأهمية الإستراتجية):

نالت الجبهة البريَّة سبقًا تاريخيًا مقارنة مع الواجهة البحريَّة بخصوص عملية إمداد الثورة بالسلاح وطرق تهريبه إلى المقاتلين في المناطق الداخليَّة رغم الظروف الصعبة التي أحَاطت بها وردود الفعل الفرنسية جراء عمليات المراقبة المتواصلة.

ويعود هذا السَبْق إلى الأهميَّة البالغة التي أوْلاَها نشطاء الفصيل الثوري في التيار الاستقلالي للجبهة الحدوديَّة خلال مرحلتي المنظمة الخاصة(1947ـ 1950)،والتحضير الميداني الجاد لانطلاق العمل المسلَّح بين(1950-1954)،حيث شكلت الحدود الرهان بالنسبة لكل من محمد بولوزداد ومصطفى بن بولعيد ومحمد العربي بن مهيدي ومحمد بوضياف، وأصبحت دائما تحتل مكانة في الحسابات العسكريَّة بالنِّسبة لقادة الثورة في الداخل أو الخارج كمنفذ استراتيجي لعبور العدَّة والعتاد، وكصمَّام أمان يُؤمِّن استمرار النَّشاط الثوري بما يحتاجه من دعم ومدد ماديٍّ من القواعد الخلفية للثورة التحريريَّة خارج إطارها الإقليمي.

2 – أهمية الحدود الجزائرية الغربية:

لعبت الحدود الغربية دورا ملموسا في عمليات إمداد الثورة بالأسلحة لا يقّل أهمية عن الدور المميز الذي اضطلعت به الحدود الشرقية وفي هذا السياق يكمن الإشارة إلى أن الجبهة الغربية كما ورد في ذلك التقرير العام المفصل في الداخل الذي أعدته وزارة التسليح والاتصالات العامة سنة1960، عن الوضع العسكري كانت مكشوفة الأمر الذي أثر على تأخر العمليات العسكرية بل حتى الثورة ذاتها في المنطقة حيث عانت هذه الأخيرة دوما من نقص الأسلحة والذخيرة، ليس من حيث الكمية المطلوبة فحسب وإنّما يتعداه إلى التسليح بشكل عام.

ويمكن تفسير ذلك بأن القاعدة الخامسة للثورة في المغرب كانت مفتوحة على الشرق الأدنى ودول البلقان وأوروبا الشرقية عن طريق البحر أو فقط بالطرق البرية بحيث يمكن تحرك الأسلحة بحريّة تامة من مصر إلى تونس مرورا بليبيا حيث جميع

هذه الدول مستقلة[1] وبذلك لم تضيّع قيادة الثورة في الجبهة الشرقية فرصة الاستفادة من الدعم العربي بعيدا عن الحصار المكثّف الذي كانت تعاني منه الحدود الغربية والتي كان لها القطر المغربي الشقيق هو المتنفس الوحيد برّا ومع ذلك استطاعت أن تتجاوز الكثير من الصعاب.[2]

إنّ الخصوصية الجغرافية التي تميزت بها الحدود الغربية من حيث أنها لم تكن مفتوحة على اليابسة دفعت قيادة الثورة إلى توظيف الواجهة البحرية التي كانت قبلة لعشرات السفن المحملة بالسلاح لصالح الثورة في الولاية الخامسة. وقد تمكنت الحدود الغربية مع تطور العمل المسلح وحنكة البعض من قادة الولاية الخامسة فعلا من فك الخناق الذي عانت منه الثورة التحرير بفعل نقص السلاح في ظل النشاط الدبلوماسي الجزائري المكثف في المغرب الأقصى واسبانيا من أجل تبديد العقبات وتسهيل عمليات البحث عن الأسلحة وتهريبها إلى الداخل.[3]

لم تكن معظم عمليات إمداد الثورة بالسلاح عبر الحدود الشرقية في كل الأحوال ناجحة وسهلة في المرور نحو الولايات الداخلية الأمر الذي دفع بقيادة الثورة إلى وضع خطط وتشكيل شبكات للتسليح تتولى مهمة الحصول على السلاح من أوروبا والمغرب وإيصاله إلى الولاية الخامسة والرابعة عبر الحدود البرية مع المغرب.

3 – قيادة الولاية الخامسة في مواجهة مشاكل التسليح:

يشير المجاهد النقيب مراد صديقي بأن إدارة التسليح التي كلفت بمهمة البحث عن السلاح والعمل على ضرورة تهريبه إلى الداخل عبر الحدود الغربية كانت تابعة للولايات الخامسة ومقرها الرسمي في وجدة المغربية وقد كان على رأس قيادة إدارة شبكة التسليح على مستوى الجبهة الغربية محمد الرويغي المدعو توفيق، وانحصرت مهمتها أساسا في البحث عن السلاح وتهريبه بكافة السبل والوسائل إلى الداخل وتزويد بعض الولايات بالمال ونظرا للإجراءات التي اتخذتها المصالح الفرنسية في إطار عمليات المتابعة والمراقبة العسكرية خصوصا بعد إنشاء الخطوط المكهربة

على طول الحدود الغربية سنة 1957 لإعاقة علميات الإمداد والاتصال بين قيادة الحدود، خضعت شبكة التسليح إلى تنظيم وهيكلة على أسس جديدة.

-دور بن مهيدي في ميلاد مشروع تسليح الثورة على الجبهة الغربية:

وتشير بعض المصادر إلى أن المنطقة الخامسة(القطاع الوهراني) بحدودها الغربية مع المغرب كانت مجهّزة منذ صيف 1956بهياكل التقاط وجمع للأسلحة ويعود ذلك إلى سنة 1955عندما تكفل محمد العربي بن مهيدي بنفسه بمهمة قيادة قوافل التسليح متتبعا في ذلك خط الناظور زوج فاقو ومغنية وكان المجاهد بوشاقور ذو الخبرة الكافية بمعرفة مسالك المنطقة يقوم بمهمة الدليل الأول مسؤول في المنطقة الغربية.وقبل مغادرة بن مهيدي إلى العاصمة في ربيع 1956 للأشراف على المنطقة المستقلة(العاصمة)جُهزّت الجبهة الغربية بسند هيكلي يدعمه تنظيم إقليمي تلامس حدوده الجغرافية التراب المغربي،منعطفات القواعد الخلفية تسهِّل وتتلاءم مع عمليات جمع والتقاط العتاد الحربي،وهكذا كان تقسيم المخطط لهذا الغرض إلى غاية 1956 يشمل مناطق مليلة.[4]

كانت قيادة الثورة بالمنطقة الخامسة على استعداد معنوي ومادي لتقديم تصوّر استراتجي يهدف إلى تقوية الأرصدة اللوجيسيكية للثورة وذلك قبل عملية حجز المركب أتوسATHOS بكثير،التي شكلت انتكاسة بالنسبة لقيادة الثورة في الولاية الخامسة وعلى رأسها عبد الحفيظ بوصوف الذي خلف بن مهيدي بموجب مقررات مؤتمر الصومام(أوت1956)ولم تكن هذه العملية سوى تأكيدا على الضرورة التي كان يشعر بها المسؤولون العسكريون في الولاية لإنشاء وتطوير قنوات تزويد وإمداد مستقلة وحسب خطة بوصوف أن هذه الإستراتجية كانت تتخلص في نقاط ثلاثة أساسية :

1)ضمان تزويد جيش التحرير الوطني انطلاقا من القواعد الخلفية وعبر التراب المغربي وأسبانيا.

2) تكوين مخابرين جزائريين في ميدان الموصلات وفتح أول تربص تكويني في هذا التخصص من طرف جيش التحرير الوطني.

3) إفشال المحاولات التخريبية التي أقدمت عليها المصالح الفرنسية للمخابرات ومكافحة الجوسسة وانطلقت العملية بتنظيم أول تربص في التكوين السياسي أسندت مهمة الأشراف عليه إلى لعروسي خليفة.[5]

4 – نشاط شبكة الإمداد بالسلاح على الحدود الغربية:

بدأت شبكة التسليح في الجبهة الغربية مع صائفة 1956 في عمليات البحث عن الأسلحة وتهريبها برّا نحو الداخل ومن أهم الخطوات التي اتبعتها لتحقيق أهدافها،أنها شرعت في تجنيد الجزائريين أصحاب السيارات الذين كانوا متنقلين بين المغرب والجزائر بعد إخبارهم بتفاصيل المهمة التي يقومون بها وأهدافها وهي مهمة صعبة وخطيرة تتعلق بنقل الأسلحة وتهريبها إلى داخل تراب الولاية الخامسة عبر نقاط عبور مختلفة وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من هؤلاء لم يكونوا يعلمون بطبيعة المهمة التي جُندوا لها.[6]

وقد كان المطلوب من هؤلاء المجندين في شبكة التسليح ترك وسائل نقلهم(سيارات وشاحنات)في أماكن معينة ليعودوا إليها في وقت متفق عليه للانطلاق بها نحو اتجاه محدد ومعلوم،وتتكرر العملية عدة مرّات بنفسه الخطّة والخطوات.[7]

وفي نفس السياق كانت شبكة التسليح حريصة ويقضه في عملية اختيار مجنديها الذين كانوا يختارون وفق مقاييس دقيقة بعد التحقق من هوياتهم ورصد تحركاتهم،كما جندت الشبكة عناصر أوكلت لهم مهمة مراقبة المنافذ الرئيسية بين الجزائر والمغرب ومحاولة الاتصال بأصحاب السيارات وإفادتهم بالمعلومات المتعلقة بتحركات العدو ووضعية نقاط المراقبة.[8]

توسع نشاط شبكة التسليح السرية وأصبح لها أعضاء(عملاء)خارج الجزائر لاسيما في المغرب وأسبانيا وفرنسا تحمّلوا مهمة نقل السلع والبريد والأموال من فرنسا وإسبانيا عبر المغرب إلى الجزائر.

وتجدر الإشارة إلى أن المصادر الخارجية للسلاح التي شكلت الوريد الذي يمد الحيوية والنشاط للعمل الثوري، معظمها عبارة عن مساعدات وهبات قدمتها الدول العربية الشقيقة ومنها المغرب الأقصى وبعض الدول الاشتراكية وصفقات في السوق السوداء أبرمت مع مهربي وتجار الأسلحة على مستوى أوروبا والشرق الأوسط بالإضافة إلى مصانع للسلاح الخفيف أقامته قيادة الثورة في القاعدة الخلفية للثورة على مستوى التراب المغربي.

– دور بوصوف في تفعيل شبكة التسليح على الأراضي المغربية:

شرعت قيادة الثورة في الولاية الخامسة في إجراء عدة اتصالات مع بعض الجزائريين النشطين في شبكة التسليح على مستوى الجبهة الحدودية الغربية،ومن أهم و أبرز هؤلاء نذكر زقار مسعود المدعو"رشيد كازا" الذي كلفه بوصوف بعد عدّة اتصالات بمهمة مراقبة والتقرب من قاعدتي النواصح والقنيطرة الأمريكيتين في المغرب ومحاولة الحصول على السلاح والأجهزة اللاسلكية.

ثم استدعاه مرة أخرى في شهر جويلية 1956 ليوافيه بتقرير مفصل حول نتائج مهمته وحصيلة جهوده في عملية البحث عن الأسلحة وقد تضمن التقرير نجاح مسعود زقار في الحصول على بعض الأجهزة اللاسلكية والبنادق البحرية عن طريق البيع والهبات وسرعان ما اكتشف مسعود أن زميله السابق المدعو التواتي يعمل بقاعدة النواصح فتقرب منه واستعان به للتعرف على ضابط صف يدعى "مور – MOUR" فابرم معه أول صفقة سلاح كانت فاتحة للعديد من الصفقات اللاّحقة.[9]

كما تمكن رشيد بنفس الطريقة من الحصول على جهاز إرسال ضخم خاص بتجهيز البواخر إلاّ أنه استعمل في البث الإذاعي من صوت الجزائر بالناظور بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات.[10]

لقد تكمن رشيد كازا من الاندماج في الوسط الأمريكي بالمغرب بفضل علاقاته و إتقانه اللغة الانجليزية حتى أصبح يعرف "بالمستر هاري" واستطاع بعد فترة وجيزة من تكوين شبكة مختصة في جمع المواد المتفجرة من مناجم الفوسفات بالخريبقة وغيرها ونقلها إلى الحدود.

إنّ تطور جيش التحرير الوطني من حيث التنظيم والأداء يعني كذلك تنامي أنوية الأسلحة المتخصصة فيه كالقضاء والصحة والبحرية والطيران واللاسلكي والصناعات الحربية وبذلك فكر قسم الإمداد والتسليح في الثورة بقيادة عبد الحفيظ بوصوف ومساعديه خاصة في تأسيس نواة صناعة حربية يمكن أن تخفف من تبعية جيش التحرير على صعيد الذخيرة بالدرجة الأولى ثم بعض الأسلحة التي لا تتطلب صنعها تكنولوجيا معقدة وآلات باهظة من حيث التكاليف وفي هذا السياق يشير فتحي الديب بأن عبد الحفيظ بوصوف بدأ منذ شهر جوان 1956 يسعى ويجتهد من أجل تكوين هذه النواة بالسعي للحصول على آلات لصنع أوعية الذخيرة و تعبئتها.[11]

وسرعان ما تجسد هذا الاهتمام ميدانيا خلال سنتي 1957 و1958 في مشاريع هامة تعبّر عن تطور جيش التحرير وتنامي قدراته وطموحاته في نفس الوقت ومن أهم هذه المشاريع تلك التي عرفتها قاعدة الثورة في ما وراء الحدود الغربية ومن هذه المشاريع:

- مصنع للذخيرة و الرشاشات الفردية المقلّدة.
- مصنع للراجمات من شاكلة "بازوكا" ومدافع "مورتي".

وقد أشرف على إنجاز هذين المشروعين بالمغرب مسعود زقار "رشيد كازا" تحت غطاء شركة خاصة لصناعة الشوكات والملاعق.[12]

تعدت جهود شبكة التسليح في الجبهة الغربية إلى تجنيد حتى الأجانب في سبيل الحصول على السلاح سواء عن طريق شرائه أو تهريبه وبذلك انخرط في الشبكة متعاونون من عدة جنسيات،ومن ابرز هؤلاء نذكر العميلين المهمين من جنسية فرنسية وهما:شيروسو شامبو دوسان سيرين جان المعروف باسمه المختصر شامبو واسمه الثوري "علي"[13]،وكذلك المتعاملة جاكلين بورسارو التي جندها لخدمة الثورة أحد أعضاء الشبكة المدعو إيدير آيت يسعد وقد دفعها إلى العمل مع الشبكة تعاطفها مع الثورة الجزائرية بالإضافة إلى رغبتها في جمع المال.[14]

ويجب الإشارة في هذا السياق إلى نقطة هامة تتعلق باستقلال المغرب سنة 1956 الذي ساهم في تخفيف الضغط على كتائب جيش التحرير الوطني على الحدود الغربية، وحتى دولة إسبانيا أصبحت لا تضايق كثيرا عمليات نقل الأسلحة التي تتم عبر الناظور وسبتة ومليلة.

5- خطوط الإمداد وممرات تهريب الأسلحة:

وفي خضم هذه الظروف استغلت شبكة التسليح كل الإمكانيات والعوامل المساعدة لتهريب الأسلحة والذخيرة حيث اعتمدت على طرق هامة ورئيسية للإمداد سوءا كانت برية أم بحرية،وقد شكلت المنطقة الجنوبية الغربية معبرا رئيسيا لتمويل الولاية الخامسة والسادسة بالأسلحة عبر البيّض وبشار وأدرار وتندوف حيث كانت الصحراء عاملا مساعدا على عبور قوافل السلاح عكس المنطقة الشمالية الغربية التي كانت تحت المراقبة الشديدة من طرف المصالح الفرنسية[15] خصوصا بعد أن لجأت إلى عملية غلق الحدود بالأسلاك الشائكة المكهربة للحد من عمليات عبور الأشخاص والسلاح.

ورغم ردود الفعل الفرنسية فإن قيادة الثورة في الولاية الخامسة لجأت عبر الحدود الغربية إلى عدة أساليب لتهريب السلاح عبر الطرق المذكورة وبوسائل متنوعة وضعت تحت تصرف شبكات الدعم بالسلاح بالإضافة إلى ذلك حاولت قيادة الثورة أيضاً الاعتماد على طرق جديدة للحصول على السلاح واستخدامه

وقد تمكنت الثورة من تطوير سلاح جديد وهو سلاح الألغام حيث برمجت عدة تربصات في معسكرات ومراكز خاصة لتدريب جنود جيش التحرير على التعامل مع هذه الأسلحة ومن بين الألغام التي تمّ تصنيعها وتطويرها الألغام المضادة للدبابات التي تعمل على تعطيل وتفجير الآليات المدرعة والعربات وهي ألغام مصنوعة محليا بالإضافة إلى ألغام السكك الحديدية التي استخدمت بشكل كبير في تفجير القطارات الفرنسية الناقلة لجيش العدو ومعدّاته.[16]

وقد كان لهذا النوع من الأسلحة مفعولا لا باس به في عدة مناطق وفي هذا السياق نشير إلى نجاح المستخدم في تخريب خط سكة الحديد الرابط بين المغرب والجزائر بمنطقة فيقيق وبشار،وكذلك تعطيل الخط الحديدي الرابط ما بين بشار ووهران المخصص لنقل جيش العدو ومعداته الحربية[17].

6–موقف قيادة الثورة من ردود الفعل العسكرية الفرنسية على الحدود الغربية(الحلول والبدائل الممكنة).

أصبحت الأوضاع أكثر تعقيدا مع مطلع 1958 بسبب سياسة الحصار والتطويق المضروب من طرف القوات الفرنسية خصوصا بعد إنشاء خط موريس المكهرب على طول الحدود الشرقية والغربية لعزل الثورة عن قواعدها الخلفية وفي هذا الإطار عملت القوات الفرنسية جاهدة على ملاحقة وحدات وفرق جيش التحرير الوطني على الحدود الغربية كما بذلت قصار جهدها من أجل وضع حدّ لشبكة تهريب السلاح سواء في الداخل أو الخارج وذلك بتقوية أجهزة استخباراتها ومنظماتها الإجرامية الأخرى،مثل منظمة اليد الحمراء التي تعد فرعًا من المكتب الثاني الفرنسي التي كانت عناصرها تتبع تحركات أعضاء شبكة التسليح في الجزائر وأوروبا والوطني العربي من أجل التخليص منهم.[18]

وبالرغم من الإجراءات الفرنسية المشددة فقد تمكنت شبكة التسليح من القيام ناجحة تمكنت من خلالها إدخال أسلحة متنوعة وذخائر عبر الحدود الغربية نحو الداخل ولو كانت تلك الكميات غير كافية، إذ عبّرت لجنة التنسيق والتنفيذ عن ذلك الوضع في تقريرها حول الوضعية العسكرية للثورة في خريف 1958 عند الإشارة إلى قضية التموين بالسلاح : قالت إن هذه العملية كانت دائما دون الحاجة الملحة حتى في الوقت الذي كانت فيه الطريق مفتوحا" كما أن توقف عملية الإمداد بالسلاح في الآونة الأخيرة جعل الأمور أكثر خطورة خصوصا في المناطق الغربية الذي انعكس على مردودية العمليات العسكرية لعناصر جيش التحرير على الحدود و إزاء هذه الأوضاع قررت اللجنة اتخاذ عدّة إجراءات بخصوص الحدود الغربية :

1) – البحث عن عملاء جدد و خصوصا في أسبانيا.

2) – تنويع الطرق الوسائل من أجل الحصول على الأسلحة بالاعتماد على مخازن السلاح التابعة للفرنسيين والأمريكيين الموجودة فوق الأراضي المغربية.[19]

وتنفيذا لهذه القرارات شرع قيادة الثورة في الجبهة الغربية في إنشاء شبكة سريّة لصناعة الأسلحة لتموين الثورة في مختلف جهات القتال ولها دورة استطلاعية قام بها عبد الحفيظ بوصوف قائد الولاية الخامسة حول مختلف مخيمات جش التحرير وتقرر صنع القطع الحربية التالية :

- 60 مسدس رشاش ألماني	Mitraillette PM
- 50مدفع هاون	M/M (Mortrer)
- 60مدفع هاون	M/M (Mortrer)

وبعد اتخاذ قرار هذه الأسلحة التحق الكثير من الجزائريين الاختصاصيين والتقنيين في تصنيع القطع الحديدية بعثت بهم فدرالية فرنسا إلى المغرب بالإضافة إلى تعاون مهندسين ألمان ومن الأرجنتين والإنجليز واليونان وبعد شراء الآلات الضرورية والمواد الأولية من طرف محمد أرزقي مسؤول التموين بالناحية الغربية[20] بدأ انجاز ورشات ومصانع لصناعة الذخيرة و بعض الأسلحة الخفيفة فضلا عن راجمات "البازوكا" و المورتي" التي كانت في حقيقة الأمر ضرورية بالنسبة الاحتياجات الثورة، وقد توزعت هذه المصانع فوق التراب الغربي وكانت موجودة في الأماكن التالية[21] :

- تطوان (1958)صناعة القنابل من النوع الإنجليزي والمتفجرات.
- بوزنيقة (1959) القنابل من النوع الأريكي والبنقالور والسلاح الأبيض.
- تمارة (1960) صناعة الرشاشات الخفيفة MAT 49 والسلاح الأبيض.
- الصخيرات (1960) صناعة مدافع الهاون – عيار 45 والمتفجرات.
- المحمدية (1960) صناعة مدافع الهاون عيار 60 – 80 والبنجالور والألغام.
- الدار البيضاء (1960) صناعة البازوكات والرشاشات MAT 49 المتفجرات والألغام والسلاح الأبيض. [22]

ولم تكن هذه الأسماء مجرد تسميات بعيدة كل البعد عن مواقع القواعد الحقيقية وذلك للسرية التي أحيطت بها وأغلبية هذه القواعد كانت عبارة عن مزارع معزولة ومهيأة بكيفية لا تسمح للسلطات المغربية بملاحظ ومعرفة نشاطها الحقيقي وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنه تمّ إنتاج عدة أنواع من الأسلحة في هذه المصانع مثل (Lance-flamme) وحاملات الرشاشات وخراطيش عيار 9 مم كما تمّ تركيب دبابة ذات تحكم عن بعد أقصاه 500 متر أرسلت من أيام ألمانيا حيث تم تجهيز بطريقة تسمح لها بعبور الطرق الملغمة وفتح المجال عبر السدود المكهربة كما أنتجت ألغام مضادة للأشخاص ومع نهاية سنة 1961 انتهت قيادة الثورة التي كانت تشرف على هذه المصانع والو رشات إلى

صنع:500000 قنبلة يدوية أمريكية و1000 مسدس رشاش (PH60) و500 مدفع هاون 50 مم وكمية من العبوات (OBUS).[23]

بالإضافة إلى هذه المصانع والورشات التي أنشأتها قيادة الثورة في المغرب شرع منذ 1960 في جلب الأسلحة النصف ثقيلة بمختلف أنواعها وذخيرتها الحربية من الخارج خصوصا المدافع (مدافع الهاون) والبازوكات والمدافع المضادة للطائرات وكانت هذه الأسلحة تأتي من بعض الدول الشرقية وأوروبا عبر المغرب وباسم الحكومة المغربية[24] وفي هذا السياق يشير المجاهد عمّار بن عودة بأن مصانع الثورة بالمغرب حاولت صنع قذائف المدفعية غير أن التوفيق لم يحالف القائمين عليها، إذ أودت المحاولة بحياة المجاهدين الأمر الذي دفع ببوصوف سنة 1960 إلى محاولة جلب هذه القذائف من ليبيا و نقلها إلى المغرب عن طريق الجو بواسطة طائرة تابعة لأحدى الشركات الإنجليزية في صناديق كتبت عليها "لوز ليبي حلو".[25]

ومن خلال استعراض نماذج من دفعات السلاح[26] الذي كانت تؤمّنه يوميا شبكة التسليح السرية (إدارة الاتصالات الخاصة) بوسائلها وطرقها المختلفة لجيش التحرير الوطني، نلاحظ أن الأسلحة المهربة عبر الغربية كانت موجهة بشكل خاص للولايات الخامسة والسادسة والرابعة كما أن نصيب الخامسة من السلاح أكثر من بقية الولايات الأخرى وأن الذين تولوا مهمة تهريب السلاح جزائريون وأجانب بواسطة شاحنات وسيارات خفيفة وكذا القطارات والملاحظ أن معظم الأسلحة كانت خفيفة كالمسدسات والرشاشات بينما لا نجد السلاح الثقيل خصوصا المدافع الأمر الذي دفع بوصوف إلى استدراك العجز بالعودة إلى جلبه عن طريق شبكة التسليح النشطة في بعض الدول الشرقية وأوروبا الغربية.[27]

7- طرق ووسائل تهريب الأسلحة عبر الحدود الغربية:

وفي خضم الظروف التي واجهت شبكة التسليح عبر الحدود الغربية بعد الانتهاء من إقامة خط موريس مما اثر سلبًا على حركة وتنقل جنود جيش التحرير الوطني سيرا على الأقدام إلى المغرب بهدف التزود بالسلاح والتدريب ولم يبقي أمام كتائب جيش التحرير سوى ممر فيقيق للتسلل في الجنوب الذي أغلقته هو الأخر القوات المغربية سنة 1958، الأمر الذي دفع جيش التحرير إلى البحث عن طرق ووسائل لتفعيل شبكة التسليح وتأمين عملية إمداد قوات الداخل بها تحتاجه من مدة المواصلة العمل المسلح وعلى هذا الأساس كلفت الشبكة السرية للتسليح التابعة لإدارة الاتصالات الخاصة بالبحث على طرق لتهريب السلاح إلى الثوار بوسائل أكثر أمنا وأمانا ومن أهم هذه الوسائل نذكر ما يلي :

أ- **صناديق الخضار**: كانت الشبكة تعد في مراكز خاصة بها في المغرب،صناديق خضار ذات قعر مزدوج، لا يثير الشبهة، توضع داخله مسدسات، أو كميات من الذخيرة ثم تعبأ الصناديق بالخضار المطلوب شراؤها من التجار، ثم توجه إلى الجزائر دون أن تثير الشبهة، واستخدمت هذه الوسيلة لمدة سنتين حتى1960.

ب- البطيخ: كان البطيخ يستخدم في موسمه لنقل الذخيرة الكبيرة الحجم كالقنابل اليدوية والرمانات الموجهة بالبنادق وطلقات الرشاشات الثقيلة، فقد كان يفرغ من جوفه، وبعد تعبئته بالذخيرة يعاد إغلاقه بطريقة فنية، بحيث لا يثير الشبهة مطلقا، ودفعا للالتباس كان يوضع البطيخ العادي على وجه الشحنة.

ج- قلل الفخار (الجرار): اتصلت الشبكة بأحد عمال الفخار، الذي كان يصنع القلل بفاس المغربية،وعرضت عليه فكرة تهريب الذخيرة ضمن القلل، فوافق، فكان يصنع القنبلة بشكل عادي،وبعدما تجف يصنع في قعرها ذخيرة أو مسدسا صغيرا أو قنبلة يدوية، ثم يغطي ذلك بطبقة

ويتركها تجف مرة أخرى، وصارت القلل تشحن بكميات كبيرة في القطار إلى وهران.[28]

د- نقل الأثاث: كانت مهمة نقل السلاح والذخيرة ضمن الأثاث من مهام الشبكة السرية، وكان مكلفا بها أحد عملاء الشبكة وهو الدكتور الطيب تيمور، وقد استغلت هيئة الشؤون الإدارية الحركة التي دبت بين الفرنسيين من سكان المغرب في سعيهم إلى الانتقال إلى الجزائر، بعد إعلان استقبال المغرب، كان هؤلاء ينقلون معهم أثاث بيوتهم الكامل ، وكانت معاملاتهم تنجز في القنصلية الفرنسية بسهولة فائقة، وهكذا وجد جيش التحرير الوطني أنه يمكن استغلال هذه الظاهرة في نقل كميات هائلة من السلاح والذخائر، إلى مختلف المناطق الجزائرية، ونذكر على سبيل المثال طريقة نقل أثاث بيت إلى وهران، فقد اتصلت الشبكة بقيادة المنطقة في وهران لإعطائهم اسم جزائري يمكنه استلام الأثاث عند وصوله إلى ميناء وهران، ويكون اسمه مشابها لاسم مواطن فرنسي،فوافقتها القيادة باسم تاجر من وهران يدعى: فسيان محمد، واشترت الهيئة أثاث بيت كامل،وجعلت عنوانه باسم فسيان محمد، بحيث يمكن قراءته فسيان مارسال أثناء إجراء المعاملات في السفارة الفرنسية، كما يمكن قراءته فسيان محمد عند استلام الأثاث في وهران.[29]

وهكذا أنجزت عملية النقل بنجاح وصدقت السفارة الفرنسية على الأوراق وأبحر الأثاث في باخرة من الدار البيضاء إلى وهران، وفي داخله مخزن كامل من الأسلحة والذخائر، يحتوي على 200 بندقية رشاشة، 20 مسدس، 10000 طلقة، 01 عيار مختلفة.

ذ- خزانات وقود السيارات:استخدمت لهذا الغرض الشاحنات والسيارات السياحية، كان يُطلب من السائقين المتعاونين إيقاف سياراتهم عند وصولهم إلى المغرب ومن هناك يتولى أفراد الشبكة نقلها إلى مشاغل سرية، حيث ينزع خزان

الوقود من مكانه، ثم يفتح ويوضع في جوفه بشكل متناسق خزان مليء بالأسلحة والذخائر، ويترك فراغ من حوله لتعبئة وقود يكفي لمسافة معقولة، وكان التقنيون من أعضاء الشبكة يضعون في الحساب احتمال من قضيب داخل الخزان لتفحصه، لذلك كانوا يضعون ماسورة طويلة تمتلئ مع الجنبات بالوقود، وفي النهاية يعيدون تلحيم الخزان ويدهنونه ثم يعيدونه إلى مكانه، وتعود الشاحنة أو السيارة إلى مكانها كأن شيئا لم يكن، بالإضافة إلى هذا المخزن كانت أرض السيارة التي جعلت من طبقتين، يوضع في المسدسات وعُلب الذخيرة، وبعض البنادق الخفيفة، وكانت الفراغات بين القطع، تحشه بالقطع لكي لا تثير أي صوت ناتج عن الاحتكاك أو الفراغ.[30]

كما هو الشأن كذلك بالنسبة للجنبات السفلى كان يوضع فيها علب الذخيرة، أما سقف السيارة فقد أنشأ تحته مكان آخر،وعُبأ ما بينهما بما يناسب الفراغ من أسلحة وذخائر وهناك الرفافيف الخلفية للسيارة، فقد كانت تزدوج الوصلة التي تربط الرفراف بجانب السيارة الخلفي، وكان هذا المكان من أكثر المخابئ أمانا لصعوبة اكتشافه ولم تترك الشبكة أي مكان يمكن أن يشغله في السيارة إلا وحولته إلى مخبأ سري، حتى وعاء تجميع زيت المحرك في الأسفل جعلت منه مخبأ سريا.

وقد تمت هذه التعديلات والأشغال في ورشات السرية التي وجدت في البداية بالمغرب، ثم فتحت الشبكة مشاغل أخرى لها في أسبانيا وحرصت فيها على أن تكون ملحقة بأماكن عامة، بحيث لا يثير تردد الرجال والعمال ريبة أحد فمثلا كانت بعض المطاعم والمسابح والفنادق تخفي خلفها مشاغل سرية للشبكة من ذلك مثلا (باستيون ميلان) في ضاحية سان فيرناندو بالقرب من مدينة اليكانت وباستيون سي جوفانيا في ضاحية مدريد،وفيلا في برشلونة،ومن أهم هذه المراكز،مطعم كوبنهاجن في بلايادي سان جان على بعد ستة كيلومتر عن مدينة اليكانت.

وكانت المشاغل مجهزة بالمعدات اللازمة لصنع الخزانات السرية، كما كانت مجهزة بوسائل فك وتلحيم الخزانات العادية ودهنها، وكانت هاته المعدات جميعها موضوعة في سيارات مقفلة تتحرك عند الاقتضاء، يمكننا اعتبار هذه السيارات مشاغل متحركة وأن المراكز الثابتة أريد منها حجب الأعين ومن هنا فقد حافظت هذه المراكز على سرّيتها، وعجزت المخابرات عن كشفها [31].

8- دور شبكة التسليح في تطور القدرات القتالية لجيش التحرير الوطني على الحدود الغربية:

ساهمت الأسلحة المصنعة أو المهربة في تحويل الجبهة الشمالية والغربية إلى منطقة عمليات حربية على الحدود الجزائرية المغربية بحيث تمكنت كتائب جيش التحرير الوطني من الحصول على كمية كبيرة من الأسلحة الحديثة والذخيرة الحربية التي ساهمت بشكل كبير في ميلاد فكرة إنشاء الفيالق وظهور تنظيم عسكري حديث لجيش التحرير الوطني وانعكست عملية دخول الأسلحة بكميات معتبرة على ارتفاع عدد المجندين من الشباب وتدريبهم في مدة زمنية قصيرة لم تتجاوز 45 يوما.[32]

ومما لا شك فيه أن الثورة التحريرية عملت على تسليح كتائب جيشها المتمركزة على الحدود الغربية بواسطة مراكز تموينها بالسلاح الحربي التي بدأت في إنشائها مع خريف 1956 في كل من أسبانيا والمغرب وبشكل خاص منطقة الريف المغربي.

بالإضافة إلى كل ذلك تمكنت قيادة الثورة من تأسيس مراكز تدريب وقواعد حربية بعد أن تحصلت على بعض التسهيلات لتمرير الأسلحة عبر الحدود الغربية إلى الداخل وبذلك أصبح جيش التحرير الوطني خلال سنتي 1958 و1959 يملك على الحدود الجزائرية المغربية قدرة عسكرية تمثلت في 700 مجاهد مسلحين سلاحا حربيا وكثير من المجاهدين لم تضبط المصادر عددهم كانوا يتوزعون على مراكز الثورة في الحدود الغربية.[33]

كما سجلت المصادر التاريخية أن المجاهدين تمكنوا من تهريب الكثير من الأسلحة إلى الولايات الداخلية عبر الحدود الغربية حيث عبرت في الفترة بين 01 جانفي و20 نوفمبر 1959، 450 قطعة سلاح و250،000 خرطوشة و2500 قنبلة يدوية.[34].

–مواقف وردود فعل السلطات المغربية من تسليح الثورة الجزائرية عبر الحدود الغربية:

لم تكن محاولات تهريب السلاح عبر الحدود البرية نحو الولايات الداخلية في حقيقة الأمر تتعرض للخطر الفرنسي فحسب،بل في كثير من الحالات كانت السلطات الرسمية المغربية[35] تتعرض سبيل المجاهدين وتضع يدها على شحنات السلاح وتتدخل في شؤون التسليح وعمليات الإمداد وذلك بفرضها شروط تعجيزية على قادة الثورة وإجبارها على الاعتراف بتعديل الحدود الجغرافية مستغلة الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الثورة خصوصا عند ما يتعلق الأمر بمهام التموين والتسليح وقد تأكد ذلك الموقف عند تمركز قوات الجيش المغربي سنة 1958 في ممر فيقيق الإستراتيجي الذي يقع ضمن خط طبيعي يعتمده مجاهدو الولاية الخامسة والسادسة والرابعة في تسللهم من الجنوب إلى التراب المغربي وقد أصبح هذا الممر يشكل أهمية قصوى بعد إقامة خط موريس الذي صعّب من عمليات العبور والتسلل عبر الحدود الغربية[36].

لقد كانت السلطات المغربية تحاول التأثير على الثورة الجزائرية وعلى العمل العسكري لجيش التحرير الوطني من خلال عزله عز مصادر تموينه بالسلاح في قواعد الخاضعة وبالتالي إرغام جبهة التحرير الوطني على الاعتراف بسيادة المغرب على مناطق جزائرية مثل توات وقورارة وتيديكلت.[37]

ودون الاستطراد في هذا الموضوع يمكن القول بأن المشكلة الأساسية لجبهة وجيش التحرير الوطني هي توفير وسائل مواصلة الحرب من مؤن مختلفة وأسلحة ولن يتحقق ذلك إلاّ بضمان وجود قواعد خلفية بمراكش

وقد حاول المغرب الضغط على الجبهة بمحاولة دمجها في إطار مغربي وقطع صلاتها بالقاهرة ومحاولة إجبارها على إعادة ترتيب أهدافها من الحرب والإشراف المباشر على السلاح الذي يتدفق عبر الأراضي المغربية وتسوية المشكلات الحدودية مع الجزائر قبل الحصول على الاستقلال وقد تجلت معالم هذه الأهداف خلال مؤتمر طنجة 1958.

– خاتمـــة:

بالرغم من ردود الفعل الاستعمارية استطاع جيش التحرير على الحدود الغربية الحصول سنة 1959 على 4500 قطعة سلاح حربي و2000 بندقية إسبانية و2000 بندقية من نوع موسكوتو فرنسية وراحت المصادر الاستعمارية تدعي أن كل ذلك كان مساعدة من جيش التحرير المغربي أومن قوات الجيش الملكي،ودون أن ننفي المساعدات المغربية إلاّ أنه يجب التأكيد على مجهودات قيادة وإطارات الثورة في تأسيس جيش التحرير المغاربي وتمويله وتأطيره وهنا يجب الإشادة بما بذله قادة الثورة الأوائل مثل أحمد بن بلّة وبوضياف وبن مهيدي وبذلك فإن الثورة كانت تلحّ على تسليح جيشها بنفسها وبسواعد أبنائها ويدعم هذا الطرح الإحصائيات الفرنسية نفسها التي أكدت أن جبهة التحرير الوطني تمكنت في نفس الفترة من إيصال 2000 مسدس رشاش(PM) إلى جيش التحرير الوطني من ألمانيا الغربية عبر الحدود.[38] .

- الهوامش:

[1]– Vice amiral D'escadre Jacques Guillon, La contrebande des armes pendant la guerre d'Algérie, in RHA. Paris 1992, P 106.

[2]– يوسف مناصرية ،تمركز قوات جيش التحرير الوطني على الحدود الجزائرية المغربية من خلال الوثائق الفرنسية(1956–1960)في مجلة عصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي،مصادر وتراجم،عدد 6–7،جامعة وهران، جوان–ديسمبر 2005 ، ص 55.

[3] – بوبكر حفظ الله، التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية 1954–1962، أطروحة دكتوراه تم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 2005–2006، ص 289 – 290.

[4]– عبد الكريم حساني، أمواج الخفاء. منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995، ص 28 – 29.

[5] – المصدر نفسه، ص 29.

[6]–مراد صديقي،الثورة الجزائرية، عمليات التسلح السرية.ترجمة أحمد الخطيب،مكتبة الحياة،بيروت(د س.ن)،ص 70.

[7]– مراد صديقي، المصدر نفسه.ص 70.

[8]–من أهم عناصر شبكة التسليح التي جندت يذكر المجاهد النقيب مراد صدقي في مذكراته الحاج المختار الملقّب"جان جان" الذي انحصر نشاطه في منطقة دار البيضاء وبمجرد نجاحه في تجنيد من يقع اختياره عليه يتصل مباشرة بقيادة الشبكة لتنفيذ العملية.للمزيد من التفاصيل حول بقية أعضاء الشبكة.أنظر:مراد صديقي، المصدر السابق،ص 70 . 75.

[9]– محمد عباس،في كواليس التاريخ، زقار في الذكرى 18 لرحيله 1 الحلواجي... الذي أصبح صانع أسلحة، في جريدة الشروق اليومي، عدد 1540 – يوم الاثنين 21 نوفمبر 2005، ص 11.

[10]– نفسه، ص 11.

[11] – فتحي الديب عبد الناصر و ثورة الجزائر، ط1، القاهرة 1984، ص 555.

[12]– محمد عباس،الثورة الجزائرية نصر بلا ثمن (1954–1962).دار القصبة.الجزائر.2007، ص 348. لقد شكلت هذه البداية المشجعة منطلقا لميلاد شبكة المخابرات التي لعبت أدورا رائدة في مجالات الاستعلام و التسليح الذي تطور من شراء الأسلحة و الذخيرة إلى محاولة صنعها في ورشات خاصة بكل من المغرب و تونس.

[13]– تولى مهمة نقل السلاح بسيارة أمنتها له الشبكة مقابل 500 ألف فرنك فرنسي قدم لكل عملية تهريب سلاح للجزائر و استمر في تنفيذ مهامه حتى الاستقلال دون أم يعرف حقيقة ما كان يقوم بنقله.

[14] – مراد صديقي،مصدر السابق،ص 79.

[15]– شهادة المجاهد عبد القادر خليفي،الملتقى الوطني حول قوافل التسليح،19–20 مارس 1999، الوادي، شريط سمعي بصري، مكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

[16]– بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص 275.

[17]– المرجع نفسه، ص 275.

[18]– فسه، ص 282.

[19]– Document CCE 1958, » Rapport Sur la Situation Actuelle » , in Actualité de l'Emigration Spéciale N° 187 du 26 octobre au 09 novembre 1989, PP 42 – 43.

[20]– نفسه، ص 39 أنظر أيضا : La Guerre d'Algérie dictionnaire et documents, Tome 05, Edition la Société générale d'édition et de diffusion, Paris 2002, P 2206.

[21] – محمد قنطاري، الثورة الجزائرية و قواعدها الخلفية بالجبهة الغربية والعلاقات الجزائرية المغربية إبان ثورة التحرير الوطني. في مجلة الذاكرة عدد 03 السنة الثانية، المتحف الوطني للمجاهد، خريف 1995، ص 126.

[22]– زكي مبارك، أصول الأزمة في العلاقات المغربية الجزائرية(نصوص، شهادات ووثائق، صور)،ط1،دار أبي رقراق،الرباط2007،ص 162. حوالي 400 مورتي Mortiers من طراز 60 تمّ تصنيعها في هذه الو رشات المتخصصة وأصبحت جاهزة للاستعمال. أنظر : La Guerre d'Algérie. OP cit P 2206

[23]– عاشور سعيداني، المرجع السابق، ص 39.

[24]– زكي مبارك، المرجع السابق، ص 162.

[25]–شهادة المجاهد عمار بن عودة خلال مداخلة حول السلاح ألقيت بمتحف الجهاد،ديوان رياض الفتح1985،(نشرية)، ص 8.وأيضا محمد عباس،ثوار عظماء، حديث الاثنين، مطبعة دحلب الجزائر، 1991.، ص 101.

[26]– أنظر التفاصيل في الجداول التي نشرها مراد صديق، المصدر السابق، ص 106 – 116.

[27]–بوبكر حفظ الله، المرجع السابق، ص 287.

[28] –مراد صديقي، المصدر السابق، ص 80–81.

[29]– المصدر نفسه، ص 81.

[30] – المصدر نفسه، ص 81–82.

[31]– المصدر نفسه،ص82.83.84.

[32]– محمد قنطاري، قيادة الحدود و القاعدة الغربية مداخلة في الملتقى الوطني حول الحدود الغربية إبان الثورة التحريرية. تلمسان، أيام 04، 05، 06 نوفمبر 2001، ص 24.

[33]–يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص 1953.

[34] – المرجع نفسه ص 53.

[35]– نفس الموقف اتخذته تونس بخصوص الثورة التحريرية حيث كانت حكومة بورقيبة كثيرا ما تعترض سبيل المجاهدين المكلفين بنقل الأسلحة من ليبيا إلى الجزائر عبر الأراضي التونسية بالإضافة إلى عرقلة عمليات الإمداد و الدعم اللوجيستيكي للثورة الجزائرية.هذه الملاحظة مثبتة في وثيقة أرشيفية خاصة بالجدول التفصيلي لمختلف الأسلحة والذخيرة التي عبرت مركز تونس نحو الولايات الداخلية(الأولى والثانية والثالثة والرابعة والسادسةوالقاعدة الشرقية)من 1ماي1957 إلى31اوت1959.المركز الوطني للأرشيف(رئاسة الجمهورية).الجزائر– MICROFICHE 15- 2.29

[36]–مراد صديقي،المصدر السابق، ص 66 – 67.

[37]– المصدر نفسه، ص 67.

[38] – يوسف مناصرية،المرجع السابق ،54.

الملحق رقم (01)

A l'issue de la vaste opération menée depuis vendredi

Une importante «route des armes» découverte à l'Ouest de Reibell

Les rebelles du Constantinois l'empruntent également pour gagner l'Oranie

De notre envoyé spécial
J.-H. POGGI

La brillante opération « Taguine » dirigée par le colonel Ceccaldi, commandant le 1er Régiment de Spahis et la Subdivision de Médéa, s'est poursuivie samedi par une chasse impitoyable dans le Djebel Metalès, un djebel à l'échelle de nos soldats intrépides et tenaces malgré toutes les rigueurs de la région.

La partie n'était pas facile. Elle commençait à Reibell, ce petit centre ouvrier mais perdu dans le Titteri, au milieu des hauts plateaux des steppes et des mirages mais aussi d'une réalité réconfortante : celle de l'attachement indéfectible de ses populations à la France.

Suite : page 9

Dernière phase de l'opération : Les vivres enfin... Les paras du 1er R.E.P. commandés par le commandant Jean-Pierre viennent de recevoir par « largages » de Dakota, les caisses précieuses, dont l'une, à droite, file vers les blés bordant la piste (Photo A. Garcin)

المصالح الفرنسية تتمكن بعد عملية واسعة النطاق من اكتشاف طريق هام للتسليح الثورة الجزائرية عبر الحدود الغربية. La dépêche quotidienne d'Algérie 20-21mai 1956.

الملحق رقم(02)

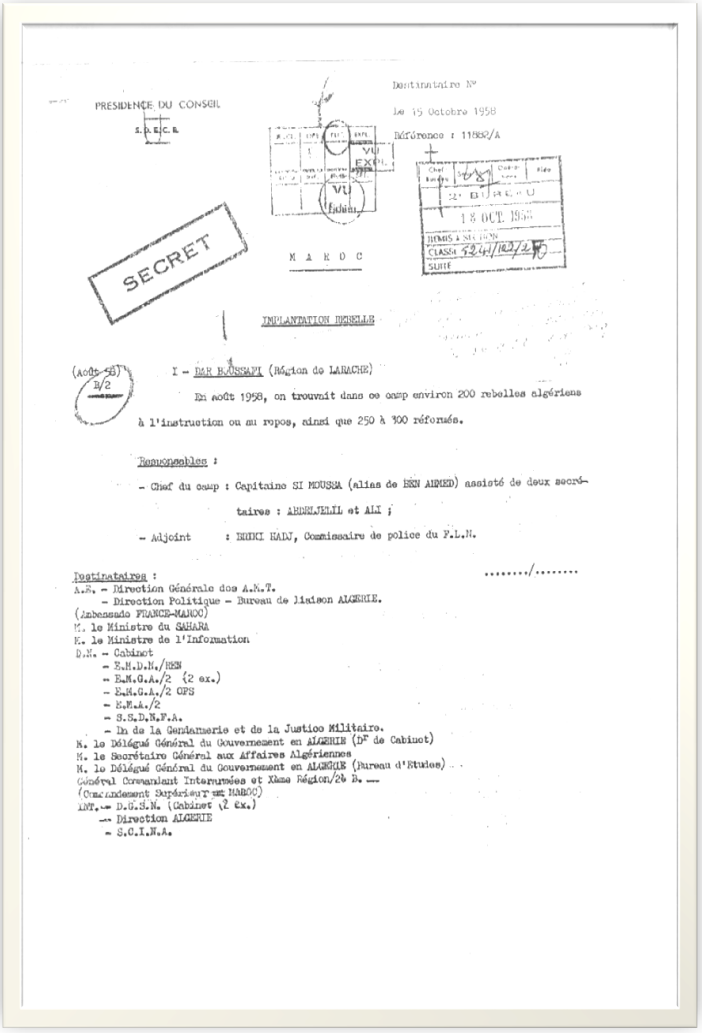

PRESIDENCE DU CONSEIL

S.D.E.C.E.

Bordereau N°

Le 15 Octobre 1958

Référence : 11882/A

SECRET

M A R O C

IMPLANTATION REBELLE

(Août 58) B/2

I – DAR BAOUSAFI (Région de LARACHE)

En août 1958, on trouvait dans ce camp environ 200 rebelles algériens à l'instruction ou au repos, ainsi que 250 à 300 réfugiés.

Responsables :

– Chef du camp : Capitaine SI MOUSSA (alias de BEN AHMED) assisté de deux secrétaires : ABDELJELIL et ALI ;

– Adjoint : BRIKCI HADJ, Commissaire de police du F.L.N.

Destinataires : ...../.....

A.E. – Direction Générale des A.N.T.
– Direction Politique – Bureau de liaison ALGERIE.
(Ambassade FRANCE-MAROC)
M. le Ministre du SAHARA
M. le Ministre de l'Information
D.N. – Cabinet
– E.M.D.N./MER
– E.M.G.A./2 (2 ex.)
– E.M.G.A./2 CPS
– E.M.A./2
– S.S.D.N.F.A.
– Dn de la Gendarmerie et de la Justice Militaire.
M. le Délégué Général du Gouvernement en ALGERIE (Dr de Cabinet)
M. le Secrétaire Général aux Affaires Algériennes
M. le Délégué Général du Gouvernement en ALGERIE (Bureau d'Etudes)
Général Commandant Interarmées et Xème Région/2b B. ...
(Commandement Supérieur en MAROC)
INT.– D.G.S.N. (Cabinet (2 ex.)
– Direction ALGERIE
– S.C.I.N.A.

- Chargé de l'Intendance : SI OTHMAN ;
- " des Réformés : Lieut. BOUCHAKOR, assisté de SI ABDELALIEN et de l'Adjudant JAMAL ;
- Instructeurs : Lieut. JAMAL, ex-sergent pilote à FEZ ;
  Lieut. HAMMOU, ex-officier français (actuellement chargé des prisonniers à TETOUAN) ;
- Trésorier : HAMMAT, instituteur à LARACHE.

Service médical :

D'abord placé sous la responsabilité du Dr MANSOURI, a été ensuite assuré par des médecins venant de l'intérieur du MAROC pour des périodes de 15 jours.

Le camp de BOUSSAFI était un centre de repos et surtout de formation. Les réformés jugés aptes étaient destinés à devenir des Commissaires politiques. Les "Jounoud" (1) y suivaient un programme d'instruction militaire (armement (2), tir) et y effectuaient de petits travaux, suivant leur spécialité. La discipline ne paraissait pas extrêmement stricte et les heures de travail étaient assez variables.

Les causeries politiques étaient nombreuses et faites soit par le chef de camp, soit par MOURAD, responsable de la propagande F.L.N. à RADIO TETOUAN, soit enfin par des personnalités de passage.

Convoyeurs de la MORT :

Vers le début de juillet, des convoyeurs de la mort, la plupart kabyles, cantonnés dans une baraque de BOUSSAFI et qui n'avaient aucun rapport avec les autres "Jounoud" du camp, étaient partis pour la FRANCE via MADRID et la BELGIQUE.

(1) Combattants.

(2) A noter que les armes d'instruction ont été retirées de DAR BOUSSAFI depuis mai 1958.

PRESIDENCE DU CONSEIL

S.D.E.C.E.

SECRET

Véhicules :

Le camp disposait d'une jeep "Willys" et d'un camion "Chevrolet" vert.

II - LARACHE

Une clinique située en ville dans une maison surmontée d'un drapeau marocain recevait les blessés du F.L.N. Elle était dirigée par un médecin de PORT LYAUTEY.

Une ferme située sur la route de LARACHE à RABAT, à 2 km de LARACHE, servait de prison pour les Jounoud. Elle était dirigée par SI DAHO.

III - DAR KERDANI

Effectifs : 800 "Jounoud", dont :

- 4 sections d'infanterie (cadres),
- 1 section de Service général,
- 1 section de Transmissions (qui n'avait pas encore commencé l'instruction),
- 2 sections de destruction et sabotage (72 hommes), dont une partie devait se rendre en FRANCE fin septembre,
- 1 section de mitrailleuses.

Encadrement :

Le camp était commandé par le Commandant ZERGUINI (1), ex-capitaine de l'Armée française.

.../...

(1) Capitaine MOHAMED ZERGUINI, déserteur en mars 1958, saté à TUNIS fin septembre 1958 par le Ministère des Forces Armées du gouvernement algérien (Référence Inf. N° 11529/A du 2.10.58)

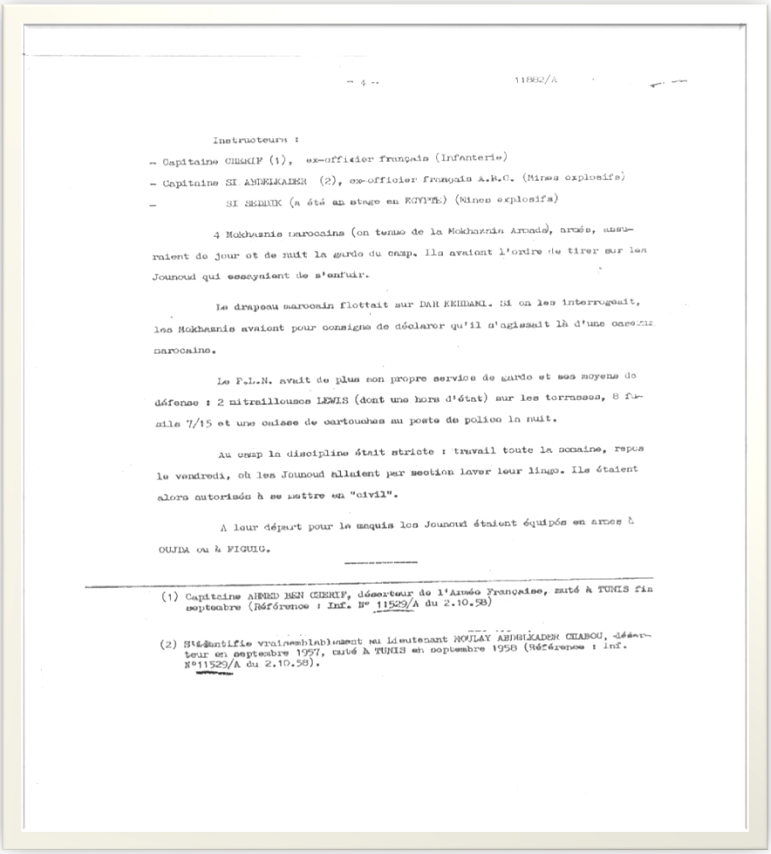

- 4 -- 11529/A

Instructeurs :

- Capitaine CHERIF (1), ex-officier français (Infanterie)
- Capitaine SI AMEZIKAIEB (2), ex-officier français A.M.C. (Mines explosifs)
- SI SEDDIK (a été en stage en EGYPTE) (Mines explosifs)

4 Mokhaznis marocains (on tenue de la Mokhaznia Armée, armés, assuraient de jour et de nuit la garde du camp. Ils avaient l'ordre de tirer sur les Jounoud qui essayaient de s'enfuir.

Le drapeau marocain flottait sur DAR EKHBAKI. Si on les interrogeait, les Mokhaznis avaient pour consigne de déclarer qu'il s'agissait là d'une caserne marocaine.

Le F.L.N. avait de plus son propre service de garde et ses moyens de défense : 2 mitrailleuses LEWIS (dont une hors d'état) sur les terrasses, 8 fusils 7/15 et une caisse de cartouches au poste de police la nuit.

Au camp la discipline était stricte : travail toute la semaine, repos le vendredi, où les Jounoud allaient par section laver leur linge. Ils étaient alors autorisés à se mettre en "civil".

A leur départ pour le maquis les Jounoud étaient équipés en armes à OUJDA ou à FIGUIG.

(1) Capitaine AHMED BEN CHERIF, déserteur de l'Armée Française, saité à TUNIS fin septembre (Référence : Inf. N° 11529/A du 2.10.58)

(2) Stéphanie vraisemblablement au lieutenant MOULAY ABDELKADER CHABOU, déserteur en septembre 1957, saité à TUNIS en septembre 1958 (Référence : Inf. N°11529/A du 2.10.58).

انتشار وتوزيع جيش التحرير الوطني عبر القواعد الحدودية على الجبهة الغربية مع المغرب 15أكتوبر 1958.

IMPLANTATION REBELLE-15 Octobre 1958.http://www.commandant-moussa.com/armyf.htm .03/04/2007 .

المرائي الصوفية عند صوفية زواوة

– ابو محمد الزواوي انموذجا –

د. خلفات مفتاح – قسم التاريخ – جامعة المسيلة

ABSTRACT :

Boils down to the subject of this paper is to unveil the silent behavior of Sufis, which sparked heated debate among the pioneers of this trend and Nzeraihmmn jurists we mean by woolen Tartuffe, which classified the incident forensic science in the sect as across the spectrum of Ibn Khaldun

For its part, the books of biography and character and has worked to promote the ideas of such a desire to prove the state of the guardian through the "divine dignity" which earned the status of religious and social which is what we are trying proven by hypocrite, Abu Mohammed Zawawi.

تقديم:

حفلت كتب التراجم والمناقب بسيل من الكرامات والمكاشفات[1] نسبت إلى طائفة كبيرة من المتصوفة، كإدعائهم معرفة المستقبل والإخبار بأحوال الموتى،[2] إلى جانب إتيانهم بخوارق الأشياء كالمشي فوق الماء[3] وطي الأرض[4] والطيران في الفضاء،[5] لكن الظاهرة الأبرز في هذه المكاشفات، والتي شدت الانتباه إليها في سلوك صوفية زواوة هي كثرة الرؤى أو المرائي الصوفية،[6] التي تعتبر من "العلوم الشرعية الحادثة في الملة"، كما عبر عن ذلك ابن خلدون.[7]

ويأتي الاهتمام بهذا النوع من الإنتاج الصوفي كونه يعكس الحالة النفسية، والاجتماعية، التي كان يعيشها هؤلاء من جهة،[8] ومن جهة ثانية يحيلنا إلى مشهد آخر لحركة التصوف نهاية العصر الوسيط، الذي عرف تحولا كبيرا في المنهج والسلوك وتعدد الطرائق مع كثرة الشيوخ وأدعياء الولاية.

وقبل مباشرة الحفر في موضوع هذه الظاهرة عند صوفية زواوة أرى من المفيد أن نحدد الفرق بين "الحلم" و"الرؤيا".

فالحلم عادة يعبر عن حالة الشرود الذهني وغياب النفس عما كانت عليه أثناء النوم تحت تأثير عوامل تجعل الفكر ينساق وراء ما يخطط له في مخياله من الأماني المستقبلية أكثر مما هو مرتبط بالماضي وذكرياته، وهو قاسم مشترك بين جميع البشر على اختلاف أجناسهم وأعمارهم.[9]

أما الرؤيا[10] فهي ذات مدلول ديني، يعكس صفاء النفس وطهارتها ومن ثم استعدادها لتلقي أسرار وتجليات الإلهية بعد أن يكشف لها عالم الغيب،[11] ربما لهذا السبب اعتبرها أبي حامد الغزالي (ت 505هـ/1105م) من دقائق علوم المكاشفة.[12]

ويتضح مما سبق أن الحلم أشمل في مدلوله، بينما الرؤيا أصدق تعبيرا إذ يستشعر الرائي البشارة من الله – فتكون بذلك أكثر تنبأ– بالغيب من الحلم.[13]

وقد ورد في القرآن الكريم عدد من الآيات ما يدل على هذا المعنى منها قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام:« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »[14]

وقوله عز وجل:« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ».[15]

وفي ذات السياق أكد الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة،[16] وقوله أيضا:« لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له»،[17] وبناء على هذا التقرير فصل ابن خلدون (ت 808هـ/1408م) في مقدمته بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام الكاذبة، "فإن كانت تلك الصورة متنزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا وإن كانت مأخوذة من الصورة التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام"،[18] كما أن للرؤيا الصادقة علامات تشهد على صحتها، إذ يستشعر الرائي بما ألقاه الله عليه في نومه، منها سرعة الانتباه عند إدراك الرؤيا، وثبوت ذلك ودوامه بانطباع تفاصيلها في حفظه فلا يعتريها سهو ولا نسيان لأن الإدراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه ترتيب كما هو في الأحلام.[19]

الرؤيا والأحلام بين العلم والدين:

كشفت النصوص التاريخية أن الفيلسوف اليوناني أرسطو هو أول من حاول تجريد الأحلام من الخضوع للشعوذة، مفندا أطروحة من سبقه من علماء الإغريق بقوله: "إن الأحلام ليست رسائل ترد من الآلهة وأنها لا تكشف عن أشياء خارقة للطبيعة وإنما الأحلام تكون من النشاط النفسي يصدر عن النائم بحسب الظروف التي يكون عليها في نومه".[20]

ولما جاء الإسلام صبغ على الحلم طابع الطهارة، والتجلي وكشف حجاب الأسرار الإلهية التي خص بها الله طائفة من المؤمنين الأخيار،[21] ولنا في قصص الصحابة والتابعين خير دليل على ذلك،[22] وحسبنا ان الرسول صلى الله عليه وسلم اعتاد أن يسأل أصحابه بأن يقصوا عليه مرائيهم، ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه،[23] إلا أن تعبير الرؤيا يخضع لمنهج رمزي حدده محمد بن سيرين (ت 110هـ/730م) بحسب الطبع، والوقت، والعادة، فمن كان له طبع عبر عنه في كل حين يرى فيه بطبع وقته وجوهره وعادته في ذلك الوقت كالشجر، والثمر، والبحر، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والكواكب، ومن كانت له في الناس عادة لازمه من المرئيات سائر الأزمان أو في وقت دون آخر، وعادته التي عوده الله عليها،[24] وحسبنا دليلا على ذلك ما ورد في القرآن في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى:« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ».[25]

لكن اللافت أنه رغم ما تكتسيه الرؤى المنامية من أهمية، بما تكشفه لصاحبها من خبايا وأحوال المستقبل،[26] إلا أن عدد من الفلاسفة سخروا منها واعتبروها من العادات الخارجة عن المألوف، وهذا عكس المتصوفة الذين رأوا فيها نوعا من "الكشف والإلهام والتجلي" واعتبرها بعضهم من الكرامات التي خص بها الله أولياءه من رجال الدين وأصحاب الطريقة.[27]

ومن هذا المنظور عمدت كتب المناقب والتراجم والرحلة، إلى الترويج لمثل هذه الكرامات والمرائي من باب التأكيد على المكانة الدينية لرجالات هذا الوسط، ولعل ما يزكي هذا الطرح ما ألفه الشريف الزواوي (من أعلام القرن 10ه/16م) في مصنفه حول المرائي الصوفية والموسوم بـ"كتاب في الرؤى والأحلام" أو كتاب "التعريف ببعض أحوالنا ومرائي رئيت لنا أو رأيت أنا بأنها إشارات من الله".[28]

ومن صوفية زواوة الذين اشتهروا في هذا الحقل، أبي موسى اليجري من أعلام القرن 8ه/14م لما عرف عليه من الكرامات، وما كان يأتي به من الخوارق والغرائب كالإخبار بأحوال الموتى ومصائرهم، وما كان من نافعهم وضارهم ويبلغ وصياهم محققة بالإمارات يعرفها الموصون إليهم، وقد قطع ابن الحاج النميري (ت بعد 774ه/1374م) أنه لم يكن أحد يمانع فيما يقول أو ينكر عليه، بل "يسلم في ذلك العالم والجاهل" وكان يحرص في أغلب الأوقات على أن يستكتم ما يخبر به من المرائي ويأخذ العهد على ذلك.[29]

ومن الزواويين الذين خصوا بمثل هذه الكرامات – على الإطلاق– محمد بن محمد بن عمر الفراوسني (ت 882ه/1482م) من بني فراوسن إحدى فروع قبائل زواوة، تلقى تعليمه على يد لفيف من علمائها منهم أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد اليحمدي، وأبي العباس أحمد بن موسى بن عزيز، والإمام الخطيب أبي العباس أحمد بن إبراهيم، والولي الصالح أبي عبد الله بن يحي اليجري،[30] والولي الصالح أبي عثمان الصفراوي (من أعلام القرن 9ه/15م)، وبعد أن أتم تحصيله العلمي انتقل إلى قسنطينة واشتغل فيها بالتدريس، إلى أن غادرها باتجاه تلمسان التي مكث بها مدة يزاول نشاطه التربوي، إذ كان معدودا في طائفة الأولياء الصالحين والأئمة الزاهدين على حد تعبير التنبكتي،[31] ومنها

رحل إلى الحجاز حاجا، وجاور بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر، التقى فيها بعدد من الصوفية المغاربة، منهم الشيخ زروق البرنسي[32](من أعلام القرن 9هـ/15م).

وتعود شهرة محمد الفراوسني إلى كثرة المرائي لاسيما منها تلك التي اقترنت بشخص الرسول – صلى الله عليه وسلم- التي ضمنها كتابه "تحفة الناظر ونزهة المناظر" وقد بلغت نحو مئة وتسعة من المرائي تمت خلال عشر سنوات (821- 861هـ/1451- 1461م).[33]

وقد تردد محمد الفراوسني كثيرا في تدوين هذه المرائي، وإخراجها للناس، استجابة لرغبة شيخه أبي عثمان الصفراوي، الذي نصحه بأن لا يحدث أحدا مما فتح الله عليه من الهبات اللدنية، وما خصه من الكرامات الإلهية ربما كان ذلك خوفا بأن لا يصدقه الناس بما يطلعهم عليه من هذه المرائي، لاسيما مع انتشار ظاهرة "الحسد" بين علماء ذلك العصر، وكثرة منتحلي التصوف الذين أساءوا إلى هذا الحقل الديني بما كانوا ينشرونه من البدع والخرافات،[34] إلا أن إلحاح بعض أصدقائه عليه، لاسيما بعد الرواج الذي عرفه كتابه الأول "السر المصون" في كل من إفريقية وطرابلس، الامر الذي دفعه إلى إخراج هذه المرائي، فخطر له أن يسميها بـ"تحفة الرائي بما فتح الله من مرائي" لكنه عدل عن ذلك إلى أن استأذن الرسول – صلى الله عليه وسلم- فأشار عليه أن يسميها بـ"تحفة الناظر ونزهة المناظر" الذي كان بالنسبة لكتاب "السر المصون" كالماشطة للعروس على حد تعبيره.[35]

ويستشف مما تضمنه هذا المخطوط المكانة الدينية لمحمد الفراوسني الذي نجح إلى حد بعيد في الجمع بين علمي الشريعة والحقيقة، وقد أشاد – هو-

بدوره بمن اندمج في هيكل هذا التيار، وأشار إلى ذلك بقوله:"كل من دخل سلكنا فهو من الآمنين" شعاره في ذلك: "اذكروا الله حتى يقولوا أنه مجنون".[36]

وقد حرص في مؤلفه على تأكيد صدق رؤيته للرسول – صلى الله عليه وسلم- بعدما أنكر عليه ذلك عدد من أترابه ممن انخرطوا في سلك هذا التيار "لحسدهم وخبث سرائرهم"،[37] واستعرض جملة من الأحاديث النبوية بما يزكي صدق ما يخبر به منها قوله عليه الصلاة والسلام:"من رآني فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي" وقوله أيضا:" لم يبق من الوحي إلا المبشرات" ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.[38]

ومن القرائن التي استشهد بها أيضا ما أثبته العلماء بأنه يجوز أن يرى الرسول – صلى الله عليه وسلم- على غير صورته المعهودة في الدنيا، واختلاف صورته عليه السلام إنما هو بحسب حال الرائي،[39] وحسبنا أيضا ما نقله عن القطب أبي العباس المرسي (ت 685هـ/1285م)[40] قوله: "والله لو حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما أعددت نفسي من المسلمين" لذا ينبغي لكل مؤمن حقا إذا سمع من قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظمه ويؤمن بذلك على حد تعبيره، فإن كذبه فكفاه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم- :"من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"،[41] كما يستفاد مما ذكره في مصنفه ما تعرض له من إيذاء الناس له بسبب تلك المرائي التي أثارت حفيظة أقرانه من الصوفية، منهم على وجه الخصوص الإمام أحمد زروق البرنسي، وقد دافع على نفسه وصدق مرائيه بما حشده من الآيات تعطي الدليل على مكانته الدينية، وأنه أحد الأولياء الذين يجب الاعتقاد فيهم وفي كراماتهم، وهو ما نقرأه في الآيات التالية: قال تعالى:"إن الفضل بيد الله يؤتيه من

يشاء"،[42] وقوله:"ويختص برحمته من يشاء"،[43] وقوله أيضا:"والله أعلم حيث يجعل رسالته"،[44] وقوله:"وما بكم من نعمة فمن الله".[45]

إلا أن ما يسترعي الانتباه أنه رغم ما قدمه الفراوسني، من قرائن وشواهد تؤيد صدقية مرائيه، إلا أن التنبكتي ذكر فيما نقله عن الإمام زروق أنه مات "مرفوضا" لتجاوزه الخطوط المتعارف عليها بين رجالات هذا الوسط، فيما ادعاه وأخبر به في محاوراته للرسول صلى الله عليه وسلم، مستدلا بالعبارات التالية: "واستأذنته"، و"أشار علي"، و"نهاني عن تركه"، و"افعل إن شئت"،[46] وهو ما لم يتعود عليه الناس في سلوكات الصوفية.

والحقيقة أن الذي أثار سخط – العلماء ورفضهم له- إنما يعود بسبب ادعاء الفراوسني بأنه نظير للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو مثله خليل لله عز وجل،[47] وحسبنا أنه قارن نفسه بما تعرض له الرسول – صلى الله عليه وسلم- من طرف كفار قريش الذين أنكروا أول الأمر نبوءته، وكل ما جاء به من القرآن الكريم مستشهدا في ذلك بما استعرضه من الآيات الموحية إلى ذلك منها قوله تعالى:"ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون"[48] وقوله: "ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون"[49]، "ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم"[50] واستغربوا أن يكون فضل الله في الجنس البشري من عند الله، فذكر قوله تعالى: "هو الذي بعث في الأميين رسولا"[51] وقوله أيضا: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" وقوله: "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" [52] "والله أعلم حيث يجعل رسالته".[53]

وإنصافا للقول نؤكد أنه رغم ما في هذه النصوص القرآنية من "الإيحاء" إلا أننا لا نستطيع القطع بأن ما ذكره كان الهدف من ورائه مقارنة نفسه مع

شخص الرسول – صلى الله عليه وسلم- إنما كان من باب التأكيد على صدقية مرائيه ومكانته عند الله عز وجل من جهة، ومعاناته مع نظرائه من الصوفية قياسا لما تعرض له الرسول – صلى الله عليه وسلم- على يد كفار قريش من جهة أخرى، ربما هذا ما دفع بأحد العلماء إلى القول :"أنه إذا كان الله قد اصطفى محمدا عليه الصلاة والسلام من بين خلقه فإن الرسول عليه السلام قد اختار محمد الزواوي من بين كل الأولياء".[54]

ومن جهته أكد الورتلاني في رحلته بأن سكان منطقة زواوة كان لهم اعتقاد ظاهر في أبي محمد الفرواسيني لما شاع من أخباره و مرائيه،[55] – التي يبدو أن بعض المصادر نسبتها خطأ لمحمد بن زغدان (ت 882هـ / 1482 م).[56]

ورغم ما واجهه محمد الفرواسيني من انتقادات من طرف خصومه من شيوخ التصوف – على اعتبار – أن ماجاء به كان من الأمور الخارقة – إلا أن موضوع " المرائي الصوفية " ، أخذ منحى آخر نهاية القرن 9 هـ / 15 م ، بكثرة أدعياء – مثل هذه الكرامات في سعيهم لإثبات " الولاية " و استقطاب المريدين ، التي تجاوزت حدود المعقول كأن يدعى بعضهم رؤية جبريل أو مكائيل عليهم السلام – أو يتحدث في أمور – حمل – الحوامل – وبتحديد نوعية جنسه – أو يقول – لمن يراه مريضا خذ هذه العشبة تداوي بها فهي كما أعطانيها الرسول صلى الله عليه و سلم،[57] الأمر الذي دفع بعدد من الفقهاء بالدعوة إلى ضرورة إخضاع هذه المرائي إلى مقياس الشرع.

وبمجمل القول فإنه رغم إنكار بعض العلماء والفرق الكلامية "كالمعتزلة " و "القدرية" على ما يأتي به أصحاب المرائي من الخوارق، إلا أن بعض الفقهاء

والصوفية أقروا بحدوث خوارق العادة للأولياء منهم أبي زيد القيرواني ، الإمام الحويني ، ابن رشد، مستندين في ذلك فيما رواه الرسول صلى الله عليه و سلم – عن ربه – قوله :"لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أكون سمعه الذي يسمع به و نضره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها و رجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطيه"،[58] و على قاعدة أن كل ما ثبت معجزة في حق النبي صلى الله عليه و سلم، جاز أن يكون كرامة في حق الولي فلا –مرية– في ذلك، إلا أنهم اشترطوا ضرورة إخفاء كل ما يراه الصوفي من المرائي، فبقدر ترقيه في المقامات بتعين عليه زيادة الأدب و التواضع و الكتمان، وحسبنا أن أحدهم نصح "هؤلاء" بقوله :" حدثوا الناس بما يفهمون ".[59]

الهوامش:

(1) الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص182 ؛ ابن مريم: البستان في تاريخ أولياء تلمسان، نشره محمد أبو شنب وقدم له عبد الرحمن طالب، د.م.ج، 1986، ص82 ؛ الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح: محمد بن أبي شينب، مطبعة بيير فونتان الشرقية، الجزائر، 1968 ، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974، ص547؛ التنبكتي: نيل الابتهاج وتطريز الديباج: ذيل الديباج المذهب لابن فرحون: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.، ص128.

(2) ابن الحاج النميري: فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب: دراسة و تحقيق محمد ابن شقرون ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص254 ؛ الورتلاني: المصدر السابق ، ص694.

(3) الورتلاني: المصدر السابق ، ص25.

(4) نفسه ، ص47.

(5) ابن مريم: المصدر السابق، ص ص112، 113؛ محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9هـ/ 12- 15م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1999، ص196.

(6) الورتلاني: المصدر السابق، ص ص7- 12- 15.

(7) ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص389.

(8) عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص99.

(9) ابن خلدون: المصدر السابق، ص388 ؛ عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص99.

(10) يقسم ابن خلدون الرؤيا إلى ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان ؛ أنظر: المقدمة، ص391.

(11) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986، ص434 ؛ عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص100.

(12) إحياء علوم الدين: ج4، ص433.

(13) ابن خلدون: المقدمة، ص390 ؛ عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص100.

(14) سورة يوسف، الآية 4- 5.

(15) سورة الصافات، الآية 102.

(16) أبو حامد الغزالي، المصدر السابق، ج4، ص432 ؛ ابن خلدون: المقدمة، ص391.

(17) ابن خلدون: المقدمة، ص389.

(18) نفسه، ص390.

(19) نفسه، ص390.

(20) عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص101.

(21) أبو حامد الغزالي: المصدر السابق، ج4، ص432 ؛ عبد الرزاق قسوم: المرجع السابق، ص101.

(22) محمد بن سيرين: تفسير أحلام التفاؤل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص12.

(23) ابن خلدون: المقدمة، ص389.

(24) يشير ابن سيرين أن رؤيا النهار أقوى وأصدق الرؤى ما كان بالأسحار وبالقائلة، وأصدق الأوقات وقت انعقاد الأنوار، وحين يينع الثمر وإدراكه، ورؤيا النهار أقوى من رؤيا الليل وقد تتغير الرؤيا عن أصلها باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم، فتكون لأحدهم رحمة ولآخر عذاب ؛ محمد بن سيرين: المصدر السابق، ص8.

(25) سورة يوسف، الآيات 46- 47- 48.

(26) محمد بن سيرين: المصدر السابق، ص7.

(27) لعل ما يجسد هذا الاهتمام ما ألفه أبي طالب القيرواني من علماء المغرب الأدنى "مثل الممتع" وكتاب "الإشارة" للسالمي، وكتاب "المرقبة العليا" لابن رشد ؛ أنظر:المقدمة، ص392.

(28) الشريف الزواوي: كتاب في الرؤى والأحلام: مخطوط: تحت رقم: م5038، مكتبة الحامة، الجزائر.

(29) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص254- 255.

(30) التنبكتي: نيل الابتهاج، ص322.

(31) نفسه، ص322.

(32) محمد الفراوسيني: تحفة الناظر ونزهة المناظر، مخطوط تحت رقم د995، الخزانة العامة، الرباط، المملكة المغربية ، ورقة 5.

(33) محمد الفراوسيني: مخطوط، في عدة مواضع ؛

Janathan KATZ: dreams and sufusm and sainthoud, e.j, Birll, leiden; New York koln, 1996, p p 6, 7.

(34) نفسه، ورقة 2 ؛ إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ العلوم، ج3- التصوف، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية،2000 ، ص113.

(35) نفسه، ورقة 5.

(36) نفسه، ورقة 2- 11.

(37) نفسه، ورقة 2.

(38) محمد الفراوسيني: مخطوط ، ورقة 2- 4.

(39) نفسه، ورقة 3.

(40) هو أحمد بن عمر الأندلسي، أبي العباس المرسى، الإمام العارف، أحد تلامذة الحسن الشاذلي، كانت له مجالس للعلم في الفقه والتصوف يعتمد فيها على كتاب "التهذيب" في الفقه والإرشاد وفي العقائد، وكتاب "المصابيح في علوم الحديث"، وابن عطية في التفسير، و"الإحياء" في التصوف، وقد رويت عنه كرامات وافرة، توفي سنة 685هـ/1285م ؛ أنظر ترجمته في : التنبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص36.

(41) محمد الفراوسيني: مخطوط، ورقة 4.

(42) سورة البقرة، الآية 105.

(43) سورة البقرة، الآية 105.

(44) سورة المائدة، الآية 124.

(45) سورة النحل، الآية 53.

(46) محمد الفراوسيني: مخطوط، ورقة 4، 5.

(47) سورة المؤمنون، الآية 33.

(48) سورة المؤمنون، الآية 34.

(49) سورة المؤمنون، الآية 24.

(50) سورة الجمعة، الآية 2.

(51) سورة التوبة، الآية 129.

(52) سورة البقرة، الآية 247.

(53) سورة المائدة، الآية 124 ؛ أنظر الفراوسيني: مخطوط، ورقة 2،3.

(54) Janathan -KATZ: p183.

(55) الورتلاني : المصدر السابق ، ص25 ؛ الحفناوي : المصدر السابق ج1 ص318 .

(56) الحفناوي : المصدر السابق ج1 ص423 ؛

Janathan -KATZ: P 6

هو أبو المواهب بن زغدان التونسي (ت 882 هـ / 1482 م)، أحد أقطاب التصوف رحل إلى مصر و أخذ عن عدد من علمائها – قال فيه إمام زروق – كان حسن الأخلاق ذا لسان عظيم فيه كلام القوم له شرح على حكم ابن عطا الله الإسكندري (ت 709 هـ / 1309 م) ، نحى فيه نحو شفائق الفلافسة و دقائقهم – لم يكلمه: وكان ينتسب إلى الطريقة الوقائية ، المتفرعة عن الشاذلية – أسسها محمد بن محمد وقا – و هو غير علي بن محمد بن محمد بن محمد بن وفا الشاذلي ابن أبي الحسن الشاذلي (ت 07/8 هـ / 1407 م) ، قدم خذه ، محمد النجم من تونس إلى الإسكندرية خلال القرن 7 هـ / 13 م ،حيث تبادل الأخذ مع الشيخ الصوفي إبراهيم الدسوقي(ت 676 هـ/ 1276م) ، ولد

حفيده محمد سنة 702 هـ و توفي 760 هـ / 1302م – 1360 م ،– الذي أسس زاويته بأخميم شرقي النيل جنوب أسيوط – التي ينتسب إليها ذي النون المصري : حول هذا الموضوع ، يراجع التنبكتي: كفاية المحتاج، ص 252 : محمد حركات: المرجع السابق ص ص163، 164.

(57) الونشريسي : المصدر السابق ج2 ص ص387، 388.

(58) الونشريسي : المصدر السابق ج2 ، ص ص388، 389.

(59) نفسه، ص392.

البنية الاجتماعية و المؤسسات المدنية و الدينية داخل المدن النوميدية تحت الاحتلال الروماني

د. توفيق حموم – معهد الآثار– جامعة الجزائر 2

الملخص:

دراسة البنية الاجتماعية مع المؤسسات المدنية و الدينية لمجتمعات المدن النوميدية خلال الفترة الرومانية كانت من المواضيع التي أولاها الباحثين أهمية بالغة في معظم الدراسات التاريخية و الأثرية المتعلقة بالمغرب القديم. رغم شحة الوثائق و النصوص التاريخية المتعلقة بالموضوع و خصوصا المجتمعات المحلية ذات الأصول الليبية، تبقى النقيشات اللاتينية من المصادر الموثوقة و التي تعطينا معلومات جدّ هامة حول هذا الجانب من الحياة الاجتماعية و المتمثلة في التركيبة ثم البنية الاجتماعية وعلاقتها بالمؤسسات المدنية و الدينية داخل المدن و المستعمرات الرومانية.

يمكننا من خلال المجموعة الهائلة من الكتابات اللاتينية الخاصة بمدينتي سيرتا وثاموقادي كنموذجين، استخراج و استخلاص المعلومات الهامة المتعلقة بالتركيبة الاجتماعية ثم كيفية تنظيمها وتنظيم الحياة السياسية من خلال المؤسسات المدنية و الدينية.

هذه الدراسة تسمح لنا في بداية الأمر إحصاء كل أعضاء مختلف الطبقات الاجتماعية و موظفي و رجال الدين، ثم إلقاء الضوء حول كل الجوانب التنظيمية و التشريعية.

ABSTRACT

The social structurs, civils and religious institutions of numidian cities has always arised a particular interest in historical and archeological studies ; however, only few documents give us information about this aspect of the Numidian society.

Latin epygraphy gives us precious information about the nature of that time worship and socilal stucturs as wellas the compenent of the civil institutions.

Various epigraphic texts reveal a considerable number of characters belonging to the differents social stucturs of numidian cities and the organisation of the function of civilian and the priest according to the different cults existing there.

This study will enoble census of the characters of Cirta and Thamugadi during Roman colonisation and will attempt to shed light on different organisational aspects of the civilian institutions.

يصنف القانون الروماني مجموع السكان المتواجدين داخل الخريطة السياسية للإمبراطورية الرومانية على شكل طبقات اجتماعية متفاوتة الحقوق و الواجبات و أهمها كانت تضم المجموعة المتمتعة بالمواطنة الرومانية ثم الجماعات المنتمية لطائفة الأجانب و الأحرار[1]. كانت مجموعة المواطنين الرومان بدورها تضم طبقات اجتماعية متباينة الوضع بتباين أوضاعها الاقتصادية و المهنية حيث يمكن أن نميز في المدن بين الطبقة البرجوازية الحضرية *Municipes* و طبقة العوام المقيمين الدائمين. الاختلاف القائم بين الطبقتين يكمن في نوعية الوظائف المسندة إلى أفراد كل منها حيث كانت طبقة الأشراف *Honestiores* تحتكر لنفسها كل المناصب الشرفية و الوظائف السامية و يشكلون بذلك مجلس المدينة[2]، بيمنا كان أفراد الطبقة الدنيا *Humiliores* مبعدين عن الأجواء السياسية و الوظائف السامية بقوة القانون و عليهم تأدية الأعمال المجانية المفروضة[3].

في هذا المضمون تمنح لنا العاصمة سيرتا و مدينة ثاموقادي من خلال مجموعة الكتابات اللاتينية المكتشفة أمثلة واضحة المعالم تعكس تركيبة البنية الاجتماعية و المنظومة الدينية و سلم الوظائف المتاحة لكل شرائح المجتمعات المحلية

يعتبر سجل ألبوم مستعمرة ثاموقادي[4] المرجع الأساسي و الوثيقة الأساسية التي تعطي صورة واضحة للهرم الاجتماعي لأعضاء النخب المدنية، حيث تتصدر السجل قائمة بعشرة من الأشخاص الأوائل يمثلون أعيان البلدة *Clarissimes* و تصفهم بالسادة حماة المدينة *Patroni* نظرا لما قدّموه من خدمات و نفقات عمومية لصالح المجتمع المحلي، كانت لهذه النخبة الأولى مكانة خاصة لدى السلطة المحلية و سكان المدينة حيث كانت الساحات العمومية تزين بتماثيلهم رمزا و عرفانا بالجميل، كما خلدت أسماؤهم بلوحات و نقيشات تذكارية تعلوا واجهات المباني العمومية التي أنجزوها[5].

تأتي في المرتبة الثانية فئة المرفّعين *Perfectissimi* المنحدرة من عائلات الفرسان و الضباط ثم فئة رجال الدين المشرفة على الطقوس الدينية الرسمية و الأضاحي و الألعاب، يليها طبقة الموظفين التي صنفها سجل ألبوم مدينة ثاموقادي في الدرجة الرابعة و تضم نخبة أعضاء المجلس البلدي *Decuriones* و باقي أعضاء الماجيسترا و المسؤولين المحليين الآخرين على المصالح و الوظائف البلدية.

المعروف أن المجتمعات المحلية في المستعمرات و المدن الرومانية تحتوي على ثلاث شرائح أو طبقات اجتماعية دون احتساب طبقة العبيد[6]، و هي كالتالي:

1. المواطنون *Cives*
2. الذين لم يستفيدوا بعد من المواطنة الرومانية *Peregrini*
3. الغرباء و الغير المقيمين *Consistantes* — *Incolae*

حامي المدينة (المستعمرة) *Patronus Coloniae*

جرت العادة منذ القرن الأول قبل الميلاد في المدن الرومانية اختيار مسؤول و حامي شرفي للمدينة *Patronus* الذي يجب أن تتوفر فيه شروط معينة و أساسيه من بينها الثروة المالية و المعرفة التامة للقوانين و التشريع الروماني و في غالب الأحيان يختار الأهالي شخصا من الطبقة السيناتورية أو الفرسان. تكمن مهامه الأساسية في استغلال مكانته الاجتماعية و نفوذه للدفاع عن مصالح المدينة و أهاليها و التدخل في حلّ مشاكلها القضائية و الجباية. من الشروط الهامة الأخرى التي وجب توفرها هو اللباقة و حسن الكلام و المعاملة و الهيئة الحسنة، كما يتمتع هذا الحامي بثقة كاملة و دعم سياسي من طرف كافة أفراد مجتمع المدينة[7].

بقي هذا المنصب الشرفي و المهام السياسية المنجرة عنه مستمرة طوال القرون الأربعة الأولى للميلاد و التي عرف خلالها تطورا و نضجا بكيفية مستقلة[8].

المجلس البلدي (الكوريا) *Curia*

يضم هذا المجلس أعضاء الماجيسترا المنتخبين من طرف مواطني المدينة *Populus* و الذين لا يتعدى عدد أعضائه في العادة إحدى عشرة عضوا[9] و تحدد في بعض الحالات حسب الطبقات و الشرائح الاجتماعية المكونة لمجتمع المدينة[10].

جرت العادة أن تأخذ هذه المجالس أو المؤسسات المحلية اسم احد الآلهة أو الأباطرة مثل مجلس مستعمرة "لامبيز" المنسبة للإمبراطور "هادريانوس" *Curia Hadriana Felix Veteranorum Legionis III Augustae* و مستعمرة "ثاموقادي" المنسبة للإمبراطور "كومودوس" *Curia Commodiana*، و ينتخب على رأسها مسؤول *Magister* يتولى مهام إدارة الشؤون الإدارية و يساعده في ذلك مسؤول المالية و الخزينة *Quaestor*[11].

تتم عملية الانتخاب بكيفية ديمقراطية و بحضور ممثلي المواطنين و المترشحين ذلك حسب القانون الفلافي للبلديات *Lex Flavia Municipalis* كما تنص عليه نقيشة "مالاقة" الإسبانية.[12]

أعضاء المجلس البلدي *Decuriones*

تبقى المعلومات حول كيفية تنظيم و تسيير هذه المؤسسة غامضة نوعا ما و الوثائق الإبيغرافية قليلة جدا حول هذا الموضوع باستثناء "ألبوم ثاموقادي" المؤرخ بنهاية حكم الإمبراطور "يوليانوس"[13] و نقيشة "سيقوس" بنواحي سيرتا[14].

هذه النخبة تلقب أحيانا بمجلس الشيوخ *Senatus*، و يخضع المترشحين فيها لشروط معينة CENS و هي متغيرة حسب أهمية المدينة، و توثق القائمة على نقيشة حسب المراتب و الأقدمية[15].

المسار المهني و الشرفي البلدي *Cursus Honorum*

تعددت المهام و الوظائف السياسية و المدنية داخل المدن الرومانية و تتخلل كل وظيفة و أخرى فترة زمنية انتقالية محددة يبقى صاحبها بدون وظيفة معينة (بمثابة فترة نقاهة *Vacatio*) و لكن في أرض الواقع هذه القاعدة لم تحترم في كل الحالات كما نص عليها التشريع الروماني[16] :

- 03 سنوات بين وظيفة و أخرى.
- 05 سنوات بين تجديد الدوومفير *II Viratus*.
- 02 سنتان بين تجديد مهام المفوض و المبعوث الإمبراطوري *Legatus Augusti*.

يبتدئ المواطن الروماني مساره المهني و الشرفي بانضمامه إلى نخبة شيوخ المدينة *Ordo Decuriones* و دخوله إلى المجلس المحلي كعضو منتخب و بالتالي يمكنه تولي وظائف إدارية و سياسية و دينية محليا في مرحلة ثانية.

دراسة المسار و السلم الشرفي للوظائف من خلال نصوص النقيشات اللاتينية يظهر بعض الخصائص و الميزات التي تكتسيها طبيعة كل المهام و الوظائف المختلفة التي يتولاها هؤلاء الأشخاص المنبثقين من المجتمع المحلي لكل مدينة، عموما يؤدي صاحب هذا المسار في نهاية المطاف للإنظمام إلى إحدى النخب سواء كانت النخبة السيناتورية إن إستوفت فيه الشروط أو بالأحرى نخبة الفرسان مع تولى إحدى الوظائف الدينية الرسمية و يبقى في ما بعد الإنتماء إلى النخبة السيناتورية مكتسبا وراثيا يتحلى به كل أفراد العائلة حتى و إن لم يستوفي كل الشروط فهو يتولى و يتقلد المناصب و الوظائف المخصصة لهذه النخبة[17].

يظهر عادة السلم أو المسار المهني لمختلف الأشخاص المنتمين لهذه النخب على نص النقيشات بطريقة معينة بحيث تظهر دائما المهام و الألقاب الشرفية مرتبة من الأعلى إلى الأسفل، تتخلل كل وظيفة و أخرى مدة سنتين كمرحلة انتقالية يبتعد فيها المترشح عن كل الممارسات السياسية و الوظائف الرسمية[18]. كما لا يحق لأي مترشح تولي نفس الوظيفة إلا لمرة واحدة فقط ما عدى القنصلية التي تكون متجددة ذلك حسب ما نص عليه قانون *Lex Vittia Annalis*[19]. إضافة إلى الوظائف المدنية و القضائية تظهر أيضا مهام أخرى لها صبغة دينية، ما يوضح جليا العلاقة الوطيدة الموجودة بين الحياة السياسية و الدينية و مدى تعلق و ربط الأمور السياسية و العسكرية بالديانة. أما في ما يخص مكانة هذه الوظائف الدينية ضمن المسار و السلم المهني و الشرفي حسب نصوص النقائش، فهي تذكر عموما في مقدمة السلم مما يبرز أهميتها و مركزها الهام في الحياة السياسية و المدنية للمدينة[20]، فهي تظهر بترتيب منطقي حسب أهميتها[21] على النحو التالي:

1. راهب *Pontifex*
2. الكاهن *Flamen*
3. العراف أو النذير *Augur*

4. الكهنوت *Sacerdos*
5. هيئة الأعضاء الخمسة عشر *XV Viri Sacris Faciundis*
6. هيئة الأعضاء السبعة المخولة لتنظيم الحفلات المقدسة *VII Viri Epulonum*

1- **المسؤول عن الشؤون المالية و الخزينة العمومية** *Quaestor*

تعتبر هذه الوظيفة أول مهام إدارية تسند للمنتخبين الجدد و الموظفين المبتدئين في المدينة، حيث تنكب عليهم مسؤولية تسيير الشؤون المالية و إدارة الخزينة العمومية، في بعض الحالات نجد أن هذه المهام قد تسند لأحد الماجيسترا القدماء و هو في نهاية سلمه الشرفي و في سن متقدم ذلك نظرا لخبرته الكبيرة في شؤون التسيير و المالية[22].

2- **مسؤول الشؤون العامة و التموين** *Aedilis*

يتقاسم هذه المهام عضوان منتخبان ضمن الطاقم الإداري للمدينة و هما منبثقان من فئة "الكويسطورس" و يلقبان أحيانا بـ : *Duo Viri Aedilis*، مهامهما هي تسوية و حل كل المسائل المرتبطة بحياة المدينة و النظام العام و التموين ...[23]

3- الدوومفير *Duumvir*

تعتبر هذه الوظيفة أعلى رتبة ضمن الوظائف المحلية و التي يتولى صاحبها مسؤوليات قضائية و إدارية تمارس في العادة انطلاقا من بداية شهر جانفي من السنة الجديدة[24]، تقوم بعض المدن في تقاليدها بتشريف الإمبراطور بتعيينه غيابيا كدوومفير لها[25]، في هذه الحالة يتم استخلافه و تشغيل المنصب

الثاني الشاغر لهذه السنة بمسؤول ثاني و لكن بدون نفس الصلاحيات كالدوومفير الأول و يلقب بـ : *Praefectus Pro II Viri* [26].

يجد نفسه الدوومفير في بعض الحالات غير قادر على أداء مهامه بكيفية كاملة في المدن الصغرى و القرى التابعة إداريا لإحدى المستعمرات كقرطاجة و سيرتا في نوميديا ذلك لعدم تمكنه من التنقل دوما بينها، حرصا على السير الحسن لإدارة الشؤون العامة، يعين مندوبين محليين و يخول لهم كل الصلاحيات الإدارية و القضائية و يدعون بـ : *Praefectus Iure Dicundo* [27].

بعد كل خمس (05) سنوات يصبح الدوومفير "خماسي" (*II Vir Quenquinalis*) *QQ.* ، عادة يكلف بالإحصاء العام، فهي وظيفة أكثر منها شرفية.

خلال الفترات الانتقالية (بعد انتهاء المهام المسندة إليهم)، كل أعضاء الماجيسترا القدماء يشاركون و يحضرون الجلسات الخاصة بالمجلس البلدي *Curia* بنفس المرتبة التي كانوا فيها قبل انقضاء مهامهم الإدارية.

إضافة للمهام الإدارية و القضائية يتولى أعضاء الماجيسترا وظائف دينية رسمية محلية و في العادة تضم المدينة ضمن طاقمها الكهنوتي :

- 03 رهبان *Pontifex*
- 03 عرافين *Augures*
- 01 كاهن دائم *Fl(amen) P(er)P(etuus)*
- كهنة الكوريا السنويين *Flamen Annus* (في هذه المهام الدينية خصوصا لا يشترط أن يكون الكاهن قد تولى مهاما مدنية كسابقيه).

الوظائف الدينية الثلاث الأولى الأنفة الذكر يكلف بها قدماء الدوومفير كتشريف لهم من المدينة لخدماتهم السابقة، و هي تعتبر قمة السلم الشرفي للوظائف المحلية (الماجيسترا) داخل المدن[28] (Carrière municipale).

الملاحظ أن النقائش اللاتينية التي تعود كلها إلى بعد بداية القرن الأول الميلادي (منذ عهد الإمبراطور هادريانوس)، تذكر لنا معادلة *Omnibus Honoribus Functus* التي تحل مكان السلم الشرفي للوظائف المدنية كلها في المدينة إلى غاية الدوومفير.

يكون تحت مسؤولية و في خدمة هؤلاء الماجيسترا المحليين طاقم إداري متنوع و محدد حسب قانون "أورسو" *Lex Urs LXII* :

02 مساعدان (حاملا الفأس) *Lictoris*
01 حاجب (موثق) *Accensus*
01 مكلفان بالنسخ *Scribonis*
02 ناقلان للبريد *Factores*
01 كاتب *Librarius*
01 بشير (نذير الحرب) *Auspicius*
01 نذير عن طريق أحشاء الحيوانات *Haruspex*
01 عازف الناي *Tibicen* (لإبعاد الأصوات الشريرة عند القيام بالطقوس الرسمية)
* عبيد عموميين (يحدد عدهم حسب أهمية المدينة و مدى ثرائها)

مفوض الإمبراطور لمراقبة المالية و الخزينة العامة في المدينة *Curator Rei Publicae*

منذ بداية القرن الثاني الميلادي طرأ على نظام إدارة الشؤون العامة للإمبراطورية و تسيير الأموال و الخزينة العامة، تطورا ملحوظا يندرج ضمن الإصلاحات العامة التي قام بها الإمبراطور "ترايانوس". من بين الإجراءات الجديدة هو تعيين مفوض خاص من طرف الإمبراطور نفسه للمراقبة و التسيير المالي للخزينة العامة في إحدى مدن الإمبراطورية *Curator Civitatis / Rei Publicae* [29] بعد أن عرفت مشاكل تسيير أو أزمة تمويل مؤقتة. من مهامه

أيضا مراقبة و تفحص مشاريع الأشغال العمومية الممونة من طرف خزينة المدينة[30]، و تنتهي مهامه الغير محددة زمنيا عند انتهاء إدخال الإصلاحات و إعادة نظام تسيير الخزينة[31].

يبقى اختيار الشخص المرشح لتولي هذه المهام من صلاحيات الإمبراطور نفسه و ربما باقتراح من مجلس المدينة، و عادة ما يكون من طبقة النبلاء السيناتورية أو الفرسان من المدينة نفسها أو المقاطعة و كما يمكنه أن يكون أيضا من إحدى المدن الكبرى الإيطالية، شريطة أن لا يعين المفوض في مدينته الأصلية القاطن فيها. الملاحظ أن في شمال إفريقيا يبقى انتماء هذه الشريحة من المفوضين هو الذي يحدد مكان تعيينهم حسب أهمية المدينة و طابعها القانوني (الكلاريسيم في المستعمرات الكبرى مثلا، الفرسان يتم تعيينهم في البلديات و المدن الصغرى و القرى المجاورة المستقلة)[32]. يساعد المفوض في مهامه *Curator Calendaris* الذي يقوم بتسيير و تدوين كل الحسابات و توثيقها.

الملاحظ أن هذه الوظيفة تزداد أهمية ابتداء من نهاية القرن الثاني الميلادي من خلال زيادة عدد المفوضين في الإمبراطورية، هذا ما يؤشر على بداية تدهور الجانب الاقتصادي و المالي للمدن الرومانية، بعد ما عرفت حالة من العجز المالي و تذبذب في تمويل الخزينة العمومية.

إشكالية الكونفيديرالية السيرتوية

عند تفحص و دراسة النقيشات المتعلقة بالكونفيديرالية السيرتوية نواجه إشكالية تحديد المؤسسات التابعة لمدينة سيرتا أو إحدى المستعمرات التابعة لها إداريا لكون النقيشات لا تفرق بينها من خلال الصيغة المذكورة أحيانا على النقيشات، و تكون فردية أحيانا أخرى و لكن بذكر أسماء الماجيسترا و المسؤولين نفسهم الذين سبق ذكرهم في المدن الأخرى يمكننا تحديدها و لو بكيفية تقاربية.

قد شكل النظام الإداري و السياسي المعمول به في الكنفدرالية السرتوية خلال الفترة الرومانية نوع من أشكال الدولة ذات استقلالية معينة، ذلك من خلال انفرادها بهذا النمط الإداري في التسيير و اتخاذها مدينة سيرتا كعاصمة تتمركز فيها كل المؤسسات العمومية المختلفة الضرورية[33].

السلم الشرفي الوظيفي للماجيسترا في هذه المقاطعة يعود إلى ما بعد سنة 26 قبل الميلاد[34] و يتميز بخصوصيات تنفرد بها الكونفيديرالية حيث نجد عوض الدوومفير *II Viro* التريومفير *III Viro* الذي ينسبه البعض لأصول بونية. يكون المقر الرسمي للتريومفير في مدينة سيرتا العاصمة، و تكون مسؤوليته تمتد على كل المدن و القرى التابعة لها. نظرا لعدم إمكانيته في الانتقال و الحضور في اجتماعات كل المدن في آن واحد، يخول مهامه لمفوض أو وال يستخلفه في تسيير الشؤون العامة في إحدى أو عدة مدن الكونفيديرالية في نفس الوقت و يدعى بـ: *Praefecti Iure Dicundo* .

ينهي الماجيسترا سلمه الشرفي الوظيفي كما جرت العادة بوظيفة الكاهن الدائم، أما في سيرتا فينهيها بلقب استحقاق وال لشباب مدينة سيرتا *Praefectura Iuventutis Cirt(ensium)*.

تطور السلم المهني خلال القرن الثالث و الرابع الميلادي

حسب النصوص و النقيشات اللاتينية الإفريقية خاصة و التي تبرز أحد العناصر و الشروط الهامة في تولي هذه الوظائف و الألقاب ألا و هو عامل الوراثة و ذلك بداية من القرن الثالث الميلادي و هذا ما تأكده النصوص في ما يخص عضوية المجلس البلدي المحلي[35].

أما ألبوم مدينة "ثاموقادي" الذي اعتمد عليه كمرجعية أساسية في العديد من الدراسات و التحاليل في هذا المجال[36] فهو يبرز التسلسل في السلم الوظيفي بمزايا جديدة و معطيات أكثر تعقيدا من المرحلة الأولى و هي كالتالي:

01- أعضاء المجلس البلدي المبتدئين *Curiales Non Honores Functi* و من بينهم من هو معفى من دفع الضريبة و القيم الشرفية المرسومة على هذا المنصب *Excusati A Muneribus*.

02- مسؤولان عن الشؤون المالية و الخزينة العمومية اللذان يرتقيان إلى رتبة عليا بعد انقضاء المدة القانونية.

03- المسؤولان عن الشؤون العامة و التمويل في المدينة.

04- الدوومفيران اللذان يكون أحدهما في نفس الوقت كاهن دائم و الآخر عراف بينما صيغة الدوومفير الخماسي تختفي أمام هذه المعادلات الجديدة.

05- المسؤول الأول عن المجلس و المدينة *Magister (Principales)* و ينبثق من مجموعة الكهنة السنويين أو أحد الدوومفير القدماء و يتمتع بهذا اللقب مدى الحياة و تكون أيضا من مهامه الإحصاء العام و مراقبة و توزيع المداخيل المالية و الهبات.

06- فئة أخرى حسب نقيشة "ثاموقادي" تأخذ مكانتها في الحياة الساسية للمدينة و هي فئة المكلفين بمحاسبة و استرجاع القيم الضريبية المفروضة *Exactores*.

07- مفوض الإمبراطور لمراقبة المالية و الخزينة العامة في المدينة *Curator Rei Publicae* و الذي يعين لمدة سنة كاملة بقرار إمبراطوري و لكنه يختار من فئة قدماء الدوومفيير و الكهنة الدائمين من نفس المدينة[37].

صلاحيات المجلس المحلي (الكوريا) في تسيير الشؤون العامة:

تسيير المجالس المحلية يتم بصفة ديمقراطية و نظامية حيث يناقش و يدرس و يتخذ قرارات في تسيير شؤون المدينة و الحياة العامة، ثم توثق كل هذه القرارات

على سجلات و محاضر اجتماع يومية *Commentaria Quotidiana* [38]. قد حددت هذه الصلاحيات التي يتميز بها المجلس *Ordo Decurionum* و أعضاء الماجيسترا في قوانين تسيير البلديات مثل قانون "إيربني" *Lex Irnitana* [39] التي تخول للمجلس اتخاذ كل القرارات و إصدار القوانين و التدابير اللازمة في كل المجالات و للصالح العام و يتصدرها تسيير المداخيل المالية و الجباية و القيم الشرفية المفروضة على الماجيسترا و المحاصيل الزراعية و كل المصادر الاقتصادية التي تسهم في تمويل و ازدهار المدينة، كما يمكن للمجلس أن يعين أشخاصا في مهام و مناصب خاصة مثل السفراء *Legationes* و حامي المدينة *Patronus*.

في ما يخص معطيات النسب لأعضاء الماجيسترا للعديد من المدن النوميدية حسب ما ورد من خلال مجموع النقيشات نجدها متقاربة جدّا[40]، تبقى حالة ماجيسترا **سيرتا** منفردة بخصوصياتهم (أنظر الشكل رقم 1) حيث هم من كانوا يقومون بأهم الوظائف و المهام في المدن والبلدات التابعة لإقليمها على غرار العاصمة، تبين أن النسبة الكبيرة المسجلة في مدينة **ثاموقادي** (أنظر الشكل رقم 3) و المقدرة بـ:41 % من مجموع المقاطعة النوميدية ترجع أساسا إلى كون أغلب الأعضاء ذكر اسمهم على نص نقيشة "الألبوم " لأعضاء الكوريا.

في مايخص طبقة رجال الدين فالكنفدرالية السرتوية أعطت نسبة هامة تقدر بـ 23% بعد مستعمرة **ثاموقادي** التي تتصدر المجموعة بـ: 27% (أنظر الشكل رقم 2) و بلا شك كان عدد مواطني مدينة **سيرتا** يفوق عدد مواطني **ثاموقادي** بحكم أنها عاصمة المقاطعة النوميدية و الكنفديرالية في نفس الوقت، إلا أن هذه الأخيرة (**ثاموقادي**) أفرزت عدد أكبر من طبقة رجال الدين (أنظر الشكل رقم 4) و هذا راجع لأسباب نجهلها إلى حدّ الآن أو ربما راجع إلى الأموال و القيم

الرسمية التي يجب دفعها لتقلد مثل هذه المناصب بما أن أكبر الثروات المالية مركزة في المدن الكبرى فبطبيعة الحال أن أصحابها يريدون المشاركة في المناصب الأكثر تميزا و تليها المدن و المستعمرات الأخرى بنسب متفاوتة و ضئيلة.

تبقى التركيبة النخبوية لكل الطبقات في مختلف المدن متكافئة و ذلك واضح من حيث تعدد الوظائف و المهن الممارسة حسب الإطار القانوني للسلم الإداري.

من خلال معطيات هذه الدراسة لمختلف النخب التي أحصيناها على شكل جداول حاملة لكل المعطيات الموروثة على نصوص النقيشات و التي أخذنا كأمثلة موثوق منها مدينتا **سيرتا** و **ثاموقادي** ، و على ضوء المخططات و الرسوم البيانية التي جاءت تدعيما و اختصارا لكل الملاحظات توضح لدينا الفارق البارز بين مختلف المدن و المستعمرات التي كانت قطبا كبيرا و جذابا للفئات و العناصر الثرية و ذوي النفوذ، فبشكل عام لوحظ أن بعض المدن الكبرى استحوذت على النخبة البرجوازية من الطبقة السيناتورية وأعضاء الماجسترا وطبقة الفرسان وطبقة رجال الدين، وكانت النسبة عالية في كلتا المدينتان مقارنة بالمدن الأخرى التابعة لإقليم سيرتا.

كانت الطبقة السيناتورية الركيزة الأساسية لكل المدن، وكانت **لامبيز** تحظى بنسبة مئوية كبيرة تقدر بـ: 34%، و ذلك راجع أساسا لكونها في بداية الأمر عاصمة لنوميديا ومقرا للفيلق الثالث الأوغسطي،أما مدينة **ثاموقادي** قدرت النسبة المئوية للطبقة السيناتورية بـ: 29% ، بينما أعطت عاصمة الكنفدرالية **سيرتا** نسبة 19 % من الطبقة السيناتورية للمقاطعة النوميدية، و ذلك رغم الحركة

السكانية و تاريخها الحافل و العريق عبر مختلف المراحل التاريخية، فيعتبر هذا العدد ضئيل جدّا مقارنة بالعدد الكبير للكتابات الموجودة بسيرتا.

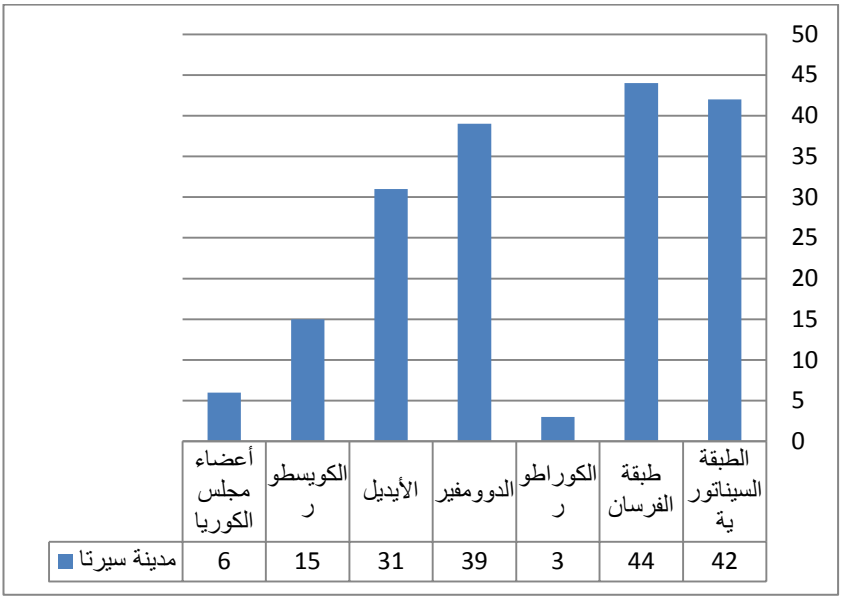

الشكل رقم 1: النخب و الوظائف المدنية لمستعمرة سيرتا

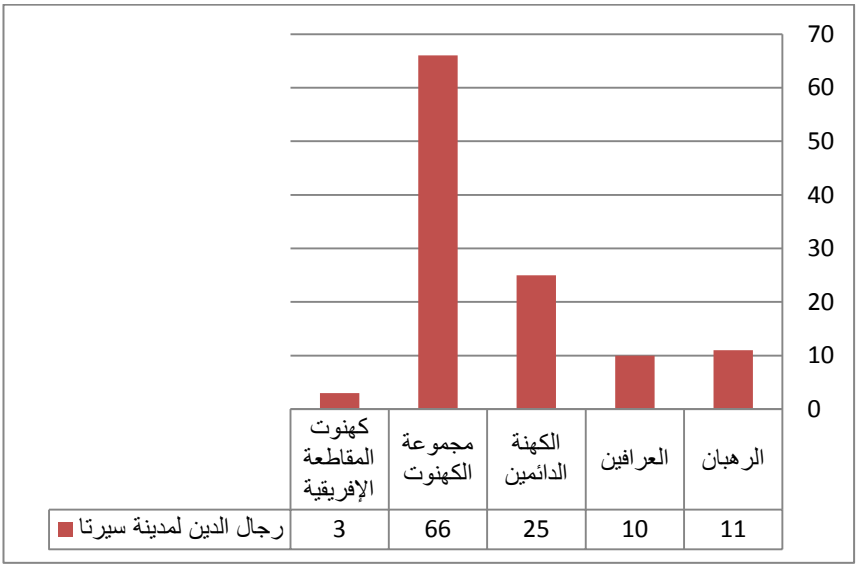

الشكل رقم 2: الوظائف الدينية الرسمية لمستعمرة سيرتا

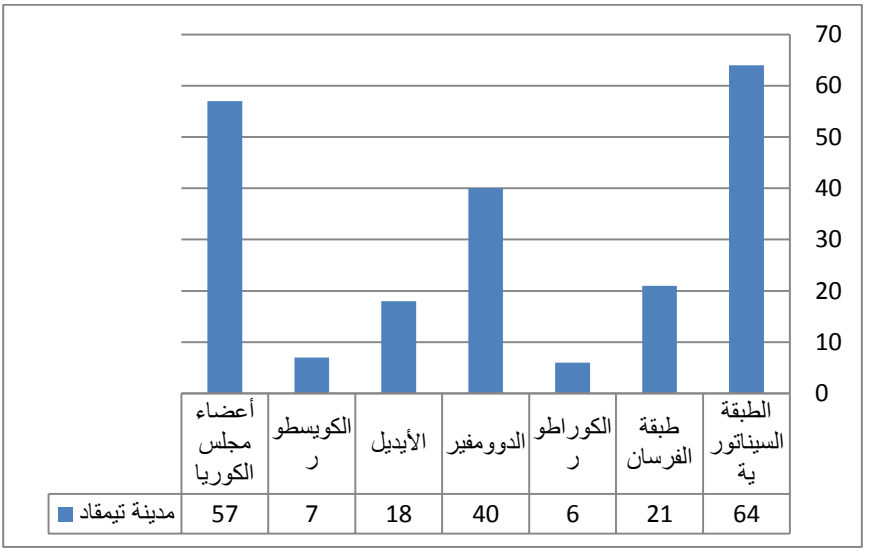

الشكل رقم 3: النخب و الوظائف المدنية لمستعمرة ثاموقادي

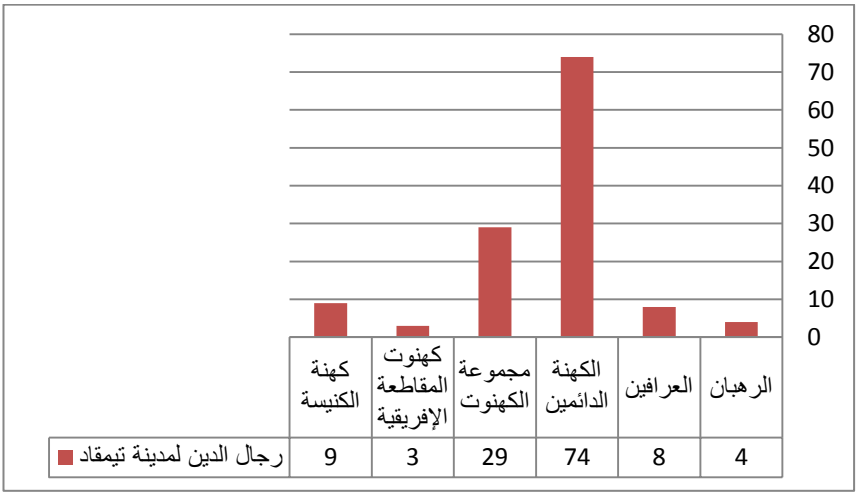

الشكل رقم 4: الوظائف الدينية الرسمية لمستعمرة ثاموقادي

[1] محمد البشير شنيتي، **نظرة على الوضع الديمغرافي و الاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني**، منشور المؤتمر الثالث حول تاريخ و حضارة المغرب القديم (Le monde rural maghrébin : Communautés et stratification sociale)، وهران 26-28 نوفمبر 1983، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، 1987، ص 11-28.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه؛ J. GAGE, *Les classes sociales*, 1964, p. 283

[4] *CIL* VIII, 2403 = 17824 = 17903; *AE* 1941, 45 / 1948, 118 / 1949, 133 / 1956, 133 / 1978, 891, *ILS* 6122.

مضمون نص نقيشة سجل ألبوم "ثاموقادي" في غاية الأهمية، يعود تأريخه إلى النصف الثاني للقرن الرابع ميلادي، وبالتحديد مع بداية سنة 363م. تكمن أهميته خاصة في ما يحتويه من معلومات قيمة متعلقة بتنظيم وتكوين مجلس شيوخ البلدية "الكوريا"، وكل ما له علاقة بتاريخ الجانب الإداري والسياسي والديني على مستوى هذه المستعمرة الرومانية خلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي. يتضمن نص هذه الوثيقة على عدد 262 تسمية، 204 منها فقط مقروءة

بشكل كامل وواضح إلى جانب الألقاب العائلية التي بلغ تعدادها: 65 لقب عائلي، فضلا على احتواءه لـ:151 كنية متباينة، وعشرة 10 من أسماء الشّهرة (*Agnum/Signum*). ومن جهة أخرى، احتوى مضمون هذه النّص على تعداد لـ: 14 عضو من طبقة الأعيان والأسياد، 10 منهم ينتمون إلى طبقة الرتب السامية أي السيناتورية، 02 من طبقة الفرسان، و 02 كذلك من طبقة رجال الدين "كهنة المقاطعة الإفريقية" *Sacerdotales*، أما عن الأعضاء الممثلين لسكان المدينة فقد بلغ تعدادهم 152 عضو، هذا إلى جانب تعداد 70 من مختلف كتاب الإدارة، و 11 من رجال الدين للكنيسة المسيحية.

[5] محمد البشير شنيتي، نفسه، ص 20.

[6] J-M. LASSÈRE, *Ubique populus, peuplement et mouvement de la population de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères*, Paris, 1977, p. 351-352.

[7] J-M. DAVID, *Le patronat judiciaire au dernier siècle de la république romaine* (**Bibliothèque des Écoles Françaises d'Athènes et de Rome**, **277**), École française de Rome, 1992, vol. 1, p. 49-50.

[8] J-M. LASSÈRE, *Manuel d'épigraphie romaine*, vol. 1, Paris, 2007, p. 316.

[9] Ibid, p. 348.

[10] *AE* 1968, 593 (MVSTIS) : *Classis Tertia ex Curia Aug(usta).*

[11] *ILAlg.*, I, 2145 ; J-M. LASSÈRE, p. 349, n°25.

[12] *CIL* II, 1964 ; *ILS* 6089.

[13] *CIL* VIII, 2403 ; *ILS* 6122 ; A. CHASTAGNOL, *L'album municipal de Timgad*, Bonn, 1978, p. 109 , pl. XV.

[14] *CIL* VIII, 10860.

[15] J-M. LASSÈRE, p. 351 ; *ILS* 6086.

[16] Code Justinien, X 41, 2.

[17] J-M. LASSÈRE, p. 567.

[18] *Biennium* مدة سنتان

[19] J-M. LASSÈRE, p. 568.

[20] Ibid.

[21] توفيق حموم، **كهنة و كهنوت العهد الامبراطوري الأول في شمال إفريقيا من خلال الكتابات اللاتينية**، رسالة ماجستير في الآثار القديمة،(معهد الآثار – جامعة الجزائر) 1999، ص 311-329.

[22] F. JACQUES, *La questure municipale dans l'Afrique du Nord romaine*, **Bulletin du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques** (**BCTHS**), n° s., 17 B, p. 211-224.

[23] S. DARDAINE et H. PAVIS D'ESCURAC, *Ravitaillement des cités et évergétisme annonaire dans les provinces occidentales sous le Haut-Empire*, **Ktéma**, XI, 1986 [1990], p. 291-302.
(نجد أن الباحثان قد جمعا عدد 24 نقيشة في الموضوع، منها 12 نقيشة عثر عليها في المغرب القديم)

[24] *CIL* VIII, 9642.

[25] لا يمكن للإمبراطور أن يتولى هذه المهام في الواقع، فهي شرفية تخدم أكثر المدينة بتقربها من خلال ذلك بالسلطة المركزية.

[26] J-M. LASSÈRE, p. 366.

[27] Ibid, p. 367.

[28] J-M. LASSÈRE, p. 372.

[29] المصطلح المعمول به *Res Publica* لا يؤدي مفهوم الدولة، و إنما كل المجموعات المحلية القائمة على مؤسسات عمومية مثل المدينة و لو بحجم صغير أو القرى المجاورة ذات استقلالية في التسيير.

[30] في ما يخص الصلاحيات و المهام الخاصة بهذه الوظيفة (استرجاع القروض و الأموال، حسن التسيير و الحرص على دفع القيم الشرفية الموعود بها).

[31] F. JACQUES, *Le privilège de liberté. Politique impériale et autonomie municipale dans les cités de l'Occident romain (161-244)*, Rome, École Française de Rome, 1984,

(**Collection de l'École Française de Rome 76**), p. 301-309 ; J-M. LASSÈRE, p. 376.

[32] Ibid.

[33] A. BERTHIER, *La Numidie, Rome et le Maghreb*, Paris, 1981, p. 178.

[34] نقيشة "قصر محجيبة" تذكر لنا دوومفير عادي في المستعمرة *ILAlg.*, II, 4226.

[35] F. JACQUES, *Genitalis curia. L'hérédité des décurions revendiquée dans une inscription de Numidie*, in **Zeitschrift für Papyrology und Epigrafik ZPE** 59, 1985, p. 146-150.

[36] C. LEPPELLEY, *La carrière municipale dans l'Afrique romaine sous l'empire tardif*, in **Ktèma** VI, 1981, p. 333-347.

[37] في الحقيقة كانت مهامه بمثابة رئيس بلدية حقيقي، و "الدوومفيران" بمثابة نوابه، J-M. LASSÈRE, p.386

[38] ذلك حسب نقيشة *CAERE* التي تطلعنا بشكل دقيق عن كيفية تسيير الجلسات و القرارات المتخذة و كيفية استصدارها ثم كل المراحل التي تمر بها معالجة إحدى القضايا من طرف مجموعة الماجيسترا و أعضاء المجلس المحلي يوم 13 أفريل من سنة 113 ميلادي، *CIL* XI, 3614; *ILS* 5918 a.

[39] *AE* 1986, 333 ; J-M. LASSÈRE, p. 344.

[40] نجد في **ثاموقادي** 41 %، **كويكول** 44% ، **لامبيز** 17 %، **سيرتا** 17%؛ أنظر في هذا الشأن :

توفيق حموم، **النخب الإدارية و الاجتماعية للكنفدرالية السرتوية و المدن الكبرى بنوميديا أثناء الاحتلال الروماني(منذ سنة 46 قبل الميلاد إلى نهاية القرن الرابع الميلادي)**، أطروحة الدكتوراه في الآثار القديمة، جامعة الجزائر 2009/2008، ص 159-160.

حركة انتصار الحريات الديمقراطية –MTLD–(1945–1954) من الأزمة إلى القطيعة.

د/سعاد يمينة شبوط – قسم التاريخ – جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان.

الملخص :

تتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية1945،على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) MTLD خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام 4،5،6 أفريل1953، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وأزمات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفا معارضا من الطرفين وتبلور المشروع العسكري الذي بلغ مستوى من النضج في خضم مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل(CRUA)في مارس 1954 تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف 1954وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.

ABSTRACT:

Historical sources available agree on the subject of the evolution of Algerian National Movement after the end of World War II in 1945, that the chronic crisis that ravaged structures (the movement of the victory of the democratic liberties) MTLD during the second conference, which took place days 4,5,6 April 1953, were not the result of the time, but the result of several problems and crises are not resolved in a timely manner which increased escalate when it became clear the core issues in the nature of the dispute between the Central Committee and Messali Haj and his

supporters and take the advocates of armed action stand against the parties and the crystallization of a military project, which reached a level of maturity in the midst unanimously concluded the stage of the birth of a revolutionary chapter knew Commission revolutionary unity and work (CRUA) in March 1954 that the Commission, which has taken upon itself the actual preparation for the bombing of the Revolution in the fall of 1954 and in this context the responsibility of fighter Mohammed Boudiaf indicates that the initiation of armed action was the most appropriate solution to save the Algerian national movement of the impasse in which they occurred.

مقدمة:

شكلت سنة 1953،منعطفا حاسما في تطور مسار الحركة الوطنية الجزائرية بالنسبة للكثير من المختصين في تاريخ الثورة التحريرية، وممن عاصروا تلك الفترة من مناضلي التيار الاستقلالي ورواد المشروع العسكري، الذي بلغ النضج في مرحلة مخاض عسير انتهى بميلاد فصل ثوري عرف باللجنة الثورية للوحدة والعمل(CRUA)في مارس 1954 تلك اللجنة التي أخذت على عاتقها مسؤولية الإعداد الفعلي لتفجير الثورة في خريف 1954[1] وفي هذا السياق يشير المناضل محمد بوضياف بأن الشروع في العمل المسلح كان أنسب حل لإنقاذ الحركة الوطنية الجزائرية من المأزق الذي وقعت فيه.[2]

وتتفق المصادر التاريخية المتوفرة حول موضوع تطور الحركة الوطنية الجزائرية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية1945،على أن الأزمة المزمنة التي عصفت بهياكل الحزب (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) خلال مؤتمرها الثاني الذي انعقد أيام 4،5،6 أفريل1953، لم تكن وليدة حينها بل نتيجة عدة مشاكل وخلافات لم يتم تسويتها في وقتها الأمر الذي زاد من استفحالها عندما اتضحت المسائل

الجوهرية في طبيعة النزاع بين اللجنة المركزية ومصالي الحاج[3] وأنصاره واتخاذ دعاة العمل المسلح موقفا معارضا من الطرفين.[4]

ودون الاستطراد في تفاصيل الأزمة وخلفياتها التاريخية، يمكن حصر أهم الأزمات والمشاكل الصعبة التي اعترضت مسيرة حزب الشعب (PPA)- حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)- وترسبت بعمق طيلة مرحلة عسيرة بدأت معالمها مع نتائج وآثار مجازر 8 مايو1945 وانعكاساتها على أهداف وتوجهات الحزب المستقبلية.

*** الأزمات الداخلية لحزب الشعب– حركة انتصار الحريات الديمقراطية– (1945–1954).**

1–ورطة حزب الشعب(المُحل)في مجازر8 ماي 1945:لقد وُجهت أصابع الاتهام خلال جلسات المؤتمر الأول للحركة يومي15-16 فيفري1947[5] إلى بعض العناصر النشطة في الخلايا السرية للحزب في الشرق الجزائري أمثال الشاذلي المكي وشوقي مصطفاي[6] على مسؤوليتها المباشرة في دفع الشعب إلى الشارع الأمر الذي أدى إلى ردود فعل فرنسية عنيفة انتهت بأبشع مجزرة في تاريخ الجزائر[7]وقد اعتبرت هذه الورطة من المشاكل و الصعوبات التي تركت أزمة من الشكوك والريبة وانعدام الثقة بين الإطارات والمناضلين داخل هياكل الحركة، تخوفا من تكرار تجربة وسيناريوال8 مايو من عام 1945.

وتعود خلفية هذه القضية إلى محاولة قادها عدد من مناضلي حزب الشعب من أجل توظيف الحركة الشعبية التي تزامنت مع الاحتفالات بانتصار الحلفاء على دول المحور في نهاية الحرب العالمية الثانية واستغلال الغطاء السياسي لحركة أحباب البيان والحرية من أجل الجهر بالمطالب الاستقلالية التي كان ينادي بها الحزب كحل للقضية الوطنية.

وقد رسم هؤلاء خطة تقضي بتحرير مصالي الحاج من إقامته الإجبارية بمنطقة قصر شلالة بالتزامن مع مظاهرات الأسبوع الأول من شهر ماي 1954وهو الأمر الذي كان ينطوي على تدبير سياسي يسعى إلى تحويل

التظاهرات إلى عصيان مدني وثورة شعبية معلنة من أجل الضغط على الإدارة الاستعمارية ودفعها إلى تبني فكرة "حق تقرير المصير السياسي" للشعوب المستعمرة،والتي كانت شديدة الرواج عند نهاية الحرب العالمية الثانية.[8]

لكن سوء تقدير طبيعة وحجم ردود الفعل الاستعمارية التي جوبهت بها المطالب والشعارات الوطنية جعل مشروع توظيف التظاهرات يتحول إلى إخفاق سياسي شديد كانت كلفته البشرية باهظة جدا وهو ما جعله موضوعا لتبادل الاتهامات في صفوف قيادة حزب الشعب في الاجتماعات الأولى التي عقدت تحت غطاء حركة انتصار الحريات الديمقراطية غداة إعادة بناء الحركة الوطنية في خريف 1946.

2- الخلاف حول مسألة الانتخابية:

دفع انبعاث النشاط السياسي في الجزائر عقب نهاية الحرب العالمية الثانية في خريف 1945 مرة أخرى إلى محاولة بناء الحركة الوطنية من جديد دون أي تغيير في برامجها التي تجاوزتها الظروف المستجدات. وفي هذا السياق شرع زعيم الحزب- حزب الشعب الجزائري- مصالي الحاج بعد عودته من المنفى ببرازفيل في جمع أطراف التيار الاستقلالي وأعاد بناء حزب الشعب باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD في ديسمبر 1946[9]مع الاحتفاظ بطبيعة العمل السري إلا أن ما يلفت الانتباه في هذا اللقاء، بروز قضية جوهرية تمثلت في قضية المشاركة في الانتخابات[10] .

ويمكن الإشارة إلى أن هذه المسألة تم عرضها في الأشهر الأولى لتأسيس الحركة الجديدة،إذ عرضت لأول مرة في اجتماع اللجنة المركزية بتاريخ 23 أكتوبر1946،لأن مصالي الحاج كان يعتقد أن الوضع آنذاك كان ملائما للعمل السياسي،لذلك سارع بطرح مسألة المشاركة في الانتخابات على طاولة النقاش الأمر الذي أدى إلى تباين المواقف بشكل واضح[11]،وكان أول خلاف علني في نوفمبر 1946 عشية الانتخابات المقررة في ذلك الشهر، وهو ما أوحى ببداية القطيعة الإيديولوجية داخل الحركة الثورية الجديدة حيث شبّ خلاف بين

الإطارات والمناضلين فزعيم الحزب مصالي الحاج ألحّ على دعوته للمشاركة في الانتخابات ومسايرة السياسة الاستعمارية والعمل في إطار ما تسمح بع الشرعية الفرنسية[12]وقد دفعت هذه الخطوة بالعناصر النشطة (الشابة) من الجيل الجديد الذي التحق بصفوف النضال السياسي داخل الحركة إلى ترسيخ قناعتهم بفكرة العمل المسلح وامتعاضهم للأسلوب الذي انتهجه مصالي وأنصاره[13].

وتزعم التيار المعارض لفكرة المشاركة في الانتخابات في بداية طرحها للنقاش الأمين دباغين وعدد من الإطارات الشابة، ثم تنازل معظم هؤلاء عن موقفهم،ولم يبق سوى حسين لحول في موقف معارض لفكرة في سنوات 1946-1949.ثم ما لبِث إن تحول هو أيضا إلى مناصر للفكرة عندما ترشح وانتخب رفقة آخرين لعضوية المجلس البلدي للجزائر العاصمة خلال تولي جاك شوفالي لرئاسته في سنوات 1950-1954 .

وتمكن عدد من مرشحي الحزب من الفوز في الانتخابات رغم عملية التزوير التي رافقتها بتدبير من الحاكم العام إديموند نايجلان،إذ وصل إلى عضوية البرلمان الفرنسي كل من دباغين ومحمد خيضر وحسن دردور ومسعود بوقادوم وأحمد مزغنة،لكن الأزمة حول فكرة المشاركة في الانتخابات استمرت بسبب قيام بعض الإطارات القديمة في نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب بشن حملة انتقاد ضد مصالي الحاج والإطارات التي وافقت على العمل في ظل الشرعية الاستعمارية من خلال قبولها بالعضوية في الهيئات السياسية الفرنسية .

ويمكن تفسير استمرار الخلاف حول المشاركة في الانتخابات إلى سنوات متوالية إلى تباين مكاسب وإخفاقات تلك المشاركة، فقد كان الفوز في الانتخابات البلدية في أكتوبر1947 مكْسبًا وحجة لدعاة العمل الشرعي العلني في حركة الانتصار في وجه المعارضين والمشككين من رفاقهم، لكن التزوير الذي رافق انتخابات الجمعية الوطنية الجزائرية في بداية عام 1948،ورافق أيضا الانتخابات الموالية في عام 1949،سرعان ما أعاد الأصوات المعارضة إلى الواجهة بسبب الكلفة المادية الباهظة للمشاركة الانتخابات وتعرض عدد كبير من

مرشحي الحركة للاعتقال والسجن والغرامات المادية التي سلطت على كل من حسين لحول والحاج محمد شرشالي من اجل منعهما من الدعاية الانتخابية .

ومنذ ذلك التاريخ استمر الخلاف حول مسألة الانتخابية بين الرفقاء وتحول من مسألة عادية مطروحة للنقاش إلى صراع حمل في طياته اختلافات شديدة في تحديد الروئ والتصورات السياسية بين ثلاثة تيارات أحدهما مؤيد للعمل الشرعي والآخر معارض له بينما كان التيار الثالث يؤيد المشاركة السياسية كحل مؤقت للتغطية على المشروع الثوري الذي كان يجري الإعداد له في السرية من طرف عناصر المنظمة الخاصة .

و يجدر توضيح أن محركات الخلاف حول مسألة المشاركة في الانتخابات التي كانت أحد أهم الأسباب في استمراره كانت ترتبط أحيانا بالطموحات الشخصية والمنافسة على الموقع القيادة وأحيانا بالتعصب السياسي وحب الزعامة الذي يمكن اعتباره سببا مباشرا في أصول الأزمة الحادة التي انتهت بتصدع الحزب في ربيع 1953.

3- مشكلة الأمين دباغين[14](1947-1949): إذا كان الخلاف بين الأمين دباغين وبعض أعضاء قيادة الحركة وعلى رأسهم مصالي الحاج شخصيا يعود إلى ندوة الإطارات التي انعقدت في شهر ديسمبر1946 بعد بروز الخلاف حول المسألة الانتخابية، إلا أن الموقف سيتبلور بوضوح ليصبح أكثر تعصبا وصلابة بعد المؤتمر الأول(فيفري1947)فالسياسة الجديدة التي حاول بعض القادة فرضها كمنهج عمل داخل الحركة تسببت بشكل مباشر في قيام المواجهة بين هيئة القيادة وعلى رأسها مصالي الحاج والدكتور الأمين دباغين الأمر الذي دفع به إلى الابتعاد بشكل رسمي عن الحركة وانقطع تماما عن حضور جلساتها والمشاركة في نشاطات القيادة[15].

كما امتنع عن تقديم التقارير عن نشاطاته النضالية خصوصا تلك المتعلقة بوجوده في البرلمان الفرنسي وعلى الرغم من هذا الابتعاد لم يتوقف دباغين عن توجيه تهمه للمسؤولين بإدارة الحركة لاسيما مصالي الحاج الذي اتهمه بالسكر[16].

وفي محاولة لإعادة الأمين دباغين إلى صفوف قيادة الحركة شكلت لجنة من أربعة أشخاص وهم: مصالي الحاج ومحمد بلوزداد وبن يوسف بن خدة وأحمد بودا لتوضيح قضيته وموقفه من الحركة غير أنه رفض مقابلتهم ثم تمت محاولة أخرى من طرف القيادة الذين توجهوا إلى بيته لكنه رفض أيضا أي اتفاق معهم.

وقد كانت آخر محطة لقاء بين دباغين مع إدارة الحركة هي الزيارة التي قام بها أحمد بودا إليه،حيث بلغه فيها بأن قيادة الحركة سوف تعتبره متمردا أو عاصيا في حالة عدم توضيح موقفه فأجابه الأمين دباغين بقوله "إذن فالحرب بيننا"[17].

ومما لا شك فيه أن سبب الخلاف كان جوهريا، حيث شكل إحدى دعائم الحركة إذ أنه تعلق ببرنامجها ومبادئها ومطالبها الأمر الذي اعتبره دباغين انحرافا حقيقيا وخطيرا على نهجها وقد كان التوجه الجديد للحركة إحدى بدايات هذا الخلاف وقد أشاد الدكتور مصطفى الأشرف[18] بخصوص هذه المسألة "لقد انخدع كثير من المناضلين الشباب في الحزب الذين ناضلوا في السرية حتى سنة 1946، بالسياسة البرلمانية الجديدة لحركة الانتصار والتخلي عن المبادئ والتنظيم وانسحبوا لترك المجال للقادمين الجدد مرشحين متمكنين.[19]

لقد أحدث انسحاب الأمين دباغين[20]هزة عنيفة في صفوف المناضلين وخصوصا الشباب الثوري الذي رأى فيه الأمل والريادة في البحث عن مخرج من تلك الشرنقة التي أبعدتهم عن جوهر الصراع مع السلطات الاستعمارية والإسراع بتفجير الثورة.

كما ساد التذمر في أوساطهم معتبرين ذلك دليلا آخر على انحراف إدارة الحركة عن المنهج الثوري الذي رسمته لنفسها منذ سنوات عازمة على تحقيق الطموحات الشعبية بقوة السلاح وفي هذا السياق يمكن الإشادة بالمناضل الأمين دباغين الذي اعتبر الدماغ المفكر للحزب ورجل حركة أحباب البيان و الحرية سنة 1944، ورجل المؤتمر الأول للحزب لكونه لا يميل إلى العمل الجماعي وذلك لتفضيله التفكير والدراسة المتأنية البعيدة عن الضوضاء وتعارض الآراء[21].

وبسبب كثرة الانتقادات ضده خاصة من المقربين الذين سبق الإشارة إليهم ضف إلى عزله من الحزب خلال مؤتمر زدين[22] تشكلت صورة عن الحالة التي كان عليها خلال تلك الفترة حيث كان في حقيقة الأمر مُحبط المعنويات بشكل عميق.

إن ما يمكن قوله عن طبيعة هذه الأزمة وتداعياتها أنها بينت بشكل واضح حقيقة الصراع حول القادة بين جماعة من المناضلين القدماء بزعامة مصالي ومولاي مرباح ومزغنة من جهة وثلة من المثقفين النشطاء الشبان الذين تمكنوا من التسرب إلى هياكل الحزب بقة وبلوغهم مراكز قيادية عالية وفي وقت كان من المفروض على قيادة الحزب الشروع الجدي في البحث لإيجاد حلول جذرية لهذه الأزمة التي عرفت في أدبيات الحركة الوطنية بأزمة "دباغين" قامت بالمزج بينها وبين شق آخر من أزمة شهدتها سنة 1949 وهي الأزمة البربرية وفي هذا السياق تشير بعض المصادر أن قيادة الحزب استغلت هذه الأزمة لإقصاء أنصار محمد الأمين دباغين من صفوف وقيادة الحزب[23].وإن اختلفت التفاسير والأطروحات في قضية دباغين فالمؤكد أن هذه الهزة عبرت عن تحول خطير في توجهات الحركة وسوف تكون لها انعكاسات خطيرة أيضا على مستقبلها ومستقبل مناضليها.

4- الأزمة البربرية1949:اعتبرت الأزمة البربرية إحدى الأزمات التي مهدت للأزمة الكبرى وتركت آثارا عميقة في مسار الحركة، كما شكّلت في نفس الوقت منعطفا حاسما في مسيرتها لارتباطها بأعقد قضية في تاريخ الحركة الوطنية وهي قضية الاستقطاب الجهوي والهوية في حد ذاتها[24].ويرجع البعض أسباب ظهور هذه الأزمة إلى انتخاب رشيد علي يحي[25] لقيادة فدرالية الحركة بفرنسا خلال مؤتمرها الذي انعقد في شهر نوفمبر1948 بدعم من واعلي باي[26] وعمر ولد حمودة[27] وهما من أبرز زعماء الدعوة البربرية[28] حيث قاما بتقديم أطروحات حول الهوية وطبيعة الدولة الجزائرية.

وفي مقابل ذلك شرع اليساريون في العمل من أجل إنشاء شعبية للبربرية وأقر أعضاء اللجنة الفدرالية بأغلبية 28صوتا من جملة32صوتا استعمال القوة ضد

اللجنة المركزية للحزب ورفض أية فكرة قائلا "الجزائر ليست عربية ولكنها جزائرية،وإن كان من الضروري تشكيل إتحاد لجميع المسلمين الجزائريين دون تمييز للجنس العربي أو البربري نحن فوق المشكلة العرقية"[29]

وتجدر الإشارة إلى أن الحركة البربرية حُضيت بالمساعدات والدعم لدى الحزبين الشيوعي الجزائري والفرنسي وخلاصة هذا الدعم ما عرف ب"نظرية البوتقة" التي جاء بها رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي موريس توريز " Moris Toreze" الذي يذهب في قوله بأن "إن الأمة الجزائرية لم تكن موجودة في السابق وهي اليوم في طريق التكوين من العرب والقبائل واليهود والمالطيين والأسبان والفرنسيين وغيرهم..."[30].

ويعتبر أول من دق ناقوس الخطر حول هذه القضية هو المناضل أحمد بودة[31]في مؤتمر زدين الذي واجه آنذاك معارضة شديدة من قبل حسين أيت أحمد وعمر ولد حمودة وعلي بناي[32].

أخذت قيادة الحركة القضية بشكل أكثر جدية، حيث كلفت المناضل حسين لحول الذي كان آنذاك أمينا عاما لها بمهمة احتواء الأزمة والقضاء عليها قبل استفحالها واستحالة السيطرة عليها وقام هذا الأخير بإرسال وفد يحسن التكلم بالقبائلية على رأس فدرالية الحزب بفرنسا وطلبت من السادة "راجف بلقاسم[33] وسعيد صادق وشوقي مصطفاي" القيام بإعادة تنظيم خلايا الحزب بفرنسا كما قام كريم بلقاسم من جهته بالقضاء على مفتعلي الحركة البربرية وعلى رأسهم "رشيد علي يحي"[34] بالإضافة إلى إيقاف جريدة النجم الإفريقي "التي كانت تصدر باسم الاتحادية"[35].

وأدت هذه الإجراءات إلى وقوع صدمات ومواجهات بين أعضاء الوفد وبعض العناصر المتسببة في الأزمة البربرية أصيب على إثرها عدد من المناضلين بجروح من بينهم محمد خيضر[36] وفي نفس السياق أصدر الوفد منشورا ندد فيه ببربرية "رشيد علي يحي"وقد ردت عليه بعض التنظيمات الطلابية القبائلية

بتجميدها للمساهمات المالية وذلك تحت شعار"عاقبوا علي يحي دون مهاجمة البربر"[37].

وفي الجزائر فقد قامت الحركة بتوجيه من الأمين العام حسين لحول بمعالجة القضية بحكمة وهدوء دون أن تصل إلى هياكل الحركة و قواعدها كما تم إبعاد المناضلين الذين ثبت أن لهم ضلع في القضية وهم "واعلي بناي" و"عمر أوصديق"و"عمر ولد حمودة"[38].

أما بالنسبة لحين أيت أحمد رئيس المنظمة فقد أتهم بهذه القضية وتم استدعاؤه وأجرى معه المناضلان أحمد بودة والحاج محمد شرشالي تحقيقا أنكر فيه التهمة واعتبرها مؤامرة من قيادة الحركة ضد مسؤولي منطقة القبائل فقررت الحركة عزله من الرئاسة المنظمة وتكليف المناضل أحمد بن بلة برئاستها[39].

لقد أثارت هذه القضية الكثير من المتاعب للمناضلين داخل الحركة وكادت أن تعصف بقواعدها وأجهزتها باعتبارها قضية تشكيك في الهوية الوطنية ومساس بالأشخاص مباشرة في الحركة التي أصبح لها رصيدا وطنيا وشعبيا كتيار ثوري استقلالي ومما لا شك فيه أن للإدارة الاستعمارية ضلع في الأزمة حيث لها دور في ظهورها ومحاولة نشرها في إطار السياسة الاستعمارية "فرق تسد".

5) نتائج وآثار اكتشاف وحل المنظمة الخاصة LOS[40]:

على إثر عملية اكتشاف المنظمة السرية في شهر أفريل 1950وتعرض الحزب لتلك الأعمال العنيفة قررت اللجنة المركزية حل المنظمة،مادامت الظروف لا تسمح بمباشرة أعمالها،وأوصت بأن تعود إلى عملها من جديد قبل بضعة أشهر فقط من بدء الحركة الفعلية، وكان لهذا الإجراء نتائج سلبية وشعور بالجفاء بين زعيم الحزب مصالي الحاج وبين الشبان الذين بذلوا الكثير في سبيل إعداد ذلك الجيش من المدربين، وتلك الخطط التي تقرر البثُ في تحضيرها[41].

ويعتبر ذلك سببا في تأجيل معركة التحرير في تلك الفترة [42]،فسياسة الانتخابات كانت هي الأخرى إحدى محاور الخلاف [43] بين قادة الحركة

وقاعدتها، فقد دأب الحزب منذ تكوينه على المشاركة في الانتخابات البلدية والتشريعية في حين كان يواصل نشاطه الشرعي ويطالب بالاستقلال، ورأى المناضلون الشبان من أعضاء الحزب أن اشتراك حزبهم في المجالس الفرنسية التشريعية خيانة ومضيعة للوقت [44] في حين كان الكهول والمتقدمون في السن منهم يرون عكس ذلك مادامت هناك مكاسب وطنية ولو بسيطة وقصيرة المدى.وفي عام 1952 نقلت الحكومة الفرنسية مصالي الحاج نهائيا من الجزائر وحددت إقامته الجبرية في فرنسا، وسبب بعده عن الجزائر اتساع شقة الخلاف بينه وبين الأعضاء الشبان في اللجنة المركزية [45] .

والحقيقة أن الخلاف الذي ظهر بين مجموعة مصالي واللجنة المركزية كان خلافا بين جيلين يختلفان في الطبيعة والتكوين والاتجاه وإن تقاربت، فمصالي كان يعتقد ويرى نتيجة لقدمه وأسبقيته في الحركة أن لاحق لأحد في أن يعارضه أو يشاركه في الرأي، ويريد أن يفرض سلطته الشخصية على الحزب، ويتصرف في مقرراته ما يشاء ويهوى، ويُسيّره وفق ما يعن له أما اللجنة المركزية فقد وضعت نصب أعينها تدعيم الحزب بدم جديد وفرض الزعامة الجماعية، ونبذ الشخصية الفردية وتحقيق الديمقراطية داخل إطارات الحزب، ضمانا لاتجاهه السليم وعدم انحرافه [46] .

انتابت حركة انتصار الحريات الديمقراطية أزمة داخلية فهلل الاستعمار لها، وعزز وسائل المحافظة على الأمن،لأن المشكل الجزائري في نظر أهل الفكر الاستعماري، مشكل "جندرمة" ليس إلا وحيث أن العربي لا يحترم إلا القوة،فما على الاستعمار إلى اللجوء إليها،وكانت الجرائد الفرنسية ببعد نظرها وثاقب بصرها في طول أعمدتها وعرضها تقنع قراءها بضرورة ذلك، ونذكر من تلك الجرائد:"ليكو دالجي"L'écho d' Alger،و"لاديبيش كوتيديان" la Dépêche Quotidien و" La Dépêche de Constantine،و"وليكودوران " L'écho d'Oran.

6) المؤتمر الثاني للحركة أفريل 1953:

يُعد المؤتمر الثاني لحركة الانتصار من أهم المؤتمرات وأكثرها تأثيرا على مسارها كما أنه يعد المؤتمر الأخير على مستوى الاجتماع داخله، وآخر محطة التقى فيها الإخوة الأعداء لأنه يمثل بداية الخلاف العلني والصراع الدامي بين الفريقين المتموقعين داخل الحركة ومن هنا جاءت أهمية وخطورة هذا المؤتمر بالإضافة إلى القرارات الحاسمة التي صدرت عنه سواءً على المستوى التنظيمي والهيكلي للحركة وطبيعة التركيبة البشرية التي انتخبت على هرم قيادتها أو على مستوى تحديد المسؤوليات وصلاحيات رئيسها مصالي الحاج، وهو ما اعتبر سابقة خطيرة في تاريخها بالنسبة للرئيس ولبعض أنصاره المتعصبين له والذين كانوا يرون فيه الزعيم الأبدي الذي لا ينافس بل ولا يجوز أن يكون محل جدل أو نقاش، من حيث مسؤوليته السياسية والروحية على الحركة، ومناضليها، وهو ممثل الشعب الجزائري بدون منازع رغم أن قضية تحديد المسؤوليات داخل أجهزة الحركة وكذلك قضية الرئاسة مدى الحياة قد نوقشت قبل هذا التاريخ، إذ كانت من أهم نقاط جدول أعمال دورة لجنتها المركزية في شهر ماس 1950، حيث أشار تقرير تلك الدورة إلى مسألة تحديد سلطات رئيس الحركة ورفض صيغة الرئاسة مدى الحياة، إضافة إلى حق" النقض"وذلك رغم التباين الكبير الذي ساد أشغال الدورة حول هذه المسائل الحساسة، التي أجل البث والحسم فيها إلى وقت لاحق[47].

والحقيقة أن هذا المؤتمر قد أخرج هذه المسائل إلى النور بعد أن كانت تدور بين عدد محدود معين من مناضلي قيادة الحركة وداخل لجنتها المركزية وهو ما عجل بظهور الخلاف إلى السطح،وبداية مرحلة من أخطر المراحل في تاريخ الحركة[48].

أما فيما يتعلق بعقد هذا المؤتمر فيشير محفوظ قداش [49] بأنه كان من المزمع عقده قبل هذا التاريخ وقد قررت له آجال تم تأجيلها في كل مرة وكان آخرها أيام 12- 13 14 جويلية 1952، وبعد التحضيرات الجدية له تم فجأة تأجيله مرة أخرى، وذلك لأسباب بعضها ظرفية ومنها زيارة مصالي الحاج للأصنام وما أعقبها من حوادث دامية، بالإضافة إلى قضية نفيه إلى **نيور** Niort بفرنسا.

وفي نهاية المطاف تم تحديد تاريخ انعقاد المؤتمر باتفاق أكثرية أعضاء اللجنة المركزية مع موافقة رئيسها الموجود آنذاك تحت الإقامة الجبرية بنيور بعد أن أوفدت إليه اللجنة المركزية لجنة من خمسة أعضاء سلمها مصالي تقريرا احتوى على تسعة نقاط رئيسية عرض من خلالها التباين مع المواقف السياسية للقادة الآخرين منذ سنة 1946، كما عين أثناء هذا اللقاء المناضل مولاي مرباح ناطقا رسميا له[50].

وقد استقر الرأي النهائي على أيام 4و5و6 من شهر أفريل1953 لعقد المؤتمر الثاني وتم فعلا انعقاده في هذا التاريخ، وذلك بصفة شبه سرية بمقر الحركة بساحة **شارتر**" Charter"بالجزائر العاصمة،بينما يذكر عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون أن المؤتمر انعقد بنادي المولودية بساحة شارتر[51].وحسب نفس المصدر فإن هذا المؤتمر انعقد في جوٍّ مشحون بالتوتر وانعدام الثقة، وظهر ذلك واضحا على وجوه المجتمعين من خلال الترسبات السابقة والخلافات في الآراء ومشكلة اكتشاف المنظمة الخاصة، وموقف القيادة السلبي من مناضليها بالإضافة إلى المواقف والتوجهات التي سبقت انعقاد المؤتمر الثاني بين مصالي الحاج من جهة، وأعضاء اللجنة المركزية من جهة أخرى[52]. وكل ذلك انعكس على جو المؤتمر وكان هناك أيضا مايثير التوتر والتحفظ ويتمثل ذلك في مسألتين هما:

1-ضرورة محاولة الاحتفاظ بسر الخلاف الذي نشب بين رئيس الحركة واللجنة المركزية.

2-ضرورة عدم التصريح ببعض قرارات المؤتمر لما فيها من خطر على الحركة ومناضليها ومستقبلها أمام السلطات الاستعمارية[53].

وبالنسبة لطبيعة المؤتمرين وتوجهاتهم تؤكد بعض الدراسات بأن المشرفين على المؤتمر منعوا أعضاء المنظمة الخاصة من حضور أشغاله، وذلك تحت غطاء حجة الأمن، ومن هؤلاء محمد العربي بن مهيدي الذي أجبر على إرسال رمضان بن

عبد المالك مكانه، أما بالنسبة لمصطفى بن بولعيد ورغم صفته كعضو باللجنة المركزية فإنه لا يستطيع الإدلاء بأي شيء[54].

وكان محمد بوضياف المقيم بفرنسا آنذاك قد أرسل مبعوثين عنه للمؤتمر، وفي نفس الوقت للاتصال بديدوش مراد ليطلعه على الوضع داخل الحركة[55]، ورغم الحصار والمضايقات التي تعرض لها النشطاء، فقد استطاعوا تمرير فكرتهم الأساسية والرئيسية وهي إعادة بعث المنظمة الخاصة من جديد، وقد تم في هذا الإطار تكوين لجنة خماسية تشكلت من:**مصالي الحاج وحسين لحول وبن خدة بن يوسف ومحمد دخلي ومصطفى بن بولعيد**[56].

ومن خلال اللائحة العامة والتقرير النهائي الذي صدر عن المؤتمر فإن أشغاله قد تمحورت حول قضايا أساسية وهي:

1- قضية التحالفات داخليا وخارجيا

2- التكفل بمصالح الطبقة البرجوازية

3-البحث عن مساندة لدى الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

4- قضية المنظمة الخاصة العسكرية والتي طرحت بشكل سري وخاص، وقد سبقت الإشارة إلى ما قرر بشأنها.

5-قضايا تنظيمية خاصة بأجهزة الحركة ومسؤوليتها[57].

ولقد أثارت النقطة الثالثة المتعلقة بالبحث عن مساندة لدى الدول الغربية جدلا واسعا، حيث لم تلق إجماعا داخل المؤتمر، فمنهم من أيدها ومنهم من عارضها[58]. وقد طرحت أثناء أشغال المؤتمر الثاني عدة تساؤلات جوهرية وجدية وهامة منها:ما هي وسائل تحرير الجزائر ؟ما هي المبادئ التي تبنى عليها الدولة الجزائرية المستقلة؟

وإذا كانت هذه الأسئلة قد طرحت بهدف إيجاد إجابات شافية ترضي مناضلي الحركة،فإن القضايا التي طرحت لم تجد الحلول الكافية والمقنعة علما بأن

المؤتمر عالج حتى القضايا الاقتصادية والاجتماعية، وأصدر بشأنها اقتراحات وحلول، كقضية الإصلاح الزراعي والتصنيع وهو ما تضمنه نص اللائحة العامة لأشغال المؤتمر[59].

إلاّ أن القضية الحساسة والخطيرة التي شكلت بداية الأزمة الفعلية بين رئيس الحركة وأعضاء اللجنة المركزية الجدد تمثلت في نقطتين أساسيتين هما:

* **النقطة الأولى**: وتتمثل في القرار الخطير الذي اتخذه المؤتمر والقاضي بتحديد صلاحيات الرئيس وإدخال نوع من الديمقراطية والشورى داخل قيادة الحركة، واعتماد ما يعرف بمبدأ القرار للأغلبية وستكون هذه النقطة القنبلة المفجرة للحركة عندما يصر رئيسها على رفض هذا القرار، ويطالب لاحقا بمنحه الصلاحيات المطلقة والتفويض التام لتسيير شؤون الحركة تسييرا فرديا، وعلى الجميع الطاعة والانصياع[60].

***النقطة الثانية**:وتتمثل في القرار الثاني المتخذ بالأغلبية والقاضي بإبعاد أهم مساعدي مصالي الحاج وأقرب مقربيه عن عضوية المكتب السياسي، وهما أحمد مزغنة ومولاي مرباح وانتخاب بن خدة بن يوسف[61] أمينا عاما للحركة مع اختيار كل من حسين لحول وعبد الرحمن كيوان مساعدين له[62].

لقد كانت هذه القرارات رغم طابعها الانتخابي الجماعي ذات تأثير كبير على مصالي الحاج وكانت بمثابة صدمة عنيفة لم يكن ينتظرها، نزلت عليه كالصاعقة جعلته يفقد صوابه واعتبر كل ذلك بمثابة انقلاب حقيق ضد شخصه، ومؤامرة حاك خيوطها في الخفاء أعضاء اللجنة المركزية لإقصائه وتهميشه، وكان ذلك بالنسبة له تجاوزا للخط الأحمر من قبل أعضاء هذه اللجنة. لقد شعر مصالي الحاج بأن مكانته قد اهتزت وأنه أصبح معزولا خاصة بعد إبعاد أهم مساعديه وأقرب مستشاريه.

ورغم أن العلاقات بين رئيس الحركة والأمين العام الجديد بن خدة بن يوسف بدت ظاهريا عادية، وذلك أثناء اللقاءين اللذين تما بين الرجلين في شهر جويلية

وأوت سنة 1953في منفاه بنيور" Niort " والخاص بعرض نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، بالإضافة إلى قضية تسوية مشكلات البرامج وتنصيب المسؤولين رسميا من قبل رئيس الحركة، إلا أن الواقع أثبت بعد فترة قصيرة أن مصالي الحاج لم يكن موافقا البتة على تلك القرارات ، وأعلن عن رفضها جملة وتفصيلا وذلك من خلال المذكرة التي أرسلها في شهر سبتمبر 1953، إذ كشف مصالي الحاج من خلال هذه المذكرة عن موقفه الحقيق من نتائج المؤتمر الثاني وقراراته، وانتقد بشدة ما سماه بـ"سياسة الإصلاح" التي انتهجتها القيادة الجديدة وطالب صراحة بتفويض كامل السلطات[63].

وكان موقف اللجنة المركزية معاكسا تمام لرغبة مصالي الحاج، إذ أعلنت رسميا عن تنصيب بن خدة بن يوسف أمينا عام للحركة، وكذلك تنصيب المكتب السياسي، كما أعلنت عن رفضها المطلق لمطلب مصالي الحاج المتمثل في منحه تفويضا كاملا للصلاحيات[64].

لكن هذا المطلب بقي بين أخذ ورد، كما بقي الصراع بين الطرفين قائما إلى غاية الانقسام النهائي والتام بانعقاد مؤتمري الطرفين في صائفة سنة 1954، وعلى كل حال فإن المؤتمر شكل محطة هامة جدا من حيث تطورها والمستجدات التي طرأت عليها، بسبب ما ترتب عنه من قرارات حاسمة وخطيرة، وكذلك المواقف المتخذة إزاء العديد من القضايا المطروحة على الساحة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية الملخصة في اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر ومما جاء فيها:

" ...**إن الحركة تحت عوامل داخلية وخارجية قد عرفت تطورات وتقلبات فقلة الكفاءات من أنواع مختلفة تجلب النظر، إذ دعت إلى المسارعة بمعالجتها حتى يمكن للحركة أن ترتقي إلى مستوى الحالة العامة الحاضرة وأن تتقدم بنجاح إلى الكفاح، ومن جهة أخرى فنظرا إلى الحاجة إلى التحديد والتدقيق لمواجهة القضايا التي تعترض الكفاح الحالي والجزائر**

مستقلة، كان من المحتوم تحديد سياسة عامة....على ضوء تحليل السياسة التي تتعاطاها فرنسا ضد الجزائر ..."[65].

لقد تضمنت اللائحة الختامية التي تبناها المؤتمر نقدا موضوعيا لوضعية الحركة وحالتها الراهنة والتناقضات الموجودة بداخلها، وانعدام التنظيم مع الإشارة إلى كثير من النقائص الواجب معالجتها والقضاء عليها، ونستنتج من خلالها أن المؤتمرين كانوا يهدفون للخروج بالحركة من تلك الدائرة المغلقة التي كانت تدور فيها، وجعلها حركة طلائعية قوية تضطلع بمهامها التي نذرت نفسها لها خاصة وأنها تمثل الحركة الوطنية في الجزائر،التي بنيت عليه آمال وأحلام جميع الوطنيين، كما نلاحظ الصراحة والجرأة التي طبعت صياغة ومناقشة تلك القضايا الحساسة التي تعترض سبيل الحركة سواء الداخلية أو الخارجية منها.

إن هذه المحاولة التصحيحية لأوضاع الحركة خاصة قضية الإطارات والاختصاص في المهام والعلاقات الداخلية والخارجية هي التي ستثير حفيظة أولئك الذين يرغبون في إبقاء الحركة هيكلا جامدا بلا روح.

وقد أشارت اللائحة الختامية بصراحة إلى أن الحركة بوضعيتها تلك ستتجاوزها الأحداث في يوم ما وكان ذلك تنبأ سابقا لأوانه أثبتت الأيام فيما بعد صحته، وكانت كذلك إحدى الأسباب العميقة والجوهرية التي أحدث تلك الأزمة العنيفة داخل قيادة الحركة، والتي ساهمت فيها أزمات فرعية تراكمت وترسبت أحداثها لتؤدي في النهاية إلى الانقسام النهائي لها[66].

- الخاتمة:

وفي خضم سلسلة الأزمات المتعاقبة التي تعرضت إليها حركة انتصار الحريات الديمقراطية منذ سنة 1946 إلى غاية انفجار الحزب ووقوع القطيعة النهائية سنة 1953 يمكن للباحث الوقوف على جملة من الاستنتاجات والنتائج التي يمكن أن نذكر منها:

1- تعدّ أزمة حزب الشعب(PPA) - حركة انتصار الحريات الديمقراطية(MTLD)- أزمة قيادة وخلل في نظام وهياكل الحزب وتقاليده

الموروثة منذ فترة النجم بالإضافة إلى الاختلافات في الرؤى والأطروحات والتوجّهات في صفوف المناضلين ثم برزت أزمة القيادة في ظل المتغيرات والظروف الداخلية والخارجية وردود الفعل الاستعمارية بين أنصار زعيم الحزب (المصاليون) وأعضاء اللجنة المركزية(المركزيين)، فالمصاليين يطالبون بمبدأ القيادة الفردية بزعامة مصالي الحاج مدى الحياة، والمركزيين يريدون هيكلة الحركة بإطارات جديدة شابة مثقفة بالاعتماد على مبدأ القيادة الجماعية بعيداً تكريس عبادة الشخصية والقيادة الكريزماتية بطرق ووسائل تماشى مع متطلبات الساعة في مواجهة السياسة الاستعمارية.

2- ساهم إبعاد مصالي ووضعه تحت الإقامة الجبرية في نيور بفرنسا في تفاقم الأزمة وزيادة الهوة بين المصاليين والمركزيين الأمر الذي أعطى الفرصة لبعض المناضلين في قيادة وهياكل الحزب باستغلال الظرف والمواقف لخدمة مصالحها الشخصية من خلال عرقلة الاتصالات بين مصالي واللجنة المركزية مثل مولاي مرباح وأحمد مزغنة.

3-يعتبر مصالي الحاج سبباً مباشراً في خروج أزمة الحزب إلى الشارع في الجزائر وفرنسا وبذلك كشف عن المستور فيما يتعلق بهياكل الحزب السرية منها ولم يسعى لحل المشاكل داخليا بينه وبين أعضاء اللجنة المركزية بسبب التعنت والنزعة الفردية وهو ماساهم في تصدع الحزب وكشف أسراره ومشاكله للمناضلين في القاعدة الأمر الذي اثر سلبا على مستقبل الحركة.

الهوامش:

[1]- Mohamed Harbi . La Guerre commence en Algérie, Ed Complexe, Bruxelles, 1984. P.P.20.23

[2]- شهادة مناضل المرحوم محمد بوضياف في حديث له لجريدة الشعب ليوم 16 نوفمبر 1988 ،ص 8.

[3]- **مصالي الحاج(1898-1974)** "ولد الحاج أحمد مصالي في عائلة من فقراء الفلاحين ، كانت مهنة والده بسيطة لأنه كان اسكافيا فعاش مصالي حياة

متواضعة ولم يحتمل قساوة الحياة الصعبة في الجزائر من جراء المساومات الكولونيالية وبعد عودته من الخدمة العسكرية بفرنسا إلى الجزائر عاد مرة أخرى إلى فرنسا سنة 1923 ومارس عدة حرف متواضعة ، خطا خطواته السياسية الأولى في إطار جمعية نجم شمال إفريقيا التي ساهم في تأسيسها والحزب الشيوعي الفرنسي . بدأ صدامه مع هذا الحزب منذ سنة 1928، لكنه لن يغادره بدون رجعة إلا عام 1933، خلال مؤتمر بروكسل المعادي للامبريالية 1927، وفي اجتماع المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة 1936 طرح مصالي نظريته حول الوطنية الجزائرية . لحقه القمع و لحق حركته ابتداء من سنة 1929 عاش16سنة من حياته بين السجن و النفي ، غير أن صموده لم يؤت أكله ، أصبح منذ 1945 أبرز شخصية للحركة الوطنية في الجزائر ، و بقي معبود الجماهير حتى نوفمبر 1954. وابتداء من هذا التاريخ يسدل تلاميذه عليه الحجاب، . وبعد إنشاء حزب الشعب 1927 وحركة انتصار الحيات الديمقراطية سنة 1946، أنشأ مصالي الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) لكن جبهة التحرير الوطني رسّخت أقدامها في الأرياف وعقدت تحالفات بدون منازع في العالم العربي وحتى في فرنسا استطاعت العودة إلى المدن وقطع مصالي عن القوى الاجتماعية التي صنعت يوما قوته وبعد معارك دامية خلفت وراءها الأحقاد والضغائن ودحضت بعض أنصاره إلى اليأس والارتماء في أحضان العدو. وفي ماي 1961 رفض مصالي الدخول في اللعبة الفرنسية ورفض المشاركة في مفاوضات ايفيان ضد جبهة التحرير الوطني. وبعد الاستقلال أسس مصالي حزب الشعب الجزائري دعى فيه إلى التعددية الحزبية وانصرف كمعارض حتى وفاته سنة 1974 بفرنسا وتم دفنه بالجزائر.أنظر:بن يامين سطورا مصالي الحاج، رائد الوطنية الجزائرية 1898-1974، ترجمة الصادق عماري مصطفى ماضي ،دار القصبة للنشر ،الجزائر،2007،وأيضا: رابح لونيسي ، بشير بلاح،تاريخ الجزائر المعاصر(1830-1989)ج1، دار المعرفة، الجزائر2010، ص246.

[4]- عيسى كشيدة، مهندسو الثورة، تقديم عبد الحميد مهري، دار الشباب، الجزائر، 2003 ، ص.ص 59-61.

[5]- عقد أول مؤتمر لحركة الانتصار الحريات الديمقراطية في سرية تامة يومي 15-16 فيفري 1947 حسب جل المصادر و لأسباب أمنية انعقد اليوم الأول منه في منزل ببوزريعة للمناضل مهدي عمار أما في اليوم الثاني فكان ببلكور في قاعة للمشروبات لصاحبها المناضل ملاين مولود و قد ضم المؤتمر حسب بعض المصادر 120 مناضلا أنظر:

Hocine Ait Ahmed, Mémoire d'un combattant l'esprit d'indépendance (1942-1952), Ed Bouchene, Alger, 1990. P90.

وأنظر أيضا Mahmoud Abdoune, Témoignage d'un militant du mouvement nationaliste, Ed Dahlab , 1990, P77.وأيضا: Mahfoud Kadache, . Histoire du Nationalisme Algérien (1919-1951), tome 2, 2eme Ed, ENAL, Alger P 77

وقد قال مصالي الحاج عن هذا المؤتمر "بأنه انعقد في جو منعدم الثقة، وفيه تصفية الحسابات، وحرب التكتلات و الدسائس والتسابق نحو السلطة ولم تدرس فيه أي مشكلة دراسة جدية أنظر: يحي بوعزيز، الاتهامات المتبادلة بين مصالي الحاج و اللجنة المركزية و جبهة التحرير الوطني 1946-1962 ، دار هومة ، الجزائر، 2003 ، ص.ص 30-31.

[6]- **شوقي مصطفاي** :ولد في 05 نوفمبر 1919 بمسيلة حيث كان أبوه قائدا، ترعرع في برج بوعريريج قبل أن يرحل إلى سطيف لمواصلة الدراسة الثا نوية. في معهد سطيف ، انخرط في نجم شمال إفريقيا برفقة مولود بوقرموح وعبد الرحمن علاق من خراطة ، وهو طالب في الطب بكلية الجزائر العاصمة أنضم إلى الفرع الجامعي لحزب الشعب الجزائري PPA خلال الحرب العالمية الثانية وبعد انهزام فرنسا في جوان 1940، بدأت تتبلور فكرة اللجوء إلى العمل المسلح ،بدأ الوطنيون في أفريل 1945، يتهيئون للاحتفال بهزيمة النازية منفصلين لتكذيب الدعاية الفرنسية (أو الشيوعية) التي كانت تتهم حزب الشعب الجزائري وسار شوقي

رافعا راية الأمة الجزائرية التي فصلت خصيصا للمناسبة ، انتخب عضوا في قيادة جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في 23 ماي 1945، وهو بالذات من نقل الأمر المضاد للثورة الشاملة . تابع شوقي بين 1945 و1947 دراسته في الطب بتولوز ثم بباريس مع تكفّله مع بلقاسم راجف وآخرين بالإشراف على فيدرالية فرنسا لحزب الشعب الجزائري PPA– حركة انتصار الحريات الديمقراطية – MTLD خلال الأزمة البربرية. ذهب في صيف 1950 إلى تونس ، لإعادة عرض اقتراحات الوحدة المقدمة في جانفي 1949 على حزب الدستور الجديد ، بدون جدوى، دعا إلى وحدة العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء ، ترك قيادة الحركة في 1951 مع ثلاثة من رفاقه ، عمراني السعيد وحاج شرشالي وشنتوف عبد الرزاق احتجاجا على التصرفات المتسلطة لمصالي ، ولم يعد إلى الساحة السياسية إلا في عام 1955، تاريخ بداية تعاونه مع مصالي الونشي مسؤول فدرالية ج ت و. بفرنسا وشارك في مصلحة الصحة إلى جانب الدكتور محمد نقاش في مستشفيات تونس وعلى الحدود بغار الدماء وفي 1957عين بصفة مستشار سياسي لدى كريم بلقاسم ومسؤول القوات المسلحة في لجنة التنسيق والتنفيذ CCE ، ثم عين رئيس بعثة دبلوماسية بتونس ثم بالرباط التي لم يغادرها إلا سنة 1962 لقيادة مجموعة جبهة التحرير الوطني في الجهاز التنفيذي المؤقت، للهيئة الانتقالية المكلفة بتحضير استفتاء تقرير المصير وانتخاب الجمعية التأسيسية الأولى لدولة الجزائرية ، قرر الانسحاب من جديد من الساحة السياسية، عمل مع الاتحاد الإفريقي بالحراش قبل أن يدخل للعمل في مستشفى مصطفى باشا في سنتي 1964– 1965وفي 1966 طرد من الجامعة ليعود إلى الاتحاد الإفريقي إلى غاية تأميمه سنة 1971. أنظر: عاشور شرفي، قاموس الثورة الجزائرية(1954–1962)، تر:عالم مختار، دار القصبة الجزائر، 2007،ص343.

[7]– شهادة المناضل الشاذلي المكي في عبد الرحمان ابن إبراهيم بن العقون الكفاح القومي و السياسي (من خلال مذكرات معاصر)، الجزء 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1986 ، ص 212.

[8]– محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر(دراسة) الجزء الأول، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 1999، ص.65-64.

[9]– عرف هذا اللقاء بندوة الإطارات التي انعقدت ببوزريعة بالقرب من إقامة مصالي الحاج و تعتبر هذه الندوة تأسيسية للحركة و قد حضرها معظم إطارات الحركة المعروفين و يعتقد البعض ممن عاصروا هذه المرحلة أن هذه الندوة شّكلت بداية الصراع و الخلاف بشكل علني على الأقل داخل قيادة الحركة: أنظر : محمد يوسفي، الجزائر في ظل المسيرة النضالية (المنظمة الخاصة) ترجمة محمد الشريف دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، 2002 ، ص 79.

[10]– بداية بأول انتخابات تشريعية للجمهورية الفرنسية الرابعة في (نوفمبر 1946).

[11]– تباين رأي المشاركين في هذا اللقاء خصوصا بين مصالي الحاج و لحول حسين فالأول يدعو إلى المشاركة في الانتخابات باعتبارها وسيلة هامة من وسائل الكفاح السياسي وعلى ضوئها يتمكن الحزب من نشر أفكاره الاستقلالية في الأوساط الشعبية (عمال، طلبة، شباب، نساء) وفي إطار من الشرعية المعلنة. أما الرأي الثاني الذي مثله لحول حسين فكان يرى بأن ذلك مضيعة للوقت على حساب التفرغ التام لمتطلبات العمل المسلح، كما أن الإدارة الفرنسية سوف تقوم بمحاولة استمالتهم لمصالحها.وللمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن بن العقون، المصدر السابق، ص16.

[12]– ترجع بعض المصادر جذور الخلاف العلني الذي كان سببا مباشرا في أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى مرحلة التحضير للانتخابات المقرر إجرائها في 10نوفمبر 1946 عندما رفع الحزب شعر**"من أنتخب كفر"** وهو ماكان بعارضه مصالي الحاج ومن هنا خطا الحزب الخطوة الأولى نحو الأزمة التي انفجرت خلال المؤتمر الثاني للحركة في شهر أفريل 1953:أنظر، نظيرة شتوان ، الثورة التحريرية (1954-1962)الولاية الرابعة نموذجا، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ ، جامعة تلمسان، 2008/2007،ص33.

[13]– هذه العناصر سوف تشكل فيما بعد تنظيم المنظمة الخاصة التي تعتبر القاعدة الأولى للعمل الثوري الجاد.

Mohamed Boudiaf, la préparation de 1er novembre 1954, In El Jarida, N° 15, Novembre. Décembre, 1974, P10. وأيضا: Mohamed Boudiaf la préparation de 1er novembre, in memoria Magazine, N° 01 le magazine l'histoire ed, Publicité, Alger, 1997, P 3-29.

[14]– **محمد الأمين دباغين(1917–2003)** ولد سنة 1917 بمدينة شرشال ، دخل معهد الطب وانخرط في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا فكانت البوابة التي دخل منها إلى عالم السياسة والنضال، لم يتجاوز دباغين العشرين من عمره عندما انخرط في حزب الشعب الجزائري الذي كان برئاسة مصالي الحاج حيث رفض التجنيد خلال الحرب العالمية الثانية وكان ثمن ذلك السجن ثم أفرج عنه، وفي أحداث 08ماي 1945 أصبح من قيادي حزب الشعب وفي جوان 1955 ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه بتهمة تكوين مجموعة أشرار وسجن لمدة ستة أشهر وبعد خروجه التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني بواسطة عبان رمضان غادر الجزائر بعد أن حوصر ببيته ووضع تحت المراقبة الجبرية وأقام بباريس عدة أسابيع ثم انتقل إلى القاهرة حيث عين مسؤولا عن الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني. كان محمد الأمين دباغين عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ثم في لجنة التنسيق والتنفيذ الموسعة عام 1957 ليتولى منصب أول وزير للشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة الأولى. ابتعد الأمين دباغين عام 1959 عن السياسة بعد دخوله في صراع ضد أول رئيس للحكومة المؤقتة فرحات عباس وعبد الحفيظ بوصوف رجل المخابرات القوي في الثورة الجزائرية.وبعد الاستقلال تفرغ لمهنة الطب في العلمة قبل العودة إلى العاصمة حيث توفي فيها يوم 20 جانفي 2003.أنظر: العمري مومن، الحركة الثورية في الجزائر من نجم شمال إفريقيا إلى جبهة التحرير الوطني 1926–1954 ، دار الطليعة، الجزائر، 2003، ص201.

[15]– عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 109.

[16]– العمري مومن، المرجع السابق. ص202.

[17]– نفسه، ص 202

[18]- **مصطفى الأشرف(1917–2007)** : من مواليد 7 مارس 1917 بسيدي عيسى (المسيلة)، درس بالجزائر ثم بباريس، رئيس تحرير جريدة نجم "الجزائر" التي كانت تصدر بباريس، التحق بصفوف حزب جيش التحرير الوطني و عمل في مجال الاتصال و التنسيق السياسي و كان يرافق بن بلة في تنقلاته، عمل سفيرا للجزائر بالأرجنتين ثم مستشارًا برئاسة الجمهورية ليتولى وزارة التربية الوطنية في السبعينات، توفي يوم 13 جانفي 2007. أنظر : رابح خدوسي،: «موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين»، دار الحضارة للنشر، الجزائر 2002، ص 27.

[19]– مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة و المجتمع ترجمة الدكتور حنفي بم عيسى المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983، ص 22.

[20]– وجد دباغين نفسه معزولا بين اتجاهين في الحركة –اتجاه وسط كان يمثله مصالي و حسين لحول و أحمد مزغنة و بن خدة وبن يوسف و اتجاه يميني مثلّه كل من شوقي مصطفاي و محمد الحاج شرشالي و عمراني.

[21]–تؤكد جل المصادر التاريخية أن المناضل الأمين دباغين كان من ألمع مناضلي الحركة و أكثرهم ثقافة و نشاطا و وطنية و هذا ما يشير إليه المناضل حسين أيت أحمد بقوله "لقد كان الدكتور دباغين رجلا مثقفا جدا و لم يكن رجل فكر فقط، بل كان رجل عمل كما كانت له القدرات فائقة في التحليل و المعرفة و الحكمة" للمزيد من التفاصيل أنظر: حسين أيت أحمد، روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942–1952 ، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، 2002 ، ص 92.وأنظر أيضا: عبد الرحمان بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر،ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص 282وأنظر أيضا:يحي بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص38.

[22]–يشير سطورا بأن ذلك الصراع بين مصالي ودباغين تم حله بطريقة عنيفة عن طريق إقصاء هذا الأخير من الحركة في 02 ديسمبر 1949 لعدم الانضباط والعمل اللاإرادي ورفضه وضع تعويضاته كنائب تحت تصرف الحزب وقد كان هذا الإقصاء نتيجة أزمة عرفت بالأزمة البربرية، حيث صرح مصالي في تقرير قدمه لمؤتمر هورنو 1954مشيرا إلى هذه المرحلة "لقد أقصيت بلا تمييز العناصر المزعجة باتهامها بالنزعة البربرية" للمزيد من التفاصيل أنظر بنيامين سطورا، المرجع السابق، ص 198.

[23]– للمزيد من التفاصيل أنظر:حسين أيت أحمد. المصدر السابق ص106–196–198.و أيضا شهادة مبروك بلحسن في جريدة الشعب اليومية 6 فيفري1989،ص 10،وأنظر أيضا:سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة المسلحة، ترجمة محمد حافظ الجمالي. منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر، 2002 ، ص 59.وأنظر أيضا:

Hocine Ait Ahmed , Mémoire d'un Combattant 1942-1952 ,Alger, P.189-190.

[24]– محمد حربي،جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع ، ترجمة كميل قيصر داغر، ط1 ، مديرية الأبحاث العربية، بيروت 1983 ، ص 620.

[25]– **رشيد علي يحي**:اسمه الكامل محند سيد علي المدعو رشيد أحد المتخرجين من الكنيسة النصرانية عرف بمواقفه العدائية للعروبة "الجزائر ليست عربية..." أنظر أيضا:محمد حربي، المصدر السابق، ص64.

[26]– **بناي واعلي**:مسؤول حزب الشعب الجزائري–PPA– في منطقة القبائل سنة 1943،وعضو اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية سنة 1947وعضو في جبهة التحرير الوطني سنة 1955،ولد بجمعة الصهاريج والده فلاح صغير وقد مرّ على التوالي في متيجة ثمّ مدينة الجزائر وعاد مسؤولا بحزب الشعب في منطقة القبائل حيث كان مكلف بعملية التنسيق بين المنظمات الطلابية والحزب سنة 1944كما شغل على تأمين مؤتمر رابطة أحباب البيان والحرية –AML–الذي عقد

في شهر مارس 1945بمدينة الجزائر،وبعد ماي 1945ملاحقاً من طرف الشرطة الفرنسية فاضطر للإختفاء وممارسة نشاطه في السرية وكان من دعاة العمل المسلح وفي غضون الندوة التي عقدها حزب الشعب –حركة انتصار الحريات الديمقراطية في شهر أكتوبر1946عُيّن عضواً باللجنة المعروفة باسم لجنة اليقظة التي طالبت بعقد مؤتمر لإعادة مراجعة بناء الهيئات القاعدية في الحزب ،التحق باللجنة المركزية سنة 1947،ومنذ نشأة المنظمة الخاصة نظّم حملة لجمع الأموال لشراء الأسلحة للمنظمة الخاصة وقد تميز في تلك الفترة بميوله البربرية ففي هذا الإطار ومنذ سنة 1955 عرض على اللجنة التنظيمية لحركة الانتصار توحيد منطقة القبائل بكاملها وقد تمّ توقيفه بميناء وهران في سبتمبر 1948،في هوية مستعارة وهو يريد الذهاب إلى فرنسا وخلال فترة تواجده في السجن تطورت الأزمة البربرية سنة 1949،وانتهت بتصفية مجموعة من الإطارات بمنطقة القبائل،تمّ طرده من حركة الانتصار وبعد خروجه من السجن توجه لفرنسا وباشر في اتصالات مع الحزب الشيوعي الفرنسي–PCA–طالبا منه دون جدوى مساعدته لإنشاء الحزب الوطني التقدمي ثمّ التحق بجبهة التحرير الوطني واغتيل سنة 1957،بسبب مواقعه خلال الأزمة البربرية سنة1949.أنظر محمد حربي، المرجع السابق، 333.وأيضاً:

Benjamin Stora, Dictionnaire biographique de militants algériens (1954-1962), La harmattan, Paris, 1985,p233.

[27]–**عمر ولد حمودة**:من القبائل الكبرى انظم إلى حزب الشعب الجزائري سنة 1942،انتقل الى مراكز المقاومة في 14 ماي 1945،عضو اللجنة المركزية (1947–1949) انظم إلى جبهة التحرير الوطني وتم اغتياله خلال الثورة بسبب مواقفه إبان الأزمة البربرية سنة 1949. أنظر محمد حربي، المرجع السابق، ص333.

[28]– انكب هؤلاء رفقة علي عميش و حسين أيت أحمد على البحث في تاريخ و ماضي البربر معتمدين في معارضهم على المنظّرين اللاتين و قد توصلوا في اكتشافهم لهذا الماضي من حيث معاداة العرب الأمر الذي بين أن هذه الأزمة من تدبير السياسة الفرنسية "فرق تسد" و أن سكان القبائل من أصول أوربية و

بالضبط من جنس الرومان و استدلوا على ذلك بصفات خلقية بيولوجية أنظر بالتفصيل: عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقونن المصدر السابق، ص111.

[29]- العمري مومن، المرجع السابق، ص 206.

[30]- محمد حربي، المصدر السابق، ص68.

[31]- **بودة أحمد (1907-1992)**: وجه من وجوه الحركة الوطنية، ولد يوم 03 أوت 1907 بعين طاية بومرداس في عائلة فلاحية انضم في 1932 إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفي 1937 ناضل في صفوف نجم شمال افريقيا في فترة حله. وفي صفوف حزب الشعب الجزائري ترقى بسرعة في سلم المسؤوليات ، ففي 1939 كان مسيرا للبرلمان الجزائري، وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح عضوا في قيادة حزب الشعب الجزائري المُحل، في أفريل 1943 إلى جانب حسين عسلة ومحمد بلوزداد. ثم عضوا في اللجنة المركزية، ومندوبا في الجمعية الجزائرية . في 1948. شد إليه الأنظار من خلال تدخلاته بالعربية ، ودفاعه عن الكشافة الإسلامية الجزائرية التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى خلقها برفضها تقديم الإعانة المالية لها . عند عودته من رحلة قادته إلى القاهرة ، برفقة مزغنة عام 1952، شن بودة معركة مفتوحة ضد مصالي واللجنة المركزية. كان في هذا النزاع أحد خصوم مصالي ، اعتقل إثر حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية في نوفمبر 1954، بعد أن أطلق سراحه في أفريل 1955، شارك إلى جانب بن خدة في المناقشات التي جرت بين قدماء المركزيين وجبهة التحرير الوطني التي عرضت عليه مغادرة الجزائر وتمثيلها في العراق ثم في ليبيا . بعد النزاع بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وبن بلة انسحب نهائيا من المسرح السياسي، عاشور شرفي، المرجع السابق، ص87.

[32]- يحي بوعزيز:المرجع السابق، ص46 .و يمكن أن نضيف إليهم علي ليماش و عمر أوصديق ومبروك بلحسين والصادق هجرس.

[33]- **بلقاسم راجف(1909-1989)**: ولد المناضل في 19سبتمبر 1909 بدوار أومالو (الأربعاء ناث إيراثن) ،هاجر سنة1924وفي أواخر 1930 انخرط في حركة

نجم شمال إفريقيا التي كانت في مرحلة التكوين على المستوى القاعدي وبعد ندوة ماي 1933 عُين في المكتب السياسي للحركة رفقة مصالي وعمار أمعاش وسي الجيلالي وآكلي بانون ، كان من مؤسسي حزب الشعب الجزائري الذي عقد مؤتمره التأسيسي في نانتير يوم 11مارس 1937،وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية تعاون مع الألمان طمعا في خدمة استقلال الجزائر وكان يعد حصة إذاعية موجّهة للمهاجرين الجزائريين ،استأنف النضال مع بوادر الهدنة وعمل مع عدد من المناضلين على إحياء حزب الشعب بفرنسا،التزم الحياد في خضم اشتداد الأزمة بعد الخلاف الحاد بين المصاليين والمركزيين وكان من الذين وجّهوا نداء إلى القاعدة بعنوان (نداء العقل) وهو النداء الذي حمل توقيعه ،غير أن راجف وجد نفسه في نهاية المطاف مع المركزيين وقد حضّر مؤتمرهم بالجزائر في منتصف شهر أوت 1954،ألقي عليه القبض في الحملة على المركزيين يوم23 ديسمبر 1954،ولم يفرج عنه إلا بعد سنتين وقد خرج من السجن وهو يعاني من مرض مزمن وبالرغم من ذلك لم يبخل على جبهة التحرير الوطني بماملك من خبرة ونصيحة ومعارف ،عاد إلى بعد الاستقلال لإتمام رسالته النضالية في الأعمال الخيرية بقطاع الشؤون الاجتماعية وتوفي بالعاصمة في 25ماي 1989 ،أنظر:محمد عباس،رواد الوطنية شهادات 28شخصية وطنية،دار هومة،الجزائر،2005، ص19،20.

[34]– عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائريين من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي للطباعة، بيروت، 2000 ص319.

[35]– محمد حربي، المصدر السابق، ص66

[36]– نفسه، ص 66.

[37]– ثبت ذلك عندما اكتشفت رسالة موجهة من عمر أوصديق من السجن إلى صديقه "وعلي بناي" و بالتالي تم التعرف على محركي القضية و مفتعليها و ثبت أيضا تورط الحزب الشيوعي الجزائري و تواطئه مع هذه العناصر بالاتفاق و التنسيق مع مناضليه و منهم "صادق هجرس" أنظر التفاصيل في يحي بوعزيز،

السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-1954) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 47.

[38]- نفسه.ص47

[39]- Mahfoud Bennoune, Ali El Kenz, Le Hazard et l'histoire entretien avec Belaid Abedesselam, Alger, 1990, T1 P37,38.

[40]- **المنظمة الخاصة**: أطلقت عليها تسميات منها" المنظمة السرية العسكرية "أو " شبه العسكرية "، " الجناح المسلح "في حركة الانتصار، كما أطلق عليها اسم " العظم "، وكذلك تسمية " الشرف العسكري "، وهي تسميات مقبولة لكن تسميتها الصحيحة هي المنظمة الخاصة، وهذا استنادا للمناضل أحمد مهساس الذي يعد واحدا من مسؤوليها فجعلها تتميز عن الحركة السياسية السرية التي يقصد بها حزب الشعب الجزائري. انظر: مومن العمري ، المرجع السابق، ص 105.

[41]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 128.

[42]- عباس فرحات، ليل الاستعمار، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2005، ص 159.

[43]- مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 145.

[44]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 128.

[45]- نفسه ، ص 129.

[46]- العمري مومن، المرجع السابق، ص 128.

[47]- Mohamed Harbi , Op.Cit, p 40.

[48]- العمري مومن، المرجع السابق، ص 194.

[49]- جيلالي صاري، محفوظ قداش، المقاومة السياسية (1900- 1954)،ترجمة: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 104.

[50]– Mohamed Harbi, Op.Cit, p. 49.

[51]– عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 366. وكذلك: العمري مومن، المرجع السابق، ص 195.

[52]– عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 366.

[53]– نفسه ، ص 373.

[54]– العمري مومن، المرجع السابق، ص 195– 196.

[55]– Mohamed Harbi, Op. Cit, P. 49.

[56]– العمري مومن، المرجع السابق، ص 196.

[57]– جيلالي صاري، محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 103.

[58]– نفسه ، ص 103.

[59]– العمري مومن، المرجع السابق، ص 197.

[60]– عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 376.

[61]– **بن يوسف بن خدة(1920–2003)**: ولد بن يوسف بن خدة في 23 أفريل 1920 بمدينة البرواقية بدأ أول مراحل دراسته بمسقط رأسه ثم انتقل إلى البليدة ليتم المرحلة الثانوية وبعدها التحق بجامعة الجزائر بقسم الصيدلة. ناضل في صفوف الحركة الطلابية كما شارك في الكشافة الإسلامية الجزائرية والتحق بصفوف حزب الشعب الجزائري وفي أفريل 1943 اعتقل وزج به في سجن الاستعمار لمدة ثمانية أشهر ، وفي سنة 1947 أصبح عضوا في اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية وبعد اندلاع الثورة ألقي عليه القبض مع مجموعة من رفاقه وأطلق سراحه سنة 1955 ثم اتصل به عبان رمضان ليصبح عضوا في جبهة التحرير بالعاصمة ومساهمها في تحرير جريدة المجاهد، وعين بعد مؤتمر الصومام في لجنة التنسيق والتنفيذ ، وفي سنة 1957 غادر إلى تونس وعين رئيسا لبعثة جبهة التحرير بلندن ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية في حكومة فرحات عباس

المؤقتة سنة 1958 وخلفه سنة 1961 في ثالث حكومة مؤقتة بعد الخلاف الذي جرى في مؤتمر طرابلس.انسحب بن خدة من النشاط السياسي بعد أزمة صيف 62، وفي سنة 1989 أسس حزب الأمة ثم حل الحزب عند توقف المسار الانتخابي ، وفي الرابع من فيفري سنة 2003 انتقل بن يوسف بن خدة إلى جوار ربه. كان معروفا بعمق التدين والتقوى وحب الوطن وسعة الثقافة والاهتمام بكتابة تاريخ الثورة والحركة الوطنية رحمه الله تعالى. كرمته السلطات الجزائرية بإطلاق اسمه على الجامعة المركزية بالجزائر.أنظر :المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،القرص المضغوط، المرجع السابق.

[62]- العمري مومن، المرجع السابق، ص198.

[63]- العمري مومن، المرجع السابق، ص 199.

[64]- نفسه،ص 200.

[65]- نفسه ص200.

[66]- العمري مومن، المرجع السابق ، ص 200.

ملامح من الأدب السومري القديم

د. شباحي مسعود– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة الحاج لخضر–باتنة1

ملخص:

يتناول هذا الموضوع محل الدراسة جانبا مهما في حياة سكان بلاد الرافدين ممثلا في الآداب القديمة والتي لم تكن مجرد أساطير يطغى عليها الخيال بل أنها كانت وليدة معتقداتهم وأفكارهم ونظرتهم الى الكون وعلاقته ببيئتهم الطبيعية وافكارهم الفلسفية ، وقد حاولنا من خلال هذا البحث أن نقدم للقارئ نماذج موجزة تتضمن بعضا من الملاحم والأساطير السومرية.

مقدمة:

يعتبر السومريون من العناصر الأولى التي سكنت جنوب بلاد الرافدين ، وقد اختلف العلماء والمؤرخون حول أصل هذه العناصر والجهة التي وفدوا منها إلى المنطقة ، غير أنهم يتفقون على أنهم عناصر غير سامية (1) دخلت بلاد الرافدين في فترة متقدمة من التاريخ وأسسوا أول حضارة مدونة وذلك باختراعهم للكتابة المعروفة بالكتابة المسمارية[2]،وبرزوا في مجالات عدة كالفن والعمارة والطب والفلك والرياضيات والفلسفة والأدب.

يحتل الأدب السومري مكانة متميزة ضمن تاريخ الآداب البشرية ، ذلك لأنه يمثل أولى المحاولات التي قام بها الإنسان للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها مستعملا في ذلك الأسلوب الخيالي والفني ،على الرغم من أ ن هذه كانت أولى المحاولات في تاريخ تطور الإنسان الأدبي.

ولم يبدا تدوين الأدب في بلاد الرافدين الا بعد مرور حوالي ألفي عام من اختراع الكتابة ذلك أن الأدب القديم كان ينشد أمام الجمهور ويسمع في أحضان الأمهات قبل ظهور الكتابة . وبعد استقرار الكتابة وانتشارها ظهرت الحاجة التعليمية والثقافية الى الأدب المدون [3]

الأدب السومري:

غطت موضوعات الأدب السومري حياة الناس وأفكارهم وممارساتهم ، الحياة والموت والخلود، الخير والشر ، العدالة الإلهية ، القيم والتقاليد والعادات الاجتماعية، الحياة الروحية والعاطفية.غير أننا هنا سنتناول موضوعين فقط هما: القصة والأسطورة[4]، فالأولى عبارة عن أحداث كتبت بأسلوب طغى عليه الجانب الخيالي ، ويدخل ضمنها الملاحم مثل ملحمة(جلجاميش)، والثاني هو أدب خيالي يهدف إلى توضيح بعض الظواهر الكونية وأصل الخليقة. ومثال النوع الثاني نجده في قصة الطوفان .

وأروع ما يلاحظه الدارس لأدب وادي الرافدين هو أنه بالرغم من إيغاله في القدم وسبقه جميع الآداب العالمية فانه يتسم بالصفات الأساسية التي تميز الآداب العالمية أسلوبا وتعبيرا ومحتوا وتخيلا و فنا[5].

وقد احتفظت ألواح الألف الثانية قبل الميلاد وما بعدها بعدة آداب سومرية الصفة و الأسلوب نسخها أصحابها عن أصول قديمة مما صعب تحديد عهود هذه الأصول تحديدا دقيقا، وبلغت ذروة تطورها في عهد سلالة أور الثالثة، غير أن هذا لا ينفي احتمال تأليف بعضها قبل ذلك بكثير، واحتمال تأليف بعضها الآخر بعد ذلك بقليل[6].

وقد شارك السومريون في جميع الألوان الأدبية من ملاحم و أساطير و حكايات و أناشيد ملكية أو إلهية والبكاء على الأطلال و الديار و تدوين الإحداث التاريخية و الاهداءات و التشريعات و النصوص الشعائرية والطقسية و الأمثال[7]..هذا فضلا عن نصوص فلسفية تصور حياة الدراسة و تطور مواد التدريس. واشتركت كل هذه و تك مع غيرها من الآداب القديمة في ملاحم مشتركة يأتي في مقدمتها غلبه الطابع الديني عليها و كثرة استعمال الرمز للتعبير عن الفكرة أو الحادثة و كثرة التكرار اللفظي[8].

وترك الأديب السومري كل هذه الإعمال مسجلة على لوحات مكتوبة بالخط المسماري مما يعطي للدارس صورة حقيقية لضخامة الإنتاج الأدبي للحضارة السومرية خلال الألف الثالثة قبل الميلاد[9].

ونضرا لضخامة هذا الإنتاج الأدبي وتنوعه نقتصر هنا على ذكر نموذجين:أحدهما يمثل القصة و الآخر يمثل الأسطورة.

1-أدب الملحمة:

كان (جلجاميش) من أشهر أبطال القصص و الملاحم في تاريخ الأدب السومري،وقد أصبحت أعماله و مغامراته مادة خصبة لملاحم و قصص سومرية و بابلية عديدة[10].

وقد ورد اسمه في ثبت ملوك سومر في الأسرة الثانية بعد الطوفان بعد اسم (دموز) [11]. وهو ملك سومري حكم مدينة الوركاء خلال الألف الثالثة قبل الميلاد ثلثاه إله و ثلثه الباقي من مادة البشر [12].وبالاضافة لكونه ملكا فقد كان كاهنا أيضا ، وقد وصفته الملحمة بطلا ضخما شجاعا طموحا ورمزا للقوة ورجل المغامرات والمخاطرات يتميز بخبرة وحنكة ومعرفته بخبايا الأمور وأسفاره البعيدة، وكان على أتم الخلق وكمال الصورة[13]

وتعتبر ملحمته من أقدم أنواع الملاحم البطولية في تاريخ الحضارات القديمة، وقد سادت قبل الألف الرابعة ق.م ولكنها مع ذلك ما تزال خالدة و ذات جاذبية إنسانية في جميع العصور، لأن المواضيع التي أثارتها وعالجتها لا تزال تشغل بال الإنسان وتفكيره وتؤثر فيه،مثل مشكلة الحياة والموت وما بعد الموت و الخلود، وقد مثلت تمثيلا بارعا ومؤثرا ذلك الصراع الأزلي بين الموت والفناء المقدرين ،وبين إرادة الإنسان المقهورة في محاولتها التشبث بالخلود و البقاء و السعي وراء وسيلة الخلود، أي إنها تمثل هذه المأساة الإنسانية المتكررة[14].إنها ظاهرة الموت التي كانت تعد في نظر سكان بلاد الرافدين القدامى نهاية الحياة، باعتبار أنهم لم يكونوا يؤمنون بوجود حياة أخرى، أو على الأقل لم تكن نظرتهم واضحة في هذا المجال.

وهذه الملحمة هي واحدة من الملامح السومرية، ولم يبق منها إلى 175 سطرا، و النص يتكون من أربعة عشر لوحة وجدت إحدى عشرة منها في (نيبو)ر(نفر) وواحدة في (كيش)،وجميعها ترجع إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد[15].

وتعتبر هذه الملحمة من أجمل وأسمى التآليف الأدبية السومرية مما كشف عنه حتى الآن[16].وتتلخص فصول هذه الملحمة فيما يلي:

أدرك(جلجميش) أن الموت سيكون مصيره مثل كافة البشر فأراد أن يخلد اسمه قبل أن يلقى هذا المصير، وعزم على السفر بعيدا إلى أرض الأحياء بقصد قطع أخشاب الأرز منها و العودة بها إلى (الوركاء)، وأوحى بفكرته هذه إلى رفيقه الأمين (أنكيدو)، فنصحه هذا الأخير بعرض الأمر على إله الشمس (أوتو) لأنه هو الإله المنوط به أرض الأرز[17]. .فعمل بنصيحته، واستفتى (جلجاميش) (أوتو) رب الشمس وصاحب هذه الأرض فيما عزم عليه وأبدى له قلقه من البقاء في مدينة يموت الإنسان فيها و يفنى دون ذكر يخلده، فأشفق عليه (أوتو) من صعوبة الطريق ومخاوفه،ولكنه بكى و توسل إليه فرق قلبه عليه واعتبر دموعه قربانا له ووعده بالمساعدة[18].

و المرجح أن مساعدته له كانت تتمثل في شل حركة الشياطين السبعة الشريرة التي تمثل الظواهر الجوية المدمرة حتى لا تكون خطرا يهدد (جلجاميش) في سيره عبر الجبال بين مدينة الوركاء وأرض الأحياء، فجمع (جلجاميش) وهو في عز فرحته 50 متطوعا من أبناء (الوركاء) وكانوا كلهم لا تربطهم رابطة بالأسرة، إذ لم يكن لهم بيت ولا أم،وكانوا جميعهم على استعداد لأن يسيروا وراءه في كل ما يقوم به. وبعد أن أحضر أسلحة من البرونز و الخشب له و لمرافقيه عبر الجبال السبعة بمساعدة الإله (أتو) [19].

ولا يعلم ما تم بعد ذلك لأن الأسطر من (62-70) غير واضحة في النص، وبعد ذلك نرى (جلجاميش)يروح في سبات عميق فلا يصحو إلا بعد جهد جهيد، وحين يفيق إلى نفسه يقسم بأمه (ننسون) وأبيه (لوجال بندا)

[20]أنه سيدخل أرض الأحياء ولن يرضى عن أي تدخل من أي إنسان أو إله[21]..

ولما بلغ أرض الأحياء حاول صديقه (أنكيدو) أن يمنعه من دخولها وخوفه من أهوالها وذكره بحزن أمه عليه إن هو لقي حتفه فيها[22]،إلا أن (جلجاميش) أصر على أن لا يستمع إلى هذا التحذير. ولما كان مطمئنا من أنه طالما كان(أنكيدو)بجانبه يساعده فلن يحدث لأي منهما مكروه أو خطر،وطلب (جلجاميش) من صديقه أن يطرد الخوف من قلبه ويسير قدما بصحبته.ولما أبصرهما الوحش (هواو) [23]. من بيته اللازردي بذل جهودا جنونية يائسة لطرد (جلجاميش) وصحبه المتآمرين.

وبعد كسر عدة سطور يفهم منها أن (جلجاميش) بعد أن قطع سبع شجرات وصل إلى جحره (هواو) الداخلية، ولكن الغريب في الأمر أن (هواو) غلبه الهلع و الخوف من أول هجوم ضعيف شنه عليه(جلجاميش) [24]، فصلى إلى اله الشمس (أوتو) و توسل إلى(جلجاميش) بأن لا يقتله، وأراد هذا الأخير أن يكون كريما في تصرفه فأمر (أنكيدو) أن يطلق سراحه لكن (أنكيدو) خشي العاقبة فنصحه ألا يفعل،فانفعل من مظهر(أنكيد)و وتصرفاته التي لا تحمل معنى الكرم[25].

ولكن يبدو أن البطلين قاما بقطع رقبته وحملا جثته إلى الإله(انليل) [26]، كما تورد بعض النصوص.ولا تشير النصوص السومرية إلى نهاية الرحلة، لكن بعض النصوص الأخرى الأكادية و البابلية تشير إلى ذلك.

إذ تذكر هذه النصوص أنه بعد أن تحصل (جلجاميش) فعلا على هذا النبات عاد بسرعة إلى مدينة (الوركاء) لينميه ليستفيد منه الناس،إلى أنه خلال عودته صادف في طريقه بركة ماء فنزل إليها للاستحمام وإزالة عناء السفر، وفي أثناء ذلك اجتذبت رائحة النبات (الحية) [27] فاختطفته، وبذلك حصلت على قوة تجديد شبابها، إذ أنها كلما شاخت تقوم بنزع جلدها فيعود أليها الشباب[28].

وعموما: فإن الموضوع الذي تعالجه هذه الملحمة هو موضوع الخلود بالنسبة للإنسان ومصيره بعد الموت،وهي بدون شك تصور ذلك الصراع الأزلي بين الموت المقدر على الإنسان من جهة ورغبة هذا الأخير في الخلود و السعي إلى تحقيقه بشتى الوسائل والسبل من جهة أخرى.

ومنشأ هذا الصراع يعود بدون شك إلى طبيعة البيئة الرافدية التي كانت تحيط بالإنسان في تلك الفترة ، والتي تميزت بعدم الاستقرار،فانعكست آثارها على تفكيره الديني خاصة ما تعلق منه بالموت و الحياة الأخرى، فآمن بأن الخلود هو من خصائص الآلهة وأن مصيره هو الموت، وحتى الأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار منه،فملحمة (جلجاميش) لم تستطع إيجاد حل لمشكلة الخلود وما الذي سيحدث للإنسان بعد موته، وهده النظرة تخالف تماما ما وصل إليه الإنسان المصري القديم الذي كان يؤمن بالخلود له و للآلهة معا، وأعتبر هذا الموت بداية لرحلة نحو العالم الآخر، وكان يستعد للموت أكثر من استعداده للحياة.

2أدب الأسطورة:

كانت فيضانات الأنهار في بلاد الرافدين من المشاكل التي شغلت أذهان الناس منذ قديم الزمان،وقد بذلوا في سبيل التغلب على أخطارها جهودا جبارة، واستمر مشيدو الحضارة السومرية البابلية في صراع دائم ضد ذلك العدو الغادر الذي غمر أرض الدلتا، ذلك هو الطوفان[29]،الذي ظلت ذكراه راسخة في وعي الزمن ومبعثا لتراث أدبي وفلسفي[30]..

وقد ورد موضوع الطوفان ضمن أحد اللوحات السومرية،والتي اعتبر الباحثون موضوعها أقرب مثال إنساني من الناحية الموضوعية للمادة التاريخية، زيادة على كونه يحتوي موضوعات التفكير الكوني الرافدي ،وخلق الإنسان وأصل المكون،ونشأة المدن السابقة لحادثة الطوفان، وقد وجد هذا اللوح في مدينة (نيبور) وهو الآن موجود في متحف الجامعة ب(فيلا- ديلفيا) بالولايات المتحدة الأمريكية[31].

وقد تخلف من قصة الطوفان السومرية شيء قليل يصور لنا زمنا بعيدا خلقت فيه الآلهة الأربعة(آن[32]،أنليل،أنكي[33]،ننخورساج) [34] البشر أصحاب الرؤوس السود[35]. و النبات و الحيوان، ونزلت الملكية من السماء إلى الأرض وبدأ العمران في خمس مدن[36]. أشرف على إنشائها الإله(آن) و الإله (أنليل) في أماكن مقدسة و سماها بأسمائها[37].ثم يأتي قرار الآلهة بإحداث طوفان يهلك ذرية البشر عقابا لهم[38]. على تماونهم في تقديم الذبائح وإقامة الشعائر الدينية وخروجهم عن طاعة الآلهة[39].

ويظهر أن أحد الآلهة ولعله الإله (أنكي) إله الماء قد حزن لذلك فعقد العزم على إيجاد وسيلة ما ينقذ بها الجنس البشري من الهلاك، فتوجه إلى (زيوسدرا) [40]. الملك المتواضع الورع (نظيره في التوراة نوح عليه السلام) وأخبره بقرار الآلهة ونصحه بأن ينقذ نفسه ببناء سفينة كبيرة[41].

ويظهر في قصة الطوفان أن (زيوسدرا) كان يقف إلى جوار جدار عندما سمع صوت إله يهمس و يقول "أيها الجدار أريد أن أتحدث إليك فاستمع إلى كلماتي وأصغ إلى وصاياي" ثم يخبره بأن الطوفان آت وأنه سيقضي على البشر، وبعد ذلك تأتي فجوة –نقص في السطر من (161-200) و التي لا بد أنها تضمنت نصيحة الإله (أنكى) إلى (زيوسدرا) أن يسرع الأخير بصنع سفينة تنقذه و أهله على غرار ما جاء في قصة الطوفان البابلية[42].ثم تواصل الأسطورة ذكرى حادثة الطوفان العنيف المدمر الذي حل بالبلاد[43].وظل ثائرا محتدما طوال سبع أيام بلياليها[44]، وكان خلالها (زيوسدرا) ومن معه[45]. قابعين في السفينة وسط الأمواج الهائجة، وجاءت كل الرياح و العواصف المدمرة الهائجة واكتسحت الزوابع العواصم[46].

وظلت السفينة تعصف بها الرياح العاتية، وأخيرا فتح (زيوسدرا) شباك سفينته، حيث أن الإله (أتو) أرسل أشعته إلى السفينة وسجد الملك لرب الشمس، وبعدها ضحى ببقرة و شاة[47].

كما كان يقدم الصلوات إلى الإلهين(أوتو و انليل) اللذين رفعاه إلى الحياة الأزلية مثل الآلهة، وآنذاك أسكنا الملك (زيوسدرا) الذي أنقذ بذرة البشر من الدمار في بلد على البحر في الشرق في (دلمون) [48].ويتضح أن (زيوسدرا) قد كوفئ مقابل إنقاذه نسل البشرية من الفناء بأن منحته الآلهة في النهاية حياة أزلية، فأصبح بذلك يتمتع بصفة الخلود مثل الآلهة، وأنها جعلت مسكنه في (دلمون) الواقعة على البحر[49].

أما بشأن الأدلة المادية على حدوث الطوفان فإن النقيبات الأثرية التي أجريت من قبل الباحث(السير ليونارد وولي) من خلال حفائره التي أجراها في (أور) عام (1929م) فإنه يشير إلى عثوره على طبقة من الغرين السميك الذي يقدر بحوالي ثمانية أقدام ، والذي اعتبره دليلا ماديا على الطوفان السومري نظرا لكثافة الطبقة الغرينية و توافقها الزمني مع النصوص السومرية،هذا مع ملاحظة أن تلك الطبقة الغرينية تقع فوق و تحت آثار تنتمي إلى عصر حضارة العبيد، والتي تمثل عصر ما قبل السلالات الأولى في جنوب بلاد الرافدين[50]..

و لشدة آثار الطوفان وكثرة أهواله على السكان فقد اعتبروه حدا فاصلا بين عهدين لتاريخ حوادثهم، إذ عمدوا إلى تقسيم تاريخ بلادهم إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء إلى الأرض و هذا في خمس مدن، ثم حدث الطوفان فكان صعود الملوكية نحو السماء ، ثم مرحلة ما بعد الطوفان إذ عادت الملوكية إلى النزول مرة ثانية في مدينة (كيش) في وسط بلاد الرافدين[51].على حين اعتبر المصريون حادثة الوحدة السياسية بين الشمال و الجنوب بداية لمرحلة جديدة من تاريخهم هي مرحلة العصر التاريخي.

وخلاصة ما يمكن قوله حول هذه الأسطورة أنها تعالج موضوع خلق الكون و الإنسان وأصل الملكية و المدن السابقة لحادثة الطوفان. كما تسرد الظروف التي أحاطت بهذه الظاهرة،فهي تتضمن الإشارة إلى غضب الآلهة من تصرفات الإنسان الذي خلقته ثم قرارها بإحداث طوفان يهلك بني البشر.كما تشير الأسطورة إلى عدم رضى بعض من الآلهة عن هذا القرار.

كما تظهر في النص شخصية (زيوسدرا) الملك السومري التقي وهو نظير سيدنا (نوح عليه السلام) في التوراة و القرآن الكريم كمنقذ للبشرية، حيث أن الإله (أنكي) وهو إله المياه اتصل به و أخبره بقرار الآلهة بإحداث الطوفان وأمره أن يبني سفينة تنقذه من الهلاك، ويواصل النص ذكر حادثة الطوفان الذي أغرق الأرض التي تشير النصوص إلى أنها أرض سومر، وأن الطوفان استغرق سبعة أيام وسبع ليال ثم بدا الإله (أوتو) مرسلا أشعته نحو السفينة.

وقد قدم (زيوسدرا) الولاء له و للإله (إنليل) اللذين منحاه الحياة الأزلية مثل الآلهة و أسكناه في (دلمون) اعترافا له بالعمل الذي قام به و المتمثل في إنقاذ البشرية من الهلاك، وهناك وجه شبه كبير بين نص أسطورة الطوفان السومري و ما ورد في الكتب المقدسة، ف(زيوسدرا) يرادف سيدنا نوح عليه السلام في التوراة[52].

وعموما : فإن حادثة الطوفان اعتبرت بالنسبة لسكان بلاد الرافدين حدا فاصلا بين عهدين من تاريخهم.عهد ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء إلى الأرض،ثم حدث الطوفان فكان صعودها إلى السماء ،ثم عهد ما بعد الطوفان حيث عادت الملوكية إلى النزول مرة أخرى في مدينة (كيش) وسط بلاد الرافدين.

الهوامش:

[1]– الساميون مصطلح أطلق على المجموعة البشرية التي عاشت على الأرض الممتدة مابين جنوبي غربي آسيا ومعظم أقطار إفريقيا، أي المنطقة التي تظم أقطار العالم العربي، لامتيازها بمظاهر حضارية موحدة كالأصل اللغوي الذي تمثله الثقافة الظاهرة في النحو والصرف والمفردات، وكذلك وحدة العقلية والتفكير، إضافة إلى العادات والتقاليد. وأول من أشاع مصطلح السامية واللغات السامية هو المستشرق النمساوي (شلوزر) (*SCHLOZER*) (1871م) مستندا إلى ما ورد في التوراة من أنساب نوح عليه السلام بعد الطوفان، ومع أنه مصطلح

يفتقر إلى الدقة العلمية لأن الساميين في الواقع لا يمثلون كيانا جنسيا بقدر ما يمثلونه من كيان لغوي وحضاري، فإنه لا يزال مصطلحا مقبول لحين إثبات الموطن الأول لتلك المجموعة البشرية، علما بأن الآراء ترجح شبه الجزيرة العربية عن غيرها كموطن أول لتلك المجموعة من الساميين. أنظر: عبد الكريم عبد الله، ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية، مجلة سومر، جـ. 1، 2، مديرية الآثار العراقية، بغداد، 1974، ص.59، حاشية1؛ محمد السيد غلاب، الساحل الفينيقي وظهيره، ط.1، دار العلم للملايين، 1969، ص.205 ومبعدها.

[2]-نسبة إلى الأداة التي كانت تكتب بها وهي تشبه المسمار.

[3]-عبد الوهاب حميد رسيد،حضارة وادي الرافدين (ميزوبوتاميا)، ط.1، دار المدى للطبع والنشر،دمشق، 2004، ص.159.

[4]- جاء في تعريف الأسطورة في الموسوعة البريطانية (Encyclopeda Briannica) أنها عبارة عن قصة غير معروفة الأصل أو المصدر،عادة تقوم بشرح وتفسير بعض المعتقدات الواقعية التي ترجع على الأقل إلى التراث الذي يرتبط أو يتعلق ظاهريا بأحداث أو وقائع فعلية، وأن كلمة(Mythelogy) تعني دراسة الأسطورة. كما تعني كذلك مجموعة أو محتوى،أو مضمون الأساطير في ثقافة معينة أو تراث ديني معين ، وتتناول الأساطير الواقع أو الأحداث النموذجية، كالأحداث المتعلقة بأفعال الآلهة أو أفعال الأبطال التي تعد خارج نطاق الاستطاعة البشرية ، وبمرور الزمان اختلفت هذه الوقائع والأحداث الخارقة للعادة عما كانت عليه في الماضي السحيق ، فأصبحت تهتم بتقديم نماذج من السلوك الإنساني. أنظر: محمد عباس،أفلاطون والأسطورة،دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص.8.

[5]- طه باقر،ملحمة جلجاميش،وزارة الإعلام،بغداد1971،ص.8.

[6]-عبد العزيز صالح،تاريخ الشرق الأدنى القديم(العراق و مصر)ج.1،ط.2،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،1974 ،ص.338.

[7]- ثروة عكاشة،الفن العراقي القديم،سومر و بابل و أشور،المؤسسة العربية للدراسات و النشر(ب.ت)ص..52

[8]- عبد العزيز صالح، المرجع السابق،ص338.

[9]- رشيد الناضوري،المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ السياسي و الحضاري في جنوبي غرب آسيا و شمال إفريقيا،دار النهضة العربية للطباعة و النشر،بيروت،1977،ص.298.

[10]- طه باقر، المرجع السابق،ص.26.

[11]-الشيخ محمد وهيبة ،من الساميين إلى العرب، منشورات مكتبة الحياة، بيروت،(ب.ت)ص.27.

12- Jawad Boulos Les Peuples Et Les Civilisations Du Proche Orient,T.1,Maulon,1961.p.365.

[13]- عبد الوهاب حميد رسيد،المرجع السابقن ص.168.

[14]- طه باقر، المرجع السابق ،ص-ص.17-18.

[15]-نجيب ميخائيل ابراهيم،مصر و الشرق الأدنى القديم،جـ.6،دار المعارف،القاهرة1967،ص.267.

[16]- صمويل نوح كريمر،من ألواح سومر،ترجمة طه باقر،مكتبة المثنى بغداد،(ب.ت)ص.290.

[17]- نجيب ميخائيل ابراهيم، المرجع السابق،ص267.

[18]- عبد العزيز صالح، المرجع السابق،ص.440.

[19]- صمويل نوح كريمر،المرج السابق، ص-ص.291-292.

[20]- معناه القائد.

[21]- نجيب ميخائيل ابراهيم، المرجع السابق، ص286.

[22]- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص.440.

[23]-العفريت الذي يحرس غابة الأرز،وقد ورد اسمه في نصوص الألواح البابلية القديمة تحت اسم(خاواو).

[24]- صمويل نوح كريمر، المرجع السابق ، ص.292.

[25]- نجيب ميخائيل ابراهيم، المرجع السابق،ص268.

[26]- اله الرياح والعواصف.

[27]- أفعى .

[28]- أبو المحاسن عصفور،معالم حضارات الشرق الأدنى القديم،دار النهضة العربية،ط.2،بيروت ،1981،ص.221.

[29]- تعني الكلمة السومرية(A-Ma-Urus)و البابلية (Abu-Bu) (الطوفان) أي ارتفاع المياه و طغيانها ،وهو حادث تصوره الأقدمون على أنه وقع في عصر موغل في القدم،وكان كونيا ،أي أنه لم يقتصر على وادي الرافدين،وإنما شمل العالم القديم بأسره ،وقد أصبح الطوفان لهوله وسعة رقعته و شدته شبحا مخيفا في ذاكرة البشرية على مر العصور،ولذلك جاءت كلمة(Abubu)في الأكادية مرافقة لمعنى الدمار و البأس. أنظر:فاضل عبد الواحد علي،ثم جاء الطوفان،مجلة سومر،جـ.1-2،المجلد،31،مديرية الآثار العراقية،بغداد،1975،ص.3.

[30]- عبد الحميد زايد، الشرق الخالد،دار النهضة العربية،القاهرة،1968،ص.8.

[31]- رشيد الناضوري،المرجع السابق،ص.295.

[32]- اله السماء.

[33]- اله المياه.

[34]- إلهة الأمومة.

[35]- يقصد بهم السومريون.

[36]- هي:(أريدو،بادتبيرا،آراك،سيبار،شوروباك).

[37]- عبد العزيز صالح، المرجع السابق،ص.383؛

Cramer(S.N) L'histoire commence a Sumer,Athaud,1975.p203.

[38]- إن سبب الطوفان يصعب إدراكه وخاصة في بلد تكثر فيه الفيضانات الفجائية كالقسم الجنوبي من العراق،ولكن طوفانا كبيرا كالذي تحدثت عنه المصادر السومرية والبابلية هو دون شك حدث عظيم وقع قبل تغلب الإنسان على الأنهار.أنظر:محمد بيومي مهران ،قصة الطوفان بين الآثار و الكتب المقدسة،مجلة كلية الآداب العربية و العلوم الاجتماعية،العدد5، 1975،ص.386

39 - Jawad Boulos,Op.Cit,p.192.

[40]- وصف في الأسطورة على أنه ملك تقي صالح يخشى الآلهة،وكان يتلهف شوقا إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام و تلاوة التعاويذ و الأدعية،أنظر: صمويل نوح كريمر، من ألواح سومر،..... ص-ص.254-255؛و يحتمل من سياق لوح صغير إن زيوسدرا كان قد تلقى الحكمة من أبيه (شوروباك) أحد ملوك ما قبل الطوفان وقد ورد في وصاياه أنه (شوروباك) ابن (اوبار توتو) وكان من قوله لولده"نصيحة أقدمها لك فتقيل نصيحتي ،وكلمة أقولها لك فأعرها سمعك،لا تهمل وصيتي ولا تتعد كلمتي".انظر عبد العزيز صالح، المرجع السابق،ص.439.

[41]- صمويل نوح كريمر،الأساطير السومرية،ترجمة يوسف عبد القادر محمد،مطبعة المعارف،بغداد1971.

[42]- فاضل عبد الواحد، المرجع السابق،ص-ص.6-7؛محمد بهيومي مهران ،المرجع السابق،ص.387.

[43]- يرى(وولي)أن الطوفان لم يكن طوفاناعالميا وإنما كان مقصورا على الحوض الأسفل لنهري دجلة و الفرات،وأنه قد أعرق المنطقة الصالحة للسكن هناك بين

الجبال و الصحراء،و التي هي بالنسبة للسكان الذين عاشوا فيها بمثابة العالم كله،وأن المسافة التي مسها الطوفان كانت(400 ميل طولا في 100 ميل عرضا)وأن الغالبية العظمى قد أغرقهم الطوفان،وأن القوم قد رأوا أن هذه الكارثة بمثابة عقاب من الآلهة عن آثام الناس و خطاياهم،وأن قلة نادرة قد نجت، وأن رأس هذه القلة قد نظر إليه كبطل للقصة،وهو هنا (زيوسدرا).انظر:نفس المرجع،ص.394؛

Ceram(W),des dieux ,desToumbeau,des savants,libraire,Plon,Paris,1952,p.288.

[44]- صمويل نوح كريمر، من ألواح سومر،.....ص.257.

[45]- لا يشير النص السومري بصورة مباشرة إلى وجود مجموعة من الناس مع (زيوسدرا)في تلكم السفينة،ولكن يظهر من السطر(211)من النص أنه أخذ معه عددا من الحيوانات.

[46]- فاضل عبد الواحد،المرجع السابق،ص.7.

[47]-سامي سعيد الأحمد ،السومريون و تراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التاريخية العراقية،عدد،3،،بغداد1975،ص.145.

[48]- هي جزيرة البحرين حاليا.

[49]-فاضل عبد الواحد،المرجع السابق،ص.7؛

Cramer,(s.n)op-Cit p.207.

[50]- محمد بيومي مهران،المرجع السابق.ص15.

[51]- عبد العزيز بلحرش،تطور نظم الحكم في بلاد الرافدين،رسالة ماجستير في التاريخ القديم،نوقشت بمعهد العلوم الاجتماعية،جامعة قسنطينة1976،ص.15.

[52]- الكتاب المقدس،كتب العهد القديم و العهد الحديث،الإصحاح السابع و الثامن و التاسع،دار الكتاب المقدس في العالم العربي،بيروت1980.ص.334.و ما يليها.

الضرائب غير الشرعية في دولتي المرابطين والموحدين وأثرها على علاقتهما مع الرعية

د. غانية البشيـر– قسم العلوم الانسانية – جامعة حمه لخضر– الوادي

الملخص:

يقوم المقال على اشكالية الضرائب الغير شرعية في مختلف مراحل دولتي المرابطين والموحدين أي منذ القيام إلى السقوط، وأثرها على طبيعة علاقتهما مع الرعية. وقد وجدنا أن المرابطين قد تراجعوا عن مبدأ إلغاء الضرائب الغير الشرعية منذ بدايات حركتهم، إلا أن هذه الظاهرة تدرجت نحو التفاقم مع انتقال المرابطين من حركة دينية إلى ملك سياسي، وهذا ما انعكس على علاقة الدولة بالرعية، حتى أن الكثير من المؤرخين اعتبروا الضرائب الغير شرعية من أهم العوامل التي عجلت بسقوط دولة المرابطية. أما الموحدون اكتفوا بالضرائب الشرعية دون سواها، وبهذا استطاع الموحدون تجاوز مشكل الضرائب الغير شرعية رغم بعض التجاوزات لعمالهم في جمع الضرائب، لذا يمكننا أن نقر بأن النظام الضريبي الموحدي كان أكثر تنظيما من سابقه.

ABSTRACT:

The article on the problematic of illegal taxes at various stages of the states and stationed Unitarian do any since the fall, and its impact on the nature of their relationship with the parish. We have found that marabouts have backed the principle of the abolition of non-legitimate tax since the beginning of the movement, however, that this phenomenon gradually toward exacerbations with transmission stationed from the religious movement into a

political king, and this is reflected in the country's relations with the parish, so that many historians considered illegal taxes of the most important factors that precipitated the fall of the Almoravid state. The Unitarians were satisfied with the taxes legitimacy without the other, and thus was able to overcome the Unitarians illegal tax problem, despite some abuses of workers in the collection of taxes, so that we can recognize that the tax system Almohad was more organized .than its predecessor

تتحكم في علاقة السلطة بالرعية ثلاث عوامل اساسية أولها القرابة لما لها من دور في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وكذلك السيف كرمز للقوة والإكراه القسري، بالإضافة إلى المال الذي يتنوع بين قوة الإغراء المادي والأخذ بالإكراه القسري، فقوة الاغراء المادي تمثلت في اغداق العطايا والهدايا لإشتراء الذمم، أما الإكراه القسري في المال نراه تجسد بشكل جلي في الضرائب غير الشرعية.

لذا رأينا أن هذه الأخيرة أي الضرائب الغير شرعية التي تنوعت وتعددت في دولتي المرابطين والموحدين بين مكوس وقبالات وغيرها من الجوانب التاريخية التي تحتاج إلى الدراسة والتحليل للوقوف على مدى تأثيرها في طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ولمعرفة ذلك لابد من العودة والانطلاق من النظرية الخلدونية في الجباية، التي تقرر أن الدولة سواء قامت على العصبية أو الدين، تكون قليلة الضرائب كثيرة الجباية في أول عهدها لأن الرعية تنشط للعمل فيكثر الاعتمار، وعندما تنتقل الدولة إلى الترف والحاجة للحماية تصاب بالهرم، فتكثر الضرائب فينتقل ذلك على الناس، فيقل الإعمار وتنقص الجباية، ولا يكون ذلك إلا تدريجيا[1].

ومن هنا نتساءل هل سارت دولتا المرابطين والموحدين وفق النظرية الخلدونية؟ وما موقف كل من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين من الضرائب الغير شرعية؟ وهل كان لهذه الضرائب دور في قيام هذه الدول وسقوطها؟ وإلى أي مدى اثرت هذه الضرائب في نوعية العلاقة بين الدولتين وبين الرعية، أي بين الحاكم والمحكوم؟.

1. **الضرائب الغير شرعية في دولة المرابطين:**

لا شك أن تحول المرابطين من الإصلاح إلى الملك[2] في الجانب السياسي، قد انعكس على الجانب الاجتماعي للمجتمع المرابطي، وخاصة أنهم كانت لهم منطلقات دينية أساسها الكتاب والسنة ومذهب مالك، ليناقضوا أنفسهم ينساقوا لضروريات الحكم فينتقلوا إلى ملك سياسي، وهنا سنحاول متابعة الضرائب الغير الشرعية من فترة الدعوة إلى الملك.

متى ظهرت الضرائب الغير شرعية؟ كيف كانت علاقة السلطة المرابطية بالمجتمع؟ وما تأثير سياسة النظام المرابطي على مجتمعه؟ وكيف كان رد هذا الأخير؟.

أسس المرابطون نظاما مركزيا تحكمت بموجبه مجموع شبكة الطرق الغربية الرابطة بين غانة وشمال إيبيريا، وكان مركزها العاصمة مراكش[3]، واعتبروا كل معارض لهم كافرا مارقا يجب سفك دمه وقتله[4]، أما بالنسبة للمغارم التي فرضت على المجتمع، ففي بداية الدعوة حاول عبد الله بن ياسين (ت 451هـ/1059م) تطبيق الشرع فأمر أصحابه بالزكاة والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من مغارم محدثة[5]، لكن الغريب أن ابن ياسين نفسه بعد أن استقر عند لمتونة غزا قبيلة لمطة فطالب أفرادها بثلث أموالهم ليحل لهم الباقي، واعتبره من " الأموال المختلطة "[6]، بل اقتسموا غنائم إحدى القبائل البربرية المعارضة، وهذا ما جاء في نص واضح لصاحب الحلل حين قال: « فهزموهم، وسبوهم، وقسموا أموالهم، وخمسوا سبيهم»[7]. وهذا مناف تماما للكتاب والسنة ومذهب مالك، إذ يعتبرون

معارضيهم من البربر كفارا يجب فيهم الخمس على عكس ما تقره منطلقاتهم الدينية.

وورد لنا نص لصاحبه ابن أبي زرع في غاية الأهمية، يحدد لنا فيه الفئات التي شملها توزيع خمس الغنائم المغراويين الذين انتصرت عليهم بوادي درعة عام 447هـ/1055م، إذ قال: « فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التي أخذ في درعة، فأخرج منه خمس جميعه ففرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما، وقسم الباقي على المرابطين»[8]. وبهذا كان توزيع الخمس بعيدا تماما عن الفئات التي حددها النص القرآني.

أما الأمير يوسف بن تاشفين (ت 500هـ/1107م)فسار على الشرع خائفا في مجتمعه، حتى قال فيه صاحب الأنيس المطرب: « ولم يوجد في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس[9] ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما أمر الله تعالى به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين، وجبا في ذلك من المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله، فيقال أنهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة»[10].

ومن خلال هذا النص نستطيع أن نحدد معالم السياسة المالية[11] لابن تاشفين، حيث نرى أنه طبق الشرع على ما يجب للدولة من مال المجتمع، وبهذا فهو لم يفرض أي ضريبة على مجتمعه، نظرا لأن بيت مال المسلمين كان في بحبوحة ووفرة إلى آخر عهد هذا الأمير[12].

أراد يوسف أن يفرض على الناس ضريبة غير شرعية يجمع منها موارد مالية تسمى " المعونة "، فعارضه أحد الفقهاء وهو قاضي المرية أبو عبد الله محمد بن يحي بن الفراء (ت 514هـ/1120م)، إلا إذا حلف الأمير في حضرة العلماء، أن ليس

له درهم ينفقه على المسلمين[13]، وبما أن الشرع يقرر أن « الأصل أن لا يطالب المسلمون بمغارم غير واجبة بالشرع، وإنما يطالبون بالزكاة وما أوجبه القرآن والسنة، كالفيء والركاز وإرث من يرثه بيت المال ..... فإذا عجز بيت المال عن أوراق الجند وما يحتاج إليه من آلة حرب وعدة، فيوزع على الناس ما يحتاج إليه من ذلك»[14]. ولا نعلم إن كان ابن تاشفين أقدم على القسم أم لا، ولا نعلم أفرض المعونة[15] أم لا، المهم أنه عزم على فرض ضريبة بدعوى الجهاد رغم الوضعية الجيدة لبيت المال[16]، وبهذا بدأت تظهر بوادر أزمة مالية يتحمل كاهلها المجتمع المرابطي، لتصبح الجباية والمغارم من أهم سمات عهد ابنه علي. وهنا نتساءل ما سبب ذلك؟ وما هي العوامل التي كانت وراء ذلك؟ وكيف انعكست سياسته المالية على الرعية؟ وما ردهم؟.

على الرغم من أن علي بن يوسف بن تاشفين (ت 537هـ/1143م) لما تولى الحكم عام 500هـ/1107م وجد « البلاد هادئة، والأموال وافرة، والملك قد توطأ، والأمور قد استقامت»[17]، إلا أن دولته شهدت أزمة مالية عنيفة منذ بداية عهده، فرغم انتصاره بموقعة أقليش[18] سنة 501هـ/1108م على النصارى، وسيطرته على سرقسطة سنة 503هـ/1110م، إلا أنهم عجزوا على استرجاع طليطلة، فقويت شوكة الحلف المسيحي بقيادة ألفونسو المحارب[19]، فحاصروا سرقسطة فسقطت في أيديهم عام 512هـ/1118م، وهزموا الجيش المرابطي هزيمة نكراء سنة 514هـ/1120م[20]. ويبدو أن حروب النصارى بالأندلس استنزفت بيت مال المرابطين، لتزيدها ثورة المصامدة تعقيدا إذ شتت جيوشهم بين الأندلس والمغرب، فانتقل المرابطون من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، وأمام هذا الوضع الجديد شيّد المرابطون بالمغرب الحصون لمواجهة الموحدين[21]، وأنفقوا أموالا طائلة لبناء أسوار المدن بفتوة من ابن رشد الجد (ت

520هـ/1126م)[22]، وهكذا قلت مداخيل بيت المال من الغنائم وغيرها، وكان لزاما على المرابطين توفير المال للجيش ولتسيير شؤون دولة. فماذا فعلوا لتوفير هذا المال؟.

استفتى علي بن يوسف في كتاب وجهه إلى الفقيه القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد ابن ورد (ت 540هـ/1146م) وغيره من فقهاء الأندلس، حول جواز التطاول ومصادرة الأملاك المحبسة للنصارى، فكان الجواب سنة 521هـ/1126م واضحا لا لبس فيه إذ يقر أنه لا حرمة لأحباس أهل الذمة[23]، ولم يستثن من هذه التدابير المجحفة النصارى فقط بل سبقهم اليهود، ففي عام 464هـ/1071م فرض عليهم يوسف بن تاشفين ضريبة، وفيها قال صاحب الحلل: « وافترض على اليهود في تلك السنة فريضة ثقيلة، اجتمع له منها جملة مال، استعان به على من كان بسبيله»[24]. وقد ضبطها ابن عذارى بحوالي « مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار»[25]، ويعد هذا المبلغ الباهضًا جدا مما جعل المؤرخ محمد الأمين بلغيث يعتبره دليلًا على ثراء اليهود خلال العهد المرابطي[26]. وهكذا مست الأزمة جميع أهل الذمة، ولم يميز الأمير المرابطي علي بين ذمي ومسلم بل شملت الضرائب غير الشرعية كل الرعية دون استثناء ديني.

وقد أفتى القاضي ابن الفراء لأهل قرطبة أن يتنازلوا للأمير عن جلود أضحية العيد لترميم أسوار مدينتهم المهددة بخطر الصليبين[27]، وفرض أيضا ضريبة على أهل فاس عام 530هـ/1130م لتسوير مدينتهم وزيادة البناء في مسجدهم[28]، وكما فرض ضريبة أخرى على أهل الأندلس سموها " التعتيب " لبناء أسوار جديدة لمدنهم وترميم القديم منها[29].

كما فرضت قبالات[30] على الصناعات والأسواق، حتى قال فيها الشريف الإدريسي: « وكانت أكثر الصنع بمراكش، متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصقر والمغازل، وكانت القبالة على كل شيء يباع دقَّ أوجلَّ كل شيء على قدره فلما ولى المصامدة، وصار الأمر إليهم قطعوا القبالات بكل وجه، وأراحوا منها واستحلّوا قتل المتقبلين لها، ولا تذكر الآن القبالة ذكرا في شيء من بلاد المصامدة»[31]، ونستقرئ من هذا النص أن القبالات المفروضة على الصناعات والأسواق كان لها أثر سلبي على المجتمع، استغله الموحدون في الدعوة لهم ضد النظام المرابطي.

وبلغت الأزمة المالية أشدها حتى أصبح الأمير علي بن يوسف يفرض على رعاياه تجهيز أبناءهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم ليشتركوا في الجيوش المرابطية ضد أعداءهم[32]، وساء حال الجيش المرابطي حتى أن الأمير « علي بن يوسف في آخر أمره امتنع الإعطاء لأجناده حتى رجع أكثرهم يُكْرون دوابهم»[33]. لكن الأعظم والأخطر هو أن ابن تاشفين « هو أول من استعمل الروم بالمغرب، وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم»[34]. والأكيد أن هذا الأمر كان له وقع خاص على المجتمع خاصة أن الرعية امتعضت من كل مغرم غير شرعي من قبل، فكيف يقبلوا بأن يقوم بجبيها الروم؟.

ومن خلال تركيزنا على السياسة المالية للدولة المرابطية، لما لها من أهمية كبرى في تحديد معالم العلاقة بين الأمراء المرابطين ومجتمعهم، لاحظنا أن الحكام المرابطين ساروا وفق النظرية الخلدونية في الجباية، التي تقرر أن الدولة سواء قامت على العصبية أو الدين، تكون قليلة الضرائب كثيرة الجباية في أول عهدها لأن الرعية تنشط للعمل فيكثر الاعتمار، وعندما تنتقل الدولة إلى الترف والحاجة للحماية تصاب بالهرم، فتكثر الضرائب فينتقل ذلك على الناس، فيقل الإعمار وتنقص

الجباية، ولا يكون ذلك إلا تدريجيا[35]، وابن خلدون هنا يبدو كأنه يستقرئ سياسة المرابطين الضريبية وانعكاساتها على المجتمع.

2. **الضرائب الغير شرعية في دولة الموحدين:**

ان تحول الموحدين من الإصلاح إلى الملك[36] في الجانب السياسي، قد انعكس على الجانب الاجتماعي للمجتمع الموحدي، وخاصة أن صاحب دعوتهم المهدي بن تومرت (ت 524هـ/1130م) الذي أعلن معارضته للمناكر ثم طالب أتباعه بإزالتها والقضاء عن المتسبب فيها، واعتبر الجبايات من أشد المناكر تأثيرا فأولاها باهتمام خاصا، وكذلك الخليفة عبد المؤمن وبنيه من الخلفاء، وهنا سنحاول متابعة الضرائب الغير الشرعية من فترة الدعوة إلى الملك.

متى ظهرت هذه الضرائب عند الموحدين؟ كيف كانت علاقة السلطة الموحدية بالمجتمع؟ وما تأثير سياسة النظام الموحدي على مجتمعه؟ وكيف كان رد هذا الأخير؟.

لقد تفطن الإمام المهدي بن تومرت منذ بداية دعوته إلى الأثر السلبي الذي ولدته السياسة المالية للمرابطين – خاصة فرض الضرائب غير الشرعية – في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، حيث خلقت نفورًا لدى المجتمع من السلطة الحاكمة، فسارع إلى معارضة هذا النظام الضريبي والمطالبة بالرجوع إلى الشَّرع، واعتبر أن الملثمين فرضوا على الناس ما لم يوجبه الشرع من إحداثهم لمغارم ومكوس ومناكر ما أنزل الله بها من سلطان وأكلهم للسحت والحرام[37].

ولقد سار الخليفة عبد المؤمن (ت 558هـ/1163م) على نهج إمامه المهدي في انتقاده اللاذع للسياسة الضريبية للمرابطين في رسائل رسمية له، ومنها ما جاء في رسالة عبد المؤمن الموجهة إلى جميع طلبة الأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة الصادرة في تينملل بتاريخ ربيع الأول عام 543هـ/1148م، إذ

وصف المرابطين بأنهم « يبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها..... وقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكا، وأدناها إلى من تولاها دمارا وفتكا»[38]، ثم يوضح سياسته اتجاه مجتمعه «هل قام هذا الأمر العالي إلا لقطع أسباب الظلم وعُلقِه؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه؟ وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه؟»[39]، وهنا عبد المؤمن يقدم نفسه كمخلص ومنقض اجتماعي للمجتمع المغربي.

وعززت رسالة عبد المؤمن بن علي إلى شيوخ وأعيان قسنطينة بتاريخ 24 جمادى الأولى سنة 547هـ/1152م ما ذهبنا إليه من أن الخليفة الأول للموحدين قدم نفسه كمخلص لمجتمع المغرب الإسلامي، بل ذهب أكثر من ذلك إذ قدم دعوة الموحدين وملكهم إنما هي مخلص الأمة من الظلم وبعث بها الله لعباده لإقامة حدوده ونشر العدل بين عباده، وهذا حين قال: « وقد كان بهذه الأصقاع، من آثار أهل الاختلاف والابتداع، ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع. وكان الأشقياءُ من ولاتها، يرون إيجابها وإلزامها شرعاً يلتزمونه .... وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم.....وأُجري الشرعُ بالإمام المهدي – رضي الله عنه – على بابه، وأَراح جميع أَهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم، ويعرفونه من أَسباب المظالم..... فلا يُطلبون إلا بما توجبه السنَّة تطلبُه»[40].

وهكذا من خلال الرسالتين السابقتين حدد الخليفة عبد المؤمن موقفه وموقف الموحدين كافة من هذه الضرائب بوضوح، فاحتفظ بالشرعي منها فقط وأزال غيرها، وهذا ما ذهب إليه الجغرافي الشريف الإدريسي في قوله: « فلما ولي المصامدة، وصار الأمر إليهم قطعوا القبّالات بكلّ وجه واراحوا منها واستحلّوا قتل المتقبّلين لها ولا تذكر الآن القبّالة ذكرا في شيء من بلاد المصامدة»[41]، غير

أنه في آخر هذا النص لاحظنا إشارة لتجاوزات بعض المتقبلين وهناك مراقبة لهم وتشدد من طرف عبد المؤمن في معاقبة كل منحرف.

وتعددت انحرافات بعض الجباة والعمال فمنهم من عمل على فرض بعض المكوس والمغارم على الرعية كالمسافرين والتجار، بل منهم من تمادوا وتطاولوا فسمحوا لأنفسهم أن « تمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون، ويجرؤون في التعدي ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون»[42]، وأمام هذه التصرفات القبيحة جاء تهديد ووعيد وإغلاظ شديد للأيمان من قِبل الخليفة لكل جابي وعامل ثبت تورطه في شيء من هذا، وحذر كذلك الطلبة والأشياخ وكافة الموحدين في دولته بمراقبة ومحاسبة ومعاقبة كل من زاغ عن الحق وظلم[43].

واستمر خلفاء عبد المؤمن في معاقبة كل من ثبت تورطه في فساد مالي، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن (ت 579هـ/1184م) في عام 573هـ/1178م « كانت السطوة بالوزراء والعمال الخدماء فمنهم ابن جامع وبنوه وغيرهم .... وممن انتقم منه عبد الله بن محمد بن المعلم وكان مشرف اشبيلية انتقدت عليه أخبار شنيعة وأحوال فظيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبقى له سبد ولا لبد وتفرقت جميع أحواله شذر مذر وضربت بعد محنة عظيمة عنقه رحمه الله. وكذلك ابن فاخر مشرف سجلماسة وأبو الحسن علي بن حنون رحمهم الله»[44].

وفي سنة 579هـ/1189م عاقب الخليفة أبو يعقوب المنصور مشرف تلمسان، وفي هذا ذكر ابن عذارى: « وفيها كانت السطوة بأبي زكريا ابن حيون شيخ كومية وابنه علي الذي كان مشرف تلمسان وغيره وكان كل يوم يخرج مكبولًا للحساب عن عمله، ثم أخرج ابن حيون المذكور منفياً من الحضرة إلى بطليوس وبقي علي ابنه في السجن إلى خروج أمير المؤمنين في غزوته إلى شنترين»[45]، وفي نفس هذا العام عاقب الخليفة أبو يعقوب كذلك ثمانية عشرة عاملا له أولهم

مشرف فاس عبد الرحمان بن يحي وخازنه على المال وخازنه على الطعام، وكذلك ابن عاصم مشرف مكناسة وعاملها ابن هود، وابن عمر المشرف برباط تازة وصاحب ملوية وقاضي المعدن وغيرهم[46]، وهكذا استمر خلفاء عبد المؤمن بن علي في محاربة ومعاقبة عمالهم على فسادهم المالي وهذا دليل على استمرار الفساد المالي حتى في فترة خلفاء عبد المؤمن إلا أن الدولة لم تدخر جهدًا في محاربة هذه الظاهرة، وبهذا أسقطت جميع المكوس والضرائب غير الشرعية.

وهكذا نخلص إلى ما أقره الباحث عز الدين عمر موسى أن الموحدين لم يكونوا في حاجة إلى فرض الضرائب الغير شرعية عندما تنتابهم ضائقة مالية، بل كانوا أشد الحاجة إلى تنظيم الجباية، فوضعوا سياسة متشددة مع الجباة لمحاسبتهم، بل كانوا يسألون الرعية عنهم، حتى أنه صار من أهم ظواهر العصر الموحدي نكبة عمال الجباية إما لتقصير أكتشف أو لتشكي الناس منهم[47]. وبإنشاء الموحدين نظاما جبائيا محكما بامتياز أغناهم عن الضرائب الغير شرعية.

ومن خلال هذا العرض للضرائب الغير شرعية في دولتي المرابطين والموحدين، خلصنا إلى بعض النتائج والملاحظات لخصناها في فقرتين وهما:

- تناقض المرابطون مع منطلقاتهم المبدئية، فتراجعوا عن مبدأ إلغاء الضرائب الغير الشرعية منذ بدايات حركتهم، إلا أن هذه الظاهرة تدرجت نحو التفاقم مع انتقال المرابطين من حركة دينية إلى ملك سياسي، وهذا ما انعكس على علاقة الدولة بالرعية، حتى أن الكثير من المؤرخين اعتبروا الضرائب الغير شرعية من أهم العوامل التي أضعفت دولة المرابطين وعجلت بسقوطها.

- اكتف الموحدون بالضرائب الشرعية دون سواها، وبهذا استطاع الموحدون تجاوز مشكل الضرائب الغير شرعية التي عجلت بزوال دولة المرابطين،

لذا يمكننا أن نقر بأن النظام الضريبي الموحدي كان أكثر تنظيما من سابقه، إلا أننا سجلنا بعض التجاوزات من بني عبد المؤمن وذوي الحظوة والسطوة من دولتهم وبعض من عمالهم المكلفين بجباية الضرائب، فكان له الأثر البالغ على العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

الهوامش:

(1)- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: **المقدمة**، د ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1424هـ/2004م، ص 265-267.

(2)- تحول المرابطين من الإصلاح إلى ملك سياسي، تجسد في ممارسات الأمراء، الذين كرسوا ولاية العهد وتوريث السلطة في الأعقاب، وكذلك في طبيعة نظامهم الأميري وخطبوا للخلفاء العباسيين على المنابر. لمزيد من التفصيل ينظر: البشير غانية: **الأولياء والمجتمع بالمغرب الإسلامي في عصري المرابطين والموحدين** (**479-635هـ/1086-1238م**)، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر- 2- أبو القاسم سعد الله، السنة الجامعية: 1435-1436هـ/2014-2015م، ص 48-52.

(3)- محمد القبلي: **رمز " الإحياء " وقضية الحكم في المغرب الوسيط**، ضمن كتاب **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987م، ص 36.

(4)- محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السلماني (ت 776هـ/1374م): **تاريخ المغرب في العصر الوسيط**، القسم الثالث من **كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م، ص 186-187.

(5)- أبو العباس احمد بن خالد الناصري السلاوي: **كتاب الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى**، ج 2، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط 1، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م ، ص 13.

(6)- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري: **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب**، د ط، مكتبة المثنى، بغداد، د ت، ص 166.

(7)- مجهول: **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، حققه: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط 1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م، ص 21.

(8)- أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، نشر: عبد الوهاب بنمنصور، ط 1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 128.

(9)- المكس: جمعها " مكوس"، وهي ضريبة تفرض على النشاط الصناعي والتجاري، وتصنف ضمن الموارد الغير شرعية. ينظر: القلقشندي. عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ/2003م. صابر عبد المنعم محمد علي البلتاجي: **النظم والمعاملات المالية في المغرب عصر الموحدين (564- 668هـ/1130-1269م)**، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1432هـ/2012م، ص 199.

(10)- نفسه، ص 137.

(11)- حول تطور السياسة المالية للدولة المرابطية ونظامها ومميزاتها. ينظر: الحبيب الجنحاني: **السياسة المالية للدولة المرابطية**؛ ضمن كتاب **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 89-103.

(12)- وجدت أموال عظيمة في بيت المال بعد وفاة الأمير يوسف، بلغت حوالي ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعا من المطبوع الذهب. محمد الأمين بلغيث: **الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين**، ط 1، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م ، ص 137.

(13)- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج 7، إعداد: وداد القاضي وعز الدين أحمد موسى بإشراف: إحسان عباس، د ط، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م، ص 118-119.

(14)- أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي: المعيار **المعرب وجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، ج 11،خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، ط 1، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية للمملكة المغربية، الرباط، 1401هـ/ 1981م، ص 127-128.

(15)- ضريبة المعونة لم تكن محدثة من طرف المرابطين، بل كانت مفروضة في عهد الطوائف، ولا شك أنها من الضرائب التي كان يشتكي منها السكان إلى فقهائهم، فيقوم الفقهاء بتشجيعهم على عدم دفعها، لكن نفس هؤلاء الفقهاء أضفوا الشرعية على هذه الضريبة في عهد المرابطين بمساندتهم وتقديم المؤيدات لها. عمر بن حمادي: **الفقهاء في عصر المرابطين**، شهادة تعمق في البحث (تاريخ وسيط)، إشراف: محمد الطالبي، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1987م ص 140.

(16)- غير أن الباحث السوداني عز الدين عمر موسى يرى أن محاولة فرض يوسف بن تاشفين لضريبة المعونة هي دليل علي ظهور بوادر مشكلة المالية آخر أيام يوسف نفسه. عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص 165.

(17)- ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص 157.

(18)- **أقليش**: وهي مدينة لها حصن تقع في ثغر الأندلس، بناها الفتح بن موسى بن ذي النون، ووقعت بها معركة شهيرة سميت باسمها وهي موقعة أقليش عام 501هـ أو 1085/502م، انتصر فيها جيش علي بن تاشفين المرابطي على جيش ألفونسو الصليبي. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 51. بلغيث **الربط**، ص 185.

(19)- **ألفونسو الأول:** وهو ابن رذمير ملك أراغون المعروف بألفونسو المحارب، حكم أرغون ونبرة مابين عامي 499-529هـ/1104-1134م، استولى على سرقسطة سنة 512هـ/1118م من المسلمين واتخذها عاصمة له، كما قام ما بين عامي 519-520هـ/1124-1125م على المسلمين من سرقسطة حتى وصل إلى السواحل الجنوبية الشرقية دون مقاومة تذكر. ينظر: ابن القطان: **نظم الجمان،** ص 152. ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة،** حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1393هـ/1973م، مج 1، ص 108-114. يوسف أشباخ: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين،** ترجمه وعلّق عليه: محمد عبد الله عنان، ج 1، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ص 146-152.

(20)- لمزيد من التفاصيل حول التقهقر العسكري المرابطي. ينظر: محمد عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس،** ق 1، ط 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1383هـ/1964م، ص ص 72-73؛ 90-104. بلغيث: **الربط،** ص 185 وما بعدها. محمد الأمين بلغيث: **الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين (479-539هـ/1085-1144م)،** ج 1، ط 1، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 129 وما بعدها. ابراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين المجتمع- الذهنيات – الأولياء،** ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993م ص 17-19.

(21)- أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق: **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين،** نشر: عبد الوهاب بن منصور، ط 1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م، ص 157.

(22)- بلغيث: **الحياة الفكرية**، ج 1، ص 305. إبراهيم حركات: **المغرب عبر التاريخ**، ج 1، ط 1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1430هـ/2009م، ص 222-223.

(23)- الونشريسي: **المعيار**، ج 8، ص 56-64. لمعرفة أسباب وظروف وملابسات هذه الفتوة ونتائجها ينظر: بلغيث: **الحياة الفكرية**، ج 2، ص 832 وما بعدها. ابراهيم بوتشيش القادري: **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1998م، ص 79 وبعدها. عصمت عبد اللطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني 510-546هـ/1116-1156م تاريخ سياسي وحضارة**، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م، ص 157.

(24)- مجهول: **الحلل**، ص 25.

(25)- ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج 4، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 3، 1983م ص 23.

(26)- لمزيد من التفصيل ينظر: بلغيث: **الحياة الفكرية**، ج 3، ص 926.

(27)- نفسه، ج 1، ص 305.

(28)- أبو محمد بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي بن القطان المراكشي: **نظم الجمان لترتيب ما خلف من أخبار الزمان**، درسه وقدم له وحققه: محمود علي مكي، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص 250.

(29)- ابن عذارى: **البيان**، ج 4، ص 73-74. ولمزيد من التفاصيل حول " التعتيب " ينظر: محمد عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين**، ق 1، ص 114-116.

(30)- القبالات: مفردها قبالة وهو هي ضريبة فرضت على الأسواق والصناعات قد كان دقيقة ومحكمة، وكان عبئا ثقيلا على التجار والصناع، وتعد ضمن الواردات الغير شرعية. ينظر: الحبيب الجنحاني: **السياسة المالية للدولة المرابطية**، ص 99. صابر عبد المنعم محمد علي البلتاجي: **النظم والمعاملات المالية**، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1432هـ/2012م، ص 49. عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص167.

(31)- أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف الإدريسي: **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق: الدوزي ودي خويه، مطبع بريل، ليدن، 1863م، ص 70.

(32)- ابن القطان: **نظم الجمان**، ص 152.

(33)- ابن عذارى: **البيان**، ج 4، ص 102.

(34)- ابن الخطيب: **الحلل**، ص 84-85. بل أن أشباخ أثار قضية أخطر وهي مشاركة اليهود للنصارى في جباية الضرائب. وقد انساق بعض الباحثين حول هذه المسألة وجعلوها مسلمة كبوتشيش، غير أن الباحث محمد الأمين أخذى هذه رواية بكثير من الحذر ومحصها وناقشها. ينظر: يوسف أشباخ: **تاريخ الأندلس**، ص 238. بوتشيش: **مباحث**، ص 109. بلغيث: **الحياة الفكرية**، ص 892-894.

(35)- عبد الرحمن ابن خلدون: **المقدمة**، ص 265-267.

(36)- لمزيد من التفصيل حول تحول الموحدين من حركة دينية إلى ملك سياسي ينظر: البشير غانية: **الأولياء والمجتمع**، ص 91-104.

(37)- محمد بن عبد الله بن تومرت الهرغي المصمودي: **أعز ما يطلب**، تقديم وتحقيق: عبد الغني أبو العزم، ط 1، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1999م، ص 387. عبد المجيد النجار: **تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت –**

الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري–، ط 2، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن–فرجينيا، 1415هـ/1995م، ص 80–82.

(38)– ابن القطان: **نظم الجمان**، ص 191–193.

(39)– نفسه، ص 194.

(40)– **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، نشر: ليفي بروفنصال، ط 1، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1941م ص 21–22.

(41)– الإدريسي : **نزهة المشتاق**، ص 70.

(42)– ابن القطان: **نظم الجمان**، ص 199.

(43)– نفسه، ص 194–195.

(44)– ابن عذارى: **البيان الموحدي**، ص 139.

(45)– نفسه، ص 155.

(46)– نفسه، ص 158.

(47)– عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص 186–187.

الجغرافيا التاريخية والبشرية لبلاد المغرب القديم في القرن السادس الميلادي – دراسة من خلال ملحمة الحرب الليبية الرومانية للشاعر فلفيوس كريسكونيوس كوريبوس–

د. بعيطيش عبد الحميد– قسم التاريخ والآثار – جامعة باتنة1

الملخص:

تعتبر ملحمة فلقيوس كريسكونيوس كوريبوس (Flavius Cresconius Corippu) غنية بالمعلومات الأولية شبه الصحيحة والفريدة عن الحروب التي قادها البيزنطيون بزعامة يوحنا ضد الثوار الامازيغ وعن أسماء المشتركين في هذه الحملة والتي حدثت وقائعها في الفترة ما بين سنة 546 و548م، وهي ذات أهمية كبرى من الناحية التاريخية والاجتماعية خصوصا فيما يتعلق بالقبائل الليبية من ناحية توزيعها وتواجدها وتقاليدها الاجتماعية.

Résumé :

Flavius Cresconius Corippus ou Corippe est un poète épique romain, Né dans la province d'Afrique vers 520. Ses deux œuvres principales sont la Johannide (en latin Johannis) et l'Éloge de Justin le Jeune (en latin In laudem Justini minoris).

Il aurait quitté la province d'Afrique pour Constantinople après avoir perdu ses propriétés durant la guerre contre les Maures et contre les Vandales.

La Johannide ou De bellis Libycis, la plus ancienne des deux épopées, ne fut découverte qu'au début du XIX[e] siècle. Répartie en huit livres dont le dernier demeure inachevé, la Johannide contient près de 5000 hexamètres

مقدمة:

إن شعوب بلاد المغرب القديم لم تترك مصادر كتابية كافية تتناول أوضاعها وأحوالها، ولكن هناك مصادر كتابية وأثرية وُردت فيها أسماء عدد من المجموعات القبلية في تعداد شعوب الشمال الإفريقي القديم ما قبل الاحتلال الروماني وقبيل الفتح الإسلامي للمنطقة، وتدلُّ هذه الأسماء على مجموعة قبائل محكومة بروابط التقاليد والعادات ، ويعتبر كتاب الحروب الليبية الرومانية للشاعر الأمازيغي كوريبوس ذو أهمية تاريخية كبيرة في وصف الإطار الجغرافي والبشري والحوادث التاريخية المختلفة التي وقعت زمانه، وهذا ما سأحاول التطرق إليه في هذه الدراسة.

هدف الدراسة:

إن الغرض الأساسي لهذا البحث هو رصد المعلومات والمعطيات التاريخية عن القبائل التي أوردها المؤلف في كتابه، فكثير من الباحثين يعتبرونه اعلم بالقبائل المنتشرة في بلاد المغرب القديم فيما يخص عاداتها، أماكن تواجدها، وسائل حروبها، تقاليدها المعيشية والاجتماعية وبهذا يمكن أن نلمح أي إشارة عن أسماء الأشخاص أو القبائل العربية في هذه المنطقة قبيل الفتح الإسلامي ، كما يمكننا أن نرصد التفاعل الحضاري بين شعوب المشرق والمغرب وكذا شعوب ضفتي البحر المتوسط. وعن الاهداف المرجوة من هذا البحث نذكر ما يلي:

- إبراز أهم العناصر البشرية والتجمعات القبيلة التي كانت سائدة في بلاد المغرب القديم قبيل الفتح الإسلامي بفترة وجيزة (منتصف القرن السادس الميلادي).
- دراسة بعض الأطروحات التاريخية حول الأصول التاريخية لبعض المجتمعات المغاربية ومقارنتها بما أورده هذا المؤلف.
- ضبط الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب القديم واهم التغيرات الاجتماعية التي طرأت على شعوب المنطقة.
- إبراز الصورة التي يجب أن ننطلق منها في دراستنا للمجتمعات المغاربية عبر مصادره المتنوعة كتابية، دينية، أثرية ...الخ

1- لمحة عن الراوي فلقيوس كريسكونيوس كوريبوس:

إن الإسم الكامل للشاعر هو فلقيوس كريسكونيوس كوريبوس(Flavius Cresconius Corippus) ، فلا يعرف مكان ميلاده، لكن من خلال تحليلنا لملحمته يتبين لنا انه كان ريفي المولد والنشأة.

تعلم كوريبوس اللغة اللاتينية وبرع في النحو (grammaticus) ، ووظف براعته هذه في الكتابة والتأليف ليسترزق منها، ومن بين ما ألفه ملحمة الحرب الليبية (de Bellis Libycis) والتي تسمّى أحيانا اليوحانية (Johannis) نسبة إلى بطلها يوحنا، وفي بعض النسخ يطلق عليها اليوحانية الحروب الليبية (Johannis Seu de Bellis Libycis). كما أن الشاعر ألقى قصيدة طويلة في حفلة تتويج الإمبراطور جستين الثاني في 14 نوفمبر 565م ببيزنطه.

إن الأحداث التي عاصرها المؤلف معاصرة ملاحظ كان جاد الملاحظة، وسجلها تسجيلا شبه حرفي، وبهذا يعتبر عمله أهم مصدر يصف القبائل في شمال إفريقيا بعد عملي هيرودوتوس وبروكوبيوس، وهو أعلم بالقبائل

الأمازيغية في خصائصها، عاداتها، أماكن تواجدها، وسائل حروبها، تقاليدها المعيشية والاجتماعية...الخ

في أثناء تجواله في بلاد المغرب التقى كوريبوس مع قائد الحملة البيزنطية يوحنا المرسل من قبل الإمبراطور جستنيان لفرض السيطرة على عموم شمال إفريقيا، ونشأت صداقة منافع بين الاثنين، فالشاعر في حاجة إلى دعم مادي ومعنوي، والقائد في حاجة إلى إعلام يسهل مهمته وعمل أدبي يخلد شهرته، وهكذا تولدت لدى الشاعر فكرة تأليف ملحمة تمجّد الاستقرار الذي ستفرضه السلطة البيزنطية القوية حسب رأيه. وبالرغم من تحيز الشاعر للسلطة البيزنطية إلا أن وطنيته تغلي أحيانا وفي أكثر من موضع ، وهو لا يخفي كرهه للحرب لما تجلبه من فوضى.

2- وصف الكتاب

تتألف الملحمة من ثماني فصول غير مكتملة في بعض فقراتها، تناولت وقائع تاريخية ثابتة وهي الحملة البيزنطية لإعادة استعمار شمال إفريقيا سنة 546م وسنة 548م. وبالرغم من تحيز الشاعر للسلطة البيزنطية إلا أن وطنيته تغلي أحيانا وفي أكثر من موضع.

يعود أقدم مخطوط وجد لهذه الملحمة إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وفي سنة 1820م خرجت أول طبعة له وقام الأستاذ مازوكيللي (P. Mazzuchelli) بإخراج طبعة غير وافية وبدون ملاحظات، علاوة على بعض الأخطاء الجغرافية والبشرية.

وفي سنة 1879م أعيدت طباعة الملحمة مرة أخرى من قبل الأستاذ الألماني بارتش (Partsch)، وفي سنة 1970م أخرجت آخر طبعة منقحة للمخطوط قام بها كل من يعقوب ديل وجوديير (f.r.d. Goodyear) ، والتي ترجمت إلى العربية من قبل الأستاذ محمد الطاهر الجراري سنة 1988م.

بالرغم من التزكيات إلاَ انه يجب التذكير بان الملحمة ليست كلها حقائق تاريخية، بل تحتوي الكثير من المبالغات التي قد تقتضيها أحيانا ضرورات العمل الملحمي كالمزج بالخرافة.

وأسلوب كوريبوس واضح لحد كبير وهو كثير الاستعمال للجمل القصيرة وكثير ما يكرر الأفكار والكلمات فهو مولع بذكر التفاصيل ،كما انه يكثر من استخدام التضاد وبيان التطرف في النقائض (الخير والشر، القوة والضعف، الشجاعة والجبن). ويتضح من اسلوبه تأثره بالشعراء الكلاسيكيين أمثال فرجيل (Virgil) واوفيد (Ovid) ولوكان (Lucan) وكلاوديان (Claudian) وغيرهم من الشعراء الملحميين، غير ان الملاحظ في ملحمته هو غياب آلهة الالبس عن مسرح الأحداث لكون الشاعر مسيحيا لا يؤمن بتلك الآلهة التي كانت سائدة في معتقدات الشرق القديم.

3- الجغرافيا التاريخية والبشرية في شمال إفريقيا من خلال بعض المصادر الكلاسيكية:

تحدد الجغرافيا التاريخية الشمال الإفريقي القديم أو بلاد البربر كما يرد في بعض البحوث من حوض النيل شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ففي هذه المنطقة الجغرافية الواسعة ظهر المجتمع الإفريقي القديم واستمر، فقد أمدتنا المصادر الإغريقية والرومانية والبيزنطية بالكثير من المعلومات حول الجماعات الليبية القديمة التي كانت تعيش في المنطقة المعروفة قديما باسم ليبيا بمعناها الواسع، وقد استقينا معلوماتنا هذه من خلال ما تركه هؤلاء الكتاب من أخبار معظمها كانت خليطاً بين الحقائق والأساطير، وكان على رأس هؤلاء الكتاب (هيرودوت) القرن الخامس قبل الميلاد، و(سكيلاكس) القرن الرابع قبل الميلاد، و(سالوست) القرن الأول قبل الميلاد و(استرابون) و(ديودورس الصقلى) و(بلينى الأكبر) القرن الأول الميلادي، و(بطلميوس الجغرافى) القرن الثاني الميلادي، و(بروكوبيوس القيصرى) و(كوريبوس) القرن السادس الميلادي، فقد رأى (هيرودوت) أن ليبيا تمتد من

حيث تنتهي مصر الغربية. وقد حدد ساحل ليبيا الشمالي بمايلي بحيرة مريوط إلى رأس (سولوجوس) (رأس سبارتل) جنوبي طنجة على المحيط الأطسي[1]. وقد أشار بان المجموعات السكانية التي تقيم على امتداد هذه المنطقة كلها تنتمي إلى أرومة واحدة وهى موزعة على مجموعات من القبائل عدا الأجزاء التي يقيم بها الإغريق والفينيقيين[2]. وقد جعل هيرودوت بحيرة تريتونيس والتي تقع على الأرجح عند خليج قابس الحد الفاصل بين مجموعتين من الليبيين احدهما تعيش إلى الغرب من البحيرة، وتتألف من زراع آلفوا حياة الاستقرار، والأخرى تعيش إلى الشرق من البحيرة وتتألف من بدو رعاة[3]، ونلاحظ أن هيرودوت لم يفرق بين هذه المجموعات الليبية من حيث الجنس وإنما من حيث اختلاف نوع حياة كل منهما عن الأخرى، كما انه ليس لدينا من المصادر التاريخية الكافية التي تثبت بالضبط دخول بلاد المغرب في التاريخ عن وجود كيان سياسي مكتمل الشروط قبل ظهور قرطاجة، ولكن هناك مصادر كتابية وأثرية وُردت فيها أسماء عدد من المجموعات القبلية في تعداد شعوب الشمال الإفريقي القديم ما قبل الاحتلال الروماني، وتدلُّ هذه الأسماء على مجموعة قبائل محكومة بروابط التقاليد والعادات.

كانت القبيلة في اغلب مراحل تاريخ الشمال الإفريقي جسما متحركا وقد أشارت المصادر الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية إلى هذا التوزع، ثم فصَلت فيه بعض المصادر العربية كابن خلدون، ومنه نستنتج بأن ذلك التوزَع قديم ويدل على وشائج القربى بين شعوب الشمال الإفريقي عبر مراحل التاريخ، حيث كانت للقبيلة الواحدة امتدادات في كل الجهات والمناطق، وكانت حركة القبائل أداة للدمج الاجتماعي وهو الوضع الذي كان قائما منذ البدايات الأولى لتكون مجتمع الشمال الإفريقي.

إن النظام القبلي في إفريقيا الشمالية قديم جدا، ففي النصوص اللاتينية والإغريقية إشارات إلى الجماعات القبلية القديمة في هذه المنطقة، ويكون الشمال الإفريقي قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخيه طويلة نتيجة لتراكمات اجتماعية في السلم والتضامن بين أفراد القبيلة فتكونت الأعراف التي تنظم الحياة الاجتماعية بحيث تحولت القبيلة إلى قوة سياسية انبثقت منها الدولة في شكلها الملكي على يد كونفدراليات قبائل كبرى.[4]

كانت الحياة القروية في بلاد المغرب القديم أول شكل من أشكال التجمع السكاني، حيث كان السكان يتمركزون في مواقع تجمع بين وفرة الماء والحصانة الطبيعية، وهي الشروط

الأساسية لتخطيط القرى والمدن في عموم الشمال الإفريقي، وقد لاحظ بلينوس الأكبر أن القرية في إفريقيا الشمالية لا تختلف عن مثيلاتها في باقي بلدان البحر المتوسط[5]، وهذه القرى هي التي أشارت إليها المصادر اللاتينية بعبارة كاستيله (Castella) (القلاع) وهي نواة اغلب مدن إفريقيا الرومانية مثل: تيفست، تالة، تاكاباس، تيجيس، تيبيليس، تيديس، ..الخ ، وفي هذه المدن ظهرت أشكال التمدن الأمازيغي الأول وتطورت الحياة الحضرية بالاحتكاك بالقرطاجيين ثم الرومان، ووجدت في المدن الإفريقية جاليات تجارية بونية ورومانية وإغريقية.

وينبغي أن نتساءل هنا عن خلفية الطروحات الحديثة المتعلقة بقدماء الشمال الإفريقي، والتي تطرح سؤالا نادرا ما تطرحه عندما يتعلق الأمر بأقاليم وجهات أخرى في العالم، وهو من أين قدم قدماء الشمال الإفريقي؛ والواقع أن هذا السؤال الذي راج خلال الفترة الاستعمارية في دوائر استعمارية كان يريد أن يجعل من هذه المنطقة بلدا شاغرا دون شعب، وان الجميع فيه وافدون، وبالتالي

ليس من حق أي احد أن يزعم بأنه أصيل والآخرون دخلاء، وأكثر من ذلك تحول تاريخ الشمال الإفريقي إلى ورشة بحوث عنصرية، ويبدو أن تفكيك حلقات تاريخ الشمال الإفريقي هي الخطوة الثانية في عمل هؤلاء وهي خطوة يراد منها تسهيل مهمة التلفيق والخلط.

4- الأوضاع السياسية في بلاد المغرب القديم خلال القرن السادس الميلادي:

إذا كان طموح يوستينيانوس (Justinien) الراغب في إنشاء إمبراطورية عالمية واسترداد أمجاد الرومان على ما يذكره بعض المؤرخين وراء الحملة[6]، فقد عدت لها عدة ضخمة من حيث عدد الجنود والإمكانيات ، أقلعت الحملة إلى إفريقيا في الثاني والعشرين من جوان سنة 533م بقيادة أحسن قادة الإمبراطورية وهو بليزاريوس[7] الذي عين على رأس ستة عشر ألف محارب بين المشاة والفرسان[8]، ونزلوا في منتصف سبتمبر عند رأس كبوديا (Caput-Valda) في الجنوب من حضر موت (سوسة) بعد ثلاثة أشهر من الإبحار، ورغم أن بعض مساعدي بليزاريوس قد طلبوا منه الإبحار ثانية والتوجه نحو قرطاجة مباشرة غير انه فضل أن يسلك الطريق البري عبر سلقطة (Sellectum) ولمطة (Leptis minors) وسوسة (Hadrumète) وقراس (Grasse).

عندما وصل خبر الإنزال البيزنطي في ساحل رأس كبوديا إلى آخر ملوك الوندال[9]جيليمار (Gelimer) أسرع بالكتابة إلى شقيقه اماتاس في قرطاجة لتجنيد الوندال لمواجهة الزحف البيزنطي، لكن استطاعت قوات يوحنا

الأرميني (Jean l'Arménien) من قهر قوات اماتاس[10]، كما تمكن القائد البيزنطي بليزاريوس من قهر جيليمار ودخول قرطاجة في 14 سبتمبر 533م موبدون قتال.

أما بالنسبة للأهالي فقد التزموا الحياد في الصراع الدائر بين الوندال والبيزنطيين لغرض استنزاف قوة الخصمين، وبعد انتهاء الصراع حتى ثار الأهالي في المزاق التي سيطروا عليها بقيادة كوتزيناس Coutsinas الذي كان على رأس خمسين ألفا من الأهالي، وتمكنوا من إفناء الوحدات البيزنطية التي جاءت لنجدة المنطقة بقيادة ايقانوس (Aigan) وروفانوس (Rufin) ، وهو ما دفع سليمان (Salomon) إلى الإسراع إلى المزاق حيث دارت معركة فقد فيها الأهالي عشرة ألاف مقاتل، وبذلك يكون سليمان قد حقق انتصارا ساحقا على الأهالي.[11]

إن السياسة التي انتهجها الاستعمار الروماني والبيزنطي في شمال إفريقيا باعتماده سياسة القهر والاستغلال في حق الأهالي، وهي السياسة التي ثار ضدها الشعب الإفريقي وتتحول تلك المناطق الهادئة إلى السنة لهب يخرج منها محاربون شرسون نحو المقاطعات الرومانية، ومن بينهم اللواتاي (Levathae) الذين سماهم العرب البتر ثم سموهم بعد ذلك لواته[12]، وهم بدو جمالة بقوا على وثنيتهم يعبدون إلها في شكل ثور يسمى قورزيل (Gurzil) واله الحرب (Sinifère)، خاضوا مقاومة عنيفة ضد البيزنطيين (Byzance) وكانت جمالهم تنفر خيول الفرسان البيزنطيين.[13]

فقد كانت عملية الاسترداد البيزنطي قد جلب الخراب إلى المنطقة فمنذ يوستينيانوس تبدأ الفترة البيزنطية في إفريقيا أما الوقت الذي بدأ فيه الفتح العربي في عهد الإمبراطور كونسطان الثاني (Constant II) سنة 648م أين

شهد تغيرات سوسيولوجية فهناك الأفارقة أو الامازيغ المترومنون في المدن والأرياف وحتى في عمق البلاد أحيانا وهناك المور (Moures)[14] غير المترومنين المنحدرين من قدامى البربر يضاف إليهم قبائل زناتة (Zénètes) ولواته وأشتات الوندال والجهاز العسكري والإداري البيزنطي وهم من الإغريق الشرقيين والسوريين هذا المجتمع أصبح تدريجيا منقسما إلى إمارات محدودة في بلد غير منظم وممزق ومفقر وفي هذه الفترة ظهر الفاتحون العرب.[15]

5- قبائل بلاد المغرب القديم من خلال ملحمة الحرب الليبية الرومانية:

يبتدئ كوريبوس كتابه الأول شاكرا وممتدحا القائد البيزنطي يوحنا على انتصاراته العسكرية قائلا:"إنني أشدو بأغاني لقادة الحرب ورجالها واغني للأمم المتوحشة وللدمار الذي تخلفه الحروب ، إنني اغني للخيانة ولمصرع الرجال وما يلاقونه من عنت ومشقة، إنني اغني للكوارث التي حلت بليبيا وللعدو الذي كسرت شوكته، اغني للجوع والعطش اللذين أوقعا جيشين في اضطراب مميت، إنني أغني للدول التي وقعت فريسة للاضطراب والفوضى وتدهور بها الحال وغلبت على أمرها، وأتغنى بقائد يتوج أعماله بانتصار عظيم[16]...فأنت قادر على معالجة الأمور في ليبيا، هلم بتحريك جيوشك وأعلامك وسارع إلى السفن، وعندما تصل عليك أن ترفع الغبن عن إفريقيا بما عرف عنك من شجاعة، واخضع بسلاحك المتمردين من اللواتيين واجعلهم يحنون أعناقهم الذليلة تحت أقدامنا بشجاعتك..."

ثم يصف لنا مشاهد للخراب الذي حل بليبيا قائلا:"...أخذ القائد يتطلع إلى شاطئ الأرض المحترقة، وشاهد ما خلفته الحرب الغاشمة من دمار ...كان الرماد مخلوطا بالدخان يعلو النجوم ويطلق على قبة السماء رشاشا من

الشرر، وقد شاهد بعينيه لهيب النار يتصاعد ويتأجج ويلف جميع الأشجار في الأرض المحروقة...وكانت المدن في اضطراب وفوضى بعد ذبح أهلها ...."[17]

بهذه العبارات بدأ كوريبوس روايته حول الحملة البيزنطية على إفريقيا لاستعادتها ولإحياء المجد الروماني بها، فقد رسى القائد البيزنطي يوحنا على شواطئ بيزاكيوم (Byzacium) [18] وأرسل رسوله إلى قائد الشعوب اللواتية (Languanta) ليبلغه بالرسالة، فرد قائد الشعوب اللواتية برسالته التي دون فيها:"إن قائد الشعوب اللواتية الضاربة البطل جونفيان انتالاس (Guenfeian Antalas) طلب منا أن نسألك هذا السؤال:أنت يا يوحنا يا من تعرفك العصابات الماسيلية (Massylian) في أيام سليمان (Solomon) [19] الذي كان مصدر خرابنا ومصائبنا ...كم عدد رجالك الذين أفنتهم المعارك فوق الحقول؟...هل تتجاسر الآن على مهاجمة أمم لا تقهر؟ ألست تعرف بأس لواته في الحرب... هل تجرؤ أنت بقوتك الصغيرة التي سيكون الدمار مصيرها عن قريب على مجرد النظر إلى قواتي..."

وبمجرد وصول خبر الإنزال البيزنطي إلى القرى القريبة من الشاطئ الليبي خرج انتالاس (Antalas) أمير المغاربة إلى الحرب وكان يقود قبائله ذو البشرة البرونزية لتقاتل وتحصل على غنائم الحرب، وتبعته قبائل الفريكسيس (Frexes) (ربما قبائل الفراشيش)، وجماعات أخرى تنتمي إليهم بالقرابة، وكانوا جنودا مشاة ومن الفرسان، وتبعتهم قبائل ليبية أخرى كقبائل سينوسديسا (Sinusdisa) وقبائل سيلواكاي (Silvacae) وقبائل النافور (Naffur) بأسلحتها القاسية ثم قبائل سيلكادينيت (Silcadinet) التي أعدت للحرب عدتها وسط الغابات الكثيفة، ثم تبعتهم القبائل التي تقيم بجبال قوربوم[20]

(Gurubum) والأودية وتلال ميركوري (mercury) افيرا (Ifra) بغاباتها الكثيفة، وتولى قيادتها القائد العنيف اوتيلتين[21] (Autiliten).

ثم تبعتهم كل من قبائل سيلوازام (Silvaizam) ومكاريس (Macares) وشيدت أكواخهما ومعسكرهما فوق جبال عالية شديدة الانحدار تكسوها الغابات الكثيفة، وتبعتها قبائل كونس (Caunes) وسلذاكتاي (Silzactea) التي يفصلهما جغرافيا نهر مجردة (Vadara)، ثم لحقت بهم قبائل جبل اقولوموس[22] (Agalummus) وقبائل جبل ماكوبياس[23] لتخوض غمار المعركة.

انتقل خبر الحشد والتعبئة لمواجهة الاجتياح البيزنطي إلى جموع القبائل القريبة والبعيدة من شمال إفريقيا، فسارعت العديد من القبائل إلى إرسال أبنائها لمواجهة قوات يوحنا، حيث سارعت قبائل منطقة ساسكار (Sascar)، ثم جاءت قبائل استريكس (Astrices) وقبائل اناكوتاسور (Anacutasur)، وقبائل سيليانوس (Celiannus) ، وقبائل أماكلاس (Amaclas) التي تعيش في منطقة زيرزيليس[24] (Zersilis) ، وسرعان ما أرسلت منطقة غاليكا (Gallica) رجالها الشرسين، كذلك بعثت منطقتي تيلباريس[25](tillibaris) وتالاكاتيان[26] (talalatean) رجالها لمحاربة البيزنطيين، وتجمعت قبائل لواته (Ilasquas) التي لا حصر لها وملأت قلوب العالم بالرعب (كما وصفها كوريبوس) وهي تزحف للأمام بسرعة وتبعتها قبائل اوستور[27] (Austur) وأطلقتالعنان لخيولها .[28]

ثم جاء جنود قبيلة افورارس (Ifurares) بأسلحتهم المميتة، كذلك فان جماعات من قبيلة الموكتونيان (Muctunian) التي تعيش بنواحي السرت سارعت بدورها إلى المعركة [29] ورافقه قبائل لا حصر لها من جيميني بيترا (Gemini Petra)، ومن قبائل اوراسثانيان[30] (Aurasi Tanian) من مناطقها العالية وكانت تقاتل على ظهور الخيل وكان هؤلاء الفرسان مسلحين برماح ذات نصلين مثبتين في عصى من خشب الصنوبر القوي وغالبا ما كانوا يحمون ظهورهم بدروع قصيرة.[31]

كان الأهالي لا يغطون جنودهم بالدروع أو يربطون إليها سيوفهم كما جرت العادة بل كانوا يربطون سيوفهم بحبال ربطا خفيفا يسمح بان تتدلى أغماد السيوف على سيقانهم العارية، وكانوا يرتدون ألبسة من النسيج الخشن تتدلى من سواعدهم وكانوا يرتدون عباءات من الكتان يلبسونها من خلال رؤوسهم ويربطونها بعقدة محكمة

وبدأت القبائل الليبية تنادي آلهة الحرب لديها سينيفيري (Sinifere) ماستيمان (Mastiman) وينادون قورزيل (Gurzil) ، أما الجنود البيزنطيون فينادون ويدعون المسيح.[32]

بعد فترة من الحروب المتتالية بين الليبيين والبيزنطيين أعلن يوداس (Iaudas) (ملك الاوراس) صيف 535م الحرب على البيزنطيين وتبعه ستوتياس (Stutias) ، وتوجه على رأس ثلاثين ألف مقاتل ووصل حتى حدود التل، وجرت حروب في منطقة ميمبريسا[33] Membressa والتي انتصر فيها القائد البيزنطي بليزاريوس، كما جرت حرب أخرى في اوتينتي[34] (Autenti)

دون أن تتمكن الحاميات البيزنطية من قهر جيش يوداس، فقرر سليمان في أواخر سنة 535م غزو الأوراس بعد أن آمن جانب اورتاياس (Ortaias) ملك الحضنة وماسوناس (Massonas) ، لكن الحملة فشلت بعد أزيد من أسبوع في مخانق الأوراس.[35]

من جانب آخر تحالف سليمان مع زعماء قبائل من ماسترشيان (Mastracian) وانظم إليه بيلاجيوس (Pelagius) الذي كان قائدا لمنطقة طرابلس ضد قبائل ميكاليس (Mecales) المعروفين بخشونتهم لكن البيزنطيين انهزموا شر هزيمة وسقط سليمان مصروعا .[36]

وهنا يذكر الراوي كوريبوس أن هناك من قادة البيزنطيين من انظم إلى صفوف الليبيين في الحرب من بينهم الضابط هيرموجينيس (Hhermogenes) وتاوروس (Tauras) والتي انظمت إليهم ثلة من القوات الرومانية.[37]

التقى زعيم القبائل الليبية جوينفيان انتالاس (Guenfeian Antalas) والقائد يوحنا (John) وجلب الكاهن الليبي أيرنا ثورا كمثال على وجود الإله أمون قرزل(Gurzil) (Ammonian) المقدس، لكن المعركة كانت في صالح البيزنطيين، فقام القائد يوحنا أمام جيشه شاكرا الرب على فوزه بالمعركة التي خاضها ضد الليبيين وقال:" يالها من أمة صلبة تلك التي جثت تحت أقدامكم أيها الرفاق... لم أر في أي مكان آخر حتى في فارس الهمجية أناسا مستعدين للموت عن طيب خاطر ويقدمون رقابهم للذبح وللاصطدام بالعدو مثل هؤلاء الناس.[38]

ويمكن أن نستخلص من هذه الرواية عن الأهمية التي يمثلها الشعب الإفريقي وبلاده لدى الأمم الأخرى، بحيث يحاول هؤلاء في أحسن الحالات استمالة المغاربة وربط الصلة بهم لخدمة مصالحهم بل لنفي الأصالة عنهم فوق أرضهم للوصول إلى محصلة خطيرة وهي أن الجميع في هذه الأرض يكونوا قد هاجروا إليها، ومن خلال ذلك تمرير فكرة حق الجميع في التواجد هنا، وهي فكرة روجت لها جهات معينة لتهميش الشعوب الامازيغية التي عاشت بالمنطقة منذ ما قبل التاريخ ، ولم يكن التاريخ لصالح شعوب المنطقة لأنها كانت في وسط منافسة صعبة بالقوى المجاورة له.

من خلال ما سبق نستنتج أن المجتمع المغاربي ظلت حياته كغيره من مجتمعات الشعوب الأخرى يعتني بتقاليده وعاداته وأعرافه وبُناه الاجتماعية لضمان الانسجام والاستقرار على المستوى الاجتماعي عموما، وكانت الجماعة هي الهيئة الاجتماعية والسياسية الأولى التي أفرزتها الأعراف ومنها انبثقت القيادة السياسية، وكانت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لدى المجتمعات المغاربية تنمو تدريجيا لتشكل كيانا سياسيا كبيرا، ولكن ما كادت تكتمل حتى حل عليه الاستعمار الأجنبي لينهي هذه الزعامة ويحدث تأثيرا على كل الأصعدة.

الهوامش والحواشي :

[1] – مصطفى كمال عبد العليم، **دراسات في تاريخ ليبيا القديم**، بنغازي ، المكتبة الأهلية، 1966 م، ص1.

2- Herodote,**Histoire** (texte etabli et traduit par Ph.E.legrand). éd- Paris ,Les belles Lettre ,1985, ,II,32.

3- Herodote, **Histoire**, IV, 186, 187.

4- عقون محمد العربي، **الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول والهوية**، الرباط، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 166.

5- Pline L'ancien, **Histoire Naturelle**, trad- Ajasson de Grandsagne, Paris, éd- Panckouke, 1829-1833, V,I.

6- Diehl (ch), **L'Afrique byzantine**, **histoire de la domination byzantine en Afrique** (**533-709**), Paris, éd. Leroux, 1896, pp 4,5.

7- بليزاريوس: Belisarius قائد بيزنطي أرسله الإمبراطور جستنيان للقضاء على الوندال.

8- Mercier (cf), **histoire de l'Afrique septentrionale**, Paris, T1, 1888, p157.

9- قبائل الوندال: قبائل جرمانية غزت فرنسا سنة 406م ، ثم اسبانيا بعدها عبروا إفريقيا سنة 429م واستولوا على قرطاجة سنة 439م، واستطاعوا سنة 455م غزو مدينة روما ونهبها، استمرت دولتهم حتى سنة 534م حين قضى عليهم القائد البيزنطي بليزاريوس.

10- Procope, **Guerre des vandales**, trad- Dureau de la Malle dans l'Algérie ou manuel algérien, Paris, éd- Firmin didot, 1852. I, 20.

11- Procopius, II, 11.

12- لواتة: لقد وصلتنا أول إشارة عن قبيلة لواتة عن طريق المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس القيصرى، من خلال كتابه الحروب الوندالية، ونلاحظ أن بروكوبيوس كان يرى بأن المور ولواتة اسمين لمجموعة سكانية واحدة كانت منتشرة فى كل المنطقة الممتدة من طرابلس وحتى تبسة بالجزائر. ونجده يشير إليهم عند حديثه عن المذبحة التى نفذها البيزنطيون فى مدينة لبدة ضد

ثمانون شيخا من أعيان لواتة، ونجده يشير إلى المور على أنهم لواتة عند حديثه عن الحروب التي شنها الليبيون ضد حاكم إفريقيا البيزنطى سليمان، فنجده يتحدث عن المور ولواتة فى طرابلس، والمور ولواتة فى بيزاكيوم (سوسة بتونس) والمور ولواتة فى تبسة بالجزائر. أنظر: عقون محمد العربي ، **الامازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الاصول والهوية**، الرباط، التنوخي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2010 ص 40.

13- عقون محمد العربي ،المرجع السلبق، ص 41.

14- المور: تقع أراضى المور ما بين المحيط الأطلسي فى الغرب، ووادي مولوكا(ملوية) فى الشرق، لقد توالى ذكر المور فى الكثير من المناسبات منذ نهاية القرن الخامس قبل الميلاد وحتى نهاية العصور القديمة ولقد ظل اسم المور حيا حتى العهد. وقد اشار بروكوبيوس إلى المور أيضا فى كتابه الحروب الوندالية عندما تحدث عن القائد الليبى كابا وان الذى انتصر على الوندال. وقد وصفه بروكوبيوس بأنه كان يحكم مور طرابلس التى كانت تعنى فى ذلك الوقت إقليم المدن الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة).

15- عقون محمد العربي ، المرجع السابق، ص 45.

16- فلقيوس كريسكونيوس كوريبوس، **ملحمة الحرب الليبية الرومانية أو مقاومة قبائل المغرب العربي للاستعمار الروماني**،ترجمة، محمد الطاهر الجراري،ليبيا، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، 1989، ص46.

17- نفسه، ص24.

18- منطقة بشمال إفريقيا وكونت جزءا من ممتلكات قرطاجة، ثم أصبحت جزءا من ولاية إفريقيا الرومانية وتضم تقريبا تونس الحالية وغرب ليبيا.

19- سليمان، خلف القائد بليزاريوس في قيادته للجيوش البيزنطية بأفريقيا.

20- ربما هي جبال بتونس الحالية

21- كوريبوس، المصدر نفسه، ص 47.

22- جبال تقع غرب ليبيا، المصدر نفسه، ص 47

23- ربما جبل بني ينس بتونس

24- ربما قبيلة زرزيس بتونس، المصدر نفسه، ص 48.

25- ربما مدينة رمادة بتونس، المصدر نفسه، ص 48.

26- ربما منطقة راس الصين بتونس، المصدر نفسه، ص 48.

27- يحدثنا كوريبوس عن قبيلة الاستوريين، بأنها كانت كثيرة العدد والعدة، وهى معروفة بشجاعتها وتخطيطها للحروب المثقنة للنيل من الأعداء. فهم يقومون بتجميع الإبل في صفوف متماسكة على شكل حواجز ويحفرون الخنادق، ثم يضعون مختلف قطعان الماشية وسط حلقة وذلك لكي يوقعوا بالأعداء في شراك هذه الحواجز، وبالتالي يمكن سحقهم في غمرة من الاضطراب والفوضى التي تنتاب الصفوف في مثل هذه الأحوال.

28- المصدر السابق، ص48.

29- المصدر نفسه، ص 49.

30- قبائل جيميني بيتر وقبائل اوراسثانيان، هي بالجزائر الحالية.

31- المصدر نفسه، ص ص 51 ، 52.

32- المصدر نفسه، ص 107.

33- كانت ضمن ولاية البروقنصل الرومانية ،تظم شرق تونس وغرب ليبيا. المصدر نفسه، ص 75.

34- قرية تقع بين مدينتي تيفيس Thavis وتيفست Theveste – تبسة شرق الجزائر.

35- Procope, II, 13, 17.

36- كوريبوس، المصدر السابق، ص 75.

37- نفسه، ص 86.

38- نفسه، ص123.

اقتصاد الحرب والمغازي وآثاره بالأندلس خلال فترة الفتح والولاة

أ. رابح رمضان – قسم العلوم الانسانية – جامعة الشهيد حمة لخضر – الوادي

الملخص:

يتناول هذا المقال بالدرس، اقتصاد الأندلس المبني على الغزو في صورة غنائم تراوحت بين المنقولة (العينية) والغير منقولة (عقارات وغيرها من الملكيات)، وتمتد فترة الدراسة من سنة 91هـ، باعتبارها بداية إرسال الحملات الاستطلاعية إليها، وتنتهي بسنة 138هـ، باعتبارها السنة الفعلية لانفصال الأندلس نهائيا عن الخلافة العباسية في المشرق، وقد شهدت هذه الفترة اعتمادا شبه كليا على الريع المتمثل في غنائم الحرب، ولئن تراجع هذا الاقتصاد في بعض الفترات بمجرد الفتح في المشرق باعتباره ظرفي ومتوقف على أسلوب الفتح والمناطق التي تم فتحها، فانه في الأندلس بقي مستمرا طيلة ثمانية قرون، وهذا باعتبار الأندلس كانت منطقة ثغرية يحيط بها النصارى المتربصين من الشمال، بل ومن جميع الجهات باعتبار أرضها وحدودها مفتوحة برا وبحرا.

Résumé

Le présent article traite de l'économie de l'Andalousie ,basée et dépendant des conquêtes ,sous formes de butins, constitués de biens corporels et de biens immobiliers(meubles et d'autres biens).

L'étude est consacrée à la période allant de l'an 91 de l'Hégire, date correspondant aux premières compagnes de reconnaissance et s'achève en l'an 138 de l'Hégire ,soit l'année effective de la séparation définitive de l'Andalousie de la califat Abasside, en Orient . Cette période est marquée par une dépendance, presque totale, des butins de guerres.

Si ,en Orient, ce genre d'économie connait des régressions

en certaines périodes, conséquence de conquêtes tomporaires, dépendant du genre même de ces conquêtes et des térritoires conquis ,il n'a pas été le cas pour l'Andalousie ou va-t-il durer huit siècles ,en raison de la situation(géographique) de cette dernière ,étant menacée du nord par les Chrétiens, et ,même de tout coté puisque ces territoires et frontières sont terrestres et maritimes.

مقدمة:

يتناول هذا الموضوع بالدراسة، بنية اقتصاد الأندلس، في الفترة الممتدة من سنة 91هـ، باعتبارها بداية إرسال الحملات الاستطلاعية إليها، وتنتهي بسنة 138هـ باعتبارها السنة الفعلية لانفصال الأندلس نهائيا عن الخلافتين الأموية والعباسية في المشرق، وقد شهدت هذه الفترة اعتمادا شبه كليا على الريع المتمثل في غنائم الحرب، ولئن تراجع هذا الاقتصاد في بعض الفترات بمجرد الفتح في المشرق باعتباره ظرفي ومتوقف على أسلوب الفتح والمناطق التي تم فتحها، فانه في الأندلس بقي مستمرا طيلة ثمانية قرون، وهذا باعتبار الأندلس كانت منطقة ثغرية يحيط بها النصارى المتربصين من الشمال، بل ومن جميع الجهات باعتبار أرضها وحدودها مفتوحة برا وبحرا، والحقيقة ان هذا النوع من الاقتصاد بالرغم من انه ظرفي إلا انه شكل حجر الزاوية لمالية منطقة الأندلس في هذه الفترة، بل وساهم في رفاهية بعض فئات المجتمع الأندلسي بما في ذلك أهل الذمة أنفسهم، إذ كان بعض التجار يترصد مناطق الغزو والمعارك وبؤر التوتر الثغورية ليشتري السبي والتحف المختلفة من الغانمين، بأسعار رخيصة، ليعاد بيعها وتسويقها بأثمان باهظة، بالإضافة إلى عمل اليهود كوسطاء في التواصل بين المسلمين ودار الحرب النصرانية في عمليات تبادل وافتداء الأسرى، وشيء طبيعي أن تكون لهم عمولة في ذلك.

موارد اقتصاد الحرب والمغازي وسماته:

لقد مثلت الحرب وما تدره من أموال وغنائم، مصدرا هاما من مصادر الثروة، وموردا أساسيا من موارد بيت مال إبان عصر الفتح والولاة بالأندلس؛ ولم يكن غريبا بهذه المنطقة المنقطعة عن العالم الإسلامي؛ جمع الأموال من الحرب، إذ غالبا ما كان اقتصاد الفتح الإسلامي، واقتصاد الأندلس على وجه الخصوص مبنيا على اقتصاد الغزو صيفا وشتاءا، وهو الاقتصاد الأقل كلفة والأكثر سهولة من غيره في أحيان كثيرة إذا ما توفرت الإمكانيات المعنوية والبشرية والمادية، وهذا باعتبار الأندلس منطقة ثغرية منذ وصلها الإسلام والى غاية خروج المسلمين منها نهائيا[1].

والذي يهمنا في هذه الدراسة، الموارد التي تأتي من الجهاد مباشرة كالغنائم وغيرها، أو ما يترتب على الغزو بشكل غير مباشر كالضرائب والمصادرات التي تأتي مع الأزمة المالية بنضوب أموال الغنائم، فبعد أن تقسم الغنيمة وفق نصوص الشريعة الإسلامية، يقسم الباقي على المقاتلين بطريقة متفاوتة، تخضع للرتبة العسكرية والحالة الاجتماعية، أو أن يكون الجندي ينتمي إلى فئة الفرسان أو الرجالة، وفي سبيل الحصول على سيولة نقدية يسارع الباقي من المقاتلين إلى بيع نصيبه من الغنيمة[2].

وتتفق معظم نصوص الحوليات التاريخية على أن الأندلس خلال فترة الفتح والولاة، عرفت حركية كبرى شملت المجالات العسكرية والبشرية، فالحرب كانت سجالا بين الأندلس وما يحيط بها من ساكنة، وكانت السمة البارزة للعلاقة بينها وبين جيرانها، وذلك نتيجة اختلال التوازن بينهما إلى درجة أن هذه الحوليات تكاد تكون مجرد جردا لمجريات الوقائع والمعارك والصراعات المسلحة بين الطرفين"[3]. فيتحدث الزهري عن وضعية ساكنة البلاد وما يحدق بها من أخطار، في إشارة شبه صريحة إلى "حركة الاسترداد المبكرة" فيقول:" كل ساكن بالأندلس إنما هو كالآخذ بعنان جواده في سبيل الله وذلك أنهم كانوا يسكنونها على رغم من العدو دمره الله، ولهم من العدو وقائع كل يوم مشهورة وغارات معلومة

للمجاورة التي بينهم"[4]. أما ابن عذارى فوصف الوضع الحرج بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عبارة مقتضبة موجزة وكان اقل اختصارا من سابقه فقال:" والحرب سجال والنفوس آجال"[5]

وفي ظل هذا الجو المضطرب المشحون، فقد تهيأت الظروف لظهور"اقتصاد الحرب والمغازي" الذي يقوم على جمع غنائم الحرب[6]. والغنيمة في اصطلاح الفقهاء المسلمين هي ما تم الاستيلاء عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[7].وهي كذلك المال الذي حصل عليه المسلمون من الكفار بغير قتال ولا ايجاف خيل ولا ركاب[8]، ويقترب من هذا الفهم للفيء الداودي بقوله هو:"ما أرجعه الله إلى المسلمين من مال العدو"[9] واما الفيء فهو: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب[10]. كالخراج والجزية وعشور التجارة وأخماس المعادن والغنائم والركاز. فما كان عنوة كان فيئا للمسلمين الذين شهدوا الفتح يقسم بينهم، ويسمّى غنيمة أيضا[11]. فَكُلُّ هَذَا مِنَ الْفَيْءِ وَهُوَ الَّذِي يَعُمُّ الْمُسْلِمِينَ: غَنِيَّهُمْ وَفَقِيرَهُمْ فَيَكُونُ فِي أَعْطِيَةِ الْمُقَاتِلَةِ، وَأَرْزَاقِ الذُّرِّيَّةِ، وَمَا يَنُوبُ الْإِمَامُ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ بِحُسْنِ النَّظَرِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ[12]. ومن الغنيمة كذلك الأموال الصامتة التي يَأْخُذُ الإِمَامُ خمسها ويقسم باقيها على من حضر القتال، للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم[13].

الغنائم مصدر للثروة أثناء فتح الأندلس:

وتفاديا لعمل سردي يقوم على استعراض الأحداث المتعلقة بسير عمليات الفتح ارتأينا تقسيم هذه المواجهات إلى مجالين اثنين حتى نتمكن من اخذ عينات فقط لوقائع حربية أسفرت عن غنائم تم جمعها وأسرى تم استرقاقهم[14].وعليه فسيكون عندنا موارد داخلية ومداخيل خارجية مع العلم انه تعوزنا الإحصائيات الرقمية الدقيقة لحجم الغنائم العينية في أحيان كثيرة، وما ذكر فهو عبارة عن نصوص انطباعية يغلب عليها الطابع الأدبي(تصف الغنائم أحيانا بالقلة وتارة بالكثرة)[15]. وعموما تتلخص هذه الغنائم في نوعين: الأموال الجاهزة المنقولة؛ والثروات والأصول الثابتة.

أ/ الاموال الجاهزة المنقولة:

حيث وجدت أمام الأندلسيين ثروات جاهزة تجلت في ما غنموه واستحوذوا عليه من المناطق الاسبانية بالقوة مثل كميات الذهب وتحف الكنائس وقصور ملوك القوط بالأندلس، كما أن معظم الغارات الخارجية ضد النصارى كان يرافقها كثرة السبي والرقيق[16].حتى غدا هذا السبي من أهم المداخيل الأندلسية، فكان قسما منه يوزع على أهل الرباط والفرسان[17]. أما الأسرى من النصارى فيحدث أحياناً أن يدعوهم الإمام للإسلام فإذا أسلموا صيرهم في جملة غلمانه ومواليه[18]، وفي أحيان أخرى يتم قتل الأسرى في المعسكر أمام الإمام[19]، كما يتم إعطاء بعضهم لبعض الأسر المسلمة ليفادوا بهم أسراهم الذين وقعوا في أيدي النصارى[20].وهذا ما يؤكده احد الباحثين حيث يقول:" فقد كان مصير أسرى الحروب في معظمهم يؤول إما إلى الموت أو "الاسترقاق" في حين كان الفداء مقابل أسرى مسلمين أو مقابل مال استثناءا"[21]. ويضاف إلى هذا ذلك السبي الداخلي الذي عرفته بلاد الأندلس أيضا والمتعلق بالحروب الطائفية والقبلية، التي تخص حركات الثورة والعصيان التي تندلع بين الفينة والأخرى في وجه السلطة المركزية القائمة الممثلة في الأمراء والولاة[22].

وعن حجم وكثرة الغنائم تشير النصوص التاريخية إلى أن موسى بن نصير[23] لما بعث طريفا بن مالك سنة 91هـ نزل بجزيرة طريف الأندلسية؛ فأغار منها على الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا، ورجع سالما[24]، كما انتهز طارق الفرصة وجاز إلى الأندلس 92هـ، فهزم لذريق بفحص شريش فنفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم[25]. ويذكر الرقيق أن طارق لما فتح طليطلة أصاب فيها جميع كنوزها وأموالها وغنم منها من الجوهر ما لا يحد له قيمة وكذلك مائدة سليمان ونهض بجميع ما معه من الجواهر والأموال[26]. أما قرطبة فأصاب فيها من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة ما لم يجتمع مثله قط وأصاب من الحرير والديباج والنساء والذراري ما لا يحصى ولا يعد، وكان الذي أصابه طارق

ومن معه من السبي عشرة آلاف رأس، وكان سهمانهم من الذهب والفضة لكل واحد من الرجال مائتا دينار وخمسون ديناراً[27].

ومن المفيد الانتباه إلى أن حملة طارق بن زياد النفزي، قد حظيت بتأييد ومساندة عامة أهل البلد من اليهود والنصارى وبعض الأسر الملكية القوطية الذين استقبلوا طلائعه باعتبارها منقذة لهم من جور طغمة عسكرية متسلطة على الرقاب الممثلة في نظام لذريق العسكري، لذلك فعلى اثر معركة وادي لكة الفاصلة، توغلت قوى طارق بن زياد داخل شبه الجزيرة فيما يشبه نزهة عسكرية في اتجاه حاضرة طليطلة التي سقطت بدون كبير عناء. وعليه فبقدر ما كان اندماج بلاد المغرب في دار الإسلام عسيرا، إذ استغرقت الفتوحات ما ينيف عن نصف قرن من الحروب والمواجهات الدموية انتظمت الأندلس في بضعة شهور ضمن ولاية بلاد المغرب في إطار خلافة دمشق الأموية بفضل حكمة طارق بن زياد وعدله[28].

إلا أن موسى بن نصير سرعان ما هب مسرعا إلى الأندلس ليتفرغ بعدئذ للسبي والغنائم ومراجعة العهود والمواثيق التي أعطاها طارق لأهل البلد[29]. وقد ذكرت المصادر التاريخية الغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان(ص) التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقُليلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة، وغيرهما من طرائف الذخائر[30]. وبذلك فقد حمل موسى الذهب والفضة والجوهر والمتاع ونفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ومن أشراف السبي عدد عظيم، فكانت وسق 114 عجلة تبدل عليها الأزواج كل مرحلة[31]. ولقد وصف ابن قتيبة الأموال التي جمعها موسى بن نصير وعاد بها معه عندما قرر العودة وصفا دقيقا حيث يقول:" وخرج معه بأصناف ما في البلد من بزها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى فاقبل يجر الدنيا وراءه جرا لم يسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به"[32]، وقد استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس: بل هناك رواية أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط، ألبسهم أفخر الثياب، وسار بهم في موكبه، ليدلّ على

عظم الفتح الذي تم على يديه[33]. فكان منهم ملك قلعة أوساف، وملك ميورقة ومنورقة[34]. وكان من جملة السبي ثلاثون ألف فارس[35]. ولما وصل مصر سنة 95هـ، لم يبق بها شريف إلاّ وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً، وأهدى لولد عبد العزيز بن مروان فأكثر لهم[36].

ب/ الثروات والأصول الثابتة:

وهي الأراضي والملكيات العقارية التي استولى عليها العرب والبربر بالأندلس عنوة، مثل الأراضي السهلية الخصبة والمراعي الواقعة في جنوب الأندلس وغربه، مع العلم ان هذه الملكيات يندرج تحتها الغلات والحقول والبساتين وما تحويه[37]، وسوف يقتصر حديثنا هنا حول مسألة الأراضي والملكيات العقارية التي حازوها من خلال عملية الفتح.

فبادئ ذي بدء يلاحظ في فترة الفتح انه تم الاستحواذ على أراض واسعة بالأندلس حيث تطالعنا المصادر التاريخية عن مقدار هذه الأراضي في إشارتهم إلى طريقة فتح المدن، وان في اغلبها تم فتحها عنوة، فذكر ابن حبيب في سياق تقييم وتقويم الوضع العقاري العام، أن الأندلس" أكثرها افتتح عنوة "، كما ذكر محمد بن مزين أن موسى بن نصير قد قسم مجموع ما افتتح من ارض الأندلس على الجند باستثناء شنترين وقلنبرية ووشقة[38].

فموسى بن نصير الذي خرج إلى الأندلس سنة 93هـ في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر[39]، نزل بالجزيرة وبدأ زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة عنوة[40]، ثم سار إلى قَرْمونة وإشبيلية، فاستولى عليهما، ثم ماردة التي انتهت بالتسليم، إذ صالح أهلها على أنّ " جميع أموال القتلى والهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها غنيمة للمسلمين ودية لمن قتل منهم[41]. ثم تقدم إلى سرقسطة فافتتحها، فأصاب فيها ما لا يعرف قدر، وجاءه أهل جليقية يطلبون الصلح فصالحهم، وفتح بلاد البشكنش؛ وتمّم موسى الفتح وتوغل إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة في الجوف وصنم قادس في الغرب، ودوّخ أقطارها

وجمع غنائمها[42]. وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ففتحت تباعا بعد حصار قليل، وفر سكان مالقة إلى الجبال[43].

بهذا يتبين أن أراضي الشمال الإسباني الواقعة شمالي نهر الوادي الكبير، معظمها قد فتح صلحاً[44]، ما عدا بعض المدن الواقعة على البحر قاومت الفتح، وارتضوا دفع الجزية، عكس ما رأيناه في جنوبي الأندلس حيث بذل الفاتحون طاقات كبيرة في فتح مدنه، وبقي موسى بن نصير أكثر من عام يفتح أو يعيد فتح المدن في جنوبي الأندلس عنوة، وهذا يعود إلى كون المناطق الشمالية كانت جبلية مجدبة في عمومها مقارنة بالمناطق الجنوبية الخصبة وبالتالي ملكياتها أوسع وأثمن من مناطق الشمال والدفاع عنها سيكون مستميت[45]، وبعد الاستحواذ عليها وزعت على المحاربين وأعطيت لهم سجلات بتمليكها[46]. وقد فضل غالبية جنود طارق وموسى البقاء في المدن والأرياف المفتوحة، حيث استقروا وأقاموا منازلهم' والى ذلك يشير المقري بقوله: "وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين"[47].

وكما هو معلوم أن بعض الفاتحين للأندلس سواء عربا أو بربر كانوا يعيشون في بيئة بدوية قائمة على النظام القبلي المؤسس على موارد اقتصادية غير ثابتة، مما يجعل من "نظام الإغارة على الغير أمرا مألوفا" وهذا ما حتم عليهم – بالإضافة إلى هدف نشر الإسلام من وراء الجهاد– توفير الغنائم لتسيير دواليب الدولة. وبإلقاء نظرة فاحصة على القبائل العربية الداخلة إلى الأندلس والتي رافقت حملة موسى بن نصير، والمنتشرة بين مختلف مناطقه، نجدهم يتألفون من القبائل اليمنية، مع قلة تنتمي إلى عشائر أخرى من مضر وربيعة. وقد كان انتشارهم واستقرارهم بالأندلس يخضع للقواعد القبيلة؛ وكان من هؤلاء أسر معروفة من الأوس والخزرج، استقروا بمنطقة سرقسطة، وشذونة، كما استقروا بقرطبة وقبرة، جنوب غربي قرطبة ووادي الحجارة[48]. وتركز الأزد في منطقة تدمير واشبيلية، وغرناطة، وجيان[49]. أما رجال قبيلة غافق، فقد استقروا على طول الطريق التي سلكتها حملة موسى بن نصير، مثل الجزيرة الخضراء، وشذونة في

الجنوب، وسرقسطة في الشمال الشرقي. واشبيلية، وشمال قرطبة وإلى حد ما في طليطلة والبيرة. وكان إقليم الشرف الخصيب، الذي يقع إلى الغرب من اشبيلية، موطناً للعديد من الغافقيين. وبقرية الملاّحة بغرناطة المشتهرة بالملح[50].

ونجد من القبائل اليمنية الأخرى كعشيرة معافر، التي استقرت بالجزيرة الخضراء وحصن قرطاجنة. وجنوب إشبيلية[51]. كما أصبح الموطن الرئيس لعشيرة تجيب، منطقة الثغر الأعلى، كسرقسطة، وقلعة أيوب.ووشقة[52]. وتعد عشيرة بليّ من العشائر قضاعة البلديين. واستقرت بفحص البلوط غربي قرطبة، الذي كان يشتهر بموارده الغنية بالبلوط والزئبق[53]. وكان بعض زعماء قريش من أهم المضريين الذين رافقوا موسى بن نصير، وينتمي هؤلاء إلى فهر بالبيرة وقرطبة واشبيلية[54]، أما بنو زهرة، فبباجة وبطليوس، واشبيلية. وسرقسطة[55].

وفي الحقيقة تختلف الروايات في الإجراءات التي اتخذها موسى بن نصير لتقسيم الأراضي المفتوحة في الأندلس، فمنها ما يؤيد أنه قسم البلاد بعد اكتمال الفتح، فاحتفظ بحصة الخلافة من الخمس، ووزع الباقي بين جنوده، كما خصص العديد من السبي ليزرعوا أراضي الخمس ويبقوا فيها، على أن يدفعوا ثلث محصولهم للمسلمين، وأصبحوا يُسمون بالأخماس، وعُرف أبناؤهم ببني الأخماس[56].

وإن فيما ذكر ما يدل على انه شرع في توزيع الأموال غير المنقولة وتقسيم الأراضي معاملة الغنيمة[57].وإن جميع الأراضي الأخرى التي وقعت بيد المسلمين سواء منها المفتوحة عنوة، أو الخالية التي هرب منها أصحابها من النبلاء ورجال الكنيسة. فتقاسمه الفاتحون على أساس نزول كل قوم فيما طاب لهم من الأرض[58]. ولم يخف الرازي اعتماد معيار القوة والغلبة أثناء إجراء التقسيم المذكور بقوله في عبارة مقتضبة دالة:" لما فتح المسلمون الأندلس اخذ القوي بقوته والضعيف بضعفه ولم تنقسم على الحقيقة"[59]. وحسب احد الباحثين فان موسى:" وضع أصناف الوظائف والمستحقات على أرباب الأرض والمستغلات من عامة الفلاحين وفقراء الناس، وركن في ذلك إلى معيار القوة والغلبة نابذا

الأحكام الشرعية المتعارفة بخصوص وضعية الأرض"[60]. وقد أكد ذلك ابن حزم بقوله:" هذا ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة توجب العلم الضروري في أن الأندلس لم تخمس كما فعل رسول الله (ص) فيما افتتح، ولا استطيبت أنفس الفاتحين وأقرت لجميع المسلمين، كما فعل عمر بن الخطاب فيما فتح، ولكن نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت"[61].

ولا تعوزنا القرائن الكاشفة عن أراضي العنوة التي عوملت معاملة الغنيمة. فتعرضت للتخميس بعدد من مناطق الأندلس. فقد ذكر الغساني استمرار" أموال الأخماس بالأندلس معمورة مدة الأمراء فيها تعمر بأسمائهم إلى أن ثار الرؤساء في كل جهة"[62]. وحسبما يتضح كذلك من خلال المعلومات الضافية التي يقدمها ابن القوطية وابن خلدون، من تعرض قرطبة للتخميس وحصول البطاح التي بقبلتها ضمن أراضي الأخماس[63]. ورغم أن موسى بن نصير قد تحقق على يديه نصرا ماديا ومعنويا كبيرا للمسلمين وجمع غنائم لم يسمع بمثلها في الإسلام، إلا انه لم يقنع بذلك وهمَّ حسب ابن خلدون بالقفول إلى دمشق من ناحية أوربا" فأجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانيّة مجاهدا فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة"[64].

ولكن رغم هذا الكم الهائل من الأموال والملكيات التي تم الاستحواذ عليها، إلا أن احتكارها وعدم توظيفها وتنميتها في المشاريع الاستثمارية المنتجة وتحريك عجلة التنمية سواء الزراعية أو الصناعية (كما فعل عمر بن الخطاب بالسواد)افقد هذه الأموال المكتسبة قيمتها[65]، بل تم توظيفها في عمليات استهلاكية ترفية، وبذلك لم تظهر تنمية الأموال واستثمارها إلا في أوقات متأخرة من تاريخها،- وذلك ربما يرجع لعدم وجود خبرة مسبقة راسخة في الصناعة والزراعة لدى العرب والبربر- ولغلبة الطابع البدوي على أكثرهم، ولذلك فقد لاحظ ابن خلدون "أن سكان البادية منهمكون غالبا في تحصيل "الضروري من العيش، واجتماعهم وتعاونهم في حاجتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن

والدفاءة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة"، ولذلك فهم يتنازعون دوما على مواطن الرزق، ولا يجدون حرجا في الاعتداء على الأموال والممتلكات أحيانا، "فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه". فيتضح إذن أن بيئة البداوة وما تفرزه من نظام قبلي يعزز نظام الغارة أكثر، ويجعلها نظاما مألوفا" غير خارج عن العرف والقانون" وحسبنا أن كثير من رجال هذه القبائل سواء العربية أو البربرية اعتمدوا في معاشهم على اقتصاد بدوي يقوم على الرعي والترحال وبعض المبادلات التجارية المعتمدة على المقايضة، ولا غرو فقد كانوا "لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا وإنما أموالهم الأنعام" "ويتنقلون من ماء إلى ماء كالعرب".

وفي ظل سيادة البنى القبلية القديمة لدى كل من العرب والبربر، القائمة على الإحساس بضرورة تأمين موارد العيش للبقاء والاستمرارية في بيئة تتميز بعدم ثبات مناخها، مع غياب شبه تام للسلطة المركزية وانعدام كلي للأسوار والحصون، فان البدو يلجؤون في بحثهم عن القوت إلى القيام بغارات للحصول على المغانم التي تضمن لهم العيش "فتكون أرزاقهم في ظلال رماحهم"[66] فالقبائل المغاربية كانت في السابق تعيش من الغزو، لكن مع الفتح استلبت منها هذه الوسيلة لصالح الفاتحين العرب، وبذلك فقد شكلت ثروة الأندلس المادية(المغانم) عنصرا أساسيا في انتقال وهجرة بعض الأفراد والقبائل من بلاد المشرق والمغرب نحو الأندلس الخصيب في البداية، ثم كانت هناك حركة ثانية من جنوب الأندلس الغني إلى شماله المقفر بغرض الرباط هناك، ومن اجل المغانم المغرية بمختلف مناطق الأندلس أبان فترة الفتح ثم الولاة.

وما يلاحظ هنا كذلك، هو استمرارية تدفق الهجرة العربية إلى الأندلس رغم بعدها وطول المسافة بينها وبين المشرق[67]، ويبدو أن عملية اصطحاب الأتباع، في أي تعيين لقائد جند جديد أو والٍ إلى الأندلس، فأصبحت خطة ثابتة خلال عصر الولاة[68]، وما يدل على ذلك هو ارتفاع نسبة المهاجرين، إذ ارتفع عدد الجند من 12الف دخلوا مع طارق[69] إلى أكثر من 50الف مع عبد الرحمن الغافقي حسب الرواية العربية –والى أكثر من 300الف حسب الرواية

المسيحية-، ليتجاوز هذا العدد 120الف في المعركة التي جرت بين البلديين والشاميين سنة 124هـ[70]، وما يدل على هذه الهجرة كذلك هو الإشارات إلى اكتضاض المراكز الحضرية مثل قرطبة، وضيق المساجد بالمصلين مما اضطرهم إلى توسيعها وترحيل جزء من الجند العرب الشاميين، إلى مختلف مناطق الأندلس المجاورة[71]، فجرى توزيع الشاميين واستقرارهم في الأندلس حسبما أفاد به الكثير من المؤرخين على غرار تجمعاتهم السابقة في بلاد الشام، أي نظام الجند[72]. وهذا كله على حساب الأراضي العامة المتمثلة في الخمس وبعض ممتلكات أهل الذمة، وكانت النتيجة في الأخير هي نضوب الملكيات العامة وتحولها إلى ملكيات خاصة عن طريق الإقطاع.

وبالتالي فالغزو شكل حجر الزاوية في النظام الاقتصادي للأندلس مع بداية الاستقرار فيها. والذي تشكل الغنيمة والأسلاب أهم موارده بالنسبة للأفراد وكذا دولة الخلافة[73]، فوفرت هذه الغنائم في جملتها موردا هاما لخزينة الدولة ضمنت لها القوة والاستمرارية الى حين. ولكن الخطر الذي كان يهدد هذه القوة هو توقف عمليات الجهاد. فكما هو مقرر ان نيات هؤلاء الفاتحين الذين انتقلوا الى الأندلس كانت مختلفة، بحيث منهم فعلا من انتقل بنية المرابطة في الثغور للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، والبعض ذهب طمعا في الأسلاب، والبعض الآخر فر هاربا من الحرب المستعرة في المشرق بين مختلف عصبياته ومذاهبه؛ وهذا ما يجعل من الغزو مهدد بالتوقف في أي لحظة، هذا إذا ما أضفنا مشكل آخر ظهر بالأندلس وهو غياب شبه كلي لسلطة الدولة المركزية في ضبط ومراقبة المنطقة عن كثب، والأندلس خلال هذه الفترة كانت فعلا تعاني من فراغ للسلطة المركزية نظرا لبعد الأندلس عن مركز العاصمة دمشق، وزادت هشاشة هذه السلطة أكثر مع ابتعاد العاصمة إلى العراق في ظل الدولة العباسية، ويلخص ابن عذارى شغور السلطة المركزية في بلاد المغرب عموما بقوله:"وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه"[74].

فترة الولاة و بوادر الالتجاء الى الموارد غير الشرعية:

لقد كانت الدول المغاربية الوسيطية عموما أكثر جنوحا نحو الغزو سواء داخليا أو خارجيا، الأمر الذي كان يتطلب سيولة مالية باستمرار لتدعيم نفقات هذه الحرب، لذلك غالبا ما كان الاستغلال الجبائي يتصدر قائمة الموارد التي يقوم عليها نظام المغازي، لتأتي بعد ذلك المصادرات للأراضي والملكيات المختلفة، وبالأخص عندما تتضاءل عمليات الجهاد وتقل مداخيل الغنائم، فيلجأ الحاكم آنذاك إلى تعويض النقص بابتداع ضرائب جديدة، في أغلبها غير شرعية لتدعيم مشاريعه الحربية ضمانا لاستمرارية سيولة الغنائم آو لتعويض النقص الحاصل نتيجة النفقات الأمنية الباهضة، وتراجع مردود عمليات الغزو التي تحولت إلى مجرد حروب دفاعية بعد أن كانت حروبا "توسعية" ضمنت لبيت المال فائضا مهما في بعض الفترات، وتم بذلك إفراغ بيت المال بالأندلس بعد توقف الفتوحات مما تسبب في ظهور الصراعات والنزاعات الداخلية، فاحتاج الأمر إلى مزيد من الأموال لإطفاء نار الفتنة[75].

ويستشف من تتبع النصوص التاريخية أن تقاليد الحرب استمرت فعلا في أسلوب التعامل مع الآخر في فترة عصر الولاة بالأندلس، وبعبارة أخرى فقد تأرجحت علاقة الدولة المركزية مع الأطراف –داخليا وخارجيا– بين الرضوخ مقابل دفع إتاوة سنوية معلومة قد تختلف من منطقة إلى أخرى حسبما تمليه ظروف الاتفاق؛ فبالرغم من ظهور الفتن والمشاكل الداخلية بالأندلس، إلا أن آلة الحرب باتجاه النصارى لم تتوقف، ويحدثنا ابن خلدون عن تواصل هذه الاشتباكات قائلا: "وأثخنوا في أمم الكفر وافتتحوا برشلونة، وحصون قشتالة وبسائطها، وانقرضت أمم القوط، ولجأ الجلالقة إلى جبال قشتالة وأربونة، فتحصّنوا بها، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة، حتى احتلّوا بسائط وراءها، وتوغّلوا في بلاد الفرنجة وعصف ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة[76]، ويضيف المقري أن والي الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي سار نحو

الشمال، في جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية، في بلاد الفرنجة ونواحي أربونة، فاخترق ولاية سبتمانيا وافتتحها في سنة (99هـ) [77]، ووصل إلى نهر الجارون. فسبى وغنم وقفل بالأسرى والغنائم[78]. وهناك رواية مسيحية تشير إلى أن الحر، قد توغل عبر جبال البرتات وافتتح أربونة[79].

ومن الجدير بالذكر أن المعارك التي كان المسلمون يخوضونها في الأندلس لم تكن مع نصارى الشمال في ليون وقشتالة وحسب... بل كانت تتجاوزها إلى مناطق في أعمال بلاد الغال(فرنسا) وايطاليا وبريطانيا وغيرها وان في كثرة الغنائم التي كانوا يجمعونها ما يدل على أن الأمر كان أعظم مما تستطيعه بلاد الجلالقة الجبلية القاحلة[80]. ودليلنا ما قام به الوالي الجديد عبد الرحمن بن عبد الله العكّيّ حينما غزا إفرنجة، وهم أقاصي عدوّ الأندلس فظفر وغنم غنائم كثيرة[81]. كما انه لما ولي عبد الرحمن الغافقي على الأندلس، وحد صفوف العرب والبربر، وانطلق ليستكمل الفتوح، ففتح أقصى غرب فرنسا فوصل إلى بواتييه[82]، وهذا رغم انطلاق بعض أفراد جيشه مكرهين، بسبب تعلقهم بالغنائم الكثيرة التي غنموها، وافتتانهم بتلك الأموال الضخمة التي حصلوها من مختلف مناطق فرنسا، فعادت العصبيات القبلية العنصرية للظهور بين العرب والبربر من جديد، بسبب الغنائم الكثيرة التي لم توزع. واجتمعت العصبية، وحب الغنائم والخوف عليها، والاعتداد بالعدد الضخم[83]. ولما اضطربت شؤون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقي وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (114هـ)، شغل الولاة برد جيوش الفرنج والجلالقة، وعانى المسلمون من عيث النصارى. وسار الوالي الجديد للأندلس عقبة بن الحجاج السلولي في سنة 116هـ، إلى غزو العصابات الجليقية واستولى على بعض مواقعها. ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب بين مختلف الزعماء والقبائل، ازداد النصارى جرأة وعيثاً في أراضي المسلمين، بقيادة "بلايو" بداخل وخارج الأندلس، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها، ويهرع النصارى إلى لواء بلايو من مختلف الأنحاء.

وتتعدد إشارات المصادر إلى الموارد المالية الجديدة المرتبطة بتوقف عمليات الغزو؛ فقد ظهرت بجلاء قبيل الثورات البربرية ببلاد المغرب والأندلس، وخير دليل على ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية من تصرفات الولاة في المنطقتين، وبتشجيع من الخلفاء الذين غضوا الطرف في البداية عن بعض الانتهاكات والتجاوزات، فلما استقرّ محمد بن يزيد بإفريقية بأمر من سليمان الذي أوصاه بأخذ أهل موسى وولده وكل من تلبّس به، واستئصال أموالهم وتعذيبهم، حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار[84]. وفي سنة 101هـ ولي الخلافة يزيد ابن عبد الملك فولى على أفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف وصاحب شرطته. وكان ظلوماً غشوماً وكان البربر يخشونه[85].

كما تمت إعادة النظر في ملكيات أهل الذمة وتوزيعها من جديد خلافا للعقود المبرمة مع فترة الفتح، فقد ذكر احد الباحثين ان ولاية مرسية (تدمير)، بعد وفاة صاحبها "تيودمير"، خلفه في حكمها ولده "أتاناجلد". فاعتبر بذلك أبو الخطار أن نص المعاهدة كان قصرا على والده، وأنه لا يسري على خلفائه، وطالب الابن بتأدية الجزية لقرطبة، وأنزل جند مصر قسرا بقواعد تدمير، وأقطعهم أراضيها، وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم. وضمت تدمير إلى باقي ولايات الأندلس[86].كما يذكر ابن عذاري:" إن الخلفاء بالمشرق كانوا يستحبون طرائف المغرب ويبعثون بها إلى عمّال إفريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فأضطر إلى التعسف وسوء السيرة فحينئذ عدت البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب. وبذلك فقد تعدى في الصدفات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد عليه"[87]، وظهور ثورات البربر سنة 122هـ بالمغرب وسنة 124هـ بالأندلس، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى قتل العدد الكبير من المسلمين.

ويرجع غض الطرف من قبل الخلافة عن هذه الانتهاكات، اما بسبب خوف الخلفاء من محاسبة الولاة وبالتالي فقدان ولاءهم، او لرغبة الخلافة نفسها في تلك الأموال الضخمة التي ستسد بها العديد من الفجوات المالية لنفقاتها الواسعة والمتصاعدة (كنفقات الخلفاء المترفة، وسد العجز الحاصل في ميزان المدفوعات نظرا لتوقف الفتوحات وشح مصادر الأموال في عديد من مناطق الدولة الإسلامية، ولصد الحركات الانفصالية الاستقلالية[88]. كما كانت الأسباب الأمنية والعجز في احتواء الحركات الانفصالية الطائفية، والأزمة المالية في كثير من الأحيان هي التي أجبرت الخلفاء، على عزل الولاة وتعيين آخرين، إذ كان هذا الإجراء يتم غالبا اثر استنزاف بيت المال وتصاعد الفتن والثورات، ولذلك كان يتوجب على الوالي الجديد استحداث مصادر مالية جديدة ومتنوعة من المغانم وغير المغانم، وإيجاد حلول فورية لإخماد بؤر التوتر بجميع الوسائل، مباشرة بعد تعيينه على رأس الولاية؛ وإلا فسيكون مصيره مثل مصير سابقه من العزل والتوبيخ.

وقد ربط ابن خلدون بين قلة الجبايي في المرحلة الأخيرة من عمر دول العصر الوسيط وحاجة الحاكم الى الزيادة في الضرائب لتحقيق التوازن وتغطية مستلزمات الملك من أبهة وترف وإنفاق على الجند، وهو ما سيظهر وينعكس سلبا وبشكل مباشر على فترة الولاة بعد ذلك، فالحرّ بن عبد الرحمن القيسى رغم انه كان صارماً جائراً شديد الوطأة. إلا انه قام بتوطيد الأمن وقمع الفتن والمنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر، وأصلح الجيش، وطارد الخوارج والمعتدين من الجند[89]، ثم عاد النظام الداخلي بقرطبة للاضطراب، وعادت المنازعات تعمل عملها، في تقويض الأمن والسكينة، فأنفق الحر حينا آخر في قمع الفتنة، حتى عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز، لقسوته وصرامته، واضطراب النظام عليه، فسادت في ولايته القلاقل[90].

وعلاوة على الضرائب التي ابتدعها الحاكم سعيا إلى تدعيم بيت المال وتوفير السيولة اللازمة للحروب ثمة أعباء أخرى فرضت على الرعية، وتأتي الهدايا

التي يبعث بها الولاة للخلفاء من ضمن الأعباء التي فرضها اقتصاد المغازي، وهو ما يعني أن السكان كانوا يقدمون أموالا في صورة ضرائب أو هدايا إلى الوالي ليقدمها بدوره إلى الخليفة. وكان الهدف منها توفير فائض لبيت المال حتى تتمكن الدولة من انجاز مشاريعها العسكرية[91]. وخير مثال على ذلك طريقة إعادة تعيين بشر بن صفوان واليا على بلاد المغرب الإسلامي، فيذكر ابن عبد الحكم قائلا :"ثم وفد بشر بن صفوان بهدايا إلى هشام بن عبد الملك فردّه على إفريقية. وتتبّع بشر بعدها أموال موسى بن نصير، وعذّب عمّاله، فولّى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي، وعزل عنها الحرّ بن عبد الرحمن"[92].

وهكذا يتضح أن الخلافة والولاة كانوا يجنحون إلى فرض الضرائب اللاشرعية لانجاز المشاريع العسكرية التي رغم أهميتها فإنها غير منتجة للثروة بشكل مباشر. فضلا عن تخصيص جزء منها لتنفقه في الكماليات بدليل الإشارات إلى بناء بعض الدور وربما حتى القصور، فيذكر ابن القوطية أن:" الصميل بن حاتم كان يمتلك داراً كبيرة وتقع خلف هذه الدار عقدة الزيتون المشهورة التي تضم مائة ألف شجرة، وكانت أمواله كثيرة[93]. وهناك قناة عامر المنسوبة إلى عامر بن عدي من أشراف بني عبد الدار بالأندلس وتقع غربي قرطبة[94]. وهناك الضياع الواسعة التي تضم القصور الكبيرة والتي تسمى بالبلاط مثل: بلاط مغيث الرومي وبلاط الحر[95]، وكان أبو عثمان شيخ موالي بني أمية بالأندلس يمتلك إقطاعاً كبيراً بقرية طُرش من كورة قرطبة[96]. وهذا ما تمخض عنه أزمة مالية خانقة جعلت الدولة توسع دائرة الابتزاز الاقتصادي في محاولة لتجاوز العجز الذي أصبح ينخرها، وتوفير الرصيد الذي يضمن لها الاستمرارية في مشاريعها العسكرية. وغالبا ما كانت تسعى إلى فرض ضرائب ومكوس مجحفة على الرعية.

ويفهم من انبهار وتعجب رواة أحداث فتح الأندلس، بالأسلاب والمغانم التي حصلت من هذه المنطقة، فيعددون ويصفون حجم هذه الأموال وكيف وزعت وحملت إلى المشرق، كما يستشف من عدم وجود إشارات المصادر

التاريخية إلى المشاريع الاستثمارية المدرّة للدخل كالزراعة والصناعة والتجارة في هذه الفترة من تاريخ الأندلس، عدم اهتمام الفاتحين ثم الولاة بالقطاعات الإنتاجية، بل ما يظهر فقد هو الاستحواذ والارتماء على ملكيات الغير، وهذا ما يشعر بعدم اهتمام أمراء الأندلس بالمصلحة للدولة، بقدر اهتمام كل فرد بما حصل من غنائم وكيف أنفقها وتصرف فيها بشكل فردي، فكان جل تركيزهم على إيجاد مناطق نفوذ لهم وللقبائل الموالية لهم ذات الشوكة والعصبية، لحمايته من أعدائه في الداخل مقابل بعض الامتيازات لزعيم القبيلة وأفرادها. وما ذكرناه في الصفحات السابقة ما يكفي ليقوم دليلا على انتهاج سياسة تقوم على الضرائب والمصادرات التي هيجت بدورها المجتمع الإسلامي في هذه المنطقة النائية. وسنرى أن ذلك لم يحدث صدفة بل جاء تعبيرا عن معارضة لسياسة معينة سلكها بعض ولاة بني أمية في المغرب والأندلس ولا سيما في ميدان السياسة الجبائية[97].

وقد رافقت عصر الولاة محاولات التسيير بشكل فردي أحيانا، وهذا ما يظهر في قتل قادة الجند لبعض الولاة وفرض سياسة الأمر الواقع الخلافة، فمنذ بداية عصر الولاة سنة 95هـ يلاحظ طمع قادة الجند في أمر إدارة الأندلس وملكياته، فبادروا بقتل والي الأندلس عبد العزيز بن موسى عام 97 هـ، وتولية أيوب ابن حبيب اللخمي مكانه[98]. فبالرغم من أعماله الجليلة التي قام بها، في استكمال فتح شبه الجزيرة الايبيرية، فان ذلك لم يشفع له عند الخليفة، واختتمت عهدته بنهاية مأساوية، وقد لخص لنا الرازي أعماله ونهايته التراجيدية قائلا:" فبعد أن ضبط سلطان الأندلس، وسد ثغورها، وافتتح كثير من مدائنها؛ وكان من خيرة الولاة، إلا أن مدته لم تطل، لوثوب الجند عليه سنة 97هـ وقتلهم له، لأشياء نقموها عليه[99]. ويؤكد ابن خلدون ذلك قائلا:"وسارت عساكر الأندلس بعبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه، وكان خيّرا فاضلا، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة[100].

وربما تعود نقمة الخليفة على عبد العزيز بن موسى، لتراجع وتيرة المداخيل من السبي والغنائم مقارنة بالفترة السابقة، وذلك لإبدائه المرونة والتسامح في

معاملة سكان المناطق المفتوحة بالأندلس، "فأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرا من الرفق والتسامح، والاعتدال في فرض الضرائب وتطبيق الأحكام. ولنا في معاهدته مع الدوق تيودمير Theodemir. خير شاهد، وهذا حينما اتجه شرقاً نحو ولاية مرسية(تدمير)[101]، حيث احتفظ تدمير بإدارته الداخلية لهذه الولاية، شريطة أن يدفع جزية سنوية تقدر بواحد دينار، مع كميات معلومة من المنتوجات الزراعية، وبالمقابل فإنهم لن يُجرّدوا من ممتلكاتهم[102].وقد استسلمت مناطق أخرى إلى المسلمين بموجب معاهدات صلح، مثل مدينة وشقة[103]. كما ابتدأ بعد ذلك عبد العزيز بحملة لفتح وسط البرتغال، ففتح وعقد معاهدات صلح مع يابرة، ولشبونة، وقلمرية، وشنترين[104].فهذه في نظرنا من الأسباب المحتملة التي من شأنها أن تؤدي الى غضب الخليفة عليه، بل ما يؤكد سياسته المتسامحة تجاه اهل الذمة هو اتهامه بالتنصر وقتله لهذا السبب. فالجشع المتزايد من قبل بعض الخلفاء كان من بين الأسباب التي أدت ليس إلى قتل الولاة فحسب، بل أدخلت منطقة بلاد المغرب الإسلامي برمتها في صراع داخلي دامي أدى في النهاية إلى انفصالها عن الخلافة المركزية.

وانتقلت بذلك إلى الأندلس –بعد هدوء داخلي نسبي دام ستة سنوات– حمى وعدوى العصبية القبلية، ويعطينا ابن عبد الحكم وصفا دقيقا وبليغا لما آل إليه وضع الأندلس بعد مقتل عبد العزيز قائلا: "ومكث أهل الأندلس بعد ذلك سنين لا يجمعهم وال"[105]. وولي من بعده أيوب بن حبيب اللّخميّ فتولى عليها ستة أشهر، ومع ذلك فلم تنعم الأندلس بالاستقرار طويلاً، اذ استبدل بالحر بن عبد الرحمن الثقفي (97 – 100 هـ) الذي وصل إلى قرطبة ومعه أربعمائة رجل، وأول عمل قام به هو إصلاح الجيش ومطاردة المعتدين من الجند واتبع معهم سياسة شديدة الوطأة[106]. ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس بعد ذلك، فتارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله على القيروان[107]. فجاء بلج بن بشر فادعى ولايتها، ووقعت فتن من أجل ذلك افترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء، حتى أرسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فحسم مواد

الفتنة، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة[108]. ثم تولى من بعده مجموعة من الولاة، كان آخرهم الهيثم بن عبيد الكلابي، كان متعصباً لقومه ولقبيلته، فبدأت تحدث مشاحنات ومعارك بين العرب والبربر بحسب العرق والعنصر[109].

ومع ذلك فان الأندلس عرفت بعض فترات الهدوء، ومنها عهد عمر بن عبد العزيز، اذ بعد اعتلائه لعرش الخلافة، اهتم اهتماما خاصا بشأن المسلمين في الأندلس فعين السمح بن مالك الخولاني، عليها[110]،ويذكر ابن القوطية، أن الخليفة عمر، اهتم بضبط أموال الأندلس وتنظيم خراجها فأرسل جابرا برفقة السمح في سنة101هـ ، ليتولى مسؤولية تقسيم الأرض بالأندلس، من أجل أن يُحدّد خمس الخلافة وما غلب عليه من أرضها وعقارها[111]، وهو أمر لم يُعْنَ به واحد ممن سبقه من الخلفاء، فبالإضافة إلى توجيهاته لعامله السَّمح فقد انتدب مولى من ثقاته يسمى جابراً، وبعثه لتعزيز السَّمح في مهمّته[112]. فأَمَرَ السمح أَنْ يُمَيِّزَ أَرْضَهَا، وَيُخْرِجَ مِنْهَا مَا كَانَ عَنْوَةً وَيَأْخُذَ مِنْهُ الْخُمْسَ وَيَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْأَنْدَلُسِ[113]، فخرجت بإقليم قرطبة ارض البطحاء المعروفة بالرّبَض من الخمس، وما يقال عن قرطبة يقال عن غيرها من أقاليم الأندلس التي خُمِّست[114]. كما انه أعاد النظر في مصارف الخمس فضمها لمصارف الفيء، كما فعل عمر بن الخطاب[115]، وان يصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب:..أن يُلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التي سم الله وفرض.. فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان آية الفيء وآية الخمس.. فنرى أن يُجمعا جميعاً فيُجعلا فيئاً للمسلمين ولا يستأثر عليهم[116].

كما اسقط عمر الكثير من الضرائب غير الشرعية، كإسقاط الهدايا المقدمة إلى الدولة في الأعياد والهدايا الشخصية للخلفاء[117]. مرددا في ذلك مقولته الشهيرة:" إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا"[118] وعندما طلب عمر من احد عماله إسقاط الضرائب على الموالي اخبره بان ذلك يؤدي إلى إفلاس الخزينة، فرد عليه عمر بن عبد العزيز قائلا:" والله ليسعدني أن أرى كل إنسان مسلما حتى نفلح أنت وأنا الأرض بأيدينا ونكسب قوتنا"[119].

ومع قصر الفترة الزمنية للسمح إلا أن إصلاحاته قد أتت أكلها واستتب الأمن والنظام، ومع ذلك فقد واجه صعوبات في تطبيق إصلاحاته الإدارية، تجلت في ظهور معارضة شديدة من قبل الداخلين الأوائل للأندلس وأصحاب الملكيات الواسعة، ورفضهم الخضوع لأوامر الدولة المركزية، وعدم سماحهم للبلديين القادمين الجدد أن يشاركوهم في أراضيهم. وتوجه وفد منهم إلى دمشق يشكون إلى الخليفة، ويهددون بإخلاء الأندلس، لو حاول أتباع السمح بن مالك الاستقرار في أراضيهم. ولقد حل الخليفة هذه المشكلة، بأن منح أتباع السمح أراضٍ من حصة الخلافة. وأصبح هذا الإجراء، هو الطريقة المثلى لإسكان الجماعات الوافدة من العرب التي تدخل إلى الأندلس فيما بعد[120].وبذلك فقد عادت السلطة الأموية بعد وفاة عمر إلى ممارسة سياستها الأولى مع المغاربة ويبدوا أن خلفاء بني أمية كانوا مضطرين إلى ذلك نتيجة لعدة عوامل، كاتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة نفقاتها العسكرية والمترفة؛ وكثرة من دخل في الإسلام من أهالي الأمصار المفتوحة، مما جعل موارد الدولة من الجزية والخراج تتناقص بشكل كبير. وهذا يعني توقف بعض موارد الدولة كالجزية التي كان يدفعها أهل الذمة، والأموال التي كان يغنمها الفاتحون بالإضافة إلى ضريبة الخراج[121].

وعليه فبمجرد استشهاد السمح سنلحظ عودة أمور الأندلس إلى ما كانت عليه، فأصبح الولاة بالأندلس لا تحركهم إلا العصبية القبلية وجمع الأموال، فقد كان للفتنة القبلية التي اضطرمت في إفريقية، بين العرب والبربر، صداها في الأندلس. فكان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطا على العرب. لما استأثروا به دونهم من السيادة والحكم، بل أصبحت العصبية القبيلية بين اليمنية والمضرية تمزق وحدة العرب أنفسهم. ولذلك فلا نستغرب من تغير سياسة بعض الولاة من غزو النصارى إلى غزو المسلمين بداخل الأندلس، ومن ذلك ما قام عبد الملك بن قطن الذي ملأ الأرض ظلماً وجوراً، وقسم الناس بحسب العنصرية والقبلية، وأذاق الآخرين ألواناً من العذاب، ولم يعط من الغنائم للبربر، ولم يعط لغير المضريين، فانقسم الناس عليه وانقلبوا. وما قام به ثعلبة بن سلامة من غزوه

للعرب والبربر بماردة بشمال الأندلس، وقتله لخلق كثير منهم، وأسره لنحو الألف منهم؛ بل وكان يبيع ذراري أهل البلد، ويحملهم أسرى، ويرهقهم من أمرهم عسرا ولم يكن قبل بلج ولا غيره من يتعرض للذرية بسباء[122]، إلى أن جاء أبو الخطار واليا إلى الأندلس، فألفى ثعلبة بن سلامة بالمصارة، ومعه الأسرى والسبي من عرب قرطبة، قد اشتبك في الحبال الولد بالوالد؛ فأمر بإطلاقهم، وحلهم من وثاقهم[123]. ورغم أن ابوالخطار هو الآخر إلى اليمنية، فانقلبت السيادة بذلك من البلديين الى الشاميين[124]، حين تطلبت الظروف إيجاد أراضٍ جديدة لاستقرار القبائل الشامية. وبذلك اضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية، وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين، معسكر الشاميين المتغلبين على الحكم، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين، فاشتد الاضطراب[125].

ولما خشي الزعماء العرب بالأندلس من عاقبة الحرب الأهلية، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من المضرية للولاية، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والي إفريقية ولا من الخلافة، فتولى الحكم سنة (130- 138هـ)، وكانت إمارته إمارة استيلاء، وانفصل بالكلية عن الخلافة الأموية، وادعى أن الإمارة في الأندلس إمارة مستقلة، وأذاق الناس العذاب، فحدثت انكسارات كثيرة جداً، وثورات عديدة في أرض الأندلس، (أكثر من عشرين ثورة في داخل بلاد الأندلس). واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة[126].

خاتمة:

ويتضح مما سبق ان اقتصاد مرحلة الفتح والولاة كان عسكريا بامتياز، اذ قام على مورد يكاد ينحصر في غنائم الحرب وهي موارد غير قابلة للاستثمار. وأما الضرائب غير الشرعية والمصادرات فقد ظهرت بعد عجز اقتصاد المغانم عن سد الحاجة المالية المتزايدة للخلافة بسبب التوسع في النفقات العسكرية وحياة البذخ المترفة، وهي في حد ذاتها غير منتجة للثروة بشكل مباشر، كما هو الحال

بالنسبة للعمل والإنتاج في مختلف القطاعات الاقتصادية، فالزراعة "لم تلعب دورا مهما في قوة هذا الاقتصاد، بل حتى ما تم الاستحواذ عليه من ملكيات فان استثماره لم يبدأ إلا في مراحل متأخرة وبقي مستقبل الدولة والإسلام في الأندلس مرهون بما ينتجه أهل الذمة وما يتبع ذلك من جزية أو خراج، وتبقى الصناعة حرفية بطيئة تعتمد على تقنيات ووسائل شبه بدائية، مقتصرة على ما هو موجه للحرب والاستهلاك المحلي، بل وكانت شبه غائبة عن الساحة الأندلسية في هذه المرحلة، وحتى التجارة فقد اقتصرت على بيع بعض السبي والتحف المجلوبة من ارض الحرب.

وهو ما رهن مستقبل تسيير دواليب ولاية الأندلس بالاعتماد على ما تجود به الحملات العسكرية دون غيرها، فإذا ما توقفت الفتوحات وحلت الأزمة، فان أسهل طريق للحصول على الأموال يتلخص في زياد نسب الجزية والخراج على أهل الذمة، وان تحتم الأمر بعد ذلك يتم اللجوء إلى المصادرات وإعادة النظر في العقود المبرمة مع أهل الذمة، بالاستحواذ على جزء من ملكياتهم أحيانا، وطرد البربر وبعض العشائر العربية إلى النواحي الشمالية المجدبة، والاستحواذ على أراضيهم الخصبة في الجنوب بداعي كثرة ثوراتهم على الأمراء والولاة العرب أحيانا أخرى. وهذا في تصورنا ما هو إلا تغطية للعجز في تسيير شؤون الأندلس المالية فيتم اللجوء ما هو غير شرعي بداعي المصلحة العليا، لسد العجز في السيولة المالية، وهو ما ظهر فعلا في كثرة الاقطاعات من الملكيات العامة(الخمس) في مقابل تسديد رواتب الجند، والإبقاء على الولاءات القبلية.

نعتقد أن إحدى الثوابت التي ميزت السياسة الاقتصادية للخلافة الأموية بالمشرق هي المسؤولة عن هذا الواقع، فمهما كانت مقاصدها النبيلة فإنها ساهمت في بناء اقتصاد هش وظرفي قائم على ما تجود به غنائم الفتوحات، بل وحتى هذه المداخيل على كثرتها، لم يوظفوها في مشاريع استثمارية تعود بالمنفعة العامة للمسلمين.

وقد ساهمت هذه العوامل الاقتصادية في حوادث الأندلس واضطراب شؤونها وتمزيق وحدتها وتكالب النصارى بالداخل والخارج ضد المسلمين ومحاولة استردادهم للأندلس في وقت مبكر من تاريخها.

هوامش المقال:

[1]– وقد كانت الدولة تعفي الثغور من الضرائب والخراج، بل تقدم لهم المساعدات المالية وزيادة الرواتب حتى يكونوا على مستوى من القوة والولاء تساعدهم على الصمود وحراسة المناطق الحدودية. عَلي محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة،ط1، 2006، ص235.

[2]. سالم بن عبد الله الخلف، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، م ع السعودية، ط1، 2003م، ج2، ص555.

[3]– عبد الاله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ، لبنان، ط1، 2004، ص129.

[4]–نفسه: ص128.

[5]–نفسه: ص128.

[6] – ونحن في كلامنا عن الاقتصاد العسكري والحرب والمغازي والغنيمة في الأندلس ليس هدفنا ان نذم الجهاد وما دعا إليه الكتاب والسنة من ضرورة لنشر الإسلام ومبادئه السمحة وما ينجر عنها من مغانم وغيرها، بل هنا نحن نريد نقد بعض التجاوزات والسلوكيات التي خرجت عن إطار الكتاب والسنة أو اتخذت الكتاب والسنة لتبرير شرعية ما كان يحدث في بلاد المغرب جملة ومنطقة الأندلس على الخصوص، ..بل هي تصرفات أشخاص بعيدين عن مركز الحكم أو أحيانا بتشجيع من مركز الحكم، فتجاوزوا بتصرفاتهم الكتاب والسنة، وهذه انتقدها القرآن وحتى السنة النبوية في كذا من مناسبة وفي فترة كان النبي (ص) يقود هذه المغازي بنفسه، وهذا لم يمنع من انتقاد القرآن لتصرفات بعض الصحابة(كغزوة احد وما انجر عنها من نتائج على الدعوة الإسلامية) وفي صورة حديث (إنما الإعمال بالنيات ..فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه..) وغيرها.. وربما ما حدث في بلاد المغرب عموما وما حدث بالأندلس على الخصوص يعد شكلا استثنائيا في الفتوحات وما انجر عنها من نتائج. ومن ذلك تطور هذا الصراع من صراع بين دار الكفر ودار الإسلام، إلى صراع بين العصبيات والاثنيات الإسلامية نفسها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تضارب

المصالح، وهو ليس صراع من أجل مصلحة الفتوحات او المصلحة العليا للإسلام بقدر ما هي المصالح الشخصية أو قريب من ذلك.

[7] – أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، الأموال، تح خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ص323. عَلي الصَّلاَّبي، عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط1، 2006م، ص281.

[8] – الماوردي أبو الحسن علي بن محمد البغدادي(ت450هـ)، الأحكام السلطانية، دار الحديث – القاهرة، ص126.

[9] – الداودي ابو جعفر احمد، الأموال، تح رضا محمد شحاده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص77.

[10] – الماروردي، المصدر السابق، ص 199.

[11] – ياقوت الحموي شهاب الدين (ت626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج1، ص42-46.

[12] – ابن سلاّم، المصدر السابق، ص23.

[13] – ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 42/01. ابن سلاّم، نفسه، ص41. البغدادي عبد الرحمن بن محمد(ت 732هـ)، إرْشَادُ السَّالِك إلىَ أَشرَفِ المِسَالِكِ فِي فقهِ الإمَامِ مَالِك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط3، ص51.

[14] – عبد الاله بنمليح، المرجع السابق، ص132/131.

[15] – نفسه، ص130.

[16] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومراجعة، ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط3، 1983 م، ج2، ص12، وص16-17وص40، وص43، وص51، المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، عام 1403 هـ - 1983 م، ج1، ص 57.

[17] . ابن عذارى، نفسه، ج2، ص23.

[18] – ابن حيان أبو مروان، المقتبس، نشر، ب. شالميتا وآخرون، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد 1979م، ج5ص483،482.

[19] – ابن حيان، نفسه، ج05، ص 398.

[20] – ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 73.

[21] – عبد الاله بنمليح، المرجع السابق، ص130.

[22] – نفسه، ص130.

[23] – وكان موسى وزيراً ومستشارا لبشر أيام ولايته للبصرة. فلما وُلِيّ الحجاج حكم العراق في سنة 75هـ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل والي مصر عبد العزيز ابن مروان، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر، فهرع إليه موسى مستجيرا به. فعاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان، ولبث بها يتبوأ أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكما لإفريقية. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997. ج1، ص24.

[24]– ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص05.

[25] – ابن خلدون عبد الرحمن(ت 808هـ)، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988، ج4، ص 150.

[26] – الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تح عبد الله الزيدان، عز الدين موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص46. 47. ابن عبد الحكم عبد الرحمن، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ، ص235،234.

[27] – الرقيق، نفسه، ص50. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص08.

[28] – احمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، مصر، 2004، ص 17.

[29] نفس المرجع والصفحة.

[30] – الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1984م، ص5 ، وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، صص 2 – 3. المقري أحمد ابو العباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (1968م)، ج1، ص135.

[31] – الرقيق، المصدر السابق، ص49. ابن عذاري، نفسه، ج2، ص18– 19 ابن القوطية، افتتاح الاندلس، تح ابراهيم الابياري، بيروت، 1982، (ص10). المقري، نفسه، ج1، ص130 و135 و136)، محمد عنان، المرجع السابق، ص 56/01. محمود شيت خطاب: قادة فتح الأندلس، مؤسسة علوم القرآن – منار للنشر والتوزيع، ط1، 2003 م، ص348.

[32] – ابن قتيبة: الامامة والسياسة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ج2، ص68.

[33] – حسين مؤنس، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة 1959م، ص107. محمود خطاب، المرجع السابق، ص348.

[34] – محمود خطاب، نفس المرجع والصفحة.

[35] – ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، المصدر السابق، ج4، ص 151.

[36] – ابن قتيبة، المصدر السابق، ص ج2، ص 82 – 83.

[37]– حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني، 869-609هـ، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الاسلامية والعلوم الانسانية،الدار البيضاء، م المغربية، 2009، صص181/179.

[38]– الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية، ملحق ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت 1957. ص 205/203.

[39] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 150.

[40]– ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 13 .

[41] – ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، المصدر السابق، ص35، العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تح عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، صص 65 – 67؛ المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج1، ص270 ، ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 85 الحِمْيَرِي، المصدر السابق، ص 195.

[42] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 150.

[43] – ابن الأثير علي بن أبي الكرم(ت630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م، ج4، ص 215. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 13، محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص50.

[44] – حسين مؤنس، المرجع السابق، ص625. خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2000 م، ص 388.

[45] – السامرائي، نفسه، ص 388.

[46] – الرسالة الشريفية، المصدر السابق، ص 207 – 208، الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تح الفريد البستاني، طنجة، 1944،ص 113، حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 628.

[47] – المقري، المصدر السابق، ج1، ص 276.

[48]– ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962، ص 363 – 366 ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق، شوقي ضيف، القاهرة، 1964، ج2، ص 26. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 34. الحميري، المصدر السابق، ص 149 – 150.

[49]– العذري، المصدر السابق، ص5؛ ابن الأبار، محمد بن عبد الله البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، 1995م، ج1، ص368، ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1973–1976م)، ج1، ص320،129، وج2، ص293؛ المقري، المصدر السابق،ج1، ص 293.

[50]– ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، 1966، ق 1، ص 323، 300، ق 2، ص 169 – 170؛ ابن الابار، نفس المصدر، ج1، ص 199 – 200. وج2، ص 609 – 610؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص 328 – 329. ابن الخطيب، نفس المصدر السابق، ج1، ص 129 .

[51]– ابن الأبار محمد القضاعي البلنسي (ت 658هـ)، الحلة السيراء، تح حسين مؤنس، القاهرة، 1963، ج1، ص268؛ ابن القوطية، المصدر السابق، ص 64؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق 1، ص 18.

[52]– ابن حزم، المصدر السابق،ص 431؛ العذري، المصدر السابق، ص 73، 84.

[53]– ابن حزم، نفسه، ص 443، الحميري، المصدر السابق، ص 142.

[54]– ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 36 – 37؛ المقري؛ المصدر السابق، ج3، ص 25. ابن الابار، التكملة، المصدر السابق، ج2، ص542 – 543؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص 340.

[55]– العذري، المصدر السابق، ص5. ابن حزم، المصدر السابق، ص 132، المقري، نفسه، ج1، ص 290، وج3، صص11، 64، ابن الابار، التكملة، المصدر السابق، ج1، ص179. ويبدو أن هؤلاء جاؤوا بعد الفتح، وأُقطعوا أراضي من خمس الخلافة. ويدل على ذلك أن كلمة "كنتش" ما هي إلا تحريف للكلمة اللاتينية Quinto) Quintus بالاسبانية) التي تستعمل للدلالة على الخمس من ممتلكات أو مزارع الفرد. خليل إبراهيم السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، المرجع السابق، ص70.

[56] – الغساني، رحلة الوزير، المصدر السابق، ص 100؛ الرسالة الشريفية، المصدر السابق،ص 199.

[57] – الرسالة الشريفية، نفسه، ص199، ابن القوطية، المصدر السابق، ص204 – 205، مؤنس، المرجع السابق، ص 624.

[58] – المقري، المصدر السابق، ج1، ص258. ولكن الباحث محمود خطاب يقول انه "قد روعي في توزيع الأراضي، أن تخصّص الولايات الشمالية، وهي جلّيْقِيَّة ولِيُوْن والأستورياس

للبربر، وأن تخصّص الولايات الجنوبية الأندلسية، للقبائل العربية. وكان يُفرض على العمال القوط المشتغلين بزراعة الأرض، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثي أو ثلاثة أخماس المحصول" محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص 73 – 74، محمود خطاب، المرجع السابق، ج2، ص14.

[59] الزهري، كتاب الجغرافيا، تح محمد حاج صادق، القاهرة، المركز الاسلامي للطباعة، ص 100.

[60] احمد الطاهري، المرجع السابق، ص17.

[61] ابن حزم ابو محمد، رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ضمن الرسائل، تح احسان عباس، بيروت، 1980، ج3، ص175.

[62] الغساني، المصدر السابق، ص 114.

[63] ابن القوطية، المصدر السابق، ص 38، ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص118.

[64] – ابن خلدون، نفسه، ج4، ص151/150. المقري، المصدر السابق، ج1، ص120.

[65] – أبي عبيد، الأموال، المصدر السابق، ص .323.

[66] – ابراهيم القادري بوتشيش، نمط اقتصاد المغازي، ضمن كتاب حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2006، ص 11.

[67] – هي من القبائل العربية التي أرسلها هشام بن عبد الملك من بلاد الشام، للقضاء على تمرد البربر بالمغرب. بقيادة كلثوم بن عياض، ويبلغ عددهم نحو ثلاثين ألف رجل. السامرائي، المرجع السابق، ص 73.

[68] – نفسه، ص 388.

[69] – «كتب طارق الى موسى يستمدّه ويخبره بما فتح. فبعث اليه بخمسة آلاف، فتكامل المسلمون اثني عشر ألفا». ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص562:

[70] محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص124.

[71] – ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص 102 – 103.

[72] – ابن القوطية، المصدر السابق، ص20؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص33؛ ابن الخطيب، نفسه، ج1، ص102-104.

[73] – حميد تيتاو، المرجع السابق، صص179-181.

[74] – بوتشيش، المرجع السابق، ص13

[75] – نفسه، ص23

[76] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص151.

[77] المقري، المصدر السابق، ج1، ص 273 - 274.

[78] – عَلي الصَّلاَّبي: الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار، دار المعرفة للطباعة، بيروت، 2008 م، ص36.

[79]– السامرائي، المرجع السابق، ص 50.

[80] محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الاندلس، نشر سوريا، ط1 ، 1404، ص65.

[81] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ج1، ص244.

[82]– (حوالي 100كلم غرب باريس)، (وعن قرطبة حوالي 1000 كلم).

[83]– غزوة بلاط الشهداء كأنها أحد أخرى، قال تعالى:{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ}[سورة آل عمران، الآية:152]، في موقعة أحد ترك الرماة مواقعهم طلباً للغنيمة بعد أن أيقنوا بالنصر،حتى إن عبد الله بن مسعود كان يقول: ما كنت أحسب أن منا من يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية.

[84]. ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص47 -52.

[85] – نفسه، ج1، ص48.

[86]– نفسه، ج2، ص33. بن الأبار، الحلة السيراء، المصدر السابق، ص63، محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص126.

[87]. ابن عذاري، نفسه، ج1، ص47-52.

[88]– وبذلك فقد بدأ ظهور الفساد في الدولة الأموية من الأطراف فكانت نتائج ذلك ظهور المحاولات الاستقلالية ببلاد المغرب والأندلس وكانت نهايتها الحتمية انحلال الدولة الأموية نهائيا سنة 132هـ .(وظهور امارة الاستيلاء الممثلة في احفاد عقبة بن نافع بالمغرب والأندلس، في الفترة من سنة 124 الى 138هـ.)

[89]: محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص73.

[90]– نفسه، ج1، ص74.

[91]– بوتشيش، المرجع السابق، ص 24.

[92] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ج1، ص 244.

[93] – ابن القوطية، المصدر السابق، ص 29.

[94] – مجهول، أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص 63.

[95] – مؤنس، المرجع السابق، ص 633.

[96] – مجهول، أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص 24.

[97]– الحبيب الجنحاني: سياسة الخلافة الاموية تجاه المغرب، ضمن كتاب المجتمع العربي الاسلامي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، سلسلة عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، 2005، ص191.

[98] – ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص24.

[99] – نفسه، ج2، ص23.

[100] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص151.

[101]: محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص55.

[102]– العذري، المصدر السابق، ص4– 5؛ الحميري، المصدر السابق، ص 62 – 63، 151 – 152.

[103]– العذري، نفسه، ص 65 – 67؛ الحِمْيَري، نفسه، ص 195.

[104]– السامرائي، المرجع السابق، ص45.

[105] – ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ج1، ص241.

[106] – محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص73. السامرائي، المرجع السابق، ص388.

[107] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص151.

[108]– الحَمِيدي محمد الأزدي(ت488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ج1، ص05.

[109] محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص211.

[110]: نفسه، ج1، ص126.

[111]– ابن القوطية، المصدر السابق، ص 12– 13، السامرائي، المرجع السابق، 66.

[112] – ابن القوطية، نفسه، ص 12، محمود خطاب، المرجع السابق، ج2، ص14.

[113] ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص74.

[114] – ابن القوطية، المصدر السابق، ص 24. ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 26 .

[115] – عَلي الصَّلاَّبي، عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح، المرجع السابق، ص282.

[116] – لقد ساعدت إصلاحات عمر في إيرادات الخمس والفيء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة في القرآن مع إيثاره لذوي الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم. عَلي الصَّلاَّبي، نفسه، ص282.

[117] – احسن بولعسل: الضرائب في المغرب الاسلامي منذ عهد الولاة حتى سقوط الموحدين، 96-668هـ، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2013، ص 82.

[118] – نفسه، ص 82.

[119] – مولوي الحسيني، الإدارة العربية، ترجمة، إبراهيم احمد العدوي، وعبد العزيز عبد الحق، مكتبة الآداب، القاهرة، 1958، ص223.

[120] – الرسالة الشريفية، المصدر السابق، ص 202 – 203؛204، ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 26.

[121] – احسن بولعسل، المرجع السابق، ص83.

[122] – ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص33.-34.

[123] – نفسه، ج2، ص33. ابن الأبار، الحلة السيراء، المصدر السابق، ص63.

[124] – وهم الشاميون الناجون من معركة بقدورة بقيادة بلج بن بشر، ويبلغون نحو عشرة آلاف رجل، فحاصرهم البربر بسبتة، حتى كادوا يهلكون جوعاً، فالتمسوا من والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، أن يسمح لهم بالعبور إلى الأندلس فرفض، ومنع إرسال التموينات إليهم، خشية إبعاده عن ولاية الأندلس التي كان البلديون يعدونها أراضيهم الخاصة بهم، لكن بعد فشل عبد الملك في القضاء على ثورة البربر بالأندلس، سمح بدخول الشاميين لمساعدته في القضاء على الثورة وفق شروط قاسية جدا؛ فاستطاع بلج ورجاله أن ينتصروا على البربر، ولكنهم رفضوا أن يغادروا البلاد. ومن هنا فقد قام صراع مرير بين البلديين المستقرين الأوائل، وبين الشاميين الجدد، استمر حتى وصول الوالي أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي سنة125هـ. ابن عذاري، نفسه، ج1، ص55 – 56، و ج2، ص30؛ المقري، المصدر السابق، ج3، ص20.

[125] – محمد عنان، المرجع السابق، ج1، ص124.

التعليم الابتدائي في الجزائر بين المدرسة الفرنسية والكتاتيب القرآنية (1880–1914)

أ. عبدالحميد عومري – جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس

ملخص:

يعالج هذا المقال التعليم الابتدائي لأطفال الجزائريين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث حدث تنافس بين المدرسة الفرنسية والكتاتيب القرآنية في سياسة الاستقطاب، وتدخلت الادارة الاستعمارية لفرض التعليم الاستعماري والحد من التعليم القرآني، فهذا المقال يسلط الضوء على تطوّر عدد المدارس الفرنسية والتلاميذ الجزائريين بها من سنة 1880 إلى غاية سنة 1914، والمناهج التربوية وأهم مواد التدريس، في المقابل دراسة أوضاع الكتاتيب القرآنية وضرورة إصلاحها وتطويرها، والسياسة التعليمية اتجاه المدارس القرآنية.

ABSTRACT

Event competition between the French school and Quranic school in the polarized politics, intervened colonial administration to impose colonial education and the reduction of Quranic education, this article sheds light on the evolution of the number of French schools Algerians by pupils from 1880 to 1914, and educational curricula, and then study the situation Quranic school, and the need for reform, educational policy and the direction of the Koranic schools.

مقدمة:

يعتبر التعليم الابتدائي القاعدة الأساسية لتكوين النشء، وتوجيهه حسب السياسة التعليمية المعتمدة، كما أنه المنطلق الحقيقي في تحقيق سياسة

الدمج، في المقابل سعت الكتاتيب القرآنية في الحفاظ على التعليم القرآني لمواجهة أهداف التعليم الاستعماري، ولهذا فالمدرسة كانت مظهر من مظاهر الصراع الثقافي بين الاستعمار والمجتمع الجزائري. فما هي السياسة التعليمية الفرنسية في المرحلة الابتدائية؟ وما هو واقع الكتاتيب القرآنية؟ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

1-مدارس التعليم الابتدائي الفرنسية:

1-1المرحلة الأولى 1880-1892.

لجأ منظرو الاستعمار تقسيم التعليم الابتدائي إلى ثلاث مراحل وهي: المرحلة التحضيرية، ثم مرحلة الطور الأول، ثم مرحلة التعليم الرئيسي[1]، فالمرحلة الأولى يتم فيها تحضير الطفل نفسيا، وطريقة الكتابة والقراءة ليمهد للمرحلة الثانية، ثم المرحلة الثالثة التي يتحصل فيها على شهادة التعليم الابتدائي الأساسي، وسنأخذ بعض الاحصائيات عن تعليم أبناء الجزائريين في المدارس الفرنسية حتى يتبيّن لنا مدى استجابة الجزائريون للسياسة الاستعمارية.

كان عدد التلاميذ في المدارس العربية –الفرنسية 1.150 أو 3.172 تلميذا سنة 1880[2]، وهو عدد ضئيل مقارنة بعدد السكان، ولهذا لجأت الادارة الاستعمارية إلى إنشاء المدارس الوزارية كسياسة جديدة من أجل نزعة سلطة البلديات على مدارس التعليم الفرنسية ووضعها تحت الرقابة الوزارية؛ «حيث قرر المرسوم الوزاري الصادر في 09 نوفمبر 1881 بإنشاء ثمانية "مدارس وزارية" في بلاد القبائل»[3]، لكن تم بناء أربعة فقط بسبب ضغط المستوطنين واستجابة الوالي العام لهم، وتوزعت المدارس الأربعة على تيزي راشد، تاوريرت، ميرا، وجمعة الصهاريج، وفي سنة 1884 أصبح عدد المدارس الوزارية ست مدارس، وعدد التلاميذ المسجلين ستمائة تلميذ[4] ، وقد انشأت هذه المدارس

نتيجة النزعة التربوية لجول فيرى، لكن هذا المشروع لم يتطوّر بسبب معارضة المستوطنين والضغط على الحاكم العام في الجزائر بعدم تطبيق تلك السياسة.

إن المستوطنين همهم الوحيد هو الحفاظ على امتيازاتهم ومكانتهم، بينما جول فيري كان يفكر في مستقبل الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية، فهزيمة فرنسا في الحرب البروسية هو نتيجة تراجع المنظومة التربوية والتعليمية في فرنسا، وقد يؤثر على انتشار الحركات الانفصالية داخل الامبراطورية، فأصدر قانون اجبارية التعليم 1882، والقانون الخاص بالجزائر سنة 1883، مما ساهم في رفع عدد المدارس والتلاميذ بعد هذه السنة؛ ففي وثيقة عن التعليم الأهلي ضمن منشورات الحكومة العامة نشرت في كتاب نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر تضمنت عدد المدارس التي أنشئت في فترة (1883-1887) والمقدرة بـ 50 مدرسة موزعة على النحو التالي: «منها 29 في عمالة الجزائر، و23 في عمالة قسنطينة، و07 مدارس في عمالة وهران» [5]، وقد تطور عدد التلاميذ من 4.094 تلميذ سنة 1883 إلى 9.064 تلميذ سنة 1887، ثم ارتفع العدد إلى 23.823 تلميذ سنة 1898، وهكذا يكون معدل الزيادة السنوية هو 13 مدرسة و32 قسما، وحوالي 2.000 تلميذ، فالمجهودات كما هو واضح معتبرة إلا أنها غير كافية إذا ما ذكرنا بأن عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة يقدر بحوالي 680.000[6]، ومعنى هذا أن نسبة التمدرس لم تصل إلى واحد بالمئة، ومن بين 170 طفل هناك طفل واحد سجل اسمه المرحلة التحضيرية وقد ينتهي مشواره فيها لبعد المسافة وقلة الامكانيات.

إن الحماس الموجود في أروقة الوزارة والادارة لم يقابله حماس بمستواه في تطبيق وتنفيذ تلك القوانين والتعليمات؛ حيث استنكر تقرير التفتيش عام 1888 عدم تشابه بين البرامج التعليمية الموجودة في فرنسا والبرامج التعليمية

المطبقة في الجزائر، كما قدم مشروع سنة 1889 للتركيز على التعليم المهني[7]، ومع نهاية عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان عدد المدارس الخاصة بالأهالي خمسة وسبعون مدرسة، منها ثلاث مدارس رئيسية فقط التي تتيح لتلامذتها إمكانية متابعة دراستهم حتى الشهادة الابتدائية، وتسعة وثلاثون مدرسة للطور الابتدائي الأول (Ecole Elémentaire) وثلاثة وثلاثون مدرسة يؤطرها ممرنون للتعليم التحضيري تشتمل هذه المدارس للأطوار الثلاثة على مائة وخمسة وعشرين قسما يضاف إليها تسعة وعشرون قسما ملحقا بالمدارس الفرنسية، وتشير الاحصائيات إلى أن عدد الأطفال المتمدرسين في جميع المدارس العمومية والخاصة سنة 1890 يزيد قليلا عن إحدى عشر ألف تلميذ"[8]، وهذا يعني أن نسبة التعليم تحسنت في فترة 1887-1890.

1-2المرحلة الثانية 1892-1914

تعد سنة 1892، بداية الانطلاقة الحقيقية في رسم السياسة التعليمية في الجزائر؛ فقد دعا وزير التعليم العمومي بورجوا أمام مجلس الشيوخ سنة 1892 إلى ضرورة اعتماد برامج تعليمية في الجزائر حسب طبيعة البلاد، وتجنب النقل الحرفي للبرامج الموجودة في فرنسا لاختلاف الظروف[9]، وقدم السيد كامبون دراسة شاملة عن قضية التعليم الابتدائي عند الأهالي وطريقة إصلاحها، ونوقشت في مجلس الشيوخ الفرنسي بتاريخ 5 أفريل 1892، حيث طالب بإجراء مجموعة من الاصلاحات منها:

1-أن يتم تنظيم التعليم الابتدائي وفقا لخطة مدروسة حسب المناطق بداية المدن المختلطة الكبيرة، والقبائل الصغيرة، والمدن التي تعاني من نقص المدارس الموجهة لتعليم أبناء الجزائريين المسلمين.

2- أن تتوفر هذه المدن على العدد الكافي للمدارس من أجل استيعاب كافة الأطفال الذين هم في سن الدراسة.

3-تنظيم المدارس وتقسيمها إلى ثلاثة: أساسية ويرأسها مدير فرنسي، وابتدائية ويرأسها معلم فرنسي، وتحضيرية ويديرها مساعد تربوي.

4-يتم اعتماد البرنامج التعليمي التي وضعته إدارة أكاديمية الجزائر العاصمة بالتنسيق مع وزير التعليم العمومي 1890[10].

5-تقام دورات التعلم في العمل اليدوي والتعليم الزراعي في المدارس الكبرى وفقا لبرنامج 1890.

6-التنسيق بين وزير التعليم العمومي والحاكم العام في الجزائر والادارة العليا لتعليم الأهالي في إنشاء المدارس وتوزيعها جغرافيا واستخدام اعتمادات الميزانية المخصصة للتعليم واستحقاقات الموظفين، كما يقدم الحاكم العام كل سنة للوزير لمحة عامة عن المدرسة، من أجل تطبيق اعتمادات الميزانية، ووضع مخطط عام لتأسيس المدارس ويتم الموافقة عليه من طرف مجلس الحكومة، كما يكلف الحاكم العام بالإشراف وتنظيم التعليم المهني والزراعي .

7-يتم إنشاء مدارس للبنات ورياض الأطفال في المدن المختلطة، وتعطى الأولوية في برامج تلك المدارس إلى ممارسة الإبرة والرعاية المنزلية، ويتم الاشراف على هذه المدارس من طرف أساتذة اللغة العربية، أو أستاذات اللغة الفرنسية، أو من الأخوات ويساعد المشرف مساعد تربوي من الجزائريين[11]، كما أوصى التقرير برفع أجور مفتشي المدرسة الابتدائية وزيادة المنح من أجل مراقبة دقيقة للمدارس الابتدائية، وفي ختام التقرير يذكر أن هذه المقترحات سيتم تسويتها عبر المراسيم الجمهورية[12].

وضعت أكاديمية الجزائر في السنة نفسها (1892) مخطط آخر لنشر التعليم بين الأهالي، أعطت الأولوية لإنشاء المدارس كخطوة أولى، في كل من منطقتي القبائل الكبرى والصغرى، وفي تسع عشرة مدينة وهي: الجزائر، وهران، قسنطينة، البليدة، المدية، شرشال، مليانة، تلمسان، مستغانم، معسكر، سيدي بلعباس، تيزي وزو، دلس، سطيف، بجاية، باتنة، عنابة، قالمة، بسكرة، ويوجد بهذه المناطق ستين ألف طفل في سن الدراسة[13]، وهذه المناطق استراتيجية متوزعة بين شرق الجزائر وغربها وجنوبها.

واستجابة لتلك النصائح والتقارير، صدور مرسوم جديد في 18 أكتوبر 1892؛ أكد مبدأ مدارس التعليم العام مفتوحة أمام الأطفال الجزائريين مثلهم مثل الأطفال الأوربيون وبنفس الشروط، كما أن مدارس التعليم الأهلي هي أيضا مفتوحة في وجه الأطفال الفرنسين والأجانب الذين يريدون التسجيل فيها"[14]، وقد خصص البرلمان اعتماديا ماليا إضافيا لسنة 1892-1893 بمبلغ أربعمائة ألف فرنك لإنشاء المدارس، ومبلغ مائة وخمسين ألف فرنك للمرتبات والتعويضات[15]، فقرارات هذا المرسوم تعطي بعدا اجتماعيا في المنظومة التربوية بدمج المجتمع الجزائري في المجتمع الاستيطاني، وتسهيل احتكاك أطفال الجزائريين بالثقافة الفرنسية.

ارتفع عدد تلاميذ الجزائريين في المدارس الفرنسية نتيجة الاصلاحات و اجبارية التعليم «ويرجع سبب ارتفاع عدد التلاميذ في المدارس إلى قانون إجبارية التعليم؛ حيث تطوّر عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا يؤمون المدرسة الفرنسية، فقد كان عددهم سنة 1879 على سبيل المثال لا يزيد عن 3172، وفي سنة 1892؛ أي بعد الإصلاحات التي أقرها قانون جول فيري، بلغ العدد 11500»[16]، وتدل إحصائيات أخرى أن عدد التلاميذ الجزائريين وصل إلى

12263 تلميذ، سنة 1892 ؛ أي في ظرف عشر سنوات ، تزايد العدد بنسبة 800 تلميذ سنويا، ورغم ذلك فإن هذه الأعداد قليلة مقارنة بعدد الأطفال الذين بلغوا سن الدراسة، ولنأخذ على سبيل المثال إحصائيات 1889؛ بعد ست سنوات من صدور مرسوم إجبارية التعليم:

-عدد الأطفال ذكورا وإناثا الذين بلغوا سن التمدرس من سن 6 إلى 13 سنة: 535.389 .

-عدد المسجلين ذكورا وإناثا في المدارس الابتدائية : 10.631.[17]، بنسبة مئوية تقدر بـ1.98، وتلميذ من بين 50 طفل.

إذا نظرنا إلى هذه الاحصائيات فمن بين 100 طفل يتعلم طفلان. أي بنسبة 2% ، بينما وصلت نسبة التمدرس لدى المستوطنون 84% نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث وصل عدد المسجلين 78.531 طفل من بين 93.531 طفل بلغ سن الدراسة[18]، فالواقع يدل أن فئة جد ضئيلة من الجزائريين القاطنين في المدن الكبرى قبلت بتوجيه أولادها إلى المدرسة الفرنسية دون التخلي عن أصولها الثقافية والدينية، فقد كان ينظر إلى هذا السلوك كنوع من الخضوع والقبول بالأمر الواقع"[19]، كما أن الظروف الاجتماعية لم تسمح للجميع بإرسال أبنائهم للمدرسة.

بدأ تواجد عدد التلاميذ في المدارس الفرنسية بتزايد مستمر مع مطلع القرن العشرين "فكان عدد التلاميذ الذين ألتحقوا بالمدرسة الفرنسية 25000 تلميذ سنة 1900"[20]، وفي عام 1901 كان مجموع التلاميذ والطلاب من كلا الجنسين، مسلمون وأوروبيون 199.734 ، بحيث كان نصيب الذكور من هذا العدد 140.551، بينما كان نصيب الاناث من عدد هذه المقاعد الدراسية 59.183مقعدا[21]، وقد بلغت تكاليف التعليم العمومي الموجه لأبناء

الجزائريين 1.116.702 فرنك لسنة 1901[22]، وهو مبلغ ضعيف لأنه لا يمثل حتى العشر من الضرائب التي كان يدفعها الجزائريون فمثلا قدرت سنة 1895 بـ 16.187.092 فرنك[23]؛ وكتب رئيس بلدية Guillotville (عين البنيان حاليا) في احتجاج له بأن: " تتوزع مصاريف التعليم العمومي كما يلي: 52 فرنك لكل تلميذ فرنسي، و2 فرنكان لكل تلميذ أهلي"[24]؛ أي بنسبة 4% من ميزانية التعليم موجهة لأبناء الأهالي، و96 % مخصصة لأبناء المستوطنين رغم قلة عددهم.

بادر جونار بمجموع اصلاحيات عند تعينه كوالي عام على الجزائر، كما حاول التقرب إلى الجزائريين وهو ما انعكس على التعليم وارسال الجزائريون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية؛ ففضلا عن عدد التلاميذ في المدارس فقد بلغ عدد الأقسام المفتوحة للأهالي 97 قسما في فترة من سنة 1901 إلى 1906 وعدد التلاميذ فيها 3880 تلميذ[25]، بينما استفاد الأوروبيون من فتح 497 قسما[26]، وهو ما يدل على الفرق الشاسع في الاستفادة من المؤسسات التعليمية، وازدواجية التعامل في السياسة التعليمية الاستعمارية اتجاه ابناء الأهالي وأبناء المستوطنين.

ويقدم لنا الأستاذ ناصرالدين سعيدوني احصائيات حول نسبة تمدرس أطفال الجزائريين مقارنة بأبناء الأوروبيين، فمن بين 68 ألف طفل متمدرس يوجد فقط 23823 طفل جزائري سنة 1898، و24975 طفل جزائري من بين 140551 طفل متمدرس في الجزائر سنة 1901[27]، وفي سنة 1902 كان عدد التلاميذ 25.284، وعدد الأقسام 637[28]، وقبل ثلاث سنوات من الحرب العالمية الأولى عدد أطفال الجزائريين في المدارس الفرنسية يقدر بـ40778 من أصل 177757 طفل[29] ، في حين أن الجزائريين يمثلون تسعة

أعشار سكان الجزائر، ورغم ذلك فتلك الاحصائيات مبالغ فيها وغير دقيقة ، فعمليات التفتيش لم تكن فجائية وإنما كانت رسمية، مما يجعل أغلب التلاميذ يرتادون المدرسة مواسم التفتيش.

إن هذه الاحصائيات التي قدمتها التقارير لا تأكد صحة الواقع، لأن نفس التقارير أقرّت بارتفاع نسبة الغياب «كانت نسبة تغيب التلاميذ جد مرتفعة، تفيد تقارير التفتيش بلغت نسبة الغياب 20.53% من مجموع التلاميذ المسجلين في المدارس الأهلية بعمالة الجزائر، و25.8% في قسنطينة؛ و26.32% في تيزي وزو ولا شك أن التلاميذ كانت تكتظ بالتلاميذ يوم حضور المفتش ثم تفرغ بعد ذلك»[30]، لأنه لا يوجد رغبة حقيقية من الادارة المحلية في تطبيق السياسة التعليمية.

حاولت الادارة الاستعمارية إصلاح المنظومة التعليمية في الجزائر نهاية العقد الأول من القرن العشرين، حيث اقترح السيد جاكسيه GASQUET في اجتماع لجنة التعليم في 10 أوت 1909: إعادة مناقشة قانون التعليم الاجباري على مستوى البرلمان، وان تكون المدة القانونية لسن التعلم بين 6 و13 سنة مع الأخذ في الاعتبار الحالات الاستثنائية، تكوين وتأطير جميع المعلمين بتفعيل المؤتمرات والندوات، التعاون مع الجمعيات في العملية التعليمية مثل جمعية علم النفس الطفولة، يجب أن تكون أساليب التعليم الابتدائي ملموسة وفعالة، كما يجب أن تعطى أهمية كبيرة لممارسة الرياضة البدنية[31] في المدرسة الابتدائية (النظافة والألعاب والجمباز)، وفيما يتعلق بالتربية الأخلاقية يجب علمنتها وإبعاد الدين في التدريس، وإجراء إصلاحات في برامج الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والأعمال اليدوية[32]، ولهذا أخذ منحى التلاميذ الجزائريون في المدارس الفرنسية شكلا تصاعديا، ففي سنة 1908 كان العدد حوالي 33.400؛ أي نسبة

4.3%، وارتفع العدد إلى 47.200 تلميذ سنة 1914 بنسبة 5%[33]، وارتفاع العدد يرجع إلى استجابة الجزائريون وتقبلهم التعليم الفرنسي من جهة والتطبيق الميداني لإجبارية التعليم، خاصة مع ظهور قانون التجنيد الاجباري، ورغبة فرنسا في تجنيد عدد أكبر من الجزائريين استعدادا للحرب العالمية الأولى.

1-2البرامج التعليمية:

إن محتوى الدروس المقدمة في المرحلة التحضرية والابتدائية متنوعة نذكر على سبيل المثال في مادة الجغرافيا يدرسون أنواع المجاري المائية وأنواع البحار وتضاريس سطح الأرض، وفي الحساب التدريب على العمليات الحسابية الأربعة من 1 إلى 20، وفي الرسم التعريف بالأشكال الهندسية البسيط مثل المربع والمستطيل والمثلث، وبالنسبة للطور الابتدائي تمارين في اللغة مثل التعريف بالفعلين المساعدين (Etre – Avoir)، وتصريفهما، الحروف الملحقة بالأسماء عند استعمالها في صيغة الجمع، وفي مادة الأخلاق يتم التركيز على الجوانب الايجابية في السلوك مثل: الجد، الوفاء، الاخلاص في العمل، وتقبيح الجوانب السلبية كالكسل[34]، كما تتناول دروس الأخلاق القوانين العامة المتحكمة في العمل والتضامن أي تلك القوانين التي تعتبر كل عمل نزيه شرفا"[35] وبالنسبة لمادة التاريخ يتم التركيز على إبراز الصفات الحميدة لشخصيات مختارة من التاريخ الفرنسي كالشجاعة، الوطنية، الصدق[36]، وقد وضعت هذه البرامج من أجل خدمة الاستعمار وتطبيق فكره في الجزائر.

وقد انتقد Compes في تقرير له طريقة تدريس المعلمين المساعدين والممرين "والتي تشبه الطريقة المتبعة في الزوايا والكتاتيب القرآنية التي تعتمد على الحفظ والذاكرة ففي مادة اللغة Langage ، وهي مادة أساسية في الطور التحضيري، كثير من المعلمين لا يعرفون تلقين اللفظة وتوصيلها لذهن التلميذ

بالشيء الملموس أو المحسوس، وآخرون يتوقفون طويلا عند القواعد النحوية المجردة والتوسع فيها مما يجعل التلميذ يشعر بالتيه والضياع وما ينجم عنه من إحباط والشعور باليأس، سجل أحد المفتشين في تقريره أن معلما في مدرسة مستغانم كرّس ساعة كاملة لشرح مختلف الاستعمالات لكلمة quelque أي بعض، لأطفال في المرحلة التحضيرية في مادة المطالعة التوضيحية فالشرح يدور حول قواعد اللغة بدل التركيز على شرح مدلولات الأشياء واستخراج من الكلمات المكونة للجملة معاني محددة تترسخ في الذاكرة"[37]

وبالنسبة لمرحلة التعليم الابتدائي الأساسي ؛ في مادة اللغة يتم التدريب على المحادثة كوصف مأدبة عشاء في إحدى المناسبات العائلية، كما يتم التدريب على استعمال الضمائر وبناء أنواع الجمل، وفي مادة الأخلاق تتمحور حول الطاعة والانضباط، وفي مادة التربية البدنية يتم تعريف التلاميذ بمؤسسات الدولة كالوالي العام ومجلس الحكومة، وفي مادة الجغرافيا يتم التعريف بالدول الأوروبية الكبرى، وفي مادة الحساب يرتقي التلميذ للتعرف على الكسور وفي الرسم على الأشكال الهندسية المركبة[38]، وقد تم التركيز في المناهج التربوية على ضرورة نشر وتعليم اللغة الفرنسية.

تخضع المدارس للتفتيش، ويتم تعيين المفتش بعد اجتياز مسابقة يشترط فيها أن لا يقل عمره عن 25 سنة، وأن يكون له معرفة باللغة العربية واللغة القبائلية، وأن تكون له خبرة لمدة عامين كمندوب للتفتيش، وبعد ذلك يمنح شهادة الكفاءة في التفتيش[39]، وهذا يدل على الحرص الاستعماري في مراقبة المدارس وما مدى خدمتها للاستعمار، ويشرف على هذه المدارس معلمون فرنسيون، وقد نص المرسوم الرئاسي 15 ديسمبر 1906، فقد تضمنت المادة السادسة أن يكون مساعدي الادارة من الأهالي في المدارس الأهلية، ويحدد

عددهم في بلدية الحاكم العام[40]، وتتكلف المجالس المدرسية وبإشراف المفتش الرئيسي، في وضع قائمة للتلاميذ في سن الدراسة والتشاور حول أفضل الطرق لسير الدراسة بشكل عادي ومنتظم[41]، كما يشاركهم في ذلك المجلس البلدي وباستشارة أعيان البلاد.

فشلت سياسة التعليم الفرنسية في الجزائر بسبب العجز في وضع مخطط عام لها يتم تطبيقه بجدية على أرض الواقع، كما أن التعليم كان موجه لمناطق معينة ولفئة اجتماعية محدودة، ولم يكن وفقا لخطة محكمة تعتمد على المعطيات الواقعية فيقول شارل اندري جوليان: «عجز التدريس عن التزويد بمخطط واضح أو بمنهج فعال، ولم يتم فتح المدارس في الأماكن التي تأكد فيها نفعها بل في الأماكن التي أمكن فيها إقامتها؛ أي في البلديات المختلطة والبلديات الأهلية...فمن المفارقات الكبيرة أن يشرع في التعليم بداية من الجبليين الغلاظ والقاطنين في أبعد القرى عن المدن وعن مراكز الاستيطان عوض التعلق بالحضر الذين كانوا في احتكاك دائم مع تواجدنا»[42]، ورغم أن الاستعمار قبائل بعينها، فمثلا تيزي وزو من منطقة القبائل لم يكن بها سوى مدرسة، فيقول جوليان «إثر سنة 1882، تركز الجهد التعليمي في منطقة القبائل فكيف يمكن أن نتصور أن بلدية تيزي وزو المكتملة الوظائف والتي كانت تعد 30.000 من السكان الأهالي لم تكن في سنة 1907 تتوفر سوى على مدرسة واحدة مع قسمين تم إنشاؤها من طرف السلطة العسكرية في سنة 1860» [43]، ومعنى هذا أن إنشاء مدرسة كان يتطلب شروط الموالاة لفرنسا، فمعظم القبائل الموالية هي التي استفادت من التعليم قبل تعميمه فعليا بعد الحرب العالمية الأولى.

ومن القبائل التي استفادت من التعليم قبيلة مت وآيت يني وبني واغليس وبني يعلا «وهكذا تتحول قبيلة مت صدفة إلى قبيلة مستنيرة على غرار

آيت يني القبيلة الاكثر حظ في التمدرس في الجزائر، وعلى غرار بني واغليس (9مدارس فيها 22 قسما لمجموع 17.000 ساكن)، أو بني يعلا في قرقور – بلاد القبائل الصغرى- (7 مدارس منها 4 منذ 1892)»[44]، فالتعليم كان موجه لمناطق محددة إمّا لموالاتها للاستعمار أو من أجل إخضاعها فكريا ومعنويا.

2- الكتاتيب والصمود الثقافي:

2-1 واقع الكتاتيب:

ارتبطت الكتاتيب بالمساجد كما ارتبطت الزوايا بالطرق الصوفية، فإنشاء تلك المؤسسات التعليمية الصغيرة تاريخيا عبارة عن انشقاق عن المؤسسة الأم (المسجد)، فوظيفة الكتاتيب تحفيظ القرآن الكريم للأطفال وترتيله لهم، وقد دعت الحاجة لتأسيسها من أجل "تجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضائهم والاحتفاظ بنقاوتها، وطهارتها و وقارها، وهذه الكتاتيب أحيانا بيوت منفردة وأحيانا مجموعات من البيوت، وقد تكثفت في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، كأسلوب لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسة وحماية الشخصية الجزائرية، ومقاومة سياسة التجهيل الفرنسية"[45]، فقد عوضت الكتاتيب انهيار المساجد رقم قلتها مقارنة بفترة قبل الاستعمار، لأن عدد معلمي القرآن تناقص بسبب تقلص مؤسسات تخريج حافظي القرآن.

أصبحت الكتاتيب رمز استمرار التعليم القرآني؛ "فكان الجزائريون يعتمدون على التعليم على ما كان يسمى بالكتّاب أو في البادية بالشريعة[46]، وقد شملت المبادئ المتلقات حفظ القرآن والكتابة والرسم القرآني وكذلك التربية الدينية وحفظ الأحاديث وأداء الصلوات وحسن الأخلاق، وذلك بوسائل تقليدية مثل اللوح والدواة وقلم القصب"[47]، وكان الطالب (معلم القرآن)

ينصت إلى قراءة الأطفال ثم يملي عليهم آيات يكتبونها مع حث الكبار على احترام قواعد الرسم الاملائي، كان تعليمهم مقتصر على ذلك، والفائدة التربوية الوحيدة هنا هي أن الأطفال يتعلمون الكتابة باللغة العربية أو بالنقل الصوتي للغة المنطوقة من غير مراعاة لأية قاعدة نحوية[48]، وهو المنهج المتبع في أغلب مناطق الجزائر.

إن المنهج المتبع في الكتاتيب يعتمد على التعليم الشفوي بقراءة القرآن من طرف المعلم وتكراره من طرف التلاميذ، بداية من تعليم الحروف[49]، فيجلس الأطفال من مختلف الأعمار ذكورا وإناثا على الأرض في شكل دوائر نصفية، فيملي عليهم أجزاء من القرآن الكريم يكتبونها على ألواح خشبية مطلية بطين الصلصال، وأقلام من الخشب وصمغ مصنوع من الصوف المحروق، وبعد كتابته وتصحيحه في الفترة الصباحية يتمرن الأطفال على قراءته قراءة أولية، ثم يتلونه في المساء ويقرؤونه جهرا حتى يحفظونه ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي، ويكتبون غيره وهكذا بصفة دورية حتى يأتون على كل سور القرآن وأحزابه[50]، ويبدأ الطفل بالحروف ثم الفاتحة ثم سورة الناس وما قبلها حتى يصل إلى سورة البقرة، فيكون قد أتم القرآن فيما يعرف بـ"الختمة" فيعمل والده حفلة يستدعى أقاربه ويكرم فيها التلميذ ومعلم القرآن.

يعطينا أحد الفرنسين صورة عن طريقة التعليم داخل الكتاتيب في وصفه وهو يشاهد معلم قرآن يدرس فيقول بولسكي: إن حصة الحفظ تجري في مدرسة (مكتب) صغير مفتوح عادة على الشارع، وكل المارة يشاهدون ما يجري، الأرض مغطاة بالحصير، والتلاميذ يجلسون عليها حفاة متربعين، ويقف المؤدب وسطهم بعصا في يده، وللتلاميذ ألواح خشبية يكتبون عليها بأقلام مبراة من القصب، وهم يكتبون من إملاء المؤدب، وبعد أن يطلع المؤدب على ما كتبوا

يقرأون جميعا بصوت عال، إن هناك الكثير من الضجيج في هذه المكاتب، وقلما يفقد المؤدب صبره، وله شخصية مهابة، والتلاميذ غالبا ما يظهرون الحماس والاهتمام، ثم أن الصياح والقراءة العالية تشغل التلاميذ عمّا يجري في الشارع وعن الزوار، إن هناك علاقة متينة وثقة متبادلة بين المؤدب والتلاميذ...وعلاقة الود والاحترام بين المؤدب والتلميذ تستمر مدى الحياة[51] ولا تنتهي بالخروج من المدرسة"[52]، وهذه الصورة تنطبق على مختلف الكتاتيب في أنحاء الجزائر، لأن الوسائل التعليمة موحدة، وطريقة التدريس متوارثة من جيل لآخر.

2-2 الدعوة لإصلاح طرق التعليم في الكتاتيب:

ينتقد أبو يعلى الزواوي طريقة التعليم في الكتاتيب، ويقترح منهج آخر في التدريس فيقول: "أرى أن يجعل الأولاد المتعلمون طبقات على حسب الأسنان والإدراك أي قسما قسما ويكون تعلم الصغار من سبعة أعوام إلى اثنتي عشرة سنة مقتصرا على قراءة القرآن بالإملاء وكتابة على قاعدتنا في الألواح من خشب أو قصدير ، وكذلك العناية بالحفظ وصناعته لأنه معراج وسلم إلى الأدب واللغة العربية فيتمادون إلى حدّ البلوغ مع قواعد عربية ومسائل صرفية إلى دراسة الفقه والتوحيد والتفسير والتاريخ العام وسيرة النبيء صلى الله عليه وسلم وأصحابه والجغرافيا والإنشاء والحساب والفرائض والمعاني والبيان والمنطق إلى أن يبلغوا ثمانية عشر عاما من أعمارهم، فيزيدون سنة أو سنتين في الأصول والعلوم العالية ودراسة السياسة العامة الدولية فيمتحنون أثناء تلك المدة ويتخرج منهم أفراد يتولون الوظائف الدينية وغيرها"[53]، ولاشك أن هذا الاقتراح أحسن في تطوير منهجية التعليم داخل الكتاتيب لأنها تتم بشكل عشوائي يغيب فيها المنافسة والمستويات، ويتم تدريس الكل في قسم واحد قد يصل الفارق بين أصغرهم وأكبرهم 20 سنة، وهذا ما يؤثر سلبا على العملية التعليمية.

لقد انتقد بشدة غي برفيليي منهج التعليم في الكتاتيب وغيرها من مؤسسات التعليم الاسلامي فقال: "كان التعليم التقليدي يعتمد على تلقين مضامين الوحي الإلهي باللغة المقدسة، أي اللغة العربية الكلاسيكية، ولقد أدى ذلك النمط التعليمي البالي إلى تقليص مجالات إعمال الفكر ومن ثمّة إلى تعتيم رونق الحضارة العربية الاسلامية التي أيقظت العالم المسيحي من سباته، فليس تم علم يستحق الذكر سوى تدريس القرآن والمواد المساعدة على فهمه وشرحه وتطبيقه، وأما عدا ذلك فزوائد عديمة القيمة"[54]، ورغم أن مهمة تخريج العلماء توكل إلى المساجد والمدارس والزوايا، فإن الكتاتيب هي القاعدة الأساسية لبث روح العلم في نفسية التلميذ، لكن تراجعها كان سبب الواقع الثقافي الذي آلت إليه الجزائر والعالم الاسلامي بصفة عامة، بل أن بعض الكتاتيب اقتصرت على تحفيظ بعض السور الصغيرة وآيات من القرآن لأداء الصلاة، وقل الاهتمام بطلب العلم حتى في العلوم الدينية.

ومما زاد الوضع أكثر تدهورا أن معلمي القرآن لا يحفظون كل القرآن فضلا عن أحكامه ورواياته، وأصبحت مهنة طالب (معلم القرآن) مقصد الأغلبية من أجل الاسترزاق في زمن الاستعمار وما يرادفه من كلمة المجاعة والحرمان، ولهذا لا نستغرب من تصريح لوروي بوليو L.beaulieu سنة 1886 الذي قال فيه أن معلمي المدارس القرآنية جهلة تقريبا، وهم لا يعرفون إلا القراءة والكتابة[55] ويصف كامبون حالة المعلمين في خطاب له أمام مجلس الشيوخ بتاريخ 19 جوان 1894 فيقول: " إننا نرى رجال فقراء، نصف عراة، غريب أمرهم يجوبون المدن والبوادي، ويعيشون بما يتصدق عليهم الناس، ويعلمون القرآن، هؤلاء الأشخاص يحتاطون بشهرة قدسية لا تزول عنهم ما داموا يكنون لنا العداوة والبغضاء"[56]، فالمعلمون الذين يحفظون بعض سور القرآن فقط يلجؤون

للأرياف للإشراف على المصلى وتحفيظ ما حفظوا من القرآن، والقداسة التي تحيط به قد لا تمنح لعالم متفقه في مدينة، فيلجأ له السكان في الفتوى والتبرك وحتى التداوي بالرقية الشرعية التي أصبحت تحت مسميات عديدة.

2-3 السياسة الاستعمارية اتجاه المدارس القرآنية:

حاول الاستعمار القضاء على الكتاتيب والتعليم القرآني بصفة عامة واستبداله بالتعليم الفرنسي؛ فيقول لويس رين: "في مجال التعليم، تهدف جهودنا منذ 1830 للحد من التعليم القرآني واستبداله تدريجيا بمجانية التعليم أكثر عقلانية، وأكثر ملاءمة، وفوق كل هذا يكون أكثر فرنسيا"[57]، لأن تلك المؤسسات وإن كان مردودها ضعيف بسبب ظروفها المالية الصعبة، فهي في نظر الاستعمار عقبة تعيق المشروع الاستعماري، ولهذا خصصت الادارة الاستعمارية مبلغ قليل موجه للمؤسسات الدينية الاسلامية ضمن ميزانية المؤسسات الدينية، فهو ضعيف جدا مقارنة بالمؤسسات الدينية الأخرى المسيحية واليهودية؛ والجدول التالي[58] يوضح ذلك:

المذاهب	عدد الأفراد (نسمة)	قيمة الانفاق الفرنسي	معدل الانفاق (الفرنك)
الكاثوليك	310.000	920.100	2,93
البروتستانت	7.500	83.100	11,08
اليهود	35.665	26.100	0,731
المسلمين	2.842.497	216.340	0,076

وهناك إحصائيات أخرى لسنة 1906؛ فكان مبلغ الانفاق على المسيحية هو 884.000 فرنك، واليهودية 31.000 فرنك، والاسلام 337.000 فرنك[59]، وهذا كان في عهد الحاكم العام جونار الذي اهتم بالمؤسسات الدينية الاسلامية قليلا مقارنة بالولاة الذين سبقوه، فيذكر المهدي بوعبدلي أن ميزانية

كافة الوظائف الشرعية والدينية في مدينة الجزائر قدرت ب60 ألف فرنك سنة 1892، في حين كانت تصل في العهد العثماني إلى سبعة ملايين فرنك للعاصمة وأربعين مليون للجزائر كلها[60]، والقيمة المخصصة للمسلمين مخصصة فقط لتسديد رواتب الموظفين من مفتين وأئمة وغيرهم، بينما لم يكلف الاستعمار نفسه عناء ترميم المؤسسات الدينية الاسلامية فضلا عن بناء مؤسسات جديد رغم الأموال الضخمة التي يجمعها من الضرائب.

لم تكتف الادارة الاستعمارية بالتضيق المالي على الكتاتيب، بل أخضعتها ومختلف المؤسسات التعليمية إلى الرقابة والتفتيش بموجب قانون 30 أكتوبر 1886، وأكد على ذلك المرسوم الوزاري 15 ديسمبر 1906، وتخضع للرقابة فيما يتعلق النظافة والصرف الصحي والالتزامات المفروضة، والمعلومات المقدمة[61]، كما أن للحاكم صلاحيات تحديد عددها[62]، وبالتالي فإنشاء كتّاب يتم بترخيص من الادارة الاستعمارية، كما منعت من ممارسة عملها فترة التدريس في المدارس الفرنسية الموجهة للأهالي.

وفي ختام هذه الدراسة نقول: أغلب أبناء الجزائريون توجه للمدارس القرآنية رغم السياسة الاستعمارية في استقطاب أبناء الجزائريين، فهناك فئة قليلة من تعلمت في المدارس الفرنسية قبل بداية الحرب العالمية الأولى، وهذه الفئة هي أبناء القياد والعمال في الادارة الاستعمارية أو له علاقة مباشرة بالاستعمار، ومع تراجع عدد الكتاتيب والمدارس القرآنية داخل المجتمع الجزائري في نفق من الجهل وصل إلى أرقام قياسية.

[1] جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009، ص91.

(2) Guy Perville, les étudiants algériens de l'université française 1880-1962, Edition Casbah, Algérie, 2004 , P18.

(3) شارل روبير (أجرون)، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص615.

(4) جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، المرجع السابق، ص74-75.

(5) عبدالحميد (زوزو)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2010، ص230.

(6)المرجع نفسه، ص230.

(7)Linda Lehmil, « L'édification d'un enseignement pour les indigènes : Madagascar et l'Algérie dans l'Empire français », Revue Labyrinthe, N 24, Hermann- France, 2006, P105.

(8) جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، المرجع السابق، ص84.

(9)Combes (M) , Instruction publique, Revue algérienne et tunisienne de législation et de jurisprudence , N° 09 publiée par l'École de droit d'Alger , 1893, P.52

(10)Ibid, P 47-48.

(11) Ibid, P P48-50.

(12) Ibid, P50.

(13) جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في العهد الاستعماري، المرجع السابق، ص96-97.

(14) المرجع نفسه، ص90.

(15) المرجع نفسه، ص97.

(16) أحمد (منور)، أحمد (منور)، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي؛ نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص66.

(17)الطاهر (زرهوني)، الطاهر (زرهوني)، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ت، ص15.

(18) المرجع نفسه، ص18.

(19) جمال (خرشي)، جمال خرشي، الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830-1962، دار القصبة للنشر، 2009، ص360.

(20) المرجع نفسه، ص361.

(21) مصطفى (زايد)، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر (1962-1980)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص110.

(22)Barbedette (M), Rapport au nom de la commission des finances chargée d'examiner les projets budgétaires votes par les délégations financières, conseil supérieur de l'Algérie, Alger, 1906, P 15.

(23)Coppolani Xavier et Octave Depont, les confréries Religieuses musulmanes, Alger, 1897, P243.

(24)شارل روبير (أجرون)، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج1، المرجع السابق، ص946.

(25) شارل روبير (أجرون)، الجزائر المسلمون وفرنسا، ج2، المرجع السابق، ص542.

(26) المرجع نفسه، ص682.

(27) ناصر الدين (سعيدوني)، الجزائر منطلقات وآفاق؛ مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 2000، ص34.

(28)Jonnart (M.C), Exposé de la situation générale de l'Algérie, Imprimeur du gouvernement général, Alger, 1906, P373.

(29)ناصر الدين (سعيدوني)، الجزائر منطلقات وآفاق؛ مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 2000، ص34.

(30) شارل روبير (أجرون)، الجزائر المسلمون وفرنسا، ج1، المرجع السابق، ص953.

(31)أوصت العديد من التقارير والدراسات الطبية على ضرورة تفعيل الأنشطة الرياضية في مناهج التعليم، ومنها دراسة الطبيب بمستشفى قسنطينة هنري مالبوت الذي أشار إلى الأنشطة الرياضية وتأثيرها على صحة الانسان والوقاية من الأمراض خاصة للأطفال وأوصى بإدراجها في مناهج ومقررات التدريس، مستشهدا بأن الرومان انتبهوا مبكرا لفائدة الرياضة على جسم الانسان فشيّدوا الملاعب لممارسة مختلف الألعاب الرياضية. ينظر :

Henri Malbot, L'art D'élever les enfants en Algérie, Constantine- Algérie, 1899, P78-79.

(32)GASQUET (M), «commission de l'allègement et de l'adaptation des programmes», Bulletin de l'Amicale des

membres de l'enseignement des indigènes de l'Algérie, 4me année, N° 12 , 1909, P 09-11.

(33)Guy Perville, les étudiants algériens de l'université française 1880-1962, op.cit, P18.

(34) جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في العهد الاستعماري، المرجع السابق، ص94.

(35)غي (برفيليي)،النخبة الجزائرية الفرانكفونية 1880-1962، تر: حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص35.

(36) جمال (قنان)، التعليم الأهلي في الجزائر في العهد الاستعماري، المرجع السابق، ص94.

(37) المرجع نفسه، ص86.

(38) المرجع نفسه، 94.

(39) ينظر المادة 58:

(39)Décret du 15 décembre 1906, Bulletin de l'Amicale des membres de l'enseignement des indigènes de l'Algérie, 2me année, No2 , 1907, P19-20.

(40)Ibid, P12.

(41) ينظر المادة 8 من المرسوم الرئاسي 15 ديسمبر 1906:

Décret du 15 décembre 1906, Bulletin de l'Amicale des membres de l'enseignement des indigènes de l'Algérie, op.cit, P12.

(42) شارل روبير (أجرون)، الجزائر المسلمون وفرنسا، ج2، المرجع السابق، ص571.

(43)المرجع نفسه، ص571.

(44) المرجع نفسه، ص572.

(45)يحي (بوعزيز)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص129.

(46)تختلف اسمه من منطقة إلى أخرى، وله تسميات عديدة منها: المسيّد ، وفي بعض مناطق الجنوب الجزائري تسمى المحضرة، أقربيش ..وهي عبارة عن مدرسة صغيرة مهمتها تحفيظ القرآن الكريم والقراءة والكتابة.

(47)شخوم (السعدي)، «التعليم التقليدي في الجزائر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين»، الملتقى الوطني الأول حول التعليم في الجزائر أثناء الاحتلال 1830-1962،

المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، عنابة-الجزائر، يومي 14-15 جوان 2009، ص44.

(48)شارل روبير (أجرون)، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج2، المرجع السابق، ص583.

(49)Mercier (E), Question indigène en Algérie au commencement du xx^e siècle, Augustin challamel, Paris , 1901, P184.

(50) يحي (بوعزيز)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص129.

(51) هناك مقولة مأثورة عندنا متداولة: "من علمني حرفا صرت له عبدا"، ومن بين العادات أن الطالب المتعلم الذي يزاول دراسته في الزاوية، بعد رجوعه يزور معلمه الأول بعد زيارة والده، ويدعو له في كل دعاء "اللهم أغفر لنا ولوالدنا ولمشايخنا ولمن له الحق علينا، ولجميع المسلمين والمسلمات" في الدعاء المتداول.

(52) أبوالقاسم (سعدالله)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، المرجع السابق، ص41.

(53) أبو يعلى (الزواوي)، تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي، ط01، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005، ص152.

(54) غي (برفيليي)، المرجع السابق، ص23-24.

(55) أبوالقاسم (سعدالله)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، دار الغرب الاسلامي، بيروت-لبنان، 1998، ص51.

(56) محفوظ (سماتي)، الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر: محمد الصغير بناني وعبدالعزيز بوشعيب، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص211.

(57) Louis Rinn, marabouts et khouans étude sur l'islamen en Algérie, Adolphe Jourdan , Alger , P05.

(58)Ibid, P13.

(59)كريم (ولد النبية)، الجزائريون والإدارة المحلية الاستعمارية في عمالة وهران 1866-1947، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الجيلالي ليابس-سيدي بلعباس، 2005-2006، ص327.

(60)المهدي (البوعبدلي)، تاريخ المدن، جمع وإعداد: عبدالرحمن دويب، ط01، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص76.

(61) ينظر المادة 48:

Décret du 15 décembre 1906, Bulletin de l'Amicale des membres de l'enseignement des indigènes de l'Algérie, op.cit, P18.

(62) ينظر المادة 56: Ibid, P19.

التحولات المناخية في الصحراء الوسطى خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة

د. لخضر بن بوزيد – جامعة محمد خيضر بسكرة – الجزائر

الملخص :

لقد حدثت سلسلة من التحولات المناخية بالصحراء الوسطى في الهولوسين، فقد سجل العلماء على الأقل ستة مراحل كبرى من الرطوبة والجفاف، ففي الهولوسين المبكر بين 8000 و 5000 ق.م كانت المنطقة كثيفة السكان والأجواء كانت رطبة بفضل الأمطار الموسمية، لكن الوضع لم يستمر طويلا فقد حدثت موجات جفاف، ثم تلتها مرحلة رطبة في الهولوسين الأوسط بين 4500 و 2500 ق.م .

وفي تلك الفترة من النيوليتي كانت البيئة مناسبة للاستقرار البشري وأهم ما عرفه الإنسان في ذلك الوقت تدجين الأبقار والأغنام ، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا فقد بدأت المنطقة تتجه بشكل متسارع نحو الجفاف وهُجرت الكثير من المواقع، أما بين 1500 و 1000ق.م فقد عادت الرطوبة إلى الصحراء ، وفي النهاية ساد الجفاف الذي استمر إلى اليوم.

Abstract:

Climatic Changes during the last 10.000 years in the Central Sahara

A series of climatic changes has occurred throughout the Holocene. In fact, scientists have recorded up at least three stages of wet and dry climatic. The early Holocene was generally warmer With rapid arrival of monsoon rains.

Central Sahara turned into a habitable region 8000-5000 BC , this phase was interrupted by an abrupt arid oscillations. followed by a return to humid conditions 4500-2500 BC

The fertile conditions during the Neolithic supported increased human settlement throughout the Sahara. The most important achievement of this phase is the introduction of domestic livestock. Sheep and goats, thereafter, the area became progressively more arid and was increasingly abandoned , however, the humidity returned to the area between 1500-1000 BC, but in the end the Sahara became only dry land. Which prevailed to This Day.

مقدمة :

لقد وجدت رسومات للفيلة وأفراس النهر وتماسيح في الفن الصخري بمنطقة الطاسيلي والهوقار الواقعتان في قلب الصحراء، كما وجدت بقايا اسماك في بعض المناطق، وهو ما يعني أن الصحراء الوسطى كانت ذات مناخ رطب وأنه قد وجدت فيها بحيرات وأنهار، كما أن البقايا الحضارية كالأواني الفخارية والسلال والأدوات الحجرية التي نجدها أينما حللنا في الصحراء الوسطى تدل على أن المنطقة كانت مليئة بالسكان.

ورغم أن تلك الدلائل تظهر بما لا يدع مجالا للشك أن الصحراء كانت ذات مناخ رطب وأن الظروف المناخية فيها كانت ملائمة جدا للحياة ، لكن السؤال

المطروح هو في أي فترة كانت الظروف المناخية في الصحراء رطبة ؟ وكيف حدث التحول إلى الجفاف؟

من الواضح أن التحول من الرطوبة إلى الجفاف والعكس قد حدث أكثر من مرة في ما قبل التاريخ، وفي الاخير تعرضت المنطقة للجفاف القاسي الذي جعلها مكانا لا يصلح للإقامة الانسانية، ولكن هل من الممكن أن يعود للازدهار من جديد؟

لا يمكنا التكهن بذلك ولكن يجب التأكيد على أن علماء المناخ يعتقدون أننا نعيش اليوم مرحلة ما بين جليدية منذ نهاية آخر عصر جليدي وهو عصر "الفورم" würm مما يعني أن الجليد قد يعود مرة أخرى، وهو ما ينعكس على الصحراء بالجفاف أو الرطوبة، وعند استعراض المناخ القديم للصحراء نلاحظ أنها قد تعرضت للجفاف أكثر من مرة وقد كان الجفاف الذي حدث في نهاية البلايستوسين أكبر وأشد قساوة من الجفاف الحالي، لكن الامطار كان تعود إلى الصحراء في كل مرة بعد انتهاء الجفاف ، وتزدهر الحياة من جديد وهذا الامر حدث عدة مرات في فترات ما قبل التاريخ فقد تعاقبت عليها أدوار من الرطوبة والجفاف.

أما أدوار الرطوبة والجفاف التي حدثت في البلايستوسين فهي غير معروفة بدقة ولعلها استغرقت آلاف السنين، وما هو معروف أنه في كل مرة تعود فيها الأمطار كان الإنسان يستقر بكثافة في الصحراء وتزدهر الحضارة، وهذا ما حدث في الفترات التي شغلتها الحضارات المختلفة التي تعاقبت على الصحراء كالأشولية والموستيرية والعاترية.

أما بالنسبة للهولوسين[1] فالأمر مختلف فبسبب قصر المدة وكثرة الأبحاث التي تناولت المناخ القديم ، فإنه يمكن القول أن التغيرات المناخية التي مرت بها الصحراء باتت معروفة بالنسبة للباحثين، ولكن الأمر لا يخلوا من وجود بعض

المشاكل المتعلقة بتزمين المراحل الرطبة والجافة، أو تحديد شدتها وامتدادها المكاني والزماني، ومن هذا المنطلق فإن ورقة البحث هذه تدرس التحولات المناخية التي مرت بها الصحراء الوسطى في العشرة آلاف سنة الأخيرة، والسؤال الذي نسعى للإجابة عليه هو: ماهي مراحل الرطوبة والجفاف التي تعاقبت على الصحراء الوسطى في عصر الهولوسين؟ وكيف كانت ظروف الحياة فيها، وكيف تجاوب الإنسان مع تلك التحولات المناخية؟

أولا: التحولات المناخية في الصحراء في نهاية البلايستوسين :

تعرضت منطقة شمال إفريقيا لتأثيرات وضغط شديد مصدره الجليد الأوربي الذي امتد بصفة كبيرة، فقد كانت البرودة شديدة في معظم أنحاء شمال إفريقيا وبصفة خاصة في المرتفعات، أما في الصحراء فإن الجفاف كان هو سيد الموقف لكن الجو لم يكن يخلو من البرودة[2]، ونتيجة لهذه الظروف القاسية هجر الإنسان وحتى الحيوانات المنطقة، وتسبب ذلك في زوال الحضارة العاترية[3] التي كانت قد انتشرت في الصحراء في حوالي 40 ألف سنة، كما أن العروق الرملية قد تكونت في ذلك الزمن خاصة العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير، ولم يتفق الباحثين حول الإطار الزماني والمكاني لهذا الجفاف ، وفيما إذا كان شديدا لدرجة فراغ الصحراء من السكان .

وفي هذا الإطار يذكر "روبار فارني" أن الصحراء كانت خالية من السكان بين18 ألف و8000 قبل الميلاد والذي يصادف نهاية العاترية[4]، والجدير بالذكر أن الباحثين قد اختلفوا حول شدة ومدة هذا الجفاف، فمنهم من يقول بأنه استغرق فترة طويلة وأن الأمطار لم تعد إلى المنطقة إلا مع بداية الهولوسين في حوالي 8000 قبل الميلاد، بينما يرى آخرون أن فترات رطبة قصيرة [1]المدى قد حدثت خلال هذه المدة[5].

حيث يذكر الباحث "ثياري تيلي" (thierrey tillet) أن مرحلة الجفاف تلك لم تستغرق 10 آلاف سنة كاملة بل استمرت ثلاثة آلاف سنة فقط وذلك بين 18الف و 15 ألف قبل الميلاد، فالأمطار الموسمية عادت إلى جبال "التيبستي" في حوالي 14 ألف قبل الميلاد، ومن الممكن أن مناطق الهوڤار والطاسيلي قد تأثرت بها أيضا[6].

مع العلم أن الابحاث الاثرية لم تسجل وجود بقايا حضارية في معظم المواقع خلال تلك الفترة، حيث يظهر فيها بوضوح الانقطاع الذي حدث للفترة الرطبة العاترية مع نهاية البلاسيتوسين، فقد تشكلت الكثبان الرملية في الحدود الجنوبية للهوڤار مثل "عين قزام" و "تيهوداين"[7]. كما لم يسجل وجود أي من المجموعات البشرية بين نهاية العاترية حتى 8000 ق.م[8]، ويحتمل أن العاتريون الذين كانوا في الصحراء قد اتجهوا إلى منطقة الساحل الافريقي[9] أو سواحل المحيط الأطلسي ربما توجهوا شمالا إلى بلاد المغرب [10].

ومن المفترض أن تلك الجفاف قد شمل مناطق واسعة من وادي النيل إلى المحيط الأطلسي، فقد سجل تناقصاً كبيراً في الأمطار في جميع الأماكن بين 18.000 و16.000 ق.م، وحدث جفاف شبه كامل لبحيرة تشاد[11]، كما غزت الرمال بحيرات "شامشان" في أدرار الموريتانية[12]، وتوسعت الصحراء في الجنوب بشكل أكبر مما هي عليه الآن بما بين 300 إلى 400 كيلومتر باتجاه منطقة الساحل[13] .

ومع ذلك فإن بعض المناطق كانت تتمتع بالخصوصية فالصحراء الجنوبية[14] ومنطقة الساحل عادت إليهما الأمطار تدريجيا ابتداء من 12500 قبل الميلاد، وكانت الحياة فيهما أكثر ملائمة للوجود البشري مماهي عليه اليوم[15]، أما في وادي النيل فقد بدأ الجفاف في 19 ألف قبل الميلاد وانتهى في حدود 10500 قبل الميلاد [16]. (المخطط 01)

أما في بلاد المغرب فالأمر مختلف فقد كانت الظروف أفضل حالا، وكانت المنطقة مليئة بالسكان، حيث ينسب الباحثون الحضارة الإيبرومغربية[17] إلى تلك الفترة[18]، فالرطوبة في بلاد المغرب استمرت إلى غاية الألف الثامنة قبل الميلاد[19]، ومن المفترض أنها شهدت ذروتها بين 20 ألف و 18 ألف قبل الميلاد[20].

ويمكننا القول أن ذلك الجفاف الذي ضرب الصحراء كان كبيراً فقد كانت الصحراء اشد قساوة مما هي عليه اليوم، ولكن لا يمكننا الجزم بخلوها تماما من البشر، فمن الممكن أن المناطق الجبلية كانت تحتفظ ببعض الرطوبة، فاليوم توجد مناطق ذات مناخ رطب رغم كونها متواجدة في قلب الصحراء، وقد صنفت هذه المناطق من طرف المنظمات الدولية التي تُعنى بالبيئة، وذلك وفق اتفاقية "رامسار" للمناطق الرطبة في العالم، كما هو الأمر بالنسبة لمنطقة "إهرير" و" تيهوبار" بالطاسيلي، التي تتميز ببيئة موروثة عن المرحلة المطرية الأخيرة .

ثانيا : التغيرات المناخية في الهولوسين المبكر :

مع بداية "الهولوسين" في الألف العاشرة قبل الميلاد عادت الأمطار وعاد معها الإنسان الذي استقر هذه المرة بكثافة في الصحراء لتزدهر بعدئذ حضارات النيوليتي (العصر الحجري الحديث)[21] في مناطق الطاسيلي والهوڤار، حيث تبرز مظاهرها خاصة في الفن الصخري والفخار المبكر، والجدير بالذكر أنه إذا كانت الصحراء قد خلت من السكان في فترة البلايستوسين النهائي فإن تعميرها بالبشر قد تطلب وقتا، وبما أن الفخار الذي وجد في الصحراء يعود إلى بداية الهولوسين في حوالي 8000 قبل الميلاد، فإنه بلا شك أن الأمطار بدأت في الظهور قبل تلك الفترة بكثير. (المخطط 01)

أ– المرحلة الرطبة الكبرى للهولوسين : 8000 – 5000 ق.م (المخطط 01)

عندما انتهى عصر "الفورم" الجليدي الذي كان آخر عصر جليدي ضرب أوروبا أصبحت الظروف المناخية في الصحراء مواتية للحياة، فقد أدى ضعف الجبهة القطبية إلى تزايد الرياح الموسمية المحملة بالأمطار في اتجاه الصحراء الوسطى والشمالية، فبعد عدة آلاف من السنين من الجفاف بدأت الأمطار الموسمية تتجه إلى الصحراء الكبرى، وتغير بذلك المناخ إلى الرطوبة وكان سببا في ازدهار حضارات النيوليتي الصحراوية[22] .

وحدث نتيجة لذلك نشاط كبير للشبكة المائية بالهوڤار والطاسيلي والتيبستي وجنوب موريتانيا، وتشكلت بذلك بحيرات كبيرة، وقد كانت نسبة الأمطار معتبرة حيث بلغت 300 مم في السهول وكانت في الجبال أكبر، ولعل منطقة الطاسيلي والهوڤار قد تلقت كميات أكبر من الأمطار مقارنة مع بقية الأماكن كالصحراء الشمالية أو منطقة فزان الليبية، وهذه الظروف جذبت السكان وجعلت من الصحراء الوسطى مركز سكانيا وحضاريا كثيفا في النيوليتي[23]. (الخريطة رقم 01)

ولم تكن عودة الأمطار متزامنة في كل الأماكن ففي وادي النيل سجلت عودة الأمطار ابتداء من 8000 ق.م، حيث لوحظ امتداد كبير للغطاء النباتي في المناطق المفتوحة من وادي النيل وصل إلى حوالي 800 كلم شمالا، وكانت البيئة النباتية والحيوانية مماثلة لبيئة السافانا الحالية، مع وجود شبكة مائية كبيرة تتكون من أنهار ذات مجاري واسعة وبحيرات[24] (الخريطة رقم 02)

أما في شمال إفريقيا فأولى الإشارات على الذبذبات الرطبة سجلت منذ 12.000 ق.م لكن الرطوبة توسعت وعمت المنطقة بين 10.500 و10.000 ق.م وتأخرت في الصحراء إلى 8000 ق.م[25]، أما في غرب إفريقيا فالأمر مختلف فقد عادت الأمطار بقوة وتوسعت البحيرات في حوالي 10.000ق.م ووصلت إلى مستوياتها العليا بين 7500 و7000 ق.م ثم انخفضت في حوالي 6000 ق.م، كما تشكلت البحيرات في أماكن مختلفة في

"الساورة " وفي سبخة "شامشان" الموريتانية في حوالي8000 ق.م[26]. (الخريطة رقم 02)

وفي الصحراء الجنوبية بدأت المرحلة الرطبة في حدود 10000 ق.م وازدهرت الحياة النباتية والحيوانية في حوالي 8000 ق.م، وعندما بلغت المرحلة الرطبة أقصاها بين 7000 و6000 ق.م كانت نسبة الأمطار قد سجلت مستويات قياسية وصلت إلى ما بين 600 و1000مم في السنة في جبال التيبستي، أما في السهول فكانت تتراوح بين 300 و 400 مم [27].

وفي ذلك الوقت وصلت بحيرة تشاد إلى أقصى اتساعها حيث كانت متصلة بجبال "التيبستي"، أما درجات الحرارة فقد كانت منخفضة[28]، كما انتشرت الكثير من البحيرات الصغيرة والمتوسطة في عموم الصحراء الجنوبية منها بحيرتا "شاري" (Chari)و"لوغون"(logon) في حوالي 10.000 ق.م، وعلى ما يبدو فإن هذه المرحلة الرطبة كانت قوية إذ استمرت الأمطار في الصحراء إلى غاية 6000 ق.م[29].

ورغم أن الرطوبة كانت كبيرة في ذلك الوقت، إلا أنه ربما تكون قد حدثت انقطاعات من الجفاف قصيرة المدى[30]، فقد لاحظ الكثير من الباحثين أن هذه المرحلة شهدت تذبذبات مناخية جافة قصيرة الأمد وضعيفة الشدة تمت ملاحظتها من طرف جغرافيين ألمان في جبال "التيبستي"، ومن طرف الباحث" فراد واندورف" (FRED Wondorf) في الصحراء الغربية المصرية، ومن طرف "بيار رنون" (PIERRE Rognon) في "جبال الأتاكور" بالهوقار، وأكثرها وضوحا كانت بين 7000 ق.م و6000 ق.م في الهوقار[31]، ولوحظت أيضا في منطقة "تين هناكتن" بالطاسيلي وقد أرخت بحوالي 5170± 140 قبل الميلاد[32]، وفي سهل "التينيري" تعود إلى 5260±120 قبل الميلاد[33].

أما من حيث الاستقرار البشري فقد سجلت الباحثة "باربارا باريش" وجود استقرار بشري في حوالي 7000 ق.م في منطقة "تين تورها" بجبال الأكاكوس" الليبية، أما في الهوڤار فقد سجل وجود بقايا حضارية قرب بحيرات في "هيرافوك" (Hirafok) و"إيررزو" (Irerzo) في حوالي 9630 ق.م و6430 ق.م، وأن السكان الذين كانوا يعيشون في تلك الأنحاء كانوا من صائدي الأسماك وصيادو الحيوانات البرية[34]، أما أولى شواهد الاستقرار البشري في واحة "نباتا بلايا" جنوب الصحراء المصرية فتعود إلى ما بين 8000 و6200 قبل الميلاد[35] .

وقد وجدت دلائل على استقرار مبكر للصيادين الأوائل في "الهولوسين" قرب العديد من البحيرات الصحراوية المتحجرة مثل "أمكني"(Amekni)، و"أدرار تيوين "(Adrar Tiouiyne) و"سيلي" (Silet)، و"عين قزام In) Guezzam)، و"منيت"(Meniet) وعرق "آدمر" (Admer) جنوب الطاسيلي[36] .

وبشكل عام يمكن القول أن الفترة بين 8000 و 6000 ق.م وربما إلى غاية 5000 ق.م كان المناخ فيها رطبا مع وجود فترات جافة قصيرة الأمد، أما مظاهرها العامة فقد تمثلت في:

- ظهور وتوسع البحيرات الصحراوية وأهمها بحيرة تشاد التي من الممكن أنها وصلت إلى 10 أضعاف حجمها الحالي (الخريطة رقم 02)

- مرحلة الهولوسين الرطبة قد شهدت تذبذبات جافة ورطبة بين 6500 و 5800 قبل الميلاد سجلت في الكثير من المواقع منها: بحيرة تيڤالمامين (Tigalmamine) و"سبخة ملالة" (Mellala)، و"تين أوفادان" Tin) (Ouaffadene، وفي بحر الغزال بالسودان وبحيرة "بوستومي

(Bosumtwi) في غانا "وبحيرة "تنجانيقا" بكينيا، وبحيرة "ملاوي" (Malawi) بموزمبيق وبحيرة "أبهي" (Abhé) باثيوبيا.[37]

- المناخ أصبح مثاليا في حوالي 6000 قبل الميلاد بتوسع كبير للبحيرات وامتداد حوض نهر النيجر ليصل حدود مالي وموريتانيا الحالية[38] .

- الاستقرار البشري كان كبيراً وكان الناس يسكنون قرب الأنهار والبحيرات حيث وجدت بقاياهم هناك وهم من الصيادين وصائدي الأسماك، لكنهم عرفوا صناعة الفخار مما يعنى أنهم كانوا مستقرين أو شبه مستقرين، كما تركوا تراثهم الفني على صخور الطاسيلي والهوقار في المراحل الفنية القديمة التي تعرف عند الباحثين بمرحلة نقوش "الجاموس العتيق" ورسوم " الرؤوس المستديرة"، أما الرعاة فقد وجدوا في نهاية هذه الفترة ومن المفترض أن معظم سكان الصحراء في تلك الفترة كانوا من الزنوج.

ب- **الجفاف الكبير في اواسط "الهولوسين"**: 5000 ق.م- 4500 ق.م (المخطط 01)

لاحظ الباحثون وجود مراحل جافة قصيرة منذ بداية "الهولوسين" لكن هناك اختلاف في تحديد زمنها ومدى اتساعها[39]، وعلى العكس من ذلك بالنسبة للجفاف الكبير في أواسط "الهولوسين" فقد وجدت آثار تدل عليه في كامل الصحراء، وكذلك في المناطق الاستوائية في شرق إفريقيا ومن بين الدلائل على وجوده :

- تم تسجيل انخفاض في العديد من أحواض البحيرات بعد 5500 ق.م ويستمر الانخفاض إلى ما بين 4500 و4000 ق.م.

– تخلي الجماعات البشرية عن بعض المواقع مثل منطقة "أدرار بوس" في النيجر في حوالي 5400 ق.م، وفي "الأكاكوس" تم التخلي عن ملجأ "تين تورها" في نفس الفترة.

– تراجع نسبة الطمي في الأودية في جبال "التيبستى" وطبيعته الخشنة تدل على الجفاف .

– وصلت بحيرة تشاد إلى أدنى مستوي لها مقارنة مع مستوياتها العليا المسجلة في 7000 ق.م وفي 4500 ق.م، فقد غزتها الرمال بين 6000 و 5000 ق.م.

ورغم المعطيات السابقة الذكر إلا أنه من المرجح أن الجفاف الذي حدث في أواسط "الهولوسين" لم يكن متزامناً في جميع المناطق، فقد ظهر في منطقة الساحل والصحراء الجنوبية بين الألف السادسة والخامسة قبل الميلاد، بينما في الصحراء الغربية المصرية سجل في واحة "نباتا بلايا" بين 5700 و5300 ق.م[40]، أما بالنسبة لبلاد المغرب فيمكن ملاحظته في حلزونيات الحضارة "القفصية" في منطقة الشريعة بالجزائر فيما بين 6200 ق.م و5600 ق.م[41] .

أما بالنسبة للصحراء الوسطى فقد ظهر في حوالي 5000 ق.م واستمر إلى غاية 4500 ق.م، ومن المفترض أنه لم يكن شديداً ولا مستمراً فقد حدثت فيه انقطاعات ، كما أن البحيرات الصحراوية ظلت صامدة مع أن منسوبها انخفض بشكل كبير، مما يعني أن الأمر يتعلق ربما بذبذبات رطبة وجافة قصيرة في الزمن ومحدودة في المكان [42]، فالباحث "روبار فاربي" مثلا يذكر أن هذا الجفاف لم يكن كبيرا فقد سماه أزمة جفاف مصحوبة بالبرودة في مختلف المناطق [43] .

ثالثا: التغيرات المناخية في الهولوسين الأوسط :

أ– المرحلة الرطبة للنيوليتي: 4500 – 2500 ق .م (المخطط 01)

لم تكن الظروف المناخية مستقرة في بداية الهولوسين الأوسط فقد تعرضت الصحراء إلى الجفاف أكثر من مرة بين 5000 ق.م و 4500 ق.م، وعادت بعد ذلك الأمطار بقوة إلى المنطقة وعم الازدهار كل أنحاء شمال إفريقيا، وآثار ذلك تبدو جلية في العديد من المواقع ففي مصر ازدهر موقع قرية الفيوم" [44]، وفي "مرمدة بني سلامة" في "الدلتا" فيما بين 5000 و4100 ق.م وجدت دلائل على الرطوبة الكبيرة [45]، وفي حوالي 4000 ق.م ظهر مركز نيوليتي هام في وسط السودان هو "الشهانب"، حيث انتشرت هناك الحيوانات المستأنسة كالأبقار والأغنام وقد عرفت هناك الزراعة لكن بشكل متأخر، وازدهرت الحياة الرعوية حول وادي "هوار" (Howar) في شمال السودان[46].

وقد توسعت البحيرات في العديد من المناطق، فقد عثر على بقايا التماسيح النيلية في موقع الفيوم، كما وجدت بقايا التماسيح في الصحراء الوسطى في العديد من المواقع مثل : "منيت" "بالتيديكلت"، وحوض "تاوديني" شمال مالي، ووادي "هوار" شمال السودان، و"أدرار بوس" شمال النيجر[47]. (الخريطة رقم 01)

والاطار الزماني لهذه المرحلة غير محدد بدقة فقد قيل إنها كانت بين 4000 و2800 ق.م، أو بين 4500 و 2300 ق.م [48]، وحددها آخرون بين 4500 و 2500 ق .م وقيل بأن المنطقة كانت ذات مناخ شبه استوائي مطير[49]، لكن الباحثة "باربارا باريش" حددت هذه المرحلة بين 5100 و 3000 ق.م[50]، بينما وضعها كل من "مورو غراماشي" و"سافينوا دي لارينيا" بين 5000 و4000 ق.م[51].

وقد اتفق الباحثون أن هذه الرطوبة هي التي أدت إلى ازدهار حضارة رعاة الأبقار في الصحراء الوسطى، والتي تدل عليها المواقع النيوليتية الهامة التي تعود لهذه الفترة في جبال الصحراء الوسطى، ففي الفترة بين 5000 و 4000 قبل الميلاد أصبحت المواقع الأثرية أكثر كثافة بالبقايا الحضارية، وذلك يتناسب مع بداية الحياة الرعوية وانتشار الرعاة في كافة الأماكن خلال النيوليتي، فقد عثر على

بقايا حضارية كبيرة في جميع الأماكن كمنطقة "حاسي الأبيض" شمال مالي، والتيبستي في تشاد وفي الأراضي المرتفعة في الهوڤار والطاسيلي وأودية جنوب الجزائر، وفي البحيرات القديمة في أدرار بوس و أرليت(Arlit) بالنيجر[52].

ونذكر في هذا الإطار أن هذه المرحلة الرطبة قد شهدت بدورها بعض التذبذبات الجافة فالمناخ لم يكن مستقرا دوما في الصحراء، ولعلها شهدت قوتها في الألف الخامسة والرابعة ثم في الألفية التي تليهما بدأت في التناقص بشكل متسارع مع الأخذ في الاعتبار وجود فوارق بين المناطق، فبحيرة تشاد وصلت إلى أقصى مستوى لها في 4000 ق.م، أما في جبال التيبسبي فعودة الأمطار أدت إلى تشكل بحيرات في بداية النيوليتي لكنها تناقصت في حوالي 4000 ق.م[53]، بينما شهدت بلاد المغرب رطوبة كبيرة بين 4500–3000 ق.م ، وقد لوحظ ذلك في ترسبات كهف "كابليتي"(CUPELETTI) [54] بالأوراس[55].

وبشكل عام يمكن القول أن الهولوسين المبكر والأوسط تميز بالرطوبة الكبيرة ولكن تخللته فترات جافة اختلفت شدتها ومدتها من منطقة لأخرى ، فوفق ما تذكر الباحثة "باربارا باريش" فإن الرطوبة شملت كل الأنحاء ماعدا المناطق القريبة من البحر المتوسط وكذا وادي النيل التي كانت تتأثر بمؤثرات متوسطية [56]، وهذه الظروف الملائمة أدت إلى الاستقرار البشري الكثيف وانتشار الحياة الرعوية بشكل كبير، حيث ازدهرت حضارة رعاة الأبقار في الطاسيلي والهوڤار.

ب– المرحلة الجافة بعد النيوليتي : 2500 – 1500 ق.م (المخطط 01)

بعد نهاية الرطوبة التي غطت كامل فترة النيوليتي ظهرت مرحلة جافة لم تستمر مدة طويلة ولم تكن شديدة فهي أقل من تلك التي سجلت بين 5000 و4500 ق.م، لأن بعض الملاجئ مثل "تين تورها" في الأكاكوس لم تتخلّ عنها المجموعات البشرية على عكس ملاجئ أخرى في "أدرار بوس" التي هجرها السكان في حوالي 2400 ق.م، أما بالنسبة للبحيرات فقد بدأت بالانخفاض

الشامل بداية من 2800 ق.م، كما لوحظ تراجع في نسبة السكان حول البحيرات بين 2700 و1000 ق.م[57].

وفي حوالي 2000 قبل الميلاد أصبحت تلك المواقع الصحراوية جافة، وبدأت كثافة المواقع الحضارية تنتقل إلى الجنوب أكثر أي إلى حوض "الأزواد" شمال مالي، وحوض "التلمسي" الواقع في الطرف الشمالي الغربي "للأزواد"، وكذلك قرب بحيرة "تشاد"، وفي هذه الفترة ظهر موقع هام في موريتانيا هو "ظهر تشيت" وهو بعيد عن الساحل الأطلسي، أما في الطاسيلي فقد ظهرت صور الأغنام والماعز في الرسومات الصخرية وتناقصت صور الأبقار مما يدل على أن الظروف المناخية أصبحت غير ملائمة لتربية الأبقار [58].

وقد لوحظ في الوقت نفسه تراجع في مستوى بحيرة تشاد ابتداء من 3000 ق.م ثم تفاقم الوضع أكثر في حوالي 2500 ق.م، لتغزوها الكثبان الرملية ابتداء من 2000 ق.م[59]، ومن المرجح أن أغلب المواقع الحضارية في الصحراء الوسطى ظلت صامدة إلى ما بين 2000 – 1000 ق.م، وفي النهاية تخلى عنها الإنسان نهائيا، وعندما ساءت الظروف أكثر تركز السكان قرب مصادر المياه القليلة المتبقية والتي أصبحت تعرف "بالواحات"[60]، ويمكن القول بأن الواحات الصحراوية التي نعرفها اليوم قد ظهرت في هذه الفترة .

ويمكن أن نلخص مظاهر هذه المرحلة في العناصر التالية :

– تناقص كبير للسكان في الصحراء تدل عليه قلة البقايا الإنسانية التي تمثل هذه المرحلة.

– فقدان الاستيطان البشري في موقع "الشهانب" في السودان، لكن في المقابل ازدهرت مناطق أخرى في السودان مثل "كرمة"(Kerma) التي ازدهرت مع بداية الألف الثانية ثم تدهورت مواقعها الأثرية إلى غاية ظهور ثقافة" مروى" في الألف الأولى قبل الميلاد[61].

– منطقة الساحل أصبحت أكثر جفافا، كما سجل تراجع في نسبة الغابات الاستوائية، والجفاف أمكن ملاحظته في موقع "كاكاريشنكا" (Karkarichinka) في التلمسي بمالي ما بين 2000 و1400 ق.م، وفي الساحل الموريتاني في منطقة "شارني" بعد 2000 ق.م، وفي الداخل الموريتاني في "تشيت" بين 1400 –1100 ق.م .

– تطورت بعض المناطق في منطقة الساحل وقرب المحيط الأطلسي بفعل هجرة الرعاة إليها من الصحراء الوسطى، فزراعة الحنطة تمت ملاحظتها في "كاركاريشنكات" وفي "ظهر تشيت"(Tichitt) بين 1200و 1000ق.م، وفي المقابل تم التخلي عن المواقع الصحراوية مثل أدرار بوس، لكن الحياة بقيت ممكنة في جوار البحيرات المتبقية والمناطق المرتفعة[62].

– خلال الألفية الأولى و الثانية قبل الميلاد بدأ الجفاف بالاشتداد تدريجيا ، وهو ما أدي إلى اختفاء بقية البحيرات الصحراوية التي كانت موجودة في "التانزروفت" وفي الصحراء الشمالية، غير أن تواريخ الراديو كربون أكدت وجود مسطحات مائية في سهل "التينيري" في تلك الفترة[63] .

ومما سبق يتضح لنا أن الصحراء الخضراء بدأت تتجه نحو الزوال لتحل محلها صحراء قاحلة، لكن لحسن الحظ أن الجفاف لم يستمر طويلا، ولم تغادر كل المجموعات البشرية وعندما تحسن المناخ عادت مجموعات أخرى إلى الصحراء.

ثالثا: التحولات المناخية في الهولوسين المتأخر:

أ– آخر المراحل الرطبة للهولوسين : 1500 – 1000 ق.م (المخطط 01)

خلال الألف الثانية قبل الميلاد تلقت الصحراء نسبة من الرطوبة لكنها لم تستمر طويلا ولم تكن كبيرة، إذ أن الأمر يتعلق بآخر الذبذبات الرطبة المطيرة التي

كانت تقريبا بين 1500 و1000 ق.م وربما استمرت إلى 500 ق.م، وهي لم تشمل كل الأنحاء لكنها كانت واضحة أكثر في بحيرة تشاد.

كما لوحظ وجود مجموعات سكانية جديدة في الصحراء الوسطى، يدل عليها انتشار القبور "الميقاليتية " وصور الفن الصخري، ومن المفترض أن قبائل "الجرامنت"[64] قد ظهرت في منطقة فزان الليبية في هذه الفترة، كما ظهر راكبو الحصان والعربات وهم من أوائل البربر، وعلى العموم يمكن القول أن الحياة كانت لا تزال ممكنة في الصحراء، حيث تجمعت مجموعات بشرية حول مصادر المياه المتبقية في الطاسيلي والاكاكوس والهوڤار، ويمكن تلخيص المظاهر العام لهذه المرحلة الرطبة في ما يلي:

- عرفت بحيرة تشاد ارتفاعا قليلا في مستواها في حوالي 1300 ق.م كما ظهرت بحيرات في صحراء تشاد والنيجر بين 1500 و1000 ق.م.

- وفي موقع كاركاريشنكات (Karkarichinkat) بمنطقة "التلمسي" بمالي كانت هناك بيئة شبيهة "بالسافانا" بين 2000 و1400 ق.م، كما لوحظ ازدياد في منسوب بحيرة الساورة ببشار بين 1500 و1000 ق.م، وفي التيبستي كانت البيئة باردة في حوالي 1000 ق.م. ويبدو أن منطقة الساحل كانت رطبة أكثر من الصحراء الوسطى فقد قامت الباحثة نيكول ماري (Petit-N.Maire) بدراسة الإقامات البشرية في منطقة "التانزروفت" المالية وأظهرت النتائج أنه في 1800 ق.م كانت البيئة حول البحيرات تتميز بوجود حيوانات ونباتات تعيش في البيئة الساحلية مثل الأبقار الكبيرة وغزال الدوراس والفيلة، كما وجدت أصداف المياه العذبة مما يدل على المناخ الرطب[65] . (الخريطة رقم 01)

- اختفت الحيوانات الكبرى تقريبا من الصحراء الوسطى فربما اتجهت إلى الشمال نحو الأطلس الصحراوي الذي كان أكثر رطوبة أو نحو الجنوب في منطقة الساحل، والمراعي ضلت موجودة لكنها ضعيفة فربما كانت تصلح للأغنام والماعز

فقط. – لوحات الفن الصخري في كل مكان تقريبا استمرت فيها رسوم الأبقار، ولكن هذه المرة إلى جانبها الأغنام والماعز وحيوانات السهوب مثل النعامة والزرافة والظبي، وكثرت في هذه الفترة مشاهد الحروب والرجال المسلحين، وفي الأخير ظهرت الخيول في المشاهد، ثم ظهرت في مرحلة لاحقة عربات "الجرامنت" في الصحراء[66] .

وبداية من ذلك الوقت حدث انفصال بين شمال إفريقيا وبقية أجزاء القارة، حيث تأكد ارتباط الصحراء الوسطى بعالم البحر المتوسط من الناحية الحضارية والاقتصادية وانقطعت صلتها بالعالم الإفريقي، فقد سيطر الجنس الأبيض القادم من شمال إفريقيا عليها، واستعبدت بقية المجموعات السوداء الموجودة في الصحراء من طرف البربر.

ب– الجفاف الحالي في الصحراء: (الخريطة رقم 01)

تناقصت الأمطار بشكل كبير في الصحراء في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، وفي الألف الأولى قد الميلاد تصحرت الأجزاء الشمالية من الصحراء، أما الصحراء الوسطى فقد كانت لا تزال تحتفظ ببعض الرطوبة، ولكن الحياة تزداد صعوبة في الصحراء مع مرور الوقت، وفي الوقت الذي عاش فيه المؤرخ هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد كان هناك تصحر شبه كامل للصحراء، ويمكن القول أن المناخ الحالي قد بدأ في حوالي 500 ق.م، مع أن بعض الباحثين يرون أنه بدأ في القرون الأولى للميلاد[67].

ونحن نرى أن الجفاف كانت تزداد وتيرته عبر الزمن وذلك منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، فهيرودوت أكد وجود الصحراء في نصوصه، إلا أنه لم يصفها بالحدة التي هي عليها اليوم، وإلى جانب ذلك ذكر وجود بحيرة "تريتون"[68] في بلاد المغرب التي يوجد موقعها الحالي في شط الجريد بتونس، وفي ذلك إشارة إلى أن المناخ في ذلك الوقت كان أفضل من المناخ الحالي .

ومهما يكن من أمر فإنه في الأخير أصبحت الصحراء مكاناً غير ملائم للعيش ماعدا في الواحات التي كانت تحتوى على المياه، وفي ظل هذه الظروف تحولت بعض المجموعات الصحراوية إلى الزراعة وتخلت عن الرعي الذي لم يعد ممكن في ذلك الوقت .

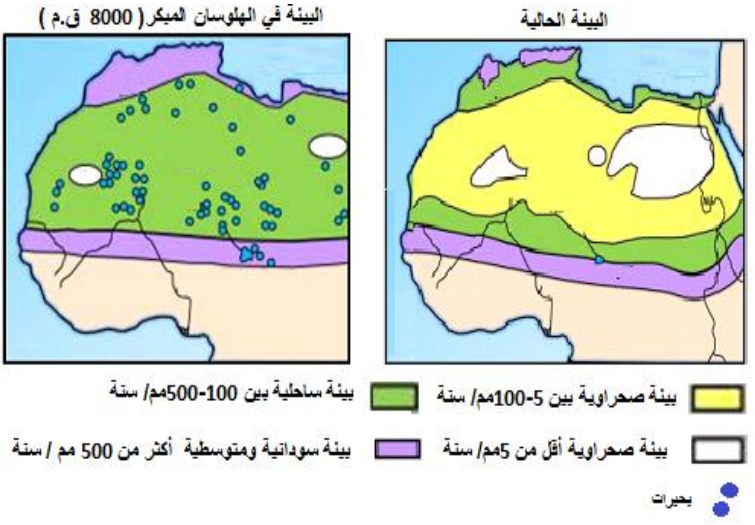

الخريطة رقم 01: البيئة القديمة والحالية في الصحراء الوسطى(المصدر بتصرف)

Migliore Jérémy.,2013, Surviving in mountain climate refugia: new insights from the genetic structure and diversity of the relict shrub Myrtus nivellei (Myrtaceae) in the Sahara desert. PLOS ONE 8 (9), p3

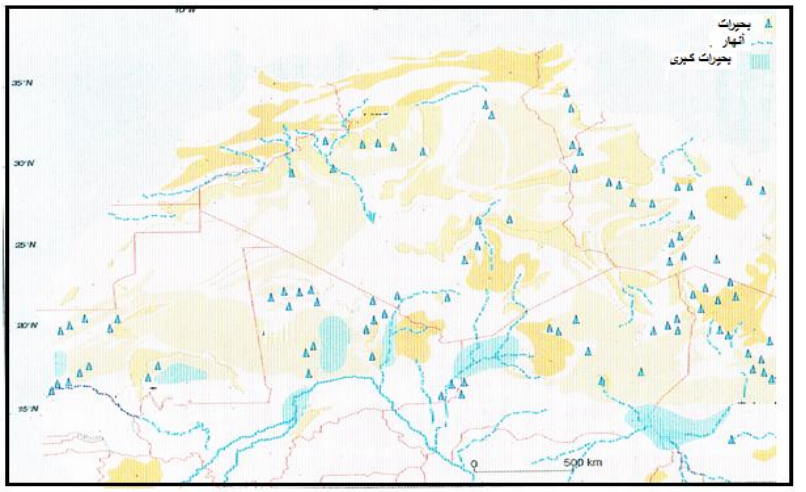

الخريطة رقم 02: شروط الحياة في شمال إفريقيا خلال المراحل الرطبة (المصدر بتصرف) Marc Cote., 2014, P27

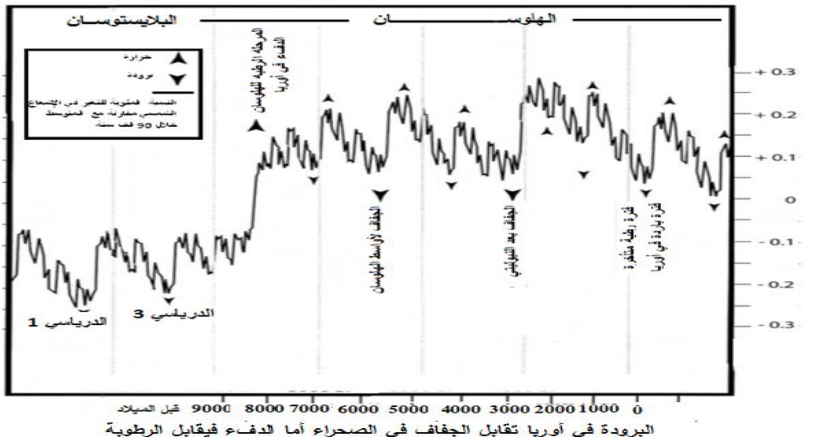

المخطط رقم 01: التغيرات المناخية في الصحراء في البلايستوسين المتأخر والهولوسين (المصدر بتصرف)

Jean-Loic Le Quellec., 2006, L'adaptation Aux Variations Climatiques Survenues Au Sahara Central Durant l'Holocène.», In :M'hammed

Hassine Fantar (Ed.), Le Sahara Et l'Homme: Un Savoir Pour Un Savoir-Faire. Actes Du Colloque Organisé A Douz Du 27 Au 29 Décembre 2003,Tunis: Université De Tunis El Manar ,P111

الهوامش:

[1] الهولوسينHolocene هو المرحلة الحديثة في التقسيم الطبقي الجيولوجي وهو يبدأ من حوالي 9700 قبل الميلاد، وتعنى الكلمة "العصر الأخير"، وأول من استعمل الكلمة هو الفرنسي P.Gervais بين سنوات 1867- 1889، وقد أطلقه على المرحلة التي انتهى بها العصر الجليدي الأخير ، وفي سنة 1885 اعترف المجلس الجيولوجي الدولي بأن الزمن الرابع يتكون من عصرين هما على التوالي : البلايستوسين والهولوسين ، ينظر :

M. J. C. WALKER et al ., Formal subdivision of the Holocene Series/Epoch: a Discussion Paper by a Working Group of INTIMAT (Integration of ice-core, marine and terrestrial records) and the Subcommission on Quaternary Stratigraphy (International Commission on Stratigraphy), JOURNAL OF QUATERNARY SCIENCE (2012) 27(7) p649

[2] قدر الباحث "جون ميلي" درجات الحرارة في مناطق التيبستي بتشاد في الفترة ما بين 15ألف و 13 قبل الميلاد بما بين 6° و10° ، مما يعني أن مناطق الطاسيلي والهوقار والصحراء الشمالية كانت أكثر برودة بسبب علوها ،كما سجلت برودة شديدة في مناطق الأوراس بالجزائر أيضا ، ينظر :

Jean. MALEY., 1983, Histoire de la végétation et du climat de l'Afrique nord, Bothalia 14, 3, 4, p 380

[3] العاترية هي حضارة محلية أُكتشف موقعها الرئيسي في وادي الجبانة بمنطقة بئر العاتر قرب تبسة، وهي تتميز بأدواتها الحجرية ذات العنق، وقد امتدت زمنيا بين45 ألف سنة و20 ألف سنة ، وأناس الحضارة العاترية من الممكن أنهم ظهروا منذ حوالي 80ألف سنة وفق ما يذكر الكثير من الباحثين، وقد تميزت بكثرة الشظايا والنصال مع وجود تقنية لافلوازية في مرحلتها القديمة، ووجود أدوات ذات الساق والتي تزداد أكثر في المراحل المتطورة، ومن بين أدواتها رؤوس السهام الخشنة والنصال الكبيرة والمتوسطة التي أصبحت أكثر دقة في المرحلة المتطورة، ينظر :

Ginette Aumassip ., 2001, 2001, L'Algérie Des Premiers Hommes, Paris : Ed. De La Maison Des Sciences De l'Homme, P55, M. Reygasse. 1922, Note au sujet de deux civilisations préhistoriques africaines pour les quelles deux termes nouveaux me paraissent devoir être employés, in: XLVIème session de l'Association française pour l'avancement des Sciences,Montpellier, pp. 467-472.

[4] Robert Vernet., 2007, Le golfe d'Arguin de la préhistoire à l'histoire, Parc National du Banc d'Arguin - Nouakchott - PNBA ; 03 , p36

[5] من الواضح وجود اختلاف بين الباحثين حول الإطار الزمني للجفاف الذي انتهت به الحضارة "العاترية" في الصحراء ، فالأبحاث التي قام بها ج فابر وضعت بداية الجفاف بين 25 ألف و20 ألف ، ينظر :

Jean Fabre., 2005, Géologie du Sahara occidental et central, Tervuren, Belgique: Royal Museum For Central Africa, pp463-466

[6] Alain Durand ., 1997, Sahara - Paléomilieux Et Peuplement Préhistorique Au Paléistocène Supérieur In The Upper Pléistocène Superieur , Cuvette Tchadienne Central , L'Harmattan , Paris , pp305-306

[7] Jean Fabre., 2005, pp463-466

[8] B.I. Szabo, C.V. Haynes If., T.A. Maxwell ., 1995, Ages of Quaternary pluvial episodes determined by uranium-series and radiocarbon dating of lacustrine deposits of Eastern Sahara, Palaeoecology,t 113, pp227-247

[9] منطقة الساحل تعرف بأنها منطقة انتقالية بين الصحراء في الشمال والمنطقة السودانية الرطبة في الجنوب ، وهي تأخذ شكل حزام يمتد من نهر السنغال حتى الجزيرة السودانية في أعالي نهر النيل ، ويبلغ طول هذا الإقليم ما يقارب 5500 كلم ويبلغ عرضه ما بين 400 إلى 500 كلم، وهو يعرف اليوم جفافا قاسيا ، ينظر :

http://www.universalis.fr/encyclopedie/sahel- يوم 14-06-2014 ، الساعة11:41

[10] Robert Vernet., 2007,p36

[11] للمزيد من المعلومات حول الدراسات التي قام بها جون ميلي على مستوى بحيرة تشاد ، يرجى العودة إلى :

Jean MALEY., 1977, Palaeoclimates Of Central Sahara During The Early Holocene. Nature, 269, 573-577, pp573-577, Jean ,MALEY., 1981, Etudes palynologiques dans le bassin du Tchad et paléoclimatologie de l'Afrique nord-tropicale de 30.000 ans à l'époque actuelle.Travaux & Documents ORSTOM, n°129. 586p

[12] Necole. Petit-Maire., 1991, Recent Quaternary Climatic Change And Man In The Sahara, Marseille, France Journal Of African Earth Sciences, Vol. 12, N° 1/2, 1991, pp 127-128

[13] Necole .Petit-Maire., 2012, Sahara les grands changements climatique naturels, Paris : Errance, 2012, p64

[14] تقسم الصحراء الكبرى إلى ثلاثة أقسام الصحراء الشمالية وهي المنطقة المحاذية لجبال الأطلس الصحراوي شمالا وتعرف أيضا بالصحراء المنخفضة ، والصحراء الوسطى تليها مباشرة وتوجد فيها منطقة الهوقار والطاسيلي وهي ذات طبيعة صخرية لكن توجد بها عروق رملية واسعة ، هناك الصحراء الجنوبية التي تحاذي منطقة الساحل الإفريقي جنوبا

[15] Boudé Gado., 1996, Paléoenvironnements Et Occupation Humaine Des Temps Préhistoriques A L'époque Contemporaine , La Réserve Naturelle Nationale De L'air Et Du Ténéré (Niger) , Union Internationale Pour La Conservation De La Nature Et De Ses Ressources , Grenoble. France : Edition Cent Pages, p273

[16] Barbara E. Barich ., 1998 , People ,Water And Grain: The Beginning Of Domestication , In The Sahara And The Nile Velley , Roma : L'ERMA DI BRETSCHNEIDER ,p25

[17] هي الحضارة التي بدأت ما بين 20 ألف و19 الف قبل الميلاد، وانتهت في حدود 10.600 قبل الميلاد، ويعتقد الكثير من الباحثين أن أصلها من الشرق رغم أنها انتشرت في بلاد المغرب، وقد تميزت بالصناعة الحجرية الصغيرة والدقيقة وباستعمال العظام، والتماثيل الحجرية التي تمثل نساء وحيوانات و بيض النعام المنقوش، وعرفت استعمالا واسعا للألوان في الطقوس المدفنية ،كما عرفت رموزاً ذات دلالات ونقوش سحرية، ينظر :

R.N.E. Barton et al ., 2013, Origins of the Iberomaurusian in NW Africa: New AMS radiocarbon dating of the Middle and Later Stone Age deposits at Taforalt Cave,Morocco , Journal of Human Evolution xxx (2013) : p2, J bouyssone.

Colection préhistorique ,planches albume n°1, pasis :editions A.M.G, p110. fig107

[18] Necole. Petit-Maire., 1991, pp 127-128

[19] Jean Fabre., 2005, p466

[20] Barbara E Barich., 1998, p25

[21] يتواجد أقدم موقع للنيوليتي في العالم في اليابان حيث اكتشف أقدم فخار في كهف فوكي Fukui في جزيرة هونشو في اليابان، وتعرف تلك الثقافة ب "ثقافة الجومو" jomons وهي تعود إلى ما يزيد عن 10500 ق.م، أما في الصحراء فتعود بداية النيوليتي إلى ما يقارب 8000 ق.م ، وهو بذلك اقدم من أوربا الذي يعود بداية النيوليتي فيها إلى حوالي 5200 ق.م في سواحل اليونان (اليونان واسيا الصغرى وكريت) ، ويُقسم الباحثون فترة النيوليتي في الصحراء إلى ثلاثة مراحل وهي النيوليتي القديم والوسيط والحديث تفصل بينها فترات جفاف شهدت تراجعاً في الحياة في الصحراء، وتمثل تلك المراحل أوجه ثقافية وجغرافية وكرونولوجية في آن واحد، وهذا التقسيم مرتبط بالفن الصخري باعتباره المظهر الرئيسي لهذا العصر في الصحراء الوسطى، إلى جانب الفخار والمخلفات الحضارية الأخرى التي تزخر بها المنطقة، ينظر : Jean-Loïc Le Quellec., 2008, Les Annabelle Gallin ensembles céramiques du Bassin de Murzuq : Une contribution de l'archéologie préventive à la connaissance du Messak, Cahiers de l'AARS, N° 12 , Mai 2008. p72, Hiroshi Kajiwara And Aleksei V. Kononenko ., 1999, The Origin Of Early Pottery In Northeast Asia In The Context Society For California Of Environmental Change, Archaeology, Vol 12, P64-65, Junko Habu., 2004, Ancient Jomon of JAPAN, Cambridge University Press, United Kingdoom, p27, A M ,AMMERMALIANN , CAVALLI , SFORZA L.L., 1971, mesuring the rate of spread of early farming in Europe , MAN, n°6, pp674-688

[22] Mary Anne Tafuri Et al ., 2006, Mobility And Kinship In The Prehistoric Sahara Strontium Isotope Analysis Of Holocene Human Skeletons From The Acacus Mts. (Southwestern Libya), Journal Of Anthropological Archaeology 25 ,2006, P 390, M. Cremaschi., And S Di Lernia., 2001, Environment And Settlements In The Mid-Holocene Palaeo-Oasis Of Wadi Tanezzuft (Libyan Sahara). In : Antiquity، 75, pp819-823

[23] Andréa Dué ., 1994, Le Sahara Vert Et L'Egypte Prédynastique La Révolution Du Néolithique Premiers Vilages Premiers Cultures, Paris:Edition Hatier, P 34

[24] Jean-Loïc Le Quellec, Pauline Et Philippe De Flers., 2012, Peintures Et Gravures D'Avant Les Pharaons De Sahara Au Nil, Fayard / Soleb, Encyclopédie Animale, P173

[25] Sharon E Nicholson And Hermann Flohn.,1980, African Environmental And Climatic Changes And The Central Atmospheric In Late Pleistocéne And Holocéne , Climatic Change 2, 1980, P313

[26] Alfred Muzzolini ., 1985, Les Climats Au Sahara Et Sur Ses Bordures Du Pleistocene Final A L'aride Actuel, Revue Empuries, T47, P17

[27] من الممكن أن هذه المعلومات قد لا تكون دقيقة ، وذلك لأنه وفق ما يذكر كل من بياجاتي Stefano Biagetti ودي لارينيا Savino Di Lernia فإنه إذا كانت كمية

التساقط تتراوح ما بين 0 إلى 300 مم فإن هذه المنطقة تعد جافة ، وإذا كانت ما بين300 و600 مم فهي تصنف ضمن المناطق الشبه الجافة ، ينظر :

Stefano Biagetti, Savino Di Lernia., 2003, Vers un modèle ethnographique-écologique d'une société pastorale préhistorique saharienne، SAHARA، n° 14, p16

[28] يشير الكثير من الباحثين إلى انخفاض درجة الحرارة في المناطق الصحراوية وذلك في فترات معينة سواء في حالات الجفاف أو الرطوبة ، وهذا الأمر تم تسجيله أيضا في معظم الفترات التي شغلتها حضارات ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا ، حيث وجدت بيئة باردة على الدوام ، وعاشت هناك الدببة وحيوانات أخرى ، وقد يكون مرد ذلك إلى تأثيرات العصور الجليدية الأوربية على المنطقة ، للاستزادة حول هذا الموضوع ، ينظر :

Henry N Le Hou´Erou., 1997, Climate, flora and fauna changes in the Sahara over the past 500 million years Journal of Arid Environments :37.p632

وحول البيئة النباتية والحيوانات، ينظر:

S. Stambouli-Essassi, E. Roche & S. Bouzid., 2007, Evolution De la végétation et du Climat Dans Le Nord-Ouest de la Tunisie au Cours Des 40 Derniers Millénaires, Geo-Eco-Trop, 2007, N°31, pp 171-172 .

[29] تذكر كل من جينات أوماسب و ميشال توفر أن المرحلة الرطبة تميزت بالرطوبة والبرودة ، وأن البيئة النباتية والحيوانية فيها كانت متوسطية أو استوائية تبعا للارتفاع وقد استمرت إلى 5000 ق.م ، وهما لا ينفيان وجود انقطاعات قصيرة فيها ، ينظر :

Aumassip Ginette Et Michel Tauvron., 1993, Le Sahara central à l'Holocène. Memorie della Società Italiana di Scienze Naturali e del Museo Civico di Storia Naturale du Milano XXVI/II, p66

[30] Sharon E Nicholson And Hermann Flohn., 1980, P 313

[31] Alfred Muzzolini., 1985, pp16-17

[32] Ginette aumassip et michel tauvron ., 1993, p66

[33] Alfred Muzzolini., 1985, p12

[34] Ibid. p17

[35] Barbara E Barich., 1998, p26

[36] H. Camps-Fabrer Et G. Camps., 1972, Perspectives Et Orientation Des Recherches Sur Le Néolithique Saharien، Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée، 1972 , Vol :11, N°11, p21

[37] M. Cremaschi et al.,2010, The calcareous tufa in the Tadrart Acacus Mt. (SW Fezzan, Libya) An early Holocene palaeoclimate archive in the central Sahara Palaeogeography, Palaeoclimatology, Palaeoecology 287, p91

[38] Hélène Jousse, Gilles Escarguel ., 2006, The use of Holocene bovid fossils to infer palaeoenvironment in Africa, Quaternary Science Reviews 25 , pp775-776

[39] المراحل الجافة القصيرة المدى التي حدثت قبل النيوليتي ،كانت بين 7200 و 6500 ق.م وبين 5700 و 5300 ق.م ، ينظر :Barbara E Barich., 1998, p27

[40] Barbara E Barich ., 1998, p27

[41] Alfred Muzzolini., 1985 , pp19-20

[42] Hélène Jousse, Gilles Escarguel ., 2006, pp 775-776

[43] Robert Vernet., 2007, p37

[44] تقع الفيوم على بعد 80 كلم جنوب غرب القاهرة، وقد عثر فيها على بقايا حبوب اللقاح لعدة أنواع من الحبوب القمح والذرة، كما عثر على دلائل على تربية الحيوانات، ويعود هذا الموقع إلى ما بين 5400 و4400 ق.م ، ينظر :

Yann Tristant ., 2005, Le Delta Du Nil Avant Les Pharaons Entre Originalités Locales Et Influences Etrangères, ARCHÉO-NIL , N°15, Décembre 2005 , p87

[45] Robert Vernet., 2007, p87

[46] Gomaa Abdel-Maksoud , Mohamed Abdel-Hady .,2011, Effect Of Burial Environment On Crocodile Bones From Hawara Excavation, Fayoum, Egypt, Journal Of Cultural Heritage 12 (2011) , pp180–189

[47] Klaas De Smet., 1999, Status Of The Nile Crocodile In The Sahara Desert, Hydrobiologia, T 391, P82

[48] Alfred Muzzolini., 1995, P20

[49] Sharon E Nicholson And Hermann Flohn., 1980, P 313

[50] Barbara E Barich., 1998, p27

[51] M Cremaschi., And Savino Di Lernia., 2001, p823

[52] Hélène Jousse, Gilles Escarguel ., 2006, pp 775-776

[53] Alfred Muzzolini., 1985, p20

[54] يقع هذا الكهف في بلدية وادي الطاقة في ولاية باتنة

[55] P.-L Carter، E.S Higgs., 1979, A study of the faunal remains from La grotte Capéletti du Khanguet Si Mohamed Tahar (Aurès, Algérie). In: Roubet, C. (Ed.), Économie pastorale, préagricole, en Algérie orientale. Le Néolithique de tradition capsienne. Exemple : l'Aurès. CNRS, Paris, pp 411–414.

[56] Barbara E Barich ., 1998, p26

[57] Alfred Muzzolini., 1985, p21

[58] Hélène Jousse, Gilles Escarguel ., 2006, pp 775-776

[59] Alfred Muzzolini., 1985, p21

[60] Hélène Jousse, Gilles Escarguel ., 2006, p 778

[61] Charles Bonnet ., 1992,Excavations At The Nubian Royal Town Of Kerma: 1975-1991, Antiquity , Vol :66 , N° 252, September 1992 ,P611-612

[62] Alfred Muzzolini ., 1995, P52

[63] Gabriel Camps ، Henriette Camps-Fabrer ., 1972, P22

[64] قبيلة ليبية صحراوية كانت مواطنها قريبة من الطاسيلي ذكرها هيرودوت وقد ذكرت في أغلب المصادر الكلاسيكية، كانت لهم علاقات مع القرطاجين والرومان، وقد قيل إن لهم ملوكاً وأن أحد هؤلاء الملوك قد اجتاز الصحراء مع القائد الروماني "يوليوس ماترينوس"، ينظر :

Jean Loic Le Quellec ., 1993, Symbolisme et art rupestre au Sahara. Paris: L'Harmattan .P130

[65] Alfred Muzzolini., 1985, P22-23

[66] Ibid, P52

[67] Hélène Jousse, Gilles Escarguel, .2006, P 775-776

[68] اختلف الجغرافيون الإغريق في تعيين مكانها من شمال أفريقيا فوضعها هيرودوت بالقرب من خليج قابس، ووضعها غيره في نهاية الغرب عند شواطئ المحيط الأطلسي ووضعها بطليموس على مقربة شديدة من مدينة يوهسبيريدس (بنغازي) ، وقال بعض الباحثين انها شط الجريد الحالي في تونس ، ينظر:

http://www.marefa.org/index.php تاريخ الزيارة 27- 06-2016

التوقيت : 19:14

نشاط الحركة الوطنية الجزائرية في مواجهة السياسة الفرنسية: تجربة المظاهرات الجماهيرية خلال النصف الأول من القرن العشرين أنموذجا

أ. عبد القادر خليفي – قسم التاريخ – جامعة محمد بوضياف– المسيلة

الملخص:

تروم هذه المحاولة العلمية المتواضعة رصد ملامح التحولات النضالية التي عرفتها الجزائر مع بزوغ القرن العشرين، حيث لجأ الجزائريون إلى تغيير نمط تصديهم للمحتلين الفرنسيين باستبدال طريقة المواجهة المسلحة بالمقاومة السلمية، فكان أن ظهرت أشكال نضالية متعددة لم يسبق للوطنيين تجريبها فقد كانت حكرا على المستوطنين الأوربيين، ومن بين تلك الأساليب نزول الحشود الجماهيرية إلى الساحات العامة والشوارع في حركة مظاهرات تستهدف إسماع الصوت الجزائري المغيب، ودفع السلطات الفرنسية إلى القيام بمراجعات لسياساتها المطبقة على أبناء البلد.

تعكس تجربة المظاهرات الشعبية ذلك الزخم الذي ميّز الحياة السياسية الوطنية في النصف الأول من القرن العشرين بما أبان عن تطور كبير في مستويات الوعي والإدراك لدى الفئات العريضة من الجزائريين الذين كانوا سباقين إلى صناعة مشهد جديد غير مألوف في علاقة الأهالي بالمعمرين.

Résumé :

Cette modeste tentative scientifique traite les changements de lutte éprouvés par les algeriens à l'aube du XXe siècle, Passant d'une resistance armée à une resistance pacifique et ce la en faisant des manifestations dans les rues et dans les places publiques. Ces manifestations populaires reflètent la conscience du peuple qui caractérise la vie politique nationale dans la première moitié de ce siècle.

لقد أبدت الجزائر استماتة كبيرة في مقاومتها للمشروع الاستعماري، الذي سعى بكل الوسائل لبسط السيطرة والتوسع وإخضاع أصحاب الأرض الشرعيين، وقد فرضت طبيعة المواجهة خلال السبعين عاما التي تلت الاحتلال أن لجأ الجزائريون غالبا إلى الثورات، يدفعهم إلى ذلك فضلا عن معاداتهم المبدئية للغزاة حرمانهم من أدوات التعبير الأخرى، فقد كان للوافدين الجدد كل وسائل التعبير كالصحافة والعرائض والمنشورات، بل والتمثيل النيابي والمظاهرات، بينما تم خنق الصوت المحلي بحيث لم يكن للجزائريين شيء من ذلك، لذلك فإن مطالبهم قلما وصلت إلى السلطات الفرنسية والوسيلة الوحيدة التي تركت لهم هي الثورة.

التحولات النضالية مع فجر القرن العشرين.

مع إطلالة القرن العشرين بدا وأن أسلوب المواجهة قد تبدل، وهكذا نلحظ محاكاة الجزائريين لأساليب الأوربيين، حيث استعملت الجزائر الفتاة طريقة العرائض والوفود والإضرابات وصخب الشوارع وهو التكتيك الجديد الذي وظف من أجل الضغط على الإدارة الاستعمارية، أملا في دفعها إلى جعل أهل البلد في محيط حقل الرؤية، بعدما ظلوا خارج مجال الإبصار.[1]

والواقع أن تحرك الجزائريين في مستهل القرن العشرين، إنما جاء ردا على تعاقب الإجراءات الردعية التي سنتها السلطات الكولونيالية، فقد صدر قانون المحاكم الرادعة عام 1902م، عقب ثورة عين تركي خلال السنة التي سبقتها تدعيما لقانون الأهالي المشؤوم، بما ضرب في العمق أية إمكانية للحديث عن بصيص إصلاح إداري، وهي التي أطلقت يد الإداريين أكثر، ومكّنت الحاكم العام ومساعديه من اتخاذ إجراءات المحاكمة والنفي والسجن.[2]

وحمل العام 1906م صدور منشور عن الحاكم العام شارل جونار وعرف باسمه، وجاء في أعقاب ارتدادات ثورة عين بسام في ذات السنة، حيث أمر صاحبه رؤساء العمالات الثلاث في البلاد بتنفيذ سلسلة من الإجراءات التقييدية، فكان أن تم غلق مقاهي الجزائريين المشتبه فيهم، ومنع المهرجانات الجزائرية في النواحي التي يرتاب منها، ووجهت التعليمات كذلك إلى سحب كل رخص حمل السلاح والى

سجن كل جزائري غير موثوق فيه، وتلا هذه الإجراءات قرار منع الجزائريين من الذهاب إلى الحج خلال موسم 1908م، مع تبرير ذلك بعوامل وقائية صحية.

أمام كل هذه التدابير الظالمة التي ضربت في مقتل الهامش المحدود للحرية، ودعمت ركائز السلام الفرنسي المزعوم، كان من الطبيعي أن تشهد الجزائر غليانا متعدد الأشكال في اتجاه حلحلة الوضع القائم، وهذا الحراك الجزائري يسقط الأفكار المروّجة من لدن بعض المؤرخين، الذين يعتقدون أن الجزائر كانت في ذلك العهد هادئة وراضية، والذين يتعين عليهم إذن مراجعة أطروحاتهم كما ذهب إليه المؤرخ أبي القاسم سعد الله.[3]

ولإظهار تصميمهم على استعادة حريتهم في هذا العهد، عمد الجزائريون إلى استعمال طرق جديدة من بينها الإضرابات العامة، والمظاهرات السياسية في الشوارع وحمل العلم الوطني، ففي سنة 1910م نظّم العمال الجزائريون والأجانب في ميناء سكيكدة إضرابا، ثم تظاهروا رافعين العلم الوطني لأول مرة حسب تقديرات ذات الدارس، وقد ساروا به في مظاهرة شعبية طالبوا خلالها بالحرية، وابدوا علامات الاستنكار للسلطة الاستعمارية القائمة، مما اضطر الإدارة الفرنسية إلى استعمال أدوات القمع والتصدي من شرطة وقوات عسكرية، ويقول فيكتور ديمونتي الذي كان معروفا باتجاهه المحافظ، بأن المسؤولين العسكريين الفرنسيين قد حاولوا أن يفتكوا العلم الوطني الأخضر مع نجمة من أيدي المتظاهرين الذين رفعوه، واستعملوه كشعار لمطالب العمال، ولكن الجندي الذي حاول أن يتخطف العلم قد تعرض لجروح خطيرة.[4]

ويورد ذات الكاتب واقعة تحدث فيها أحد الايطاليين مخاطبا الجزائريين بأن العلم المثلث في إشارة إلى مكونات العلم الرسمي الفرنسي لن يعني لهم قريبا أي شيء، مشيرا إلى أن علما أحمرا في لون الدم سيحل محله في النهاية، وتحدث في موضوع العلم أيضا الباحث جيلبير مينييه Gilbert Mynier، الذي يكون قد عثر في الوثائق التاريخية للجيش الفرنسي على صور لعلم عربي عثماني جزائري في شكل متصل ومواز للعلم الفرنسي، يرجع تاريخه إلى فترة معارضة التجنيد الإجباري

1910-1912م، وهي المعطيات التي زوّد بها المذكور الأستاذ سعد الله في مراسلة وقعت بينهما بتاريخ 30 نوفمبر 1973م.

لقد صنّف الفرنسيون إضراب ومظاهرة سكيكدة ضمن سياق التوصيفات التي أطلقوها دائما على كل رد فعل جزائري بأنها أعمال لخارجين عن القانون، غير أن تلك الأحداث كانت في نظر الملاحظين من غير الفرنسيين علامات عدم الاستقرار الذي صبغ المشهد الجزائري تحت القبة الفرنسية، أما في واقع الحركة الوطنية الجزائرية فإن تلك التحركات كانت مجرد خطوات في مسيرة التحرر.[5]

كان موضوع التجنيد الإجباري الذي طرح للنقاش خلال عام 1908م، فرصة أخرى أظهرت وحدة الموقف الجزائري، فقد أجمع الجزائريون على معارضته، نظرا للتناقضات المختلفة التي يحملها وهكذا برزت عدة أشكال اتخذتها المعارضة الجزائرية لهذا التجنيد المفروض، تتمثل في الاحتجاج في الشوارع وتقديم العرائض، وتوزيع المنشورات في المقاهي والأسواق، وإرسال الوفود إلى الميتروبول واللجوء إلى الاختفاء، وكل هذه الأشكال كانت تحظى بتأييد وتوجيه العديد من الصحف الوطنية على غرار "الحق" و " الرشيدي" و" الإسلام"، التي دخلت على خط المعارضة.

لقد عرفت أنحاء مختلفة من الجزائر سنة 1908م سلسلة من المظاهرات الشعبية المعارضة لفكرة التجنيد الإجباري، وقد ظهرت بوادر عدم الامتثال لهذا الأمر بمجرد انطلاق أولى عمليات الإحصاء في الفترة ما بين 10 إلى 25 سبتمبر 1908م، حيث خرج الأهالي في مظاهرات جماعية تلقائية، تميزت عموما بالطابع السلمي، عاشتها العديد من المدن في كل من دو روفيقو[6]، وتيارت وتريزال وفوكة والأربعاء، رفعت شعارات مناوئة تقول: " إن المسلمين يرفضون محاربة إخوانهم في المغرب " ، كما قدم ممثلون عن المتظاهرين بعض المطالب السياسية، مما حدا بالحاكم العام جونار إلى نشر إعلان في 14 من نفس الشهر أوضح فيه أن الحكومة لم تتخذ أي إجراء، وأن الإحصاء ما هو إلا عملية إدارية عادية.

ومع استمرار مراوغات الإدارة الفرنسية، وعدم التزام مسؤوليها بتقديم إجابات

واضحة لوقف القلق الجزائري، واصل الجزائريين بث دعايتهم المعارضة في القرى والمدن، فشهدت بذلك أهم المدن مظاهرات في الشوارع، ففي تلمسان وحدها تظاهر سنة 1909م عشرة آلاف شخص ضد التجنيد الإجباري، الذي لا يزال لم يصبح قانونا بعد.[7]

وعندما وافق المجلس الوطني الفرنسي في 03 فيفري 1912م على القانون اضطربت لذلك الجزائر كلّها، ففي هذا الصدد نذكر المظاهرات التي وقعت في ندرومة نواحي تلمسان، حيث تظاهر آلاف من الجزائريين أمام مكتب الحاكم الفرنسي للاحتجاج، ولم يسفر الاجتماع الذي جمعهم بذات المسؤول عن أية نتيجة، فكان أن صرخ الجزائريون صرخات معادية وخطيرة ودخلوا في اصطدامات مع قوات الأمن.[8]

في الواقع، فإن سنة 1908م تمثل منطلقا للمساعي السياسية لما يسمى بالشبان الجزائريين، ففي 17 جويلية من تلك السنة صدر مرسوم يأمر بإعداد قوائم اسمية للأهالي البالغين سن 18 عاما قصد تجنيدهم، مما أفرز قلقا شديدا لدى السكان المسلمين، وفي ظل هذه الأجواء المحفوفة بالترقب والخوف انتقل وفد من مدينة الجزائر ترأسه المحامي عمر بوضربة إلى فرنسا، حيث قدّم عريضة تتضمن طلب الاستجابة لبعض الرغبات الإصلاحية للجزائريين، والتجاوب المشروط مع الخدمة العسكرية، بما يفضي إلى استفادة السكان العرب من جميع الحقوق المدنية، وقد تلقى الوفد ردا من جورج كليمنصو لدراسة إمكانية توسيع مجال هذه الحقوق[9].

لقد أصبحت مؤشرات الخطر السياسي واضحة في أعين المستوطنين، ولهذا بادر بعض رؤساء البلديات ذات الأغلبية الأوربية إلى استغلال الحوادث الأولى التي اندلعت اثر انطلاق عملية الإحصاء فرئيس بلدية دو روفيقو مثلا أكد للمتظاهرين الأوربيين أنه لن يقدم قوائم الحالة المدنية المطلوبة من طرف العمالة، وقال بناء على قانون التجنيد فإنه لا يقبل في صفوف الجيش الفرنسي إلا من هو فرنسي، أو يحمل الجنسية الفرنسية، وحسب علمي فإن العرب ليسوا فرنسيين.[10]

لم تنجح أساليب الالتفاف الإداري والمراوغات في امتصاص النقمة

الاجتماعية الجزائرية على مشروع الخدمة العسكرية، فبمجرد البدء في إجراءات تطبيق نصوص القانون تصاعدت حدة رد الفعل الجزائري، فالشبان الجزائريون أصيبوا بخيبة أمل بعد تجاهل السلطات للمطالب السياسية التي طرحوها، وهكذا سجل شهري مارس وأفريل 1912م تحركات جديدة للأهالي بأشكال مختلفة ومنها تنظيم المظاهرات، كتلك التي جرت في بني يعقوب بالمدية، وسوق أهراس ، وخنشلة.[11]

وفي خضم هذا الجو الرافض والمضطرب، وجد الجزائريون أنفسهم طرفا في مواجهات بين القوى الدولية المتصارعة فيما عرف تاريخيا بالحرب العالمية الأولى 1914-1918م، حيث لم يكن بالإمكان الاستمرار في النضال بعد فرض حالة الحصار، وتكميم الأفواه، وشروع السلطة الاستعمارية في توظيف ترسانتها الدعائية وقنوات الموالين لها، من أجل حشد الدعم الداخلي ودفع الأهالي لمؤازرتها، مع إطلاق وعود غامضة تتعلق بإصلاح الأوضاع بعد أن تضع الحرب أوزارها.

غليان ما بين الحربين: نضال الجماهير بين المبادرة العفوية والتنظيم.

من الثابت أن تأثيرات الحرب العالمية الأولى قد اجتاحت الجزائر، وأن الإدارة الاستعمارية لم تكن غافلة عن ملاحظة ذلك، فقد بادرت إلى طرح بعض المبادرات المحتشمة أعطتها تسمية إصلاحات 04 فيفري 1919م، أملا في امتصاص المطالب الوطنية المتنامية، وترسيخ الهيمنة الفرنسية في مقاطعاتها جنوب المتوسط، بهدف تحصينها ضد فيروسات الفكر المناهض للسيطرة والتسلط الوافدة على هذه الأرض من جهات مختلفة.

وفي هذا السياق، وبتتبع التعاطي الجزائري مع السياسة الكولونيالية يلحظ المؤرخ تلك الحركية الاجتماعية التي أخذت في التبلور شيئا فشيئا سواء بالنسبة للجزائريين داخل المستعمرة، أم بالنسبة لأبناء جلدتهم ممن قادتهم الظروف إلى عبور الضفة الشمالية للمتوسط بحثا عن تحسين أحوالهم، فكان أن تفتحت عيون المجموعتين على مناخ جديد سماته اللجوء إلى الشارع، وشل المؤسسات الاقتصادية طلبا للحقوق، أو احتجاجا واستنكارا لسياسات وقرارات.

يذهب فرحات عباس، إلى أن المظاهرة العمومية الأولى للحركة الوطنية قد وقعت سنة 1924م في باريس أثناء محاضرة ألقاها الأمير خالد، تميزت بحضور عدد كبير من المهاجرين الذين ينحدرون من شمال إفريقيا، وقد تفرق الجمهور وهو يهتف بشعار " تحيا شمال إفريقيا مستقلة "[12]، ويعتقد أحمد مهساس أن الحراك السياسي الذي تزعمته حركة الشبان بعد طرح ما يسمى بإصلاحات 04 فيفري 1919م، قد بدأ مع نشاطات الأمير خالد المرتبطة بالتجربة الانتخابية التي خاضها، وما صاحبها من مؤامرات حيكت ضده لإبعاده، وهي الحركية التي مكنت الرجل من عقد صلة مباشرة هي الأولى من نوعها مع الجماهير الشعبية باعتباره ممثلا لجماعة سياسية جزائرية، وعلى الرغم من أن تلك الاتصالات لم تكن وثيقة، لكنها بعثت من جديد صلات الشعب الجزائري العاطفية نحو حبه لوطنه وتعلقه بتاريخه[13].

إن بداية الرهان على الجماهير تبعا لخطوة الأمير خالد تمثل مسلكا في الاتجاه الصحيح فالجماهير الشعبية هي التي تلعب الدور الحاسم في الواقع [14]، وبرأي أحدهم فإن هذه القوة لم تجد كبير اهتمام في السياسة النخبوية للعلماء، أو في سياسة الحزب الشيوعي القائمة على مفهوم الطبقة العاملة التي لم تكن تشكل بين الأهالي قوة رائدة لا من الناحية الكمية، ولا من الناحية النوعية، ولئن أصبحت هذه الجماهير عاجزة مؤقتا عن تفجير الانتفاضة تلو الأخرى كما في السابق، فإن قصورها هذا كان ظاهريا فقط، فقد واصلت مقاومتها للاستعمار بأشكال أخرى، وتمسكت بأصالتها التي كانت تمارس ضغطا عن بعد على رجال السياسة بهدف إدماجهم في الشأن الوطني من جديد.

إن تفسير حالة الركود الجماهيري التي طبعت عقد العشرينيات عموما، يعزوها البعض إلى أن إعادة تكييف تلك الجماهير مع المتطلبات الجديدة للنضال لم تكن مهمة سهلة، ذلك أن تحريكها لا يتم فقط بمجرد تحقيق التواصل الأيديولوجي بها والتموقع معها على نفس الخط، فهي لا تستطيع أن تفعل شيئا ما لم تبلغ مرحلة التنظيم السياسي[15]، وهكذا انقضت مرحلة العشرينيات دون أن يكون

للجماهير حضورا مؤثرا في مجريات المشهد السياسي في البلاد.

أطل عقد الثلاثينيات بالاحتفالات القرنية، فالفرنسيون اعتبروا سنة 1930م بداية عهد جديد من الانتصارات في الجزائر، ودخلوا القرن الثاني من احتلالها وهم في غمرة من النشوة والزهو معتقدين أنهم سيظلون فيها إلى الأبد، ورفع غلاتهم شعارات العداء للعرب والإسلام، واستخدموا القبضة الحديدية مع كل محاولة جزائرية للتنظيم السياسي، واصفين هذا الحراك بأنه كفران بفضائل الاحتلال كما أن الواقفين وراءه هم خونة ودمى تتلقى إشاراتها من الخارج المعادي لفرنسا، ووسط شعورهم بالتفوق العسكري وإخضاع الجزائريين لسلطانهم ترهيبا وتدجينا، كانوا يتجاهلون النمو المتصاعد للحركية السياسية الوطنية.[16]

يذهب المؤرخ محفوظ قداش إلى أن الجزائر وبحلول تلك السنة قد أصبحت في مفترق الطرق فبالنسبة للمسلمين الجزائريين فقد انتهى ذلك العام إلى طريق مسدود، فالأوضاع الاقتصادية لم تكن على طبيعتها، والجماهير كانت جد منشغلة بالحياة اليومية، لقد حضرت وهي غير مبالية بتظاهرات الذكرى المئوية، ولكنها كانت تستشعر التهديدات التي يواجهها الإسلام، وهكذا كانت سنة 1930م نقطة انطلاق لجيل جديد من الجزائريين[17].

والواقع أن الحياة الوطنية قد انتعشت بميلاد جمعية العلماء التي أحدثت هزة في كيان المجتمع الجزائري، كما كان لنشاط المنتخبين والشيوعيين بعض الأثر في تنوير الرأي العام، وساهم من جهته نجم شمال إفريقيا في بعث مناخ جديد على مستوى الجالية بفرنسا على اعتبار أن احتكاكه بأفراد الشعب في الداخل لم يكن قد حصل بعد وتأخر إلى غاية منتصف الثلاثينيات.

إن ردود الفعل الشعبية التي وقعت في هذه المرحلة كانت بالأساس مبادرات جماعية تلقائية تجاه إجراءات فرنسية، فقد كان للإجراءات القمعية وعمليات التضييق والمنع التي باشرتها السلطات واستهدفت أعمال وصحافة جمعية العلماء على غرار منشور ميشال سنة 1933م، قد أدت إلى ردود فعل وطنية شعبية تمثلت في احتجاجات صارخة وفقا لتعبير أندري نوشي André Noshi ووقعت من

أجل ذلك مظاهرات واجتماعات واضطرابات، وذهب المتظاهرون في مدينة الجزائر إلى مقر الولاية وطالبوا بحرية الضمير والعقيدة والتعليم، وهي سابقة في نظر جوزيف ديبارمي Josèphe Desparmet، الذي رأى بأنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الجزائريون الديمقراطية الأوربية من أجل أهدافهم الثورية، وبيّنت المظاهرات التي نظّموها أن رجل الشارع بدأ يشارك في التعبير عن نفسه، وهي مشاهد تكررت في العاصمة والضواحي ولم تهدأ إلا عندما تصدت لها السلطات بأدوات القمع.[18]

أخذ خط الاضطراب وتحرك الجماهير يتصاعد، فبمناسبة منع الشيخ الطيب العقبي من إلقاء خطبة في الجامع الجديد بالعاصمة بدعوى خطورته وتهديده للأمن العام، تدفقت الجموع للتظاهر ضد هذا القرار، ويرى البعض أن مظاهرة العاصمة ليوم الجمعة 24 فيفري 1933م كانت هي الأولى التي فتحت الباب لهذا المناخ غير المألوف من الغليان الذي طبع الشارع إلى غاية يوم 03 مارس ورغم لجوء السلطات إلى تسخير قوة أمنية كبيرة لمواجهتها والقيام بسلسلة من الاعتقالات، إلا أن المظاهرات لم تتوقف حتى وعدت السلطات بالسماح للشيخ باستئناف دروسه.[19]

لقد عرفت الأشهر الموالية صعودا ونزولا في مستويات التوتر، فقد عاشت العديد من مدن الغرب الجزائري، وهي تلمسان وعين تموشنت وسيدي بلعباس ومستغانم مظاهرات نادى أصحابها بسقوط فرنسا وحياة الزعيم الألماني أدولف هتلر.[20]

وحفلت السنة الموالية بتحركات جماهيرية هامة، فخلال شهر ماي 1934م تصاعدت من كل أركان الجزائر أصوات وهتافات تندد بمشاريع " ميرانت" Mirante، وتم تنظيم مظاهرات في 12 مدينة على الأقل من المدن الرئيسية، ففي تلمسان تجمع أكثر من 8000 من الأهالي، وفي عنابة جرت مظاهرة ضخمة في نظام مثالي جدير بالقضايا العادلة، وفي جيجل تجمع 5000 شخص في الحظيرة الكبيرة لمصنع سديرة، وقام التجار كلهم حتى يبرزوا طابع المظاهرة وأهميتها بغلق محلاتهم منذ الساعة الرابعة مساء، وغادر العمال أماكن العمل، وفي تلمسان

تجمع أيضا حوالي 5000 شخص اختتم بإرسال عدة برقيات إلى مختلف الجهات الإدارية[21]، وتسجل هذه الحركات الشعبية التي لم يسبق لها مثيل بالجزائر والتي لم تكن منظمة تماما نهاية الاستسلام، وانطلاق مسار جديد.[22].

ولعل من المحطات التي تستوقف الباحث في هذه المرحلة ما حصل بمناسبة الفاتح ماي 1934م فقد وقعت مظاهرات هامة وبعضها كان عنيفا مثل التي وقعت في أرزيو، وسعيدة، ومستغانم، وعنابة وعرفت مشاركة مزدوجة جمعت بين العمال والبطالين الأهالي إلى جانب زملائهم الأوربيين، وهي التجربة التي استخلص منها الجزائريون دروسا بليغة مفادها أن الاحتجاج المنظّم بوسعه تحقيق بعض فرص النجاح، وهو ما كان يتوجس منه الأوربيون الذين كان يراودهم دائما فكرة استعمال المسلمين في مظاهراتهم، لكن الخشية من اكتساب هؤلاء لهذه الفنون النضالية كانت مدعاة للندم لديهم.[23]

لقد تعلّم الشعب ربط الثورة بالسياسة، فأصبحت المظاهرات وسيلة كفاح، وكانت فعاليتها بالتنظيم فتبين أن المظاهرات أكثر فعالية من الكتابات، وبدأ عمل الشعب يتقدم نشاط السياسيين وكانت على الأقل البوادر التي كسرت حاجز التردد والخوف.

ومن المحطات البارزة في عقد الثلاثينيات أحداث قسنطينة 1934م، التي ذهب الكاتب جوزيف ديبارمي إلى وصفها بأنها مظاهرات ظاهرها عداء لليهود، وباطنها عداء للفرنسيين،ودون الخوض في القراءات المتعددة التي أعطيت لها، فإننا نشير إليها هنا في سياق الحديث عن الحراك الجماهيري الذي حوّل الشارع إلى أداة لإبراز مواقفه الرافضة للسياسة الاستعمارية، فهذه الأحداث التي كان منطلقها تصرفا طائشا لجندي يهودي جرح مشاعر المسلمين بالجامع الأخضر يوم الجمعة 03 أوت 1934م تبعها حالة من التوتر أدت إلى قيام المسلمين بمظاهرة شارك فيها أكثر من 10 آلاف شخص ونتج عنها اصطدامات مع يهود المدينة، فكانت الحصيلة مقتل 23 يهوديا و04 جزائريين وإصابة العشرات بجروح من الجانبين، وإلحاق خسائر بالمحلات والبضائع قدرت بـ 50 مليون فرنك[24].

إن زخم الأحداث الذي طبع الساحة الجزائرية بين سنوات 1930-1935م، قد جعل بعض الفرنسيين لا يصدقون أن الجزائريين الذين كانوا في نظرهم هادئين وموالين لفرنسا سنة 1930م يصبحون بعد خمس سنوات يشكلون خطرا داهما، متجاهلين نمو الوعي السياسي لهؤلاء والذي ساهمت في بلورته الأحزاب والمنظمات الإصلاحية والصحافة الوطنية، فقد اعتاد الفرنسيون تفسير تصرفات الجزائريين تفسيرا غير سياسي في مختلف المناسبات[25].

وفي تقدير أحد المعاصرين فإن المظاهرات التي عرفتها البلاد بين سنوات 1933م إلى غاية 1935م لصالح الحريات المختلفة، كانت تبرز المدى الكبير الذي بلغته شعلة النفوس، وتظهر درجة استعداد الجماهير الشعبية للعمل، لكن لغياب التحضير وفقدان التأطير توسمت بالعنف، بل وحملت في بعض الأحيان كرها للأجانب، فكانت أقرب بذلك إلى الانتفاضات منها إلى الكفاح الثوري، فهو يعتقد أن التحركات الشعبية لم تحظ بتأييد المنتخبين الذين استنكروا عملها من الوجهة السياسية رغم دفاعهم عن الجماهير المتورطة في العنف على صعيد القضاء[26]، فلم يكن العلماء والمنتخبون يريدون أن ينظر إليهم بصفتهم وطنيين فاحتجاجاتهم تندرج ضمن إطار السيادة الفرنسية، فقد انتهت المظاهرة الكبيرة التي نظمت بقسنطينة في 15 ماي 1934م وحضرها ابن جلول وابن باديس بالهتاف " عاشت فرنسا عاشت الجزائر " إن أسلوب الحذر كان باديا على نشاطهما، بينما وجدت الحركة الجماهيرية الاحتضان من طرف التيار الاستقلالي الذي لا يزال عندئذ يفتقر إلى التنظيم الكافي والانتشار الجغرافي[27].

نجم شمال إفريقيا والجماهير: خطاب وتفاعل.

من المعروف أن ظهور حزب النجم منتصف العشرينيات قد كان بفرنسا بعيدا عن أرض الوطن حيث خلق ميلاده مناخا جديدا وسط الجالية المهاجرة، وكان أن استفاد من عوامل كثيرة في تفعيل نشاطاته انطلاقا من عاصمة دولة الاحتلال، وهي الظروف التي لم تكن متاحة داخل الجزائر المستعمرة، وفي الواقع فإن الدارس لا يمكنه سوى الإقرار بالدور الحيوي الذي لعبه هذا الحزب وقيادته

وعلى رأسها الزعيم مصالي الحاج في تمزيق الستار القائم حول المشكلة الجزائرية، وإخراجها من النفق الذي وضعت فيه لعقود.

إن رصد أعمال الحزب خلال مرحلة الثلاثينيات، تبرز المستوى النضالي المتقدم والمقدرة العالية على جر الجماهير إلى الساحات والميادين التي طبعت أعمال الحزب في مواجهة السياسة الكولونيالية وهي عناصر نضالية يبدو أن التنظيم قد تميز بها عن بقية الفعاليات السياسية الوطنية.

فقد دأب النجم على استغلال المناسبات التاريخية التي تمثل معالم في الذاكرة العالمية أو الفرنسية ومن ذلك الاحتفاليات التي تنظم سنويا استحضارا لذكرى اليوم العالمي للعمال في الفاتح ماي واليوم الوطني لذكرى الثورة الفرنسية في 14 جويلية، وفي هذا الصدد شارك الحزب في الاحتفالية التي أقيمت بمناسبة 14 جويلية 1935م، حيث حضر مصالي الحاج بمعية العديد من المناضلين رافعين العلم الجزائري وشعارات التحرير من قبيل " حرروا شمال إفريقيا" و " حرروا سوريا" و" حرروا العالم العربي" وقد ضم الحشد الجماهيري 30000 عامل حسب جريدة الأمة.[28]

كانت سنة 1936م مليئة بالنشاط والحماس أيضا، ولكن هذه المرة بمسحة جزائرية خالصة فبمناسبة الفاتح ماي نظّم النجم استعراضا شعبيا بالجزائر العاصمة شارك فيه 20000 جزائري ترجّلوا من ساحة أول ماي champs de Manœuvres إلى باحة الحكومة، رافعين العلم الوطني وهم يهتفون " يحيا استقلال الجزائر "[29].

ومثلّ شهر أوت محطة رمزية مهمة في علاقة القيادات السياسية بالجماهير العريضة فخلال عقد اجتماع الملعب البلدي بمناسبة عودة وفد المؤتمر الإسلامي من باريس بتاريخ 2 أوت 1936م، تدخل مصالي الحاج بعد أن سمح له المنظمون بذلك فقال(إن هذه الأرض المقدّسة، التي هي أرضنا ليست للبيع ولا للمساومة)، وهي الكلمات التي كان لها مفعولا سحريا على الحشود الجماهيرية التي كانت حاضرة، حيث وبعد نهاية الخطاب الذي دام عشرين دقيقة، التفّت تلك الجموع

بالرجل وطافت به في أرجاء الملعب مع الهتاف بالعبارات الآتية: " تحيا الجزائر " و " يحيا مصالي " و " يحيا الاستقلال " و " يحيا الإسلام "، وحين غادر الملعب تشكلت ما يشبه المظاهرة حيث خرج إلى جانبه مئات المواطنين قاطعين المسافة الممتدة بين الملعب والفندق الذي يقيم فيه، وهم يهتفون بحياة الرجل مرددين أيضا عبارة " يحيا الاستقلال "، مما أعطى ذلك اليوم زخما خاصا جعله حاسما على المستوى السياسي حين أعلن التجمع المذكور إرادة الجزائر في التحرر[30].

لقد توجت زيارة مصالي للجزائر في صائفة 1936م بإضافة رمز جديد من رموز السيادة المغتصبة فبعد العلم الوطني الذي تظاهر به النجم أول مرة بباريس سنة 1934م، بادر الشاعر مفدي زكرياء بنظم أول نشيد وطني بعنوان " فداء الجزائر "[31]، الذي يجسد مطلب الاستقلال، ويدعوا إلى وحدة الصفوف[32].

افتتحت سنة 1937م بقرار السلطات حل النجم بتاريخ 27 جانفي، ولكن ذلك لم يجعل قيادته تترك الساحة، فقد اكتسبت مناعة نضالية في صراعها المتواصل مع الإدارة، فسارعت إلى خلق بديلا له يوم 11 مارس 1937م حمل تسمية رمزية مهمة هي حزب الشعب الجزائري، وكانت أهدافه لا تختلف في جوهرها عن سابقه، ومنها إنشاء حكومة وطنية وبرلمان، واحترام الأمة الجزائرية وخصوصياتها الحضارية وشيئا فشيئا حصل المولود الجديد على نجاح كبير لأنه أصبح معروفا في الأوساط الشعبية، ويحظى بمكانة ممتازة وسط المهاجرين في فرنسا أيضا، كما أصبح يمتلك جريدتين لمخاطبة منتسبيه وعامة القراء وهما " الشعب " و" الأمة " ، وراح يسعى لاستقطاب وتحريك الجماهير.[33]

اعتبارا من صائفة 1937م قرر قادة حزب الشعب الانتقال إلى أسلوب عقد الاجتماعات الكبيرة أمام آلاف الأشخاص من كافة الأطياف السياسية ومن كل جهات الوطن، وتمشيا مع هذا التوجه استعد الحزب لاقتناص اليوم الفرنسي لذكرى ثورة 1789م، ففي 10 جويلية 1937م علمت قيادة حزب الشعب أن الحزب الشيوعي الجزائري يحضر نفسه بحماس لتنظيم تظاهرة 14 جويلية باسم الجبهة الشعبية وعندئذ قرر التنظيم تحضير نفسه بهدف ضمان مشاركة أوسع

للمواطنين، وقد كانت إستراتيجيته تعتمد على المشاركة ولكن بموكب مستقل، يحمل علم الحزب ويتغنى بالأناشيد الوطنية وقد حضر الزعيم بنفسه رفقة محمد مستول وحسين لحول وزكرياء خليفة وغرافة إبراهيم وآخرون وانطلق الموكب من بلكور في اتجاه ساحة الحكومة، وقد رفع أعضاء الحزب علمان، الأول كلّه بلون أخضر يرمز للإسلام والثاني العلم الجزائري، يحمل اللونين الأخضر والأبيض تتوسطه نجمة وهلال باللون الأحمر وقد رفعه أحد المشاركين ويسمى عبد الرحمن[34]، ويؤكد مصالي أن زوجته هي التي قامت بخياطة العلم في مقر إقامتها بتلمسان، وأخفته عند شقيقته المسماة خيرة التي وقع الاتصال بها يوم 12 جويلية، وفي اليوم الموالي وصل العلم إلى مدينة الجزائر، وهو الذي رفع خلال المظاهرة وقبّله الناس بحرارة[35]، وتقول جنينة مصالي بأنه قد رفع لأول مرة بالجزائر[36].

وبوصول الموكب على مستوى مقر العمالة، صاح الجمهور المشارك " يسقط قانون الأهالي والقوانين الاستثنائية " و " تحيا الديمقراطية"، وفي تلك الأجواء كان الجزائريون والجزائريات يقبّلون العلم الوطني ويصلّون، ويبعثون هتافات الفرح والزغاريد، وهكذا انتشرت أخبار المظاهرة في كل مكان وتقاطرت الجموع من أعالي المدينة ومن القصبة حتى بلغ عدد المشاركين زهاء 20000 وكان من المشاهد المؤثرة ذات الدلالات القوية رؤية العيون تذرف الدمع عند مشاهدة العلم، وسماع نشيد حزب الشعب الشهير يتردد على طول المسلك.

لم تشهد العاصمة شيئا مماثلا من قبل، وقد تحدّث الجزائريون والجزائريات مدة طويلة في المدن والأرياف عن هذه المظاهرة، ومنذ ذلك الحين أصبح مناضلو حزب الشعب يستعملون في دعوتهم الاستقلالية رمزين رهيبين هما العلم الوطني ونشيد فداء الجزائر، وقد مكّنهم ذلك من تحقيق سبق لا جدال فيه على منافسيهم من الحركات الإصلاحية، ما لبث أن تحول إلى مدّ وطني قاهر على حساب تلك الحركات جميعا، وهو ما حرّك الصحافة الاستعمارية التي لم تغفل الإشارة إلى ذلك، بل دعت في حالة هيجان إلى القيام بإجراءات صارمة واضطهادية وعمليات توقيف[37].

وبالنسبة لمعسكر الاستعمار لم يكن لتلك التحركات سوى أن تضاعف من مستويات القلق ونلمس من ترجمة بعض فقرات أحد التقارير بعنوان ضغط اجتماعي صدر في أواخر شهر مارس 1937م حول الحالة العامة عبر مجموع المستعمرة، تلك التخوفات التي أخذت تنتاب الإدارة الفرنسية على خلفية التحولات الفكرية للأهالي في الأشهر التي مضت حيث جاء الآتي:(إن الجماهير الأهلية أصبحت في غاية التشويش، تتخذ المهرجين المعروفين من السياسيين أصدقاء لها، تأتمر بجميع أوامرهم إلى حد التشنج، واندفاعها هذا أحدث بكل سرعة حالة خطيرة أمام قوات الأمن)[38] .

ولعل من اللافت في نهاية الثلاثينيات تحول مراسيم تشييع جنائز قيادات حزب الشعب إلى مظاهرات ترفع مطالب تحمل الصبغة السياسية، ففي هذا السياق سار في شوارع مدينة الجزائر يوم 14 أفريل 1939م زهاء 15000 شخص من بينهم زوجة مصالي لتشييع جنازة كحال أرزقي عضو اللجنة المديرة للحزب، والذي توفي في السجن حيث ردد المشاركون النشيد المشهور فداء الجزائر[39].

وقبل أن تطبق المواجهة الامبريالية الثانية على المشهد المحلي والدولي، جسدت مظاهرات 14 جويلية 1939م نهائيا تفوق حزب الشعب الجزائري على باقي الأحزاب على ما ذهب إليه أحدهم حيث أن هذه المظاهرة جمعت 25000 جزائريا إلى جانب الجبهة الشعبية، رفعت خلالها الشعارات المألوفة " برلمان جزائري" و" الحرية للجميع" و" الأرض للفلاحين" و" احترام الإسلام"[40].

وفي التحاليل المتعلقة بتفسير موجة الاضطرابات والاحتجاجات التي عاشتها الجزائر في عقد الثلاثينيات، طرح المؤرخ أبي القاسم سعد الله جملة من التساؤلات حول دوافع شعور التحدي الذي تميز به الجزائري في هذه المرحلة، وعدد بعضا من التفسيرات التي ساقتها أقلام أجنبية، حيث قصّرها البعض على الدوافع الاقتصادية، و أوعزها آخرون إلى عوامل سياسية وجنح بها تيار ثالث إلى محركات عرقية، وبعد أن خلص إلى التأكيد بعدم الجزم وترجيح عامل على أخر، رأى بأن الأسباب

مختلطة ومتشابكة، موضحا بأن الشيء البارز في تلك الأثناء هو اليقظة السياسية والثقافية التي شهدتها الجزائر، وأدت في النهاية إلى الشعور بالذات الوطنية، والتي اكتسبت صلابة في معاداتها للحكم الفرنسي.[41]

وقبل إسدال الستار على عهد الثلاثينيات الخصب، نستطيع أن نقول أن قوة الجماهير أخذت تفرض نفسها في الشارع الجزائري، ولم تعد فكرة الممارسة النخبوية الأفقية باسم تلك الجماهير تلقى النجاح، ولعل لجوء الرموز الحزبية الشهيرة إلى اعتماد الخطاب الشعبي في أدبياتها ما يؤشر بقوة على هذا التحول تجاه قدرة الشعب على تغيير أوضاعه وصنع مصيره.

تطور حركة المظاهرات الشعبية 1945– 1954م:

لقد تغير وجه العالم بعد المواجهة الكونية المدمرة 1939-1945م، وكشفت عمليات المسح التي أعقبتها، إلى أي درجة كانت المجتمعات الإنسانية في حاجة إلى إعادة النظر في منظومة العلاقات التي تحكمها، فحدّقت العيون وخامرت العقول الكثير من الصور عن شكل هذا العالم الموعود، ولكن يبدو أن هذا الترقب للغد الأفضل لم يكن يعني الجزائريين، فقد تحول الحلم إلى كابوس قاتل، واتضح أن المستعمرين لم تتغير فلسفتهم ولا ممارساتهم تجاه ضحاياهم.

وسط هذه التجاذبات، تحدث البعض على أن فصل الربيع للعام 1945م بالجزائر لم يكن موسما لقطف الورود، بل على الخلاف من ذلك، أخذ المشهد يميل إلى السواد، وهكذا ظهرت العبارات المكتوبة على الجدران توحي بأن هناك شيئا يستحق الاستعداد، وذكر معاصر مجموعة من العبارات مثل " استعدوا فإن ساعة الصفر قد قربت" و" أيها الجزائريون حاربوا من أجل الحرية" و " أيها الجزائريون إن الجبال تناديكم"، وهي الكتابات التي وجدت في عدد من المدن، مثل جيجل وبسكرة ونواحي قالمة، وقد عكس أحد التقارير الرسمية هذا الأمر، عندما أكد بأن الجو كان مشحونا بالتوتر بين الجزائريين والفرنسيين[42] وبدأ التصادم مبكرا في أجواء احتفالات الطبقة العاملة بيومها الدولي تكريسا للتقليد السائد.

مظاهرات فاتح ماي 1945م: بالون الاختبار

كان يوم فاتح ماي اليوم العالمي للعمال تاريخا للمواجهة الأولى، فقد كان فرصة مواتية للإعراب عن رغبات الشعب، حيث خرج المتظاهرون للتعبير عن حاجتهم إلى التحرر، ولإظهار قوة حركتهم أمام العالم، واغتنم حزب الشعب الفرصة، ليجعل المشاركة في المظاهرات أكثر تميزا عن الفرنسيين فكانت المواكب الاستعراضية الجزائرية تتجنب بعناية المواكب الاستعراضية النقابية الأوربية، وسجل دخول النساء على الخط بإطلاق الزغاريد المدوية، وبث الحماس في المتظاهرين، الذين كانوا يرفعون أحيانا العلم الأخضر والأبيض ذا النجمة والهلال[43].

بدا واضحا تعطش الشعب لرفع مطالبه، فانطلقت موجات الحشود بأعداد كبيرة خاصة في مدن الجزائر والبليدة ووهران مرددة نشيد " فداء الجزائر"، وعبارات " يحيا الاستقلال" و" أطلقوا سراح مصالي"، التي كتبت على لافتات باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانجليزية، وقد عجز المنظّمون التابعون لحزب الشعب عن تهدئتها، وكان رد قوات الشرطة إطلاق الرصاص[44]، فكانت الحصيلة سقوط 07 قتلى، وأزيد من 50 جريحا، واعتقال العشرات من المواطنين[45].

وإذا كان البعض قد أشار إلى أن حركة أحباب البيان والحرية هي التي دعت إلى المشاركة مع الفرنسيين في تظاهراتهم بطريقة سلمية، مع رفع لافتات تحمل تذكيرا بمقررات الأطلنطي، إلا أن فرحات عباس يؤكد أن حزب الشعب هو من قام بتنظيم مظاهرات فاتح ماي 1945م ضد بقاء مصالي الحاج في الإقامة الجبرية، وحملت رواية أحد المعاصرين وهو محمد يوسفي، الذي كان ناشطا ضمن لجنة شباب بلكور التابعة لحزب الشعب بالعاصمة ما يدعم مقولة فرحات عباس، حيث ذكر أن التحضير لمظاهرة الفاتح ماي قد تم بطريقة محترفة من حيث تحديد المسار الذي سلكته والشعارات التي رفعتها " يسقط الاستعمار" و" عاشت الجزائر حرة "، موضحا طابعها السلمي استجابة لتعليمات حزبه، التي تمنع حمل السلاح، مع العمل على ضمان أن تظل التظاهرة سياسية[46]، وهذا الطابع السياسي والوطني لا يمكن دحضه، فالحزب بخروجه إلى الشارع قدم برهانا على تمدده في كل أنحاء

البلاد، وأثبت قدرة مناضليه على تحريك الجماهير الجزائرية وتجنيدها خلف شعاراته[47].

سارت المظاهرات في عديد المدن الجزائرية، حيث أحصت مدينة وهران 10000 شخص وقالمة 8000 مشارك، وقارب العدد في مدينة سطيف 5000 متظاهر، لتليها تبسة بـ 4500 شخص، ونزل هذا الرقم إلى 2000 متظاهر في مدينتي عنابة وبجاية، وكان الحشد يضم مابين 500 إلى 1000 شخص في مدن مستغانم وسيدي بلعباس وخنشلة وباتنة وبسكرة وسعيدة وتلمسان وعين البيضاء وشرشال وغليزان.

رغم التباين في درجة التنظيم، ومستوى المشاركة، ودرجة الصدام مع الإدارة الاستعمارية، غير أن اللافت كان تناغم الشعارات المرفوعة والتي حملت بوضوح الطابع السياسي، ولعل البارز فيها أيضا حضور العلم الوطني منفردا تارة، ومختلطا بأعلام الحلفاء تارة أخرى.[48]

وفي سياق تحميل المسؤوليات، أصدر الحزب الشيوعي الجزائري بيانا تضمن إدانة مباشرة وبوضوح لحزب الشعب، واصفا إياه بأنه يمثل امتدادا للنازية (إن التحريض الذي يقوم به حزب الشعب الجزائري إنما يتلقى أوامره من برلين، من هتلر...إن حزب الشعب الذي يتنامى في المحافظات الثلاث، يدعو إلى استقلال الجزائر وبناء المقاومة المسلحة الجزائرية، زارعا البغضاء بين الجزائريين بتنظيم الاضطرابات)[49].

يذهب معاصر إلى أن التعارض بين أهداف وإرادة الشعب الجزائري والمستعمر قد بلغ أشدّه في شهر ماي 1945م، فقد كانت السلطات الكولونيالية مدركة لنتائج المظاهرات على الصعيدين الداخلي والخارجي، حيث كانت القوى السياسية المتنامية تمثل خطرا على النظام الاستعماري وأوهامه، إن تجاهل النظام الاستعماري لحركة التاريخ، ورفضه الاعتراف بالواقع الوطني الجزائري، أدى به إلى سلوك طريق القمع والمواجهة مع الجزائريين[50]، حيث لم يكن معقولا الرضوخ لمطالبهم في نظر المعمرين وبالتالي لا يمكن فتح النقاش السياسي مع شعب غير

موجود[51].

وفي إفادة الحسين آيت أحمد جاء:(لا يمكن فصل أحداث أول ماي عن المنطق القمعي والديناميكية الثورية، فإذا كان هدف السلطة إرهاب الرأي العام الجزائري، فإنها لم تحقق هدفها فسياسة الأسوأ تؤدي دائما إلى تكثيف التآزر العاطفي بين الناس، وفي هذه الحالة بالذات، أدت إلى تحول نفسي وسياسي حقيقي).[52]

يمكن التأكيد أن تظاهرات الأول من ماي، كانت بالفعل تمهيدا وتجسيدا مسبقا لتلك التي ستحدث بعد عدة أيام، فهي قد حملت المميزات نفسها[53].

مظاهرات الثامن ماي 1945م القطيعة والمنعرج

تعد مظاهرات الثامن ماي بما حملته من عنف وإرهاب غير مسبوق تجربة بالغة التأثير في الحياة السياسية الوطنية تحت الاحتلال ومنعرجا حاسما رسم ملامح المرحلة المستقبلية وحدد وجهة الجزائريين النهائية ولو بعد حين، ذلك أنها مزقت آخر ستار كان يلف المستعمر، وأحدثت تحولا عميقا في رؤية غالبية قادة التيارات الوطنية لمآل القضية الجزائرية.

لخّص أبو القاسم سعد الله الوضع القائم عشية تفجر الحوادث بأن الجزائريين كانوا يعيشون وعيا كاملا وانتظارا لساعة الخلاص، بينما كان يقابل ذلك حالة من التربص والاستعلاء من لدن الفرنسيين للانقضاض عليهم في أول فرصة تتاح.[54]

في الثامن ماي 1945م، وبعد أن قررت السلطات الاستعمارية السماح للفرنسيين والجزائريين بالمشاركة في الاحتفالات بانتصار الحلفاء على النازية والفاشية، اغتنمت قيادة حزب الشعب الجزائري الفرصة للمشاركة في هذه المظاهرة، فاستنفرت مناضليها والمتعاطفين معها ودعت إلى التقيد بالطابع السلمي، ووضّحت الشعارات التي يجب رفعها وتتعلق بتحرير المعتقلين السياسيين وتحرير الجزائر.

سارت المواكب في أغلب مدن الجزائر، عدا العاصمة ووهران بفعل مخلفات اضطرابات الفاتح ماي كانت الكشافة تتصدر الصفوف بلافتات تحمل العديد من الشعارات: " تحيا الجزائر حرة " و" أطلقوا سراح مصالي" و" يسقط الاستعمار

والفاشية " و " يحيا ميثاق الأطلسي "، وإذا كانت المظاهرات قد تفرقت أو تم تفريقها دون أن تخلف ضحايا، أو عرفت حوادث طفيفة، فإن المظاهرات بالشرق الجزائري أخذت منعرجا خطيرا حيث تحولت إلى عمليات إبادة قام بها المستعمر ضد قطاعات واسعة من الشعب الجزائري[55].

لقد تصرفت السلطات الاستعمارية كأنها في حرب ضد شعب قام بثورة تحررية، ووظفت كل الوسائل العسكرية لإخمادها، وكانت الحصيلة مرعبة تضاربت أرقام ضحاياها، فهي 45000 قتيل عند حزب الشعب و15000 حسب الجنرال توبرت المكلف بلجنة التحقيق التي لم تنشر خلاصة أعمالها أبدا[56].

إن عنف القمع المسلط غير قابل للجدال، ولا يمكن تبريره بأي حال، لكن من الممكن الخوض في تفسيره، فقد اعتقد الجنرال ديفال قائد منطقة قسنطينة بأن منع عدوى التمرد كما استخلصه، تقتضي الحزم الشديد في التعامل، وقد يكون نجح على المدى القصير، ولكن هوة الحقد والكراهية التي حفرها بين المجموعتين الجزائرية والأوربية، لن يكون ممكنا ردمها أبدا[57].

إن التفسيرات المرددة من لدن الفرنسيين، والتي تركز على العوامل اقتصادية، تمثل تعميات مقصودة عن الحقيقة، فالحكومة الفرنسية نفسها تعي تماما أن الشعب الجزائري لم يسبق له أن قام بمظاهرة من أجل الخبز، بل كان خروجه للشارع متظاهرا أو محتجا رديفا للظلم والاضطهاد والعنصرية وللمطالبة بالحرية والكرامة الوطنية، وقد لاحظ عديد المتتبعين أن الوطنيين الجزائريين لم يستعملوا في شعاراتهم وفي لافتاتهم التي تم رفعها أية عبارات تشير إلى المجاعة والحالة الاقتصادية بل كانت المطالب كلها سياسية[58].

ودون الخوض كثيرا في تحديد الجهات التي كانت وراء الحراك الجماهيري بفعل تعدد وتضارب الروايات المتعلقة بهذا الأمر، على الرغم من أن غالبية الآراء تتجه إلى تأكيد وقوف حزب الشعب وراء الدفع بالجماهير إلى التظاهر، باستخدام الراية الوطنية والشعارات المعلومة.

ويكفي هنا أن نورد شهادات إطارات قيادية في حزب الشعب تؤكد وقوف

التنظيم وراء الدعوة إلى التظاهر، فالمناضل شوقي مصطفاي ذكر بأنه هو من قام بتحرير التعليمات في هذا الشأن، والتي تنصص على الطابع السلمي ويعضده في ذلك المناضل السعيد عمراني، الذي تحدث على أن الأوامر التي وجهت للمناضلين طلبت منهم رفع العلم الوطني مصحوبا بأعلام الحلفاء بما في ذلك علم فرنسا مما أثار نقاشات مطولة بين المنظّمين[59].

وعلى النقيض من هذا الرأي، ذهبت كوادر أخرى من ذات التنظيم، ومن بينهم الأمين دباغين وأحمد بودة وأحمد مهساس، إلى إلقاء مسؤولية الأمر بالتظاهر على قيادة أحباب البيان[60]، بينما جاء طرح بن يوسف بن خدة على ما يبدو توفيقيا بين الفصيلين، حيث أفاد بأن قيادة حزب الشعب قد كانت فعلا وراء القرار، ولكنها فضلت تبليغه إلى القاعدة النضالية بواسطة أحباب البيان والحرية وعبر ممثلي الحزب في هذه الحركة[61]، ومن جهتنا نعتقد أن عملية الفرز السياسي إلى غاية تلك اللحظة التاريخية لم تكن ممكنة على اعتبار أن الكثير من المناضلين كانوا ينشطون تحت مظلة التنظيمين.

أما فرحات عباس فلم يقر بالمسؤولية، حيث رأى أن حركته التي اجتاحت البلاد وأصبحت تضم نصف مليون منخرط، أضحت مستهدفة من المعمرين الذين أخذوا يحيكون لها المؤامرات في الخفاء للإجهاز عليها، مستشهدا في هذا الباب بما قاله الوالي لسطراد كاربونيل listrade Carbonal للدكتور سعدان، بأن اضطرابات ستقع عن قريب، وسيعقبها حل تنظيم كبير أثناء لقاء جمعهما في شهر أفريل 1945م[62] ، بما يفهم منه رائحة المؤامرة المعدّة سلفا.

وفي رصد المواقف المتفاعلة مع المسألة، يكفي أن نشير إلى تناغم طرح الحزب الشيوعي الجزائري مع بقية الاتجاهات الفرنسية، حين تم تفسير المظاهرات بعوامل الجوع والتحريض، ومن ثمة جرى توجيه نداء إلى الشعب الجزائري من أجل مطاردة المشوشين من أنصار الهتلرية [63] وهو الموقف الذي أبان في نظرنا عن قصور في تحليل الحركة الجماهيرية الجزائرية وتلمس مستويات وعيها وسنكتفي هنا بهذه الإشارات المقتضبة، على اعتبار أن الخوض في تفصيل هذا الأمر يخرج الدراسة عن

الخط المرسوم لها.

ومهما كانت التأويلات والاعتبارات فإن أحداث ماي 1945م شكلت علامة بارزة للمشاركة الجماهيرية في النضال الثوري على أوسع نطاق، وأعطت بذلك معنى التحول النوعي لصالح الحركة الوطنية، وعن هذا المعنى الجديد كتب محمد بوضياف (يعتبر يوم 8 ماي 1945 بالنسبة لمناضلي جيلي نقطة انطلاق لوعي وقطيعة، وعي بضرورة البحث- زيادة عن مجرد المطالبة بالاستقلال- عن الطريق الذي يجب إتباعه والوسائل التي ينبغي استعمالها من أجل التوصل إليه).[64]

ويرى أحد المعاصرين، أن هذه الحوادث التي وقعت في أيام قلائل، لكنها خلفت ألاما وجروحا أدمت قلب إنسانية القرن العشرين، ونقشت بالحرف الغليظ مدى همجية التمدن الفرنسي في الجزائر.[65]

والظاهر أن خطة الفرنسيين من وراء عمليات ماي القمعية كانت تستهدف إسكات الصوت الجزائري غير أن أمد ذلك لم يطل، وهكذا سجل المؤرخون عودة التحركات الجماهيرية مع مطلع الخمسينيات وهي التحركات التي قادتها أساسا الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية التي يبدو أنها قد تعافت من بعض أزماتها الداخلية على غرار أزمة صراع القيادة والأزمة البربرية، فكان أن لجأت مجددا إلى سلاح الشارع للضغط على الإدارة الاستعمارية ومحاولة جلب انتباه الرأي العام ويمكننا في هذا السياق إدراج المظاهرات الحاشدة التي نظمتها في الفاتح ماي 1950م بالعاصمة باريس والتي خرج فيها 40000 جزائري مجاهرين بحقهم في الاستقلال، وهم يحملون الراية الوطنية،[66] وهي التظاهرة التي عكست لا محالة جرأة قيادة الحزب، وشجاعة الجماهير المشاركة أيضا.

مظاهرات 14 جويلية 1953م بباريس:الجريمة والسكوت

تعد مظاهرات 14 جويلية 1953م خاتمة مسيرة الحراك الجماهيري الذي سبق تفجير الثورة التحريرية ففي قلب العاصمة الفرنسية وفي يوم الاحتفاء بالحريات وبالقيم الجمهورية التي تولدت عن هذا التاريخ الرمز، كانت ساحة الباستيل على موعد مع التاريخ، فمنها انطلقت المظاهرات الاحتفالية بينما كانت ساحة الأمة

نقطة التجمع لإلقاء الخطب والكلمات، لكنها تحولت إلى موقعة لحمام من الدماء تورطت الشرطة الفرنسية في اقترافه، وقد كتبت جريدة l'Humanité في تعليق لها على الحوادث المأساوية في اليوم الموالي بأن باريس لا يمكنها أن تنسى أبدا مظاهرات 14 جويلية 1953م، وتحيي ضحاياها من الجزائريين والفرنسيين العظماء الذين سقطوا جنبا إلى جنب في هذا اليوم الوطني للديمقراطية[67].

وتحدثت الشهادات على أن موكب المتظاهرين الجزائريين التابعين لحركة الانتصار والذين كانوا على امتداد ما يناهز 300 متر، قد تميز بالانضباط، وفي لحظة الانسحاب أخذ رجال الشرطة في مهاجمتهم وتفيد شهادة الطبيب بيرنار مورن بأنه لاحظ شرطيين يطلقون النار من مسدساتهم بتصويب مباشر على الضحايا وبكل برودة، فكان مشهد القتلى تحت الأمطار حيث سقط 06 جزائريين وفرنسي واحد، كما أصيب 44 متظاهرا بجروح خطيرة.[68]

وقد عبر الأديب الجزائري محمد ديب عن سخطه للتراجيديا التي حصلت في مقال له نشر بتاريخ 23 جويلية 1953م في " رسائل فرنسية" les lettres » « françaises اختار له عنوانا مؤثرا لا يحتاج إلى تحليل وهو" خجل أمام التاريخ"، وقد شاركته هذا السخط والإدانة الكاتبة فرنسواز دوبون Françoise d'Eaubonne التي ضمّنت العدد ذاته شعرا يرثي أحد المناضلين الجزائريين الضحايا وهو العربي ضاوي[69].

خلفت عمليات القمع التي طاولت المتظاهرين السلميين ردود أفعال مستنكرة، ومن ذلك الاحتجاجات التي رفعتها " لجنة فرنسا-المغرب"، التي طالب أعضاؤها بإيجاد حلول إنسانية وحقيقية للمشاكل المؤلمة المطروحة في شمال إفريقيا[70]، وتواصلت حملة التنديد بالهمجية التي أبداها عناصر الشرطة، حيث قام يوم 22 جويلية 1953م زهاء 20000 شخص بالحضور في جنازة الضحايا تكريما لهم، وتوالت الوقفات الاحتجاجية، ولعل من المواقف الصادمة للسلطات الرسمية إقدام وزير الداخلية ومحافظ الشرطة على خلق فرقة متخصصة في قمع الشمال إفريقيين، وهي التي عرفت اختصارا بتسمية BAV[71]، والتي شنت حملة

دهم بالدائرة الحضرية الخامسة بباريس، حيث تم توقيف العديد من الجزائريين الذين تعرضوا للاستنطاق والضرب داخل مقر محافظة الشرطة بسبب مشاركتهم في مظاهرات 14 جويلية[72].

ومن جهتها شنت نقابة CGT إضرابا تضامنيا مع العمال الجزائريين، واستنكرت حملة التوقيفات التي تعرض لها عدد من المشاركين في هذه المظاهرات، وعلى صعيد ردود الفعل أيضا قدم بعض أعضاء البرلمان الفرنسي استجوابا للحكومة، وتم شجب العنصرية المفضوحة التي أظهرها رجال الشرطة وعمليات القمع الكولونيالية، ووجهت الاتهامات إلى وزير الداخلية بقمع مظاهرة مرخص لها وتميزت بتنظيم محكم[73].

وتبعا لمخلفات هذه الحوادث ورغبة من السلطات الفرنسية في منع تكرارها والحيلولة دون توظيف هذه الرمزية من قبل التيار الشيوعي وأيضا من لدن المناضلين الجزائريين، فقد تقرر حظر كل أشكال المظاهرات والمواكب المنظمة بباريس، ولاسيما التظاهرات السنوية التقليدية بمناسبتي الفاتح ماي والرابع عشر جويلية، واستمر هذا المنع إلى غاية سنة 1968م[74].

ولعل من المستجدات المتعلقة بهذه الأحداث المأساوية التي ظلت في طي النسيان لدى الطرف الفرنسي، ومحل تجاهل من قبل المؤرخين الجزائريين، ومغيبة من التناول الرسمي للتاريخ، نسجل العمل التوثيقي المتمثل في الفيلم الذي أنجزه المخرج الفرنسي دانيال كويفرشتاين تحت عنوان " رصاصات 14 جويلية 1953م" " Les balles du 14 juillet 1953 "، حيث تطرق على امتداد 90 دقيقة إلى عمليات القمع الوحشي التي استهدفت مناضلي حركة الانتصار والمتظاهرين الجزائريين على العموم وقد وظف المخرج العديد من الشهادات لنقابيين ومناضلين وأيضا لمؤرخين، وفسح المجال كذلك لشهادات شرطيين اثنين شاركا في إطلاق النار على المتظاهرين أنذاك، وتطرق من جهته المؤرخ إيمانويل بلانشير إلى النتائج التي تلت تلك المظاهرات على غرار تأسيس فرق قمع جديدة في الشرطة الفرنسية، برزت خصوصا في مظاهرات 17 أكتوبر 1961م و8 فيفري 1962م[75].

والواقع أن تجربة التظاهر بمواكب مستقلة قد مثلت تحديا خاضته حركة الانتصار منذ مطلع الخمسينيات، فغالبا ما كانت في وضعية عدم تفاهم مع منظمي هذه التظاهرات ولاسيما في مناسبتين لهما دلالات رمزية كبيرة لدى الفرنسيين، ويتعلق الأمر بالفاتح ماي والرابع عشر جويلية من كل عام ويرى أحد الكتاب بأن الجزائريين بفرنسا قد انفردوا بهذا الأسلوب التعبيري عن المطالب السياسية بينما تحاشى الفيتناميون مثلا اللجوء إلى هذا الخيار، وفضّلوا الاندماج في تظاهرات الأحزاب الشيوعية ونقابيي الكنفدرالية العامة للشغل.

لقد كشف تتبع تجربة النضال الجزائري خلال الخمسين سنة التي سبقت الثورة عن تنوع وثراء في الاتجاهات والمطالب، التي تراوحت بين الدعوة إلى الذوبان في الميتروبول وبين القطيعة التامة والاستقلال الوطني، مرورا بطروحات من قبيل الحكم الذاتي أو الاتحاد الفدرالي، وقد طبع المرحلة صعود وهبوط في درجة الآمال، ووسمها عناد مستمر وتعرضت لخيبات عديدة قاسية، ولكنها صقلت الاتجاه الوطني العام بما قاد في نهاية المطاف إلى حتمية التصادم مع المحتل، وقد لخص الباحث سليمان الشيخ هذا التطور وإفرازاته عندما قال (كل هذا، قد شكل الحصيلة المشتركة للتجربة التي ورثتها حركة التحرير الوطني، وساهم في تعزيز الشعور الوطني داخل الجماهير الشعبية، وجعل قطيعة أول نوفمبر 1954م أمرا لا مندوحة عنه).[76]

والحقيقة أن الذي يستوقف المتمعن في المسيرة الوطنية النضالية الممتدة على مدار النصف الأول من القرن العشرين، هو تلك التحولات في المفاهيم والأفكار وآليات الكفاح التي لجأ إليها الجزائريون الذين أظهروا مقدرة على التكيف مع المناخ الحاصل محليا وعالميا، متأثرين عن طريق المشاركة والاحتكاك بما حمله القرن الجديد من نقلة نوعية في الأفكار والأساليب النضالية، محاولين استثمار هذا الواقع لزحزحة المسلمات الكولونيالية التي حاول الفرنسيون تثبيتها، والقائمة على ترسيخ نظرية السيد والمسود، وتفكيك التركيبة التي تجعل الجزائري كائنا بلا موقع في الخريطة الوطنية.

لقد بيّن تتبع تطور الموقف الجزائري من الواقع الاستعماري الجاثم، أن دخول

الجماهير على الخط النضالي قد خلق جوا لم يكن معروفا، وربما لم يتوقعه مهندسو الظاهرة الاستعمارية، حيث تجاوزت حركة الشارع في قوة طرحها وجرأتها ما حملته حقائب النخب السياسية الناشطة حينذاك التي لم تستطع مسايرة العنفوان الشعبي المتدفق الذي رسم خطا تصاعديا تلى الاحتفالات القرنية المذلة بل أن معظمها قد استبعد تنظيرا وممارسة العمل الشعبي من برامجه باستثناء الاتجاه الثوري ممثلا في النجم ونسخه اللاحقة، الذي جعل من إقحام الجماهير عاملا أساسيا في دفع فرنسا إلى مراجعة سياستها منطلقا من السباحة في داخل الحوض الفرنسي نفسه باللجوء إلى الشارع عبر مناسبات مختلفة على مستوى عاصمة الميتروبول باريس، قبل أن يقود الحركة الشعبية داخل أرض الوطن ويدخل عهدا من المواجهة كشفت إلى أي مدى لا يزال الفكر الاستعماري يسير خارج حركة التاريخ.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983 ص102.

[2] - المرجع نفسه، ص107.

[3] - المرجع نفسه، ص110.

[4] - المرجع نفسه، ص 112.

[5] - المرجع نفسه، ص113.

[6] - مدينة دو روفيقو: بلدية بوقرة حاليا في ولاية البليدة، وقد تظاهر بها 3000 شخص رافضين التجنيد ومقاتلة إخوانهم بالمغرب الأقصى.

[7] - المرجع نفسه، ص188.

[8] - المرجع نفسه، ص189.

[9] - شارل روبير أجيرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م، ج 2، ، نقله إلى العربية م حاج مسعود، ع بلعربي، دار الرائد للكتاب الجزائر، 2007، ص ص715،716.

[10] - المرجع نفسه، ص ص735،736.

[11] - المرجع نفسه، ص742.

[12] - فرحات عباس ،حرب الجزائر وثورتها ليل الاستعمار، تعريب أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت، ص 162.

[13] – أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة،ترجمة الحاج مسعود مسعود ومحمد عباس منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال،وزارة المجاهدين، الجزائر، 2002، ص ص 40،41.

[14] – المصدر نفسه، ص 78.

[15] – المصدر نفسه، ص 78.

[16] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6 ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص16. ينظر أيضا: محفوظ قداش تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول 1919-1939م، ترجمة أمحمد بن البار، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2011 ص336.

[17] – محفوظ قداش، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830-1954م، ترجمة محمد المعراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2008 ص 295.

[18] – المصدر نفسه، ص23.

[19] – المصدر نفسه، ص 44. ينظر أيضا: محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية الجزء الأول 1919-1939م ، المصدر السابق ص 372.

[20] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6، المرجع السابق، ص47.

[21] – محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية الجزء الأول 1919-1939م، المصدر السابق، ص ص 414،415.ينظر أيضا: أحمد مهساس، المصدر السابق ص 108.

[22] – أحمد مهساس، المصدر السابق، ص 108.

[23] – محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية الجزء الأول 1919-1939م، المصدر السابق، ص ص 375،376.

[24] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6، المرجع السابق، ص48.

[25] – المرجع نفسه، ص 127.

[26] – محفوظ قداش، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول 1919-1939م، المصدر السابق، ص ص 371،372.

[27] – المصدر نفسه، ص 382.

[28]- Djanina Messali-Benkelfat , Une vie partagée avec Messali hadj mon père , Hibr éditions et Lazhari labter éditions, Alger, 2013, p 39.

[29] – بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة والنشر، ب.م، 2012، ص 102.

[30] – مصالي الحاج، مذكرات مصالي الحاج 1898–1938، ترجمة محمد المعراجي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص ص 202–204. ينظر أيضا: عبد الرحمن بن براهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر،ج2 (1936–1945) ط2 منشورات السائحي، الجزائر، 2008، ص16.

[31] – نظّمه سنة 1936م، ومما جاء في مطلعه: فداء الجزائر روحي ومالي ... ألا في سبيل الحرية.

فليحي حزب الاستقلال ... ونجم شمال إفريقية.

ولتحي الجزائر مثل الهلال ... ولتحي فيها العربية.

ينظر نص النشيد كاملا في: مفدي زكرياء، اللّهب المقدّس، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 89،90.

[32] – محمد عباس، نصر بلا ثمن الثورة الجزائرية 1954–1962م، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 34.

[33] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6، المرجع السابق، ص 144.

[34] – مصالي الحاج، المصدر السابق، ص ص 230،231.

[35] – المصدر نفسه، ص ص 231،232. ينظر أيضا: – Djanina Messali Benkalfat , Op-Cit, p 42.

– بنجامين ستورا، مصالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية 1898–1974، ترجمة الصادق عماري، مصطفى ماضي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، 2002، ص ص 169–171.

[36] – Djanina Messali –Benkalfat , Op-Cit, p 42.

[37] – مصالي الحاج، المصدر السابق، ص ص 230،231

[38] – أحمد مهساس، الحركة الثورية في الجزائر 1914–1954(طبعة خاصة)، دار

المعرفة، الجزائر، 2007، ص ص 74،75.

[39] – حميد عبد القادر، فرحات عباس رجل الجمهورية، دار المعرفة، الجزائر، 2007، ص 84.ينظر أيضا: أحمد مهساس، الحركة الثورية في الجزائر 1914-1954م، المصدر السابق، ص 173. وأيضا: Djenina Messali Benkalfat, op.cit, p53.

[40] – أحمد مهساس، الحركة الثورية في الجزائر 1914-1954، المصدر السابق، ص 173.

[41] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6، المرجع السابق، ص ص 38،39.

[42] – عبد الرحمن بن براهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 232.

[43] – شارل روبير أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عياش سلمان،ج2، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر، 2008، ص 929.

ينظر أيضا: صالح بلحاج، تاريخ الثورة الجزائرية: صانعوا أول نوفمبر 1954، دار الكتاب الحديث ، 2010 ص 21.

[44] – محمود آيت مدور، الحركة النقابية المغاربية بين 1945-1962م:الجزائر وتونس نموذجا دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2013 ، ص 50. ينظر أيضا: صالح بلحاج، المرجع السابق، ص 21.

[45] – عبد الرحمن بن براهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 374.

[46]–رضوان عيناد تابت، 8 أيار ماي 45 والإبادة الجماعية في الجزائر، ترجمة سعيد محمد اللحام، ط1، منشورات الوكالة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر، 2005، ص 50.

[47] – المرجع نفسه، ص 54.

[48] – المرجع نفسه، ص ص 49-53.

[49] – المرجع نفسه، ص 175.

[50] – أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، المصدر السابق، ص 233.

[51] – حسين آيت أحمد، روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942-1952، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، ب.م، 2002 ص 41.

[52] – المصدر نفسه، ص 42.

[53] – رضوان عيناد تابت، المرجع السابق، ص 54.

[54] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط6، المرجع السابق، ص 233.

[55] – بوعلام بن حمودة، المصدر السابق، ص 128.

[56] – بنجامين ستورا ، المرجع السابق، ص 190.

[57] – شارل روبير أجيرون، المرجع السابق، ص 934.

[58] – عبد الرحمن بن براهيم بن العقون، المصدر السابق، ص418.

[59] – بن يوسف بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954، ترجمة مسعود حاج مسعود، ط2، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012 ص 141.

[60] – المصدر نفسه، ص 141.و أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة ، المصدر السابق ص 238.

[61] – بن يوسف بن خدة، المصدر السابق، ص 142.

[62] – فرحات عباس، المصدر السابق، ص 185.

[63] – أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، المصدر السابق، ص ص 241،242.

[64] – محمد بوضياف، التحضير لأول نوفمبر 1954، ط2، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2011، ص 13. ينظر أيضا: صالح بلحاج المرجع السابق، ص 29.

[65] – عبد الرحمن بن براهيم بن العقون، المصدر السابق، ص 413.

[66] – بن يوسف بن خدة، المصدر السابق، ص 243.

[67] - Jean Pierre Arthur Bernard, Paris Rouge 1944-1964, les Communistes français dans la capitale, édition champs vallon , 1991, p138.

[68] - Jean Luc Einaudi, La Bataille de Paris 17 Octobre 1961, Media Plus, Algérie, 1994, p 46.

[69] - Jean Pierre Arthur Bernard , Op-Cit, p139.

[70] - Daniel Guérin, CI-git le colonialisme : Algérie, Inde, Indochine…ed Walter de Gruyter ; 1993, pp 41-42.

[71] - La Brigade des Agressions et Violences

[72] - Jean Luc Einaudi, Op.Cit, p 47.

[73] - Danielle Tartakowsky, les Manifestations de rue en France 1918-1968 , publications de la sorbonne, 1997, p 634.

[74]- Jacques Gurault, Ouvriers en banlieue XIXe , XXe siècle, Editions de l'Atelier, 1998, p345.

[75] - الفيلم الوثائقي: " les balles du 14 juillet 1953" على الرابط: www.aps.dz/ar/culture/9199

[76] - سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، ترجمة محمد حافظ الجمالي منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2002، ص 61.

الدعم العربي للثورة الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة

د. بشير سعدوني– قسم التاريخ – جامعة الجزائر 02

ملخص

عرضت القضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة في عدة دورات، و في كل مرة كانت تلقى دعما سياسيا عربيا واسعا أثر تأثيرا فعالا على المواقف الدولية، و عزز الطرح الجزائري المطالب بتطبيق حق تقرير المصير، و في نفس الوقت أحرج الفرنسيين و زاد من عزلتهم، فكان ذلك من العوامل التي زادت من دفعهم إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات لمناقشة القضية الجزائرية ، مناقشة جادة، أفضت إلى استفتاء تقرير المصير و الاستقلال.

RESUME

During the Algerian war of independence, the united nations had put the Algerian problem at the top of its agenda particularly during its annual meeting of UN .

Meantime, the Algerian crisis had found a very great support mainly among the newly independent Arab states. Also the Algerian struggle had pushed the French politicians and army to stop their hostility and agony against the Algerians who were determined to achieve their liberty and freedom with arms struggle of course, and the right of self determination.

At the end the French had understood that Algeria sooner or later will be an independent state, but this time they were pushed to sit around a negotiated table but again this time with their 'forced' own will.

And in the 18march 1962 both antagonist states; Algeria and France signed on the Evian accords, ending seven and half years of very violent war of independence.

مقدمة :

إذا كان معظم المسؤولين العرب لم يبدوا تحمسًا واضحًا ، و دعمًا حقيقيًا للثورة الجزائرية إبّان انطلاقتها ، فإن ذلك يعود لاعتبارات عديدة منها :

1. أنّ معظم البلدان العربية لم تنل بعد سيادتها الكاملة، و ما تزال الجيوش الأجنبية رابضة على أراضيها تهدد استقلالها.
2. التهديد الذي تطلقه فرنسا ضدّ كل من يبدي عطفًا أو مساندة للقضية الجزائرية ، باعتبارها حسب وجهة نظرها ، قضية فرنسية داخلية لا يحقّ لأي كان التدخل فيها.
3. جهل الكثير من العرب بواقع الجزائر و ممارسات فرنسا بها، بسبب الطوق المتعدد الأوجه المضروب عليها لفصلها عن امتدادها العربي الإسلامي.
4. عدم التأكد من إمكانية قدرة الشعب ، ضعيف، محاصر، اعزل محدود الإمكانات المادية و البشرية من تحقيق نصر على قوة عظمى يؤازرها الحلف الأطلسي .

لكن هذا الواقع أخذ في التحول التدريجي لصالح القضية الجزائرية ، و بدأ التعاطف معها ، بفضل الانتصارات المتلاحقة التي اخذ الجزائريون يحققونها ميدانيًا ، و الانتشار الواسع للممارسات غير الإنسانية التي يقوم بها الجيش الفرنسي ، و ضغط الشعوب العربية على حكوماتها لدفعها للعمل لصالح الثورة الجزائرية .

فبرز الدعم العربي جليًا ، و أخذ صورًا و أشكالاً متعددة و سنتناول في هذه الدراسة الدعم في المحافل الدولية ، و بالتحديد في هيئة الأمم المتحدة .

عرضت القضية الجزائرية لأول مرة على هذه الهيئة خلال الدورة العاشرة للجمعية العامة، أي بعد عام فقط من اندلاع الثورة، فقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة (سبتمبر- نوفمبر 1955) و بالتحديد في 30 سبتمبر بأغلبية 28 صوتا ضد 27، و امتناع خمسة أعضاء إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها [1].

و لكن المنظمة عادت، فقررت في 23 نوفمبر من نفس السنة، و في نفس الدورة سحب القضية الجزائرية من جدول أعمالها و أجلت إلى الدورة الحادية عشر باقتراح عام[2]، و مع ذلك لم تيأس الدول العربية (المملكة العربية السعودية، مصر، الأردن، لبنان، ليبيا، العراق) و غيرها من الدول الإفريقية والأسيوية، فواصلت هذه الدول جهودها، حيث عقدت ما بين 2 ماي و 13 جوان 1956 سلسلة من الاجتماعات بلغت ثلاثة عشر اجتماعا في كواليس الأمم المتحدة انتهت يوم 1 أكتوبر 1956 بتقديم طلب إلى الأمين العام للأمم المتحدة لإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة الحادية عشر للجمعية العامة العادية و قبل الطلب، و سجلت القضية الجزائرية من جديد يوم 15 نوفمبر 1956[3]، و دافع ممثلو الدول العربية عن القضية الجزائرية دفاعا كبيرا منهم الرئيس الحبيب بورقيبة[4]الذي استنكر المواقف الفرنسية، و لجوء الأمم المتحدة إلى الكيل بمكيالين في القضايا الدولية، ملحا على ضرورة معالجة القضية الجزائرية بالطرق السلمية، مقدما العديد من الاقتراحات لتحقيق ذلك.

أما رئيس الوفد المغربي السيد أحمد بلا فريج فقد طالب بالسعي الحثيث لإيجاد تسوية شاملة للمأساة الجزائرية المتعاظمة، كما أوضح بأن الشعب الجزائري محروم من أبسط حرياته، كحرية التعبير و الاجتماعات، و من حق الجولان في بلاده، و أكد أن " النظرية القائلة بأن الجزائر جزء من الراية الفرنسية إنما هي و هم " [5].

أما ممثل وفد الأردن، الذي تلقى تعليمات من حكومة بلاده بضرورة مناصرة القضية الجزائرية، و السعي لعرضها على مجلس الأمن، فقد دافع أيضا عن هذه القضية[6].

و قد قررت حكومة جي مولي Guy Mollet الفرنسية ألا تقاطع هذه الدورة، عكس ما حدث في الدورة السابقة، فأرسلت وفدا رفيع المستوى ليشارك في المناقشات و الوقوف في وجه القضية الجزائرية و مؤيديها[7].

و نتيجة لكل ذلك، و رغم تعنت الوفد الفرنسي، و رفضه الإقرار بالقضية الجزائرية، فإن الجمعية العامة تبنت مشروع القرار التالي:

" إن الجمعية العامة قد استمعت إلى جميع البيانات التي أدلى بها المندوبون، وناقشت قضية الجزائر، و نظرا لأن الحالة في الجزائر تسبب كوارث و خسائر في الأرواح، تعبر عن أملها في روح التعاون للوصول إلى حل سلمي، ديمقراطي، عادل بواسطة الوسائل المناسبة، وطبقا لمبادئ الأمم المتحدة"[8].

إن هذا القرار عد، وقتها انتصارا كبيرا للقضية و الدبلوماسية الجزائرية، "رغم أن الوفد الفرنسي لم يشارك في الاقتراع للاحتفاظ بموقفه فيما يتعلق بالأهلية"[9] إذ لأول مرة منذ أكثر من قرن و ثلث يقر العالم رسميا، بوجود شعب- الشعب الجزائري – يدافع عن حقه المشروع في تقرير المصير و التحرر.

و إذا كان الفضل في ذلك يعود إلى الثورة، و الانتصارات العسكرية التي تحققها يوميا، فإن الخطاب العربي ساهم مساهمة فعالة في التعريف بهذه القضية و عدالتها.

أ. **الدورة الثانية عشرة:**

رغم مصادقة الدورة الحادية عشرة على لائحة أكدت فيها على ضرورة إيجاد حل سلمي وعادل للقضية الجزائرية، فإن فرنسا ظلت تماطل، و تتذرع بالحجج الواهية، الأمر الذي دفع بالعرب إلى تكثيف نشاطهم الدبلوماسي للتصدي للمراوغات الفرنسية، و في هذا الإطار و قبل بداية الدورة الثانية عشر، أي في 30 مارس 1957 وقعت كل من تونس والمغرب معاهدة في الرباط تعهدتا فيها بالسعي لإيجاد حل عادل للقضية الجزائرية[10].

كما قام مندوبو الدول العربية بنشاط حثيث و مكثف، خلال هذه الدورة، لفضح الممارسات الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، من هؤلاء المندوب التونسي السيد المنجي سليم الذي تولى الرد على الخطاب الذي ألقاه وزير الخارجية الفرنسي PINEAU و الذي وجه فيه تحذيرا للأمم المتحدة بأن لا تتدخل في قضية الجزائر التي هي- حسب زعمه – قضية فرنسية داخلية، و قوله بأن وجوده في هذه الجلسة ما هو إلا مجاملة للأمم المتحدة، وليس اعترافا لها بالتدخل في الشؤون الداخلية الفرنسية[11].

كما ألقى ممثل ليبيا في الأمم المتحدة السيد علي الحربي خطابا مطولا أمام الوفود المشاركة وصف من خلاله الحرب التي تخوضها فرنسا في الجزائر بالحرب الاستعمارية، مكذبا ما تسميه فرنسا ب" عمليات التهدئة " واصفا ممارساتها بأكبر الحروب الاستعمارية، كما طلب – علي الحربي – فرنسا بضرورة التخلص من ثلاث اعتبارات ليست لها أي صلة بالواقع و هي:

أ. اعتبار الجزائر جزءا من التراب الفرنسي.

ب. إن جبهة التحرير الوطني لا تمثل الجزائر.

ج. المعمرون الفرنسيون ليسوا كلهم من أصل فرنسي، و لا يمكن أن يعيشوا مطمئنين في الجزائر المستقلة[12].

أما ممثل مصر السيد محمود فوزي فقد دافع عن عدالة القضية الجزائرية، و أشار إلى تضحيات الشعب الجزائري، و تصميمه على أن يعيش في ظل الكرامة و الحرية[13].

كما ألقى السيد يوسف هيكل السفير الأردني في واشنطن، و الذي مثل الأردن في هذه الدورة كلمة هاجم فيها السياسة الفرنسية الإجرامية، المتبعة في الجزائر، كما انتقد بشدة وقوف، ودعم الحلف الأطلسي للمستعمر الفرنسي، و شدد على ضرورة اعتراف فرنسا والأمم المتحدة بحق الشعب الجزائري في الحرية و الاستقلال[14].

أما السيد أحمد العراقي، ممثل المغرب بالأمم المتحدة، فقد بيّن بأن القضية الجزائرية لا تتطلب فقط مجرد إصلاحات، بل هي مشكل سياسي لا يمكن حله إلاّ بالاعتراف للشعب الجزائري بحق تقرير مصيره بنفسه[15].

و ألقى أحمد الشقيري خطابا مطولا باسم الوفود العربية و الآسيوية، و الإفريقية فضح فيه السياسة الفرنسية و مزاعمها المختلفة مفندا مقولة السيد " بينيو PINEAU " وزير خارجية فرنسا، بأن الجزائر أرض فرنسية[16]، مؤكدا كلامه بأدلة و براهين، و وقائع تاريخية، راجيا أن تصبح الجزائر في وقت قريب دولة مستقلة تحتل مقعدها المرموق في هذه المنظمة العالمية[17].

هذا النشاط المكثف أدى إلى مصادقة الجمعية العامة بالإجماع يوم 10 ديسمبر 1957 على اللائحة التالية:

" إن الجمعية العامة، بعد أن ناقشت القضية الجزائرية، و ذكرّت بقرارها السابق الصادر في 15 فيفري 1957 تعبر عن قلقها لتطورات الوضع، تسجل العرض المقدم من طرف المغرب الأقصى، و الرئيس التونسي لوساطتهما، و بذل

مساعيهما الحميدة لحل القضية، تعبر عن رغبتها في روح التعاون الفعال بأن تبدأ المحادثات، و باستخدام وسائل أخرى ودية قصد الوصول إلى حل، يتماشى مع أهداف و مبادئ الأمم المتحدة" [18].

ب. **الدورة الثالثة عشرة :**

استمر الفرنسيون في مناورتهم، و حربهم العدوانية ضد الشعب الجزائري مستغلين المهلة التي منحتهم إياها الأمم المتحدة لحسم القضية عسكريا لهذا وجهت يوم 16 جويلية 1958 أربعة وعشرون دولة من الكتلة الآفرو آسيوية منها عدة دول عربية هي (لبنان، مصر، السودان، المملكة السعودية، ليبيا، الأردن، العراق، تونس)، طلبا لتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة القادمة للأمم المتحدة، مذكرة بما سبق و أن أتخذ من قرارات خلال الدورة الثانية عشر لصالح القضية الجزائرية،إلا أنه لم يسجل خلال هذه الفترة أي تقدم في تنفيذ القرارات المتخذة، بل بالعكس من ذلك، فإن العمليات الحربية قد تواصلت على نفس النمط، بل أكثر، مسببة آلاما، و خسائر بشرية متزايدة [19] .

و هكذا نوقشت القضية الجزائرية من طرف اللجنة السياسية، رغم أن الوفد الفرنسي لم يشارك في المناقشة[20]، و قامت الوفود العربية بنشاط مكثف لإقناع الوفود المشاركة للتصويت لصالح لائحة تخدم القضية الجزائرية نصت على رغبة الأمم المتحدة في بدء محادثات بين الطرفين، و باستخدام الوسائل المناسبة الأخرى للوصول إلى حل طبقا لمبادئ الأمم المتحدة، و اعترافا بحق الشعب الجزائري في الاستقلال[21].

وقد تمثل النشاط العربي بالخصوص فيما يلي:

قيام أحمد الشقيري باسم الوفود العربية باستعراض شامل لحيثيات القضية الجزائرية، مفندا المزاعم الفرنسية المستندة إلى حجة الاختصاص الداخلي التي تلجأ إليها فرنسا دائما لتعارض سلطة الأمم المتحدة، و ذكر بما سبق و أن اتخذته هذه

الهيئة من قرارات بشأن المشكل الجزائري، خاصة دعوتها إلى بدء مفاوضات بقصد الوصول إلى تسوية بموجب الميثاق الأممي و مبادئه[22].

كما أعرب الملك سعود **لداج همر شولد** سكرتير هيئة الأمم المتحدة، خلال لقاء جمعهما، عن مساندة العرب جميعا للقضية الجزائرية، مؤكدا له أن العلاقة السياسية بين العرب و فرنسا متوقفة على حل هذه القضية، حلا يعيد لأهلها العرب حريتهم و استقلالهم[23]

و لم يكتف سعود بهذا، بل أعلن عن موقف مشرف شجاع و هو أن العرب لن يكتفوا بإرسال المساعدات المالية لإخوانهم المجاهدين الجزائريين فقط، مقترحا عليهم (أي العرب) مقاطعة فرنسا اقتصاديا حتى تستجيب للمطالب المشروعة للجزائريين[24].

كما دافع عبد المنعم الرفاعي، ممثل الأردن، عن القضية الجزائرية، مؤيدا و مدعما المذكرة التي تقدم بها محمد يزيد وزير الأخبار في الحكومة الجزائرية و مندوبها في هيئة الأمم المتحدة يوم 31 نوفمبر 1958 هذه المذكرة التي استنكرت موقف فرنسا الرافض للمفاوضات، و مطالبة الهيئة الدولية بإجبار فرنسا على وقف عدوانها الاستعماري في الجزائر، وذلك بالدخول في المفاوضات التي تؤدي إلى حلّ عادل للقضية الجزائرية[25].

أما ممثل تونس و المغرب فقد ألقيا خطابين أظهرا عدالة القضية الجزائرية، وحق الشعب الجزائري المشروع في الحرية و الاستقلال، هذا الحق الذي تتنكر له فرنسا، مفندين مزاعم فرنسا التي ما انفكت تجترها[26].

هذا الموقف من ممثلي البلدين الشقيقين ارتاح له الجزائريون كثيرا، و رأوا أنه يعبر بصدق عن واقع القضية الجزائرية، و يفضح ممارسات فرنسا في حق الجزائريين، وتنكرها المستمر لمطالبهم المشروعة التي أقرتها الهيئات الدولية، بما فيها هيئة الأمم المتحدة، لهذا وصفته المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، بأنه تأييد مطلق للقضية الجزائرية و " خطاب قومي " لصالح القضية العربية بأسرها[27]. بل أن نفس الصحيفة اعتبرت قرار الأمم المتحدة نصرا ديبلوماسيا

حقق ثلاثة أهداف هي : الاعتراف بحالة الحرب في الجزائر، الاعتراف بالحكومة المؤقتة، الاعتراف بالحق في الاستقلال[28].

ج. **الدورة الرابعة عشرة :**

انعقدت هذه الدورة، بعد التصريح الذي أدلى به الجنرال ديغول يوم 16 سبتمبر 1959 والذي اعترف فيه بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره[29].

و أيضا، اثر قيام 22 حكومة آفرو-آسيوية بتوجيه رسالة إلى مجلس الأمن يوم 10 جويلية 1959 تذكره فيها بالوضعية الخطيرة التي يعانيها الشعب الجزائري، و المتمثلة في وجود أكثر من 4000 ضحية شهريا، و تعذيب للمسلحين من قبل الجيش الفرنسي، مشيرة إلى أن سياسة العمليات العسكرية التي تقوم بها فرنسا في الجزائر تعد تهديدا خطيرا للسلم والأمن العالميين، كما طالبت بالاهتمام بمصير حوالي 000 000 1 جزائر متشرد[30].

و هكذا تجندت الوفود العربية لإنجاح القضية الجزائرية في هذه الدورة حيث تبنت المشروع المقدم من طرف الباكستان و الذي نصّ على أن الجمعية العامة " تدعو الطرفين اللذين يهمهما الأمر إلى فتح محادثات لضبط الشروط اللازمة لتطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير المصير في أقرب وقت ممكن، بما فيها شروط إيقاف القتال "[31].

و الواقع أن النشاط العربي لإنجاح هذه الدورة بدأ منذ شهر أوت 1959 حين قام السفير الأردني في واشنطن، يوسف هيكل، برفقة سفراء تسع دول عربية (ليبيا، مصر، السعودية، المغرب، تونس، لبنان، اليمن، العراق، الأردن، الكويت) بزيارة المستر هيرتر Hairture من كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية، و سلمه مذكرة أعربوا فيها عن أملهم أن تمنح الولايات المتحدة الأمريكية المزيد من التأييد للقضية الجزائرية في الدورة الرابعة عشر للأمم المتحدة المقبلة، و عن تطلعهم لقيامها بدور فاعل وجدي في إيجاد حل للقضية الجزائرية، و قد أعرب الممثل الأمريكي عن قلقه إزاء القتال الدائر في الجزائر، غير أنه لم يعد بشيء[32].

بقي أن نشير إلى أن المجهودات العربية في هذه الدورة كانت تنفيذا لقرار اللجنة

السياسية لجامعة الدول العربية المتخذ يوم 1959/09/07 ،و الذي أوصى بإجراء " اتصالات مع كافة أعضاء الأمم المتحدة لمؤازرة قضية الجزائر العادلة في الدورة القادمة للجمعية العامة " [33].

و خلال المناقشة تدخل مندوبو الدول العربية، فألقى مندوب تونس بيانا في اللجنة السياسية أوضح فيه جسامة الخسائر بسبب الحروب في الجانبين الفرنسي و الجزائري، وقال إن الفريقين متفقان على وجوب تمتع الجزائر بحق تقرير المصير، و إجراء محادثات لوقف القتال، و إنه يجب أن تقبل فرنسا التفاوض مع أعضاء الوفد الذي عينته الحكومة الجزائرية [34].

كما أكد أنه ليس بدعا أن تتفاوض الحكومة الفرنسية مع أحمد بن بلة و صحبه، فقد سبق أن اعتقلت فرنسا المرحوم محمد الخامس ملك المغرب السابق، ثم أفرجت عنه وتفاوضت معه[35].

أما مندوب تونس السيد المنجي سليم فقد أسهب في الحديث عن القضية الجزائرية، إذ تجاوز تدخله الساعة، فبين بأن الحالة في الجزائر ما تزال خطيرة، و لا يمكن أن تحل بالحرب، مذكرا بأن الحكومة الجزائرية قبلت حكم الشعب في ضبط مستقبل الجزائر السياسي، لهذا دعا إلى توسيع نطاق المحادثات مع الوطنيين الجزائريين، بحيث تشمل المشكلة السياسية إلى جانب مسألة وقف القتال، وفقا لما تطالب به حكومة الجزائر الحرة و أن يجرى الاستفتاء تحت رقابة دولية [36] .

مندوب مصر، محمود فوزي، أكّد لدى تدخله أن الجمهورية العربية المتحدة تساند الجزائريين في كفاحهم لاسترداد حريتهم و حقوقهم، و قال إنه بالرغم من القيود الأساسية التي تضمنها بيان الجنرال ديغول، فإن الحكومة الجزائرية قد أعربت عن استعدادها للدخول في مباحثات لمناقشة الشروط و الضمانات اللازمة لوقف إطلاق النار، و إنه يجب آلا تضيع هذه الفرصة لتحقيق السلام[37].

ولم يتخلف ممثل السودان عن التدخل لمناصرة القضية الجزائرية، فذكر بأن ديغول قد سلّم بالصيغة الدولية للقضية الجزائرية عندما اعترف بحق تقرير مصير الشعب الجزائري[38].

نفس الموقف عبر عنه ممثل المغرب حيث قال أنه ليس في الإمكان أن يضع الشعب الجزائري أسلحته بمجرد اعتراف فرنسا بحقه في تقرير مصيره، و زيادة على المتناقضات التي يشمل عليها بيان ديغول[39]، فإن تأويلات المسؤولين الفرنسيين تتناقض تماما مع بيان 16 سبتمبر [40].

و رأى ممثل العراق أن اتفاق الطرفين على مبدأ تقرير المصير ليس كافيا، إذ أنه ينبغي أن يتحصل الشعب الجزائري على ضمانات تخص الصيغة التي يطبق بها هذا المبدأ، و لذلك ينبغي الشروع فورا في المفاوضات بين الطرفين.

أما ممثل اليمن فرأى أنه على فرنسا أن تقبل المناقشة مع ممثلي الحكومة الجزائرية حول وسائل اختصار الفترة الانتقالية قبل الاستفتاء، مع ضبط ضمانات لممارسة جميع الحريات أثناء هذه الفترة، و الشروط الضامنة للحرية الكاملة عند الاستفتاء[41].

نفس الرأي، تقريبا، أبداه ممثل الأردن، عبد المنعم الرفاعي، الذي أعلن أن أي مشروع لحل القضية الجزائرية يجب أن يقوم على أسس الديمقراطية الصحيحة، و العدالة الواقعية، و أن يكون واضحا بعيدا عن الغموض، و أن حق تقرير المصير حق طبيعي، ولابد من إجراء مناقشة فعالة و حقيقية لضبط صيغ مناسبة تسبق التسوية و المتعلقة بإيقاف القتال، و إن الوفد الأردني عندما يتحدث عن قضية الجزائر، فإنه لا يتحدث عن قضية عربية فحسب، و لا عن قضية مناوئة للاستعمار، و إنما قضية تتعدى في أهميتها هذه الحدود " إنها قضية الحرية في أوسع معانيها، قضية الشجاعة و الشرف والكرامة"[42].

هذا الخطاب العربي الداعم للقضية الجزائرية كان له تأثيره الفعال على المواقف الدولية، فازداد عدد المؤيدين و المتعاطفين مع القضية الجزائرية، و انحسر حلفاء فرنسا، لهذا حين عرضت القضية للتصويت أيدتها 38 دولة و عارضتها

26 دولة، و امتنعت 17 دولة عن التصويت أغلبها كانت تصوت لصالح فرنسا مثل الأرجنتين، اللاووس، و غيرهما، فكان ذلك نصرا عظيما للجزائر ابتهج له الوفد الجزائري في الأمم المتحدة، و أصدر بلاغا بعد نهاية المناقشة أعلن فيه أن مناقشة القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أثبتت، بصفة واضحة، عدالة الموقف، و وجاهة المطالب التي أعلنتها الحكومة الجزائرية،مشيرا إلى أنه لا يمكن وقف القتال دون " اتفاق بين الطرفين بشأن شروط وضمانات تطبيق حق تقرير المصير للشعب الجزائري "[43].

أما اللائحة المصادق عليها فقد تضمنت ما يلي:

" تدعو الطرفين اللذين يهمهما الأمر إلى فتح محادثات لضبط الشروط اللازمة لتطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير المصير، في أقرب وقت ممكن، بما فيه شروط إيقاف القتال"[44] .

وقد عدت هذه اللائحة نجاحا باهرا ليس للجزائريين فحسب، بل أيضا للعرب، الذين بذلوا جهودا معتبرة للوصول إلى هذه النتيجة، فلأول مرة تصدر الجمعية العامة قرارا واضحا، يدعو صراحة إلى تقرير مصير الشعب الجزائري، و في أقرب وقت، يلقى موافقة دول كبرى، كروسيا، و الصين و اكرانيا، و امتناع أخرى كانت مقربة جدا من فرنسا مثل اليونان و ايرلندا، و فلندا و غيرها[45]، وهو ما جعل الصحافة الغربية تشن حملة شديدة ضد فرنسا منها صحيفة " واشنطن بوست " التي كتبت " إن إفريقيا الشمالية تسير إلى الأمام، أحبت فرنسا أم كرهت، و رضي ساستها أم لم يرضوا، إنه يتعين علينا، نحن الأمريكيين أن يكون ذلك السير في اتجاه التعاون و الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية [46].

د. الدورة الخامسة عشرة:

جاء انعقاد هذه الدورة بعد فشل محادثات **مولان**[47] و إصرار الطرف الجزائري على إجراء محادثات حقيقية تؤدي إلى استفتاء حقيقي و نزيه، و قد تقدمت أربع و عشرون دولة افريقية-آسيوية بمشروع لائحة تنص على ضرورة إشراف الأمم

المتحدة على استفتاء تقرير المصير، و حين لم تفز بأغلبية الأصوات أدخلت عليها تعديلات بحيث تم حذف الفقرة الرابعة التي تنص على إجراء الاستفتاء تحت إشراف الأمم المتحدة، و أصبح نصها كالتالي:

" إن الجمعية العامة، لما كان الطرفان، الجزائري و الفرنسي، قد اتفقا على قبول مبدأ حق تقرير المصير تقرر".

أ. حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره و استقلاله.

ب. الحاجة الماسة لإيجاد ضمانات لتنفيذ هذا الحق، على أساس احترام وحدة التراب الجزائري.

ج. و إن الجمعية العامة مسؤولة عن تنفيذ هذا القرار بصورة كاملة"[48].

و تحصل المشروع المعدل على الأغلبية، أي 68 صوتا ضد 27، و امتناع 8 وفود عن التصويت، وهكذا سجلت القضية الجزائرية انتصارا سياسيا كبيرا بفضل الجهود والتضحيات التي قدمها الشعب الجزائري خلال ثورته، و كذا بفضل الدور الهام الذي قام به ممثلو الدول العربية[49]و منهم: ممثل السودان الذي أكد في خطابه أنه على " ديغول " أن يعترف باستقلال الجزائر، و إلاّ فإن الجزائريين سيفرضون إرادتهم، و يجبرونه على الخروج من الجزائر مكللا بالعار[50].

أما رئيس الحكومة اللبنانية السيد صائب سلام فقد تناول في تدخله رفض الحكومة الفرنسية إجراء الاستفتاء الحر، الذي طالبت به الحكومة الجزائرية، و اعتبره مطلبا معقولا، و أكد أن من واجب الأمم المتحدة أن تضمن حرية الاستفتاء[51].

أما الملك الأردني حسين فقد أكد، في خطاب ألقاه في الجمعية العامة للأمم المتحدة، دعمه للقضية الجزائرية التي هي أهم من غيرها، مطالبا بإيجاد حل مرض للجزائريين، مذكرا بمأساة الجزائريين، مفندا حجج فرنسا لرفض حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، كما لام الأمم المتحدة التي تكيل بمكيالين في القضايا

الدولية، مبرهنا على ذلك بموقفها من كوريا و المجر، و إهمالها لقضية الجزائر التي هي أهم من غيرها، مؤكدا أنه من حق الشعب الجزائري أن يقرر مصيره[52].

كما انتقد ممثل العراق السيد هاشم جواد مواقف الجنرال ديغول من القضية الجزائرية، مبينا أنه آن الأوان لكي تتخذ الأمم المتحدة موقفا أكثر إيجابية من المشكل الجزائري، مع ضرورة أن تضع هذه الهيئة برنامجا يساعد على تطبيق مبدأ تقرير المصير للشعب الجزائري[53].

نفس الموقف، تقريبا، عبّر عنه الأمير الحسن، ولي عهد المغرب الذي أضاف أنه لا يجوز للهيئة أن تسمح بمواصلة الحرب في الجزائر[54].

كما ألقى الرئيس جمال عبد الناصر كلمة خصص جزءا هاما منها للتحدث عن القضية الجزائرية، ملفتا نظر المجموعة الدولية إلى تجاهل فرنسا التام لكل النداءات الموجهة إليها لحل هذه القضية، رغم الجهود الجبارة التي بذلتها الحكومة المؤقتة الجزائرية من أجل الوصول إلى حلّ سلمي، مذكرا بتضحيات الشعب الجزائري التي فاقت المليون شهيد، حاثا الهيئة الدولية على القيام بواجبها لتمكين الشعب الجزائري من تقرير مصيره على أساس استفتاء نزيه يتم تحت إشراف الأمم المتحدة و مراقبتها[55].

"نفس الامتعاض عبر عنه السيد فرحات عباس لدى تدخله في المناقشات بقوله: ستدخل حرب الجزائر غدا أول نوفمبر 1960 سنتها السابعة... و ستستمر الحرب في سبيل التحرر و الاستقلال، مع كل ما تجره في ذيلها من آلام و تضحيات ... و كان بالإمكان إعلان السادس عشر سبتمبر عام 1959 أن يكون أساسا لحل سلمي للصراع، و أن يكون عام 1960 سنة سلام"[56].

و هكذا نجد أن ممثلي كل الدول العربية الذين حضروا مناقشة القضية الجزائرية تنافسوا في الدفاع عنها، منتقدين تجاهل فرنسا الاستجابة لحق الشعب

الجزائري في الحرية و الاستقلال، مصرين على ضرورة منح هذا الشعب حقه الشرعي في تقرير المصير، وفق ما تنص عليه مبادئ هيئة الأمم المتحدة، بل أنهم حمّلوا الهيئة مسؤولية ما يحدث في الجزائر، ما دامت لم تتخذ موقفا حاسما لصالح القضية الجزائرية، و ظلت تكيل بمكيالين في القضايا الدولية.

كما أن هذه التصريحات كلها جاءت رافضة قيام فرنسا بالإشراف على الاستفتاء، وأصرت على أن يجري تحت إشراف الهيئة الدولية لعدم ثقتها في نزاهة فرنسا المعروفة بتزوير الانتخابات، و قد أقرت إدارتها بذلك عدة مرات منها اعترافها خلال انتخابات 1948 حيث قالت، " لم يكن الاختيار بين انتخابات حرة، و أخرى ملفقة، و لكن الخيار بين أن يزورها المصاليون أو الولاية العامة، فاخترنا الأمر الثاني "[57].

كما حذرت جريدة المجاهد من هذا التزييف فكتبت مقالا تحت عنوان لماذا نطالب بالضمانات في الاستفتاء قائلة " تزييف الانتخابات بالجزائر أمر معروف " مؤكدة أنّ ذلك من العوامل الأساسية التي دفعت الشعب الجزائري إلى حمل السلاح[58].

و عموما، فإن المواقف العربية المتخذة في هذه الدورة عززت موقف الوفد الجزائري، و ساعدت القضية الجزائرية كثيرا، و في نفس الوقت أحرجت فرنسا، و زادت من عزلتها الدولية[59].

هـ. الدورة السادسة عشرة:

ازدادت الثورة الجزائرية التهابا بعد الدورة الخامسة عشر لهيئة الأمم المتحدة فتصاعدت العمليات الفدائية في المدن بشكل مواز للعمليات العسكرية التي يقوم بها جيش التحرير الوطني، و كثف الجيش الفرنسي عمليات التمشيط اعتقادا منه أنه بإمكانه قمع الثورة، و دفع المجاهدين للاستسلام، لكن إجراءاته فشلت، و ظهر الانقسام و الانشقاق في صفوف جنوده و قيادته، كما ازداد التأيد

السياسي العالمي للثورة[60]، فاعترفت دول أخرى بالحكومة المؤقتة مثل: مالي، الكونغو ، تشيكوزلوفاكيا ، بلغاريا ، الباكستان .

كل ذلك أدى بالحكومة الفرنسية للدخول في المفاوضات من جديد مع الطرف الجزائري. في هذه الأجواء تقدمت دول الكتلة الإفريقية الأسيوية يوم 16 سبتمبر 1961 بلائحة جاء فيها: " إن ممثلي الدول الإفريقية الآسيوية، بعد أن عبروا عن أسفهم العميق أمام استمرار الحرب في الجزائر، و بعد أن لاحظوا عزم الطرفين المعنيين بالأمر عن البحث عن حل تفاوضي، سلمي، على قاعدة حق الشعب الجزائري في تقرير المصير و الاستقلال فإنهم يدعون الحكومة الفرنسية، و الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لاستئناف التفاوض من أجل تطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير المصير و الاستقلال، و ذلك في نطاق احترام وحدة و سلامة الوطن الجزائري "[61].

و قد تمت المصادقة على هذه اللائحة دون صعوبة تذكر، و دون أن يمتد حولها النقاش، كما كان الشأن في الدورات السابقة، بسبب التطورات التي حدثت في الموقف الفرنسي،و الخطوات الهامة التي قطعتها الثورة الجزائري، و تفهم الكثير من الدول لحيثيات هذه القضية إضافة إلى الدور البارز، و النشاط المكثف الذي بذله أعضاء الوفود العربية قبل و أثناء انعقاد هذه الجلسة لإقناع الجميع بضرورة تأييد اللائحة و التصويت لصالحها.

و من هؤلاء أحمد الشقيري، الذي ألقى خطابا شاملا باسم الجامعة العربية استعرض فيه، كعادته، حيثيات القضية الجزائرية، مبرزا استعداد الجزائريين للتفاوض بهدف الوصول إلى حل سلمي يعيد الحق لأهله، فاضحا المراوغة الفرنسية، و العراقيل التي تضعها في طريق المفاوضات، مقترحا تدابير عملية لإنجاح المفاوضات منها:

أ. الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائري.

ب. الاعتراف بوحدة الوطن الجزائري.

ج. الشعب الواحد لا بد له من دولة واحدة.

د. احترام وقف إطلاق النار.

هـ. إطلاق سراح الزعماء الجزائريين.

و. معاملة السجناء و المعتقلين معاملة إنسانية[62].

هذا الخطاب في حقيقته ترجمة عملية لقرار جامعة الدول العربية المتخذ يوم 1961/9/19 والذي أوصى " ببذل المساعي لدى أعضاء الأمم المتحدة بالتعاون مع الدول غير المنحازة و المجموعة الإفريقية الآسيوية وسائر الدول الصديقة، لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يؤكد حق الجزائر الطبيعي المقرر في الاستقلال و السيادة، و وحدة الشعب والأراضي الجزائرية، و اتخاذ الوسائل الفعالة لممارسة هذا الحق "[63].

كما أنه يعبر بصدق عن رغبات الجزائريين، التي طالما أعلن عنها مسؤولوهم في خطب و تصريحات مختلف المناسبات، و لهذا ارتاح الجزائريون حكومة و شعبا لخطاب الشقيري.

كما ألقى محمد الفرا، رئيس الوفد الأردني، كلمة طالب فيها باستئناف المفاوضات مع الحكومة الجزائرية، خاصة و أن التجارب أثبتت لفرنسا أنه لا يمكن فرض حل معين بالقوة على الشعب الجزائري، و دعاها لاتخاذ خطوة جريئة و إجراء مفاوضات شريفة مع الحكومة الجزائرية، مؤكدا على مراعاة وحدة التراب الجزائري[64].

و هو بهذا يريد أن يعبر عن رفض الأردن لمناورات فرنسا، و إصرارها المتواصل على فصل الصحراء عن الجزائر و الاحتفاظ بها، و بالتالي تأكيد جزائرية الصحراء.

أما ممثل ليبيا السيد محي الدين فكي فألقى خطابا مطولا في هذه الدورة تناول فيه المعضلة الجزائرية، فاضحا الأسلوب الهمجي الذي تمارسه فرنسا في الجزائر، والذي يتنافى و مبادئ هيئة الأمم المتحدة، مبرزا إصرار الشعب الجزائري على افتكاك حريته واستعادة سيادته مهما كان الثمن[65].

نفس الدعم، و بنفس الحماس، عبرت عنه وفود بقية الدول العربية كتونس، والمغرب، و مصر، والسعودية خلال تدخلاتها أو خلال اتصالاتها.

من كل ما سبق ذكره، يتبين لنا أن الخطاب العربي الرسمي، كان قويا، مؤثرا، وذا مصداقية في كواليس وأروقة هيئة الأمم المتحدة فانعكس إيجابا على قرارات هذه الهيئة الدولية، و في عدد المؤيدين للقضية الجزائرية، إذ انخفض مناصرو فرنسا من 27 عضوا خلال الدورة العاشرة إلى 18 عضوا فقط خلال الدورة الثالثة عشر.

و لعل السبب في ذلك يكمن في أن العرب، رغم خلافاتهم العديدة، اتحدت كلمتهم، بل تطابقت حيال القضية الجزائرية، و كانوا يملكون الحجة القانونية [66]، و قد أحسنوا استخدامها، فالتفت حولهم العديد من دول العالم، خاصة الكتلة الآفروآسيوية، كما تمكنوا من إحراج مناصري فرنسا لدفعهم إلى التخلي عن تأييدها، أو على الأقل اتخاذ موقف الحياد عند التصويت على القرارات المتعلقة بالقضية الجزائرية، و كمثال على ذلك امتناع الولايات المتحدة الأمريكية عن التصويت عن القرار الآفرو–آسيوي في اجتماع الدورة الثالثة عشر في 13 ديسمبر 1958[67] و هو ما بدا مفاجئا للجميع، و دفع المؤيدين لفرنسا إلى تغيير موقفهم مستقبلا.

كما أنهم، أي العرب، فتحوا العديد من الجبهات العالمية للتأثير في قرارات الهيئة من ذلك اشتراكهم في العديد من المؤتمرات و اللقاءات الدولية، شارحين الواقع الجزائري، و فاضحين السياسة الفرنسية، فساهموا في مؤتمر باندونغ 1955، و أكرا 1958، و منروفيا 1959[68] و غيرها و كلها منابر سياسية هامة تبارى فيها الفرنسيون، أوحلفاؤهم مع العرب لتوجيه قراراتها لخدمة أهدافهم.

هذا إلى جانب أن الموقف الفرنسي كان ضعيفا، مترددا، يفتقر إلى السند الشرعي في دعواه، فيتهرب من المواجهة السياسية، و يلجأ أحيانا إلى أسلوب الكرسي الشاغر مما يربك مناصريه، إضافة إلى أن فرنسا خلقت توترا في علاقاتها الدبلوماسية مع العديد من البلدان، خاصة تونس، و المغرب، و بلدان عربية أخرى، فصّب كل ذلك في صالح القضية الجزائرية.

هوامش المقال:

(1)- المجاهد ، ع 1143 ، يوم 1982/7/2 ، محمد العيد هارون ، القضية الجزائرية في المحافل الدولية ، ص 77 .

(2)- محمد علوان، ترجمة علي تابليت " الجزائر امام الامم المتحدة " مجلة الذاكرة ع06 نوفمبر 2000 ص 116.

(3)- الجنيدي خليفة و آخرون، حوار حول الثورة ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1986 ، ص 214.

(4)- المقاومة عدد 5 (12 جانفي 1957) ص 11.

(5)- المصدر السابق.

(6)- أحمد سويكم العمري، أصول العلاقات السياسية ، القاهرة ، 1959 ، ص 219.

(7)- علوان، مرجع سابق ص 118.

(8)- المجاهد، ع 1143، 1982/7/2، ص 79.

(9)- المجاهد، ع 1143، 1982/7/2، ص 79.
(10)- المقاومة عدد 14 (15 ديسمبر 1957) ص 6.
(11)- نفسه ص 7.
(12)- المصدر السابق ص 7.
(13)- المجاهد ع 14 ديسمبر 1957 ص 7.
(14)- العمري، مرجع سابق، ص 219.
(15)- المجاهد ع 14 ديسمبر 1957، ص 6.
(16)- طالما ادعت فرنسا أن قضية الجزائر مسألة داخلية، و أن فرنسا لا تتنازل عن جزء من إقليمها.
(17)- أحمد الشقيري، قضية الثورة الجزائرية ، دار العودة ، بيروت ، (د ، ت) ، ص 38 .
(18)- هارون محمد السعيد، مرجع سابق ص 81.
(19)- المجاهد عدد 27، 22 جويلية 1958 ص 10.
(20)- علوان، مصدر سابق ص 120.
(21)- المجاهد 1143، 2 جويلية 1958- ص 81.
(22)- الشقيري، مصدر سابق ص 46.
(23)- المجاهد، ع 35، 1959/1/15 ص 2.
(24)- المرجع نفسه.
(25)- المجاهد ع 33، 8 ديسمبر 1958.
(26)- نفس المصدر ع 34، 1958/12/24.
(27)- المصدر نفسه.
(28)- انظر: Sliman CHIKH, op.cit., P. 425.
(29)- جريدة لورور الفرنسية 1959/09/17 كذلك الأهرام 1959/9/17.

(30)- محمد علوان، تقديم و ترجمة علي تابليت، الجزائر أمام الأمم المتحدة، مجلة الذاكرة ع 6، نوفمبر 2000، ص124.

(31)- المجاهد، ع 1143، 1982/7/2، ص82.

(32)- جريدة فلسطين، القدس، 26 آب (أوت)، 1959.

(33)- أرشيف جامعة الدول العربية، الدورة العادية 32، قرار 1609 بتاريخ 1959/9/7.

(34)- أعلنت الحكومة المؤقتة يوم 20 نوفمبر 1959 عن استعدادها للدخول في المفاوضات مع الطرف الفرنسي و عينت وفدا لهذا الغرض مكونا من الوزراء الخمسة المعتقلين و هم: أحمد بن بلة، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، رابح بيطاط، محمد خيضر، الأهرام 1959/11/21.

(35)- محمد حسنين، الاستعمار الفرنسي المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 465.

(36)- المجاهد، ع 57، 1959/12/15.

(37)- محمد حسنين، مرجع سابق، ص 465.

(38)- المجاهد، ع 57،15 / 12 / 1959 مرجع سابق.

(39)- إن ديغول نفسه لم يكن مستعدا للتفاوض الحقيقي مع جبهة التحرير الوطني و هو ما اعترف به حيث قال في حديث خاص مع بيار لافونت Pierre lafonte " ليس لي أن اعترف بهذه المنظمة (يقصد جبهة التحرير الوطني) فهي تمثل قوة هامة فعلا، لكنها لا تمثل الجزائر، و لا حتى مسلمي الجزائر ".

Hubert Beuve m'ery Onze ans de règne 1958-1969 Flammarion. Paris. 1974, P.169.

كما قال في موضع آخر بحضور بول ديلوفري P.Delovier " لن أسلم الجزائر لجبهة التحرير، لتلك الزمرة من الناس الذين هم عاجزون عن حكم أنفسهم ".

(40)- المجاهد، ع 75، 1959/12/15.

(41)- نفسه.

(42)- العمري، مرجع سابق ص 221.

(43)- المجاهد، ع 57، 1959/12/15.

(44)- نفسه.

(45)- المرجع السابق.

(46)- أحمد بشيرى، الثورة الجزائرية و الجامعة العربية ، منشورات ثالة ، الجزائر 2005 ، ص 115.

(47)- محادثات مولان جرت بين 25- 29 جوان 1960 ،و قد فشلت بسبب العراقيل التي وضعها الطرف الفرنسي ، حيث عامل المبعوثين الجزائريين ، و هما احمد بو منجل و محمد الصديق بن يحي، و كأنهما أسيرا حرب، و كانت المحادثات عبارة عن إنذارات و تهديدات فرنسية للطرف الجزائري، إضافة إلى عدم اعتراف فرنسا بمبدأ استقلال الجزائر.المجاهد ع 1143، 1982/7/2، كذلك المدني، مصدر سابق، ص 550.

(48)- المجاهد ع، 1143، 1982/7/2، كذلك المدني، مصدر سابق، ص 83.

(49)- نفسه.

(50)- نفسه ، ع 108/ 1961/11/13، ص 16.

(51)- نفسه، ع 79، 1960/10/10، ص 4.

(52)- المملكة الأردنية ، وزارة الإعلام ، المجموعة الكاملة لخطب جلالة الملك الحسين بن طلال المعظم ، ملك المملكة الأردنية الهاشمية 1952 ـ ، خطاب يوم 1960/10/3.

(53)- المجاهد، ع 79، 1960/10/10 ص 4.

(54)- نفسه.

(55)- مركز دراسات الوحدة العربية المجموعة الكاملة لخطب و أحاديث و تصريحات جمال عبد الناصر، ج 3 مصدر سابق ص 458-459.

(56) الشقيري، مصدر سابق ص 103.

(57)- عبد الحميد زوزو: " الأصول السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية لثورة نوفمبر 1954 ، " جريدة اليوم، الأحد 2000/10/29.

(58)- المجاهد، ع 52، 1959/10/5

(59)- انظر تفاصيل أكثر في:

A.N.A. Carton n 2 Dossier N 114. Documents Relatifs au débat sur la question Algérienne a L'O.N.U. 14 ème , 15 ème Et 16ème sessions de L'Assemblée Générale de L'O.N.U. 1959-1960

(60)- المجاهد، ع، 1143، 1982/7/2 ص 83.

(61)- نفسه ، ع111، 1961/12/25 ص 2 .

(62)- الشقيري، مصدر سابق، ص 158.

(63)- أرشيف جامعة الدول العربية، الدورة العادية 36، قرار 1796 ليوم 1961/9/19.

(64)- العمري، مرجع سابق، ص 266.

(65)- طرابلس الغرب، 1961/12/24، ص 2.

(66)- و في هذا المعنى قال الملك الأردني حسين لوفد جبهة التحرير الوطني خلال زيارته له " نحن في خلاف مع بعض الأشقاء العرب، لكننا نلتقي عند النقطة المقدسة، نلتقي و نتعاون عند قضية الجزائر " المدني، مرجع سابق ، 433

(67)- محمد علوان، الجزائر أمام الأمم المتحدة، مرجع سابق، ص 128.

(68)- نفسه، ص 127.

أثر السلطة العالمة في الإبداع الفكري والأدبي
العصر الصنهاجي أنموذجا

د– عبد المالك مغشيش – جامعة عباس لغرور – خنشلة

الملخص

تعددت صور الحياة الثقافية و الفكرية و الأدبية في هذا العصر وارتبطت بواقعهم الحضاري الذي حدثت فيه طفرة نوعية كبيرة حين عد عصرهم بداية لازدهار ثقافي و علمي و أدبي لم يشهد له المغرب مثيلا من قبل، وهذا يعود أساسا إلى أن أمراء الدولة كانوا أهل علم وثقافة أولوا كبير الاهتمام برجالات الأدب والفكر و جميع علوم عصرهم...

وفي ظل سلطان عالم نشأت حركة ثقافية وفكرية وأدبية عاكسة للأوضاع السائدة ،أسهمت في النهوض بأدب وثقافة المنطقة وازدهارها حتى نافست بلاد المشرق والأندلس، ولهذا اعتبر الكثير من الدارسين هذه الفترة مرحلة مهمة في تاريخ الأدب المغربي القديم عرفت بعصر الازدهار الثقافي والأدبي، و الفضل يعود للسلطة الحاكمة العارفة وسياستها الاستشرافية الرشيدة في بناء الفكر العقلي البشري المنتج.

ABSTRACT

Colorful images of cultural life and the intellectual and literary in this day and age and the associated cultural their reality that quantum leap large occurred while counting their time the beginning of a cultural prosperity and scientific and literary Morocco has not seen him ever seen before, and this is mainly because the princes of the state were people of science and culture Ulloa warlords great interest in literature and thought, and all the science of their time...

Under Sultan world of cultural, intellectual and literary movement originated reflective of conditions, it

contributed to the advancement of literature and culture of the region and prosperity even rivaled the Levant and Al-Andalus, but this was considered a lot of studying this period an important stage in the history
of the old Moroccan literature known as the era of cultural and literary boom, and the credit goes to power ruling knowledgeable and wise policy in building human mental thought the product.

مقدمة:

تداولت على حكم بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي دول عديدة، و كانت ذات عناية بترقية البلاد و توسيع نطاق العمران و النهوض بالفرد المغربي نحو الرقي و الازدهار، إلا أن نتائج أعمالها لم تبلغ مرتبة الإخصاب إلا بعد قطع مسافة أربعة قرون ، أي على يد أمراء الدولة الصنهاجية، فلقد أحرز أهل المغربي على تمدن إسلامي باذخ و حضارة عربية إسلامية فائقة.

وعدت مرحلة الحكم الصنهاجي[1] فترة العصر الذهبي في العلم و الأدب وبلغت شأوا عظيما في التمدن الإسلامي، و أدركت منتهى العز الشامخ و السؤدد الرفيع ،ونبغ في ذلك العهد أفذاذ في كل علم و فن ،" وانتشرت على عهدهم مختلف الصناعات و أحييت الأرض الموات و أنشئت الجنات المعروشات ، ودرت الخيرات ، وكثرت الأرزاق ، وتعددت و سائل المكاسب ، فعمت الثروة ، وتبسطت الرفاهية ، وفشي التهذيب ، والتأم الجمع ، وانتظم الشمل ، فأصبحت المغرب محطا لرجال الأعمال ، وكعبة من قصاد الآمال ، ناهيك عن مساكنها و قصورها و عمرانها الذي أسس على العلم الصحيح و المدنية الحق "[2].

وبهذه النهضة العامة في شتى المجالات، ساد الغنى و عمت الرفاهية معظم السكان، فاستقل الكثير منهم في دراسة العلوم المختلفة وتدوينها، وازدهر سوق

الأدب وظهرت حركة فكرية لم ير المغرب مثيلا لها من قبل و لا بعد، و خاصة إذا علمنا أن الأمراء كانوا يقبلون على المعارف ويبذلون النفس و النفيس في الوصول إليها و معاضدة أهلها.

كما زاد حكم "المعز بن باديس" ومن جاء من بعده من أمراء في نهضة وازدهار الساحة الفكرية و الثقافية و الأدبية الذين عملوا جاهدين في استقطاب العلماء والأدباء و المفكرين ،الذين كانوا يتباهون بالانتساب إلى هذه البلاد"[3] ،فسما بهذا الاهتمام المنقطع النظير الأدب خصوصا و العلم عموما في هذا العصر ، وعلا شأوه "و في هذا العصر خطا الأدب من نثر ونظم ، في حلة التفنن و الرقة و ظهر فيه الاختراع الجيد ، ,وتوليد المعاني الرقيقة نظير ما حصل للآداب بالعراق في مبدأ الدولة العباسية ... و تولد الإبداع العجيب لتأثير المدينة على الخيال الشعري ... "[4].

فتقدمت الآداب و العلوم تقدما كبيرا، ونبغ فيها أعلام كثيرون في الشعر و النثر و الدراسات العلمية و الفقهية...وغيرها .وقد كان بلاط المعز مجلسا علميا رفيعا ضم نخبة من كبار العلماء و الأدباء و المفكرين المغاربة عبر العصور ،من مثل: النهشلي ، ابن رشيق ، ابن شرف ، ابن أبي الرجال ....

كما وضع في هذا العصر فن نقد الشعر ،"وكان لأدباء المغرب الحظ الأوفر في توسيع هذا الباب ،من خلال النهشلي في كتابه "الممتع" ، وابن رشيق في "العمدة" ،وابن شرف في "مسائل الانتقاد"و بفضل هذه المؤلفات أصبح الشعراء مقيدين بقوانين مضبوطة و أساليب معلومة يجهد الأديب نفسه للإجادة فيها و يجتنب الخروج عن قواعدها"[5].

ويذكر ""حسن حسني عبد الوهاب " خصائص أدب العصر الصنهاجي، حين يقول": في هذا العصر خطر الأدب من نثر ونظم , في حلة التفنن و الرقة و ظهر فيه الاختراع الجيد , وتوليد المعاني الرقيقة نظير ما حصل للآداب بالعراق في مبدأ الدولة العباسية , حينما امتزج الشعر العربي بالآداب الفارسية. و الفرس

أهل رقة و خيال متسع ,فتفتقت القرائح, و تولد الإبداع العجيب لتأثير المدينة على الخيال الشعري" ... [6] .

كما فسح المجال نسبيا أمام علماء السنة لنشر مذهب "الإمام مالك"، لعدم تشدد أمرائهم بمطالبة الناس بالتشيع، وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد و الكتاتيب شيئا فشيئا. فولدت الجبهة التي تبنت العقيدة السنية، وجعلت أدبها يرسخ كيان وأمال الشعب المغربي، ومن هؤلاء: ابن الربيب ، و ابن دفرير الكاتب... و الكثير من العلماء والفقهاء.و هؤلاء مهدوا للتحول المذهبي خاصة بعد أن دخلوا في بلاطات الصنهاجيين،"كابن الرجال" مربي "المعز بن باديس الصنهاجي" ،الحاكم الذي كان التغير على يديه، ثم كان التحول الجذري ، و الصدح بالرأي و المعتقد علانية بدعم من السلطة المؤيدة للتغير.

غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر و الدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء و أسهمت في استمرار الصراع بينهم وبين الأمراء لكن ليس كسابقه لكون الأمراء لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية، و التف أهل المغرب حول علمائهم عازمين على التغيير و قطع الدعوة للعبيدين لكن الحكام لاعتبارات سياسية لم يستطيعوا موافقة العلماء و أهل البلاد خوفا على سلطانهم ، مما فتح المجال أمام العلماء إلى العمل جاهدين على نشر السنة و آراء السلف ، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد ، وكثرت المؤلفات في بيان الدين الإسلامي الصحيح ، و تمكن بعض علماء السنة من الوصول إلى ديوان الحكم في الدولة[7]. و أثروا في بعض الوزراء و الأمراء الذين خففوا من الضغط على أهل السنة .فكان كل هذا بداية للتخلص التدريجي من أتباع العبيدين وانتصار أهل السنة على الشيعة في الشمال الإفريقي على عهد الأمير "المعز بن باديس" [8].الذي حقق آمال أهل المغرب.

و بينت كل المصادر أن "المعز" تدرج في عدائه للإسماعيلية ، و لحكام مصر و ظهر ذلك منذ عام (435 هـ) عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه و ديوانه ، وقرب العلماء و أصدر أوامر بقتل كل من يشتم و يسب الصحابة ، فأشاد

العلماء و الفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بنفسه ، و قام الشعراء بنظم قصائد في مدحه ، ويقول أحد الشعراء في ذلك:

يَا مُعِز الدِينِ عِشْ فِي رِفْعَةٍ*وَسُرُورٍ و اغْتِبَاط وَ جَذَل

أَنْتَ أَرْضَيْتَ النَّبِي المصْطَفَى*وَعَتِيقًا فِي المِلاَعِين السِفَل

و جَعَلْتَ القَتْلَ فِيهُم سُنَّةً*بِأَقَاصِى الأَرضِ فِي كُل الدُوَل[9].

لكن الاستقرار الذي نعمت به بلاد صنهاجة لم يدم إلا قرنا أو بعض قرن [10].ثم أنطفأ سراجها و ذبل نورها بيد القبائل العربية الهلالية التي نزلت بالبلاد فزعزعت أمنها و دكت معالمها و طمست آثارها و محت محاسنها و قلبت حياة أهل المغرب من الرغد في العيش و من قمة الحضارة و الرقي إلى لجى الفتن و الهلاك، وفي هذا يقول ابن خلدون: "...و جاء الأعراب فدخلوا البلد و استباحوه،و اكتسحوا المكاسب و خربوا المباني و عاثوا في مساكنها و طمسوا من الحسن و الرونق معالمها،و استصفوا ما كان لآل بلكين الصنهاجين في قصوها، وشملوا بالعبث و النهب سائر من فيها و تفرق أهلها في الأقطار ن فعظمت الرزية و استشرى الداء و أعضل الخطب و أضطرب أمر إفريقيا خرب عمرانها وسارت قبائل دياب و عوف و الزغب و جميع بطون هلال إلى إفريقيا كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه حتى و صلوا إلى القيروان سنة(442هـ)"[11].فخربوها وعاثوا فيها فسادا و بهذه الرزية التي لحقت بأرض المغرب و ملك صنهاجة ، هاجر العلماء و الفقهاء أرض المغرب باتجاه صقلية و الأندلس، و أفل نجم القيروان و بقية حواضر العلم في المنطقة بعد سنين من العطاء.

لكننا لا ننكر أن دخول القبائل الهلالية قد خدم تعريب المنطقة ، فكان لهذا الزحف الأثر الكبير على الناحية الأدبية، وعد من أكبر العوامل المؤثرة في تعريب الثقافة المغربية. حيث من خلاله حظيت اللغة العربية باحترام أهل المغرب على وجه العموم ، و اعتبروها لسان الأدب ولغة العلم وعنوان الثقافة، فانبلج

بالتالي في القرنين الرابع و الخامس الهجريين عصر جديد أصبحت فيه اللغة العربية اللغة الرسمية للحاكم و المحكوم.

وقد انتشرت في هذا العصر ظاهرة التنافس الأدبي، وكان السباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس وعواصمها المختلفة: المهدية و بجاية وفاس، وتلمسان، و سبتة، وبغداد والقاهرة ... وغيرها،و برزت كل مدينة من هذه المدن بلون خاص من العلوم والآداب واشتهرت به، بالإضافة للحركة الانتقالية للعلماء وطلبة العلم بين هذه الحواضر والتي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية، وهذا كله لأجل النهوض بالدولة فكانت كل هذه العوامل سببا في إذكاء روح النشاط الثقافي و العلمي.

-أمراء الدولة الصنهاجية الرافد المشكل للبنية الفكرية و الأدبية:

عرف المغرب في هذا العصر ثلة من الأمراء اعتنوا بالعلم و أهله ، ونهضوا بالثقافة و الآداب ، وكل مناحي الحياة العامة نهضة كبيرة ،لم يشهد المغرب مثيلا لها طيلة أربعة قرون خلت ، وأحرز أهل المغربي على تمدن إسلامي وحضارة راقية، بلغت الرعية أوج أيام سعادتها ، وأدركت منتهى العز الشامخ ،ونبغ في هذا العصر عدد كبير من الأفذاذ في كل علم وفن ، وجنحوا إلى الآداب الرفيعة، فزها الأدب و سار الشعر في مدارج الارتقاء و راجت سوق الأفكار، وأصبح المغرب قبلة للعلماء و مهوى أفئدة الطلاب.كل هذا بفضل إقبال الأمراء على العلم و الأدب ، وأخذهم بأيدي أهله رغبة منهم في بث المعارف و تقديرا لأصحاب الفضائل.

- بلكين بن زيري بن مناد(362هـ -374هـ):

هو زعيم قبيلة صنهاجة الأمازيغية بعد أبيه "زيري [12] " اختاره "المعز" خليفة له على المغرب-بالقيروان- عندما أراد نقل ملكه إلى مصر وقد حضي "بلكين" بمكانة مرموقة عند "المعز" لما قدمه للعبيديين من خدمات هو وأبوه وسماه "يوسف" وكناه" أبا الفتوح "ولقبه "سيف الله العزيز"على أن" بلكين" لم يلبث أن أعلن الاستقلال عن تبعية العبيديين سنة(362 هـ) فأسس الدولة

الزيرية "الصنهاجية" ،وأهتم بازدهار البلاد والعمران فبنى كلا من مدينة "الجزائر" و "مليانة" تنفيذا لرغب أبيه الذي بنى مدينة "أشير" ،وكانت وفاة بلكين سنة(373 هـ) [13] .

وكان من قصة توليته على افريقية أنه لما عزم المعز على الانتقال إلى مصر استدعى إليه "جعفر بن علي بن حمدون"[14] أمير المسيلة ليستخلفه على المغرب، لما قدمه هو وأبوه من أعمال جليلة للخلافة العبيدية منذ نشأتها الأولى، لكن جعفرا وضع شروطا لهذا الاستخلاف مما جعل المعز يستغني عنه.ويستخلف "يوسف بن زيرى الصنهاجي" بقوله: "تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك وقال: يا مولانا: أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح "[15].

ولم يزل به حتى أجاب وقال: " يا مولانا: بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخبر لمن تثق به وتجعلني أنا قائما بين أيديهم فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك "[16].

فحسن هذا من المعز وشكره فلما انصرف قال له عم أبيه "أبو طالب أحمد بن المهدي عبيد الله" يا مولانا:" وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره فقال المعز:يا عمنا:كم بين قول يوسف وقول جعفر واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءً هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولى وأحسن وأجود عند ذوي العقل وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره "[17].

وفارق "المعز" "يوسف" متوجها إلى "مصر" ،فيما انصرف بلكين عائدا إلى المنصورية فدخلها ،و نزل بقصر السلطان بصبرة و خرج إليه أهل القيروان فهنأوه و اظهروا السرور بقدومه و أقام هنالك شهرين و بعث العمال و الولاة إلى جميع البلاد و نفذت أوامره في إفريقية والمغرب [18].

و تعتبر مرحلة حكم بلكين من أصعب المراحل في العهد الصنهاجي من الناحية العسكرية ، حيث ما إن تولى الإمارة حتى بدأ في حروبه على المتمردين في المغرب الأوسط من قبائل كتامة ، وفي المغرب الأقصى ضد زناتة التي تتبعها في حروب طاحنة حتى أدركه الموت في سنة" (373 ه) "، وقد حكم ثلاث عشرة سنة وبضعة أشهر، وترك من بعده عددا كبير من الأولاد [19].ولقد وضع أسس دولته القائمة على إكرام العلماء وتقريبهم إليه،وأجرا الأرزاق عليهم ،وعول على آرائهم فقصده العلماء من كل حدب وصوب، " وقام بجمع المغارم من كل فئات المجتمع ماعدا الفقهاء و الصلحاء و الأدباء [20].

–المنصور بن بلكين بن زيري(374ه –386ه):

ما إن مات "بلكين" حتى خلفه و لده "المنصور" ، وكان مقيما بولاية "أشير" وقد عهد إليه أبوه بالولاية ، وبويع بعده سنة" (374ه)[21].وجاء في وصف المنصور:"كان أبو الفتح المنصور كريما، سمحا، صارما،جوادا ،عازما ، وكان رجلا عاقلا عفيفا ، يحب الرفق بالأمر"[22]. ومما يعرف عن سياسته ما جاء عنه في قوله:"إن أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر، و أنا لا آخذ أحدا إلا بالإحسان. وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب و يعزل بكتاب ، و لا أشكر على هذا الملك إلا سبحانه و تعالى ، لأني ورثته عن آبائي و أجدادي وورثوه عن آبائهم و أجدادهم حمير"[23].

ومما جاء عن طبيعة عقيدته ،و إن كان يوالي الفاطميين في مصر إلا أنه قام بقتل الداعي الذي عينه الفاطميون في إفريقية وهو "عبد الله بن محمد الكاتب"بعد وشايات متتالية من قبل مقربيه وكان ذلك سنة(377ه)"،كما عمل على تهدئة خواطر أهل المالكية ،وهذا من خلال حادثة تمثلت في "لما رفع له في عبد من عبيده أنه قذف بعض الصحابة ، فأمر بقتله و صلب جثته ،ونودي على رأسه بمدينة القيروان"[24]. وكانت وفاته سنة(386ه)، ودفن بقصره الجديد خارج المنصورية ،وكانت أيامه أحسن أيام[25].

–باديس بن المنصور(386ه –406ه):

كانت ولادته سنة(374هـ) [26]،وبعد وفاة المنصور بويع باديس و كنيته أبو مناد ،وكان عمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة .تولى ملك افريقية في ربيع الأول سنة "386هـ"و رحل إلى قصره في رجاله و عبيده و أتته الوفود بتهنئته بالملك، وفي سنة "387هـ"عقد لعمه "حماد بن بلكين" على أشير و المغرب وجعله عاملا في تلك البلاد(27). ورغم صغر سنه ، إلا أنه اتصف بصفات كبيرة كما جاءت عن" ابن خلكان " ،ومفاده أنه كان ملكا عظيما ، موطد العزم ، شديد المراس ، لا يستطيع رمح دون كسره، كان مقداما جوادا، يعطي العطاء الضخم، وكان محسنا لأصحابه و يعفو عن إساءاتهم" (28).كما كان محبا للعلم و العلماء فقربهم إليه ، وأجزل العطاء لهم.

وقد كان باديس يكرم أهل العلم ،فكان يعفي التلاميذ من الرسوم ، كما أقر امتيازات هامة للشيوخ من مثل :إقراره لامتيازات مسندة إلى الشيخ "محرز بن خلف"(29).و أفراد عائلته ، وهذا بما يسمى اليوم مرسوم مؤرخ في سنة (407هـ).

توفي "باديس" سنة(406هـ)، وهو يبلغ من العمر أقل من33 سنة(30)، وقد قضاها كلها في تحصين دولته ،من خلال الحروب الكبيرة و الطويلة التي خاضها ضد الزناتيين وأعمامه الصنهاجيين ،خاصة حماد، وقد أنقذت وفاته حمادا من الهلاك ، ولولها لما تمكن من تأسيس دولة بني حماد.

-المعز بن باديس(406هـ -454هـ):

لقد بلغ المغرب الإسلامي في عهد "المعز بن باديس" أوج الازدهار ،حتى اعتقد معظم الناس أن تلك الحالة ستدوم لقرون عديدة،و كان مولده بالمنصورية سنة (398 هـ)، فكان عمره حين بويع بالإمارة سنة (406هـ) بالمهدية لم يتجاوز تسع سنوات (31).

كان أكرم أهل بيته بالمال وكان متدينا يجتنب سفك الدماء إلا في الحق وكان رقيق القلب حاد الذهن عارفا بعدد من الصنائع من الألحان و التوقيعات و علم الأحجار، كما وصفه الذهبي بقوله: "وكان ملكا مهيبا، و سريا شجاعا ،

عالي الهمة ، محبا للعلم ، كثير البذل مدحه الشعراء و له شعر جيد"(32). اظهر الدعوة للعباسين وورد عليه العهد من "القائم بأمر الله العباسي" في سنة(440هـ) قطع خطبة بني عبيد و قطع بنودهم و أحرقها ، فاستشاط الخليفة العبيدي غضبا و أشار عليه وزيره بإرسال القبائل العربية الموجودة في الصعيد فتم ذلك و أباح لهم من برقة إلى ما بعد ها و أعانهم على ذلك بمال وهم رياح وزغبة و عدي بطون بني عامر بن صعصعة(33) ، و لما وصلوا إفريقيا عاثوا فيها فسادا وملئت أيديهم من النهب و كثر ضررهم والتقوا مع المعز و كانت بينهم مواقع عديدة انهزم فيها المعز بعد أن خذلته زناته حتى لم يبقى معه إلا عبيده.

و لما رأى المعز ما حل به ركن إلى الصلح و رفع الحرب بين العرب و بينه لكنهم لم يتوقفوا بل ملكا البلاد بأسرها و اقتسموا براريها و افسدوا حواضرها ، كان الخطب جليلا خاصة فيما فعلوه بالقيروان و لما رأى المعز ذلك رحل إلى المهدية التي كان بها ولده تميم واليا عليها وكان هذا في رمضان من سنة تسع و أربعين و أربعمائة و نهبت القيروان ، وسلم المعز الأمر لولده تميم في حياته فقام بأمور الدولة أحسن قيام و توفي المعز سنة ثلاث وخمسين و أربعمائة كانت أيام ولايته تسعا و أربعين سنة(34) .

و عرف عنه أنه لا يدخر جهدا في تجميل بلاطه بأوفر عدد من رجال الأقلام و النقاد الكبار و كبار الشعراء ، بحيث كلما سمع بعالم أو أديب طار صيته استدعاه لقصره و أغدق عليه ألوان الحظوة و التشجيع ، حتى قيل أن بلاط المعز جمع أكبر من مائة شاعر منهم "ابن رشيق" و "ابن شرف" ،ومن المواقف التي جمعته مع هذين الشاعرين ،عندما خاطبهما قائلا:"أريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء، فإني استحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ،فأحب أن أريهن هذا و ادعي أنه قديم، لأحتج به على من عابه و آسي به من عيب عليه" (35) .فاستجاب الشاعران في الحين لهذا الطلب .

كما كان على درجة عالية من الثقافة الأدبية و الذوق الفني بما أهله لنقد آثار كبار الشعراء نقدا صائبا(36).فانتقد " ابن رشيق" على قوله يعيبون " وقال: أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه"(37) .و كان لا يتفرد بقرار في الظروف الطارئة ،بل يقوم بجمع الناس في الجامع الكبير، وبعد استشارة العلماء و كبار رجال الدولة يعلن عن القرار المتخذ بعد المداولة.

-تميم بن المعز(453هـ -501هـ):

ولد بالمنصورية سنة(422هـ)، و ولاه أبوه على المهدية سنة(445 هـ)، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز(38) ، كان ذكيا مفرطا في الذكاء،شجاع القلب ، ذا همة عالية و سياسة ، ودهاء ،سار في الناس بسيرة حسنة، استمال زعماء العرب بالمال و العطايا ، وصاهرهم و امتزج معهم ، وجعل منهم جنودا لدولته بكياسة وفطانة و سياسة حكيمة .ينظم الشعر و يجيز من يمدحه و يحب المنادمة و الاستماع من ندمائه ابن رشيق، ابن شرف و لهم فيه مدائح، و كان احلم بني مناد و أعفاهم عن الأمور العظام و انقدهم للشعر(39).

وقد قيل في إكرامه للعلماء و الأدباء أنه "كان محبا للعلماء معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الأفاق على بعد الدار ، وكان يجيز الجوائز و يعطي العطاء الكبير"(40) وبذلك يعتبر عصره أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية، كما كان يضرب به المثل في الجود و الكرم قال عنه ابن كثير: "من خيار الملوك حلما و كرما، و إحسانا "(41). ملك ستا و أربعين سنة و عمر تسعا و ثمانون سنة ،ترك من البنين أزيد من مائة ، ومن البنات ستين بنتا (42).ومن شعره :

فإما المُلْكُ في شرف و عز *عليَ التاجُ في أَعلَى السريرِ
وإما الموتُ بين ظُبا العوالي*فَلستُ بخالد أَبَدَ الدهورِ(43).

ومن مدح "ابن رشيق" للأمير تميم، قوله:

أَصَحُّ وَ أَقوَي مَا سَمِعْنَاهُ في النَّدَى* مِنَ الخَبَرِ المأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ

أَحَاديثُ تَرْوِيهَا السُّيولُ عَنِ الحَيَا *عَن البَحْرِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ(44).

-يحيى بن تميم بن المعز(501هـ -509هـ):

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في سنة (497هـ)(45) واستقل بالأمر بعد وفاة والده ، كان مهتما بعلم الأخبار و أيام الناس و الطب ، وكان مغرما بالكيمياء ، كما كان كثير لمطالعة محبا للجهاد ، رحيما بالضعفاء شفيقا بالفقراء يطعمهم و يرفق بهم ، ويقرب أهل العلم و العقل من نفسه، وساس العرب في بلاده فهابوه و انكفت أطماعهم ،كما كان ينظم الشعر الجيد (46). قرب الكثير من الشعراء في بلاطه على سيرة أسلافه فقصده الشعراء و مدحوه و من جملة شعرائه" أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت"(47)الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان ، و له في يحي مدائح كثيرة أجاد فيه ،و مما قاله فيه:

فَارغَب بِنَفْسِكَ إِلاَّ عَنْ نَدَى وَوَغَى* فَالمَجْدُ أَجْمَع بَيْنَ البَأْسِ وَ الجُود

كَدَأْبِ يَحْيَى الَّذِي أَحْيَتْ مَوَاهَبُهُ*مَيتَ الرَجَاءِ بِانْجَازِ المواعِيد

إِذَا بَدَا بِسَرِيرِ المُلكِ مُحْتَبِيا*رَأَيْتَ يُوسف فِي مِحْرَابِ دَاود(48) .

وكانت أيامه أيام عدل ،توفي الأمير" يحيى" سنة(509 هـ) متأثرا بمرض أصابه ، وكانت ولايته ثماني سنين و خمسة وعشرين يوما، وممن رثاه "ابن حمديس الصقلي(49)" في قوله:

مَا أَغْمَدَ العَضبُ حَتّى جَرَّدَ الذِكْرُ *وَ لاَ اخْتَفَى قَمَرُ حَتّى بَدَا قَمَرُ

قَدْ مَاتَ يَحْيَى فَمَاتَ النَّاسُ كُلُهمُ*حَتَّى إِذَا مَا عَلِيٌ جَاءَهُم نُشِرُوا

إِنْ يَبْعَثُوا بِسُرورِ مِنْ تَمَلَكِه* فَمَنْ مَنِيَة يَحْيَى بْالأسَى قُبِرُوا (50) .

-علي بن يحي بن تميم بن المعز(509هـ -515هـ):

كان مولده سنة(499هـ) ولاه والده على "صفاقس" ،و تولى الحكم بعد وفاة والده، تميزت فترة حكمه بحروب بينه وبين "النورمانديين" في حروب بحرية عنيفة، و ابتدأ دولته بتجهيز أسطولا كبيرا أرسله إلى "جربة" التي لم تكن تخضع لطاعة أسلافه ،و في أيامه عظمة شوكة " روجار" حاكم صقلية(51).وفي أيامه دخل "محمد بن تومرت" المهدية وغير بها المنكر.

و كانت أعماله و حروبه تدل على همته العالية، كما قرب العلماء و الأدباء و أجزل العطايا إليهم إلى أن توفي سنة خمس عشرة وخمسمائة من مرض أصابه [52].

-الحسن بن علي بن يحي بن تميم(515هـ -543هـ):

ولد بسوسة سنة(502هـ) ، و تولى بعد وفاة أبيه الولاية و جرت في أيامه وقائع عديدة ضعفت الدولة وأصبحت هدفا للنصارى الذين رأوا أن الفرصة مواتية لاحتلال سواحل المغرب ، فخرج "الحسن بن علي" من المهدية و هو يقول : "سلامة المسلمين أحب إلي من الملك و القصر"[53] .و بخروجه سنة(542هـ) انته عهد الدولة الصنهاجية بعد أن دام ملكهم أرض المغرب نحو مائة وثمانين سنة، وكانت و فاته بعد سنة(555هـ) [54]"وهو في طريقه إلى عاصمة الموحدين.

و الحسن آخر أمراء الدولة الصنهاجية ،كان قوى النفس مجتمع الفكر لا يتزحزح لعظام الأمور و لا يتضعضع لنوائب الدهور ، متقد الذهن شجاع القلب كريم النفس حسن الفروسية ينظم الشعر، ويقرب العلماء.

-التعالق الحميم بين المبدع و السلطة (إبداع وتميز) :

وصل الأدب في العصر الصنهاجي بحق قمة الازدهار الأدبي ،وهو ما أشار إليه الكثير من مؤرخي الأدب ، و هو بحق عصر عمالقة الأدب المغربي، في شتى أشكاله ،وفي جميع عصوره ،ك (ابن أبي الرجال ،و ابن الربيب ، و ابن دفرير ، وعبد الكريم النهشلي ، وابن رشيق ،و إبراهيم الحصري...). ووصل بهم قمة الإبداع و النبوغ المغربي في الأدب العربي ،وفيه تجاوزت الحركة الأدبية المغربية المتلقي السلبي،إلى خطاب أدبي شامل منتج للمعرفة الأدبية تفسيرا،وتنظيرا،وحوارا ،ومنهجا ،واستقطابا لكل المعارف الإنسانية، و أصبح الأدب، فعلا نتاجا حضاريا شاملا بأنظمة سميائية متحاورة ،ومتناصة مع التراث والواقع والفكر والوجدان، وفي هذه المرحلة أصبحت" إشكالية أي نص هي إشكالية الإنسان

نفسه، ولا يمكن فصل أحدهما عن الأخر، وحين الكلام عن أحدهما نجد أنفسنا نتكلم عن الآخر، بل كثير ما يتبادلان الأدوار لأن خصائص النصوص هي امتداد لطبيعة ذات الإنسان،و في هذه الحالة تسمح بإيجاد علاقات بين الناس، وتصبح بمقتضى ذلك تجربة اجتماعية من الطراز الأول،وبهذا يتمكن الإنسان من بناء أي معنى ،كما يستقبل كل المعاني ويرسل أخرى ،كما يمكن تحويلها، وكل المعاني تتشكل في النصوص، وكل الحقائق يمكن البحث عنها فيها .

وقد حقق الأدب المغربي في هذه المرحلة تراكما معرفيا لم يسبق له مثيل في تاريخه سواء قبل الإسلام أم بعده، وفي هذا العصر انتقل المغرب من مرحلة المعرفة الشفوية إلى مرحلة المعرفة المكتوبة.

كما ظهر في هذا القرن كتّاب ونقاد تجاوزت شهرتهم المغرب، ومنهم: (أبو إسحاق الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن رشيق، وابن شرف،وأبو الحسن الحصرى...)، و سمت الحياة الثقافية و الأدبية ،في البلاط الصنهاجي ووصل قمت الرقي الفكري و الثقافي و الأدبي في عهد الصنهاجيين و الذي عني حكامهم بالعلم و العلماء، والمطلع على كتاب الأنموذج " لابن رشيق" وغيره ،يقف عند تميز و غنى هذا العصر و ازدهار الأدب و الفكر .

وزاد في بريق هذا العصر حكم أسرة المعز الصنهاجي وأبنائه "فالمعز بن باديس" هو رائد التحول المعرفي و الثقافي و المذهبي للمنطقة ، و الذي عمل جاهدا على استقطاب أبرز العلماء والأدباء و الفقهاء في هذا العصر ، فقد كانوا يتباهون بالانتساب إلى هذه البلاد ، وكان لكل واحد منهم حظ وافر في مجاله ، و قد أهلهم ذلك لأن يزينوا سماء الأدب المغربي ويثروا مكتباته بشتى أصناف التأليف أدبا و تاريخا ولغة و علوما وفلسفة ،وبفضل سياسة الاحتواء والمجالسات الأدبية التي كانت تعقد في بلاط الأمراء تنامت إبداعات الأدباء واجتهادات المفكرين والنقاد، فكثرت صنوف "المداعبات والمساجلات والمطارحات ، فتحسس الحاضرون بذلك قدرات المتبارين، لاكتشاف مواهبهم والاستعداد لإصدار الحكم على مدى قدرتهم على التعبير" [55].

ومن المجالس الشعرية التي كانت تعقد ببلاط "تميم بن المعز الصنهاجي"، تلك التي أثير فيها الجدال والمناقشات الحادة حول السرقات الشعرية والتي جرت بين ابن رشيق وابن شرف؛ومنها: حين أنشد "ابن شرف" قوله [56] :

غَيري جَنى وَأَنا المعاقَبُ فيكُم* فَكَأَنَّني سَبّابَةُ المتَنَدِّمِ

ثم قال له: هل سمعت بهذا ؟ فرد ابن رشيق قائلا : سمعته وأخذته أنت وأفسدته فقال ممن ؟ فقال من "النابغة الذبياني" [57] حيث قال :

لَكَلَّفْتِنِي ذَنْبَ امرِئٍ وتَرَكْتَه*كَذِى العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فأما إفساده لأنك قلت في صدر بيتك إنك عوقبت بجناية غيرك ، ولم تعاقب صاحب الجناية ، ثم قلت في عجز بيتك، إن صاحب الجناية قد أشركك في العقوبة فناقض معناك،وذاك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم ، وسبابة المتندم أول شيء يتألم في المتندم ثم يشركها المتندم في الألم ، فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله (...) فمن ههنا أخذت المعنى وأفسدته" [58].

فهذه الملاحظات النقدية التي وجهها "ابن رشيق" لبيت "ابن شرف" ،مبينا بعد تحليله وتفسيره البيت محل السرقة ومصدر المعنى المأخوذ ومواطن افساده، هي إحدى الصور التي تجلى فيها النقد بمجالس الأمراء بالمغرب الإسلامي، لما أصبحت مسرحا رحبا يعمل فيه الناقد ذوقه ويبرز إمكاناته النقدية وثقافته التراثية، فيدرب ذوقه وينمي ملكته أمام ما يقدمه وما يستفيده ممن جلسوا إليه من النقاد والشعراء .

– المشهد الأدبي الصنهاجي(التحولات الجديدة والآفاق المستقبلية) :

عج هذا العصر بالمبدعين المجدين الذين وسعتهم بلاطات حكام وأمراء الدول التي حكمت المنطقة، وكان أكثرهم أدباء مجتهدين موجهين، تزاحموا كلهم لإثبات الجدارة والتمكن في الميدانين معا. فتعددت الإبداعات وتنوعت وتضاربت الآراء النقدية، وتحسنت مستويات الممارسين سواء أكانوا مبدعين أم نقادا مما أثمر دواوين ومؤلفات نقدية جيدة ضاهت نظيراتها في المشرق العربي.

ومما ساعد على إذكاء شعلة العلم في البلاط الصنهاجي، هو تشجيع أمرائها على العلم, وتذوقهم وحتى ممارستهم للأدب و بخاصة باديس و ابنه المعز وتميم الشاعر،ولقد فتحوا قصورهم وجملوا مجالسهم بجلسات أدبية رائعة بوجود أبرز شعراء المغرب لكل الأزمنة من مثل "ابن شرف" و "ابن رشيق"، اللذين كانا متقدمين في بلاط المعز وفي هذا يقول " ياقوت الحموي :« .. وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده –المعز–على سائر من في حضرته من أفضل الأدباء ,فكان يقرب هذا تارة ,و يدني ذاك تارة, فتنافسا و تنافرا ,ثم تهاجيا ,ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقصات »(59).

فاستقبلوهم بالهدايا و مجزلين لهم العطايا والمنح ،وأصبحت مجالسهم محج الأدباء و الشعراء و العلماء من كل مكان، فكثر الإبداع في البلاد ، و انتشرت العلوم فيها ,فارتقى المستوى الثقافي و الأدبي بالقيروان خاصة و المغرب عامة ،ويشهد" ياقوت الحموي" على هذه الأجواء العلمية والأدبية السائدة في القيروان أيام المعز حيث قال : « ... وكانت القيروان في عهده ,وجهة العلماء و الأدباء ,تشد إليها الرحال من كل فج لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم و الأدب و عنايته بهم .. » (60).

كما ساهم الاستقرار السياسي و الرؤية العلمية لحكام المنطقة في تعبيد طريق علماء وأهل الأندلس الفارين من جور الحكام والتمزق السياسي الذي هدم كيانها وزعزع استقرارها وأثقل كاهل علمائها وأدبائها إلى إفريقية المغرب بحثا عن أسباب الهدوء والاستقرار والظروف المواتية والمناسبة لاحتضان التدفق الإبداعي والاجتهاد الفكري.

وقد ساعد على ذلك تلك المكانة العالية التي نالها العلماء في المجتمع المغربي ، بسبب التنافس في اجتذابهم إلى بلاطاتهم, وبخاصة الشعراء منهم ، كي يمدحوهم و يتغنوا بفضائلهم و الامتيازات التي منحها لهم الأمراء من سلطة وجاه ومال بالإضافة لحرية التعليم و حرية التنقل، ففي عهد"المعز بن باديس" قدم

"أبو الفضل عبد الواحد الدارمي البغدادي"[61] إلى المغرب رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسي، في مهمة سياسية تتعلق بشؤون الحكم. فحلت له القيروان فأقام بها وانتظم في سلك أدباء بلاط المعز. الذي كان يبجل أصحاب المواهب، ويجزل العطايا للعلماء والكتاب والشعراء إذ " لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلا أحضره إلى حضرته وجعله من خاصته حتى سار بذكره الركبان وانتجعه العلماء والأدباء من كل مكان ، وقد بالغ في إكرامهم وعول على آرائهم ومنحهم أسمى المراتب وأعلى الرواتب" [62].،وفي ظل هذه الأجواء الثقافية السائدة في المغرب ، انتعشت الساحة الأدبية و العلمية و تطورت ، و تمكن الأدباء و الشعراء و العلماء من الاحتكاك ببعضهم البعض، فارتقت أساليبهم ،وتنوع إبداعهم،وبرعوا في فنون القول ,وحظوا بالمكانة الرفيعة عند أمرائهم.

و يمكن القول أن الأدب في هذه المرحلة قد تجاوز مرحلة التأسيس الأدبي، كما عرف تحولا في عقيدته من الشيعة إلى السنة، ومن ثم تغيرت ملامح المغرب كله ونهائيا راسما عقيدته إلى يوم الناس هذا.وعلى الرغم من هذا التحول العميق للبنيات الفكرية، والفنية فإن النص الأدبي بقي يساير الحركية السياسية للكيانات المشكلة لهرم السلطة ،لكنه أفاد المبدع و المتلقي بجمالياته المتعددة.

الخاتمة:

حاولنا رصد جانب مهم من المشهد الفكري و الأدبي والثقافي لنموذج صنهاجي. نعتقد أنه نجح في ازدهار الأدب و الفكر و العلم، وهذا من خلال استقصاء دور السلطة الحاكمة في بلورة الحس العلمي للمجتمع المحكوم، وإبراز دورها في صنع جو تنافسي مبدع من خلال تقريب العلماء و الاهتمام بهم وبذل الغالي و النفيس في ذلك ،ومن هنا رصدنا بعض النتائج التي توصلنا إليها، وهي:

– يعود السبب في ازدهار الحياة الثقافية في هذا إلى الاستقرار الذي شهدته الحياة السياسية و المذهبية على أيام بني زيري الصنهاجيين حيث ظهر وبرز الكثير من الأدباء و العلماء و الشعراء و الكتاب و النقاد.

-إقبال الحكام على المساهمة في الإنتاج الأدبي والفكري ، وكان الكثير من أمراء صنهاجة أدباء ومتذوقين له، كما هو الحال بالنسبة إلى كل من: المعز بن باديس ، و ابنه تميم بن المعز...وغيرهما.

-بذل العطايا والهبات لرجال الفكر والأدب و العلم وفتح أبوابهم لاستقبال الكفاءات العلمية .

-انتشار روح التنافس الذي بثه الحكام في نفوس أهل العلم مما أدى إلى تحرير الأدباء والعلماء من الخمول ،واتجاه كل واحد منهم إلى الإبداع و التميز في حقله المعرفي، مما ولد جنوح علماء كل فن إلى التخصص ولأول مرة ، فنجد بعضهم اتجه إلى الدراسات الأدبية البحتة ،و لأول مرة في المغرب ظهور الدراسات النقدية و التأليف فيها ، وآخرين اتجهوا إلى العلوم الدينية البحتة.

-استحواذ الدولة الصنهاجية على الإرث الفكري والأدبي لعدة دول في المنطقة، والاستثمار الفكري و البشري من خلال بناء و ترقية الحواضر العلمية و الاهتمام بالكتاب ،واستثمار كل ذلك في خدمة المجتمع و تقويت شوكت دولتهم بفكر ورؤية ثاقبة عالمة استشرافية .

- تغير روح العصر ومقوماته التي تلت العهد الشيعي، هو مظهر من مظاهر تغير البنية الأدبية، وحساسية الأدباء وتبدو في انزياح الأدب المغربي في بنيته الدلالية نحو موضوعات جديدة لم تكن رائجة من قبل، ومن هذه الموضوعات وصف الأشياء، والكائنات ، بمنهج فني وصفي جمالي ،وأحيانا يكون ساخرا تهكميا قصد إشباع النهم الفني أو الفكري المذهبي .

الهوامش و الإحالات:

1-ينتسب الصنهاجيون إلى قبيلة صنهاجة وهي من كبرى قبائل البربر، وقيل صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمرون الملك افر يقش بن وائل بن حمير وقيل افر يقش بن أبرهة بن ذي القرنيين لما ملك حمير و غزا المغرب خلف فيها من قبائل حمير وزعمها صنهاجة وقدمهم على البربر ليدبروا أمرهم و يأخذوا خراجهم. تأسست دولة الصنهاجيين(362هـ -543 هـ) على يد أمير من أصل

أمازيغي يدعى "بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي". و قد وقعت في عهده الفتن الكبيرة التي عمل جاهدا على القضاء عليها، و استطاع بحزمه ودهائه القضاء على معظم الفتن والثورات القبائلية المجاورة على حدود البلاد مما مكنه من تعزيز حكمه والاحتفاظ بالأراضي الشاسعة التي ورثها عن العبيديين، لكن الموت عاجله قبل أن يخدمها تماما. فخلفه ابنه "المنصور " الذي تعامل مع الثائرين ضده بالملاطفة و اللين ،إلى أن استتب الأمن و الاستقرار ربوع الدولة الفتيه. وخلفه ابنه الأكبر " باديس " الذي لقبه العبيديون "بنصير الدولة" ،تقلد الحكم عام 386 هـ ، استهل حياته السياسية بمحاربة الثائرين , الذين كان على رأسهم "زيري بن عطية "فهزمهم "باديس , "ثم ثار عليه " فلفل الزناتي " و من معه , لكن "باديس" انتصر عليهم بالقوة.كان التشيع عقيدة البلاد إلى أن فحمل" المعز بن باديس" أهل إفريقية على مذهب " الإمام مالك بن أنس " .(ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ،دار صادر، بيروت، ج7، د ط، 1979 ،ص124 .وينظر أيضا:الهادي روحي إدريس:الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10إلى القرن12م-دار الغرب الإسلامي،بيروت ،ج1، ط1، 1992 ،ص76- 77. وينظر أيضا:ابن أبي الدينار : المؤنس في أخبار إفريقيا و تونس، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ،ط3 ، 1387 هـ،ص73).

2-حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات تونسيات ،مكتبة المنار ، تونس ، ط2 ،م1965.،ص68.(ينظر أيضا: حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس،تحقيق حمادي الساحلي،دار الجنوب للنشر، تونس، 2001م،ص80) .

3- بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر، 1981م.، ص21 .

4- حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي(من فجر التح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر)،مكتبة المنار ، تونس،1968م، ص105.

5- نفسه، ص105.

6- نفسه ، ص105.

7-منهم الشيخ الورع ابن أبي الرجال(ت 426هـ) الذي "حرض"المعز ابن باديس" و أدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة و الجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك و لا أهل القيروان،فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وحشوده ، وهو غلام ، فكبا فرسه، فقال عند ذلك "أبو بكر وعمر" رضي الله عنهما" فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه لقتله،فجاء عبيده و رجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، ووضع السيف في الشيعة(ينظر:الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص182-183.)

8- محمد الصلابي : الدولة الفاطمية،مكتبة الإيمان، المنصورة ، ط1 ،2005.،ص98.

9-الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص189.(ينظر أيضا:محمد الصلابي: المرجع السابق ،ص101).

10-حسن حسني عبد الوهاب :شهيرات التونسيات ،ص90.

11- ابن خلدون : المقدمة، تح:على عبد الواحد وافي، دار القلم، بيروت، ط 5، 1984م،ص20.(ينظر أيضا: حسن حسني عبد الوهاب:خلاصة تاريخ تونس،ص81-82. و رابح بونار : المغرب العربي تاريخه و ثقافته ، دار الهدى ،عين مليلة ، الجزائر، ط3، 2000 م.،ص134-135).

12-زيري بن مناد الصنهاجي (ت 360 هـ) :زعيم صنهاجة ساهم في توطيد الصلة بين قبيلته والعبيد يين على اعتبار أنهم من نسل علي بن أبي طالب فكان من أعظم أوليائهم واستطال بهم على خصومهم من زناته الذين والوا من جهتهم الأمويين بالأندلس ،كما لعبوا دورا هاما في حرب صاحب الحمار حيث قدم زيري للمنصور عونا عسكريا هاما تغلب بفضله المنصور على صاحب الحمار ،وساهم مساهمة فعالة إلى جانب المعز في قمع الكثير من الثورات إلى أن قتل في تمرد لقبيلة زناتة سنة 360 هـ .(ينظر: ابن الأثير:المصدر السابق ، ج6، ص354) .

13-المقريزي: اتعاظ الحنفاء، تحقيق :جمال الدين الشيّال ، طبع دار التحرير، القاهرة، ج1،دط،1963م،ص67.(ينظر:ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق :جلول أحمد البدوي ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2،1984م ،ص49 وعبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت ، ج1، ط4، 1980 م، ص239 . هادي روجر إدريس:المرجع السابق،ج1،ص75).

14-جعفر بن علي بن حمدون: أمير "المسيلة" وإقليم الزاب أبوه "علي بن حمدون الأندلسي" الذي قصده "ابن هانئ" إثر نزوحه من "إشبيلية" فاحتفيا به وبالغا في إكرامه شأنهما مع باقي الأدباء والشعراء ، مات "جعفر" مقتولا بالأندلس حين فراره إليها من خصمه "زيري بن مناد " وكان ذلك سنة (364هـ). (ينظر: محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1،1986م ،ص275).

15-ابن الأثير:المصدر السابق،ج8 ،ص620. (ينظر:المقريزي:المصدر السابق ،ج1،ص42).

16-المقريزي: نفسه،ج1ص43.(ينظر أيضا:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس،تحقيق:حمادي الساحلي ، دار الجنوب للنشر، تونس، 2001،ص105).

17- ابن حماد: المصدر السابق،ص53.

18- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص76.

19- نفسه ،ص 77. (ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص96).

20- الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص 87-96.

21- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،د ط، 1981 م،ص69.

22-الهادي روجي: نفسه،ج 1،ص100. (ينظر: ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص78.)

23-ابن أبي الدينار :نفسه،ص77-79. (ينظر : الهادي روجي:نفسه ،ج 1،ص99.)

24-الهادي روجي: المصدر السابق ،ج 1،ص107.

25- نفسه،ج 1،ص119.

26- نفسه ،ج 1،ص109.

27- ابن أبي الدينار : المصدر السابق ،ص81. (ينظر أيضا: الهادي روجي:نفسه، ج 1، ص121.)

28-ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر،بيروت، د ط ،1972،ج 1، ص86 .(ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص122.)

29-محرز بن خلف هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن زين، ويتصل نسبه بالخليفة أبي بكر الصديق،ولد (340 هـ-413 هـ) من علماء القيروان نبغ واشتهر في فن المناظرة وخاصة في مسائل الخلاف. كان له دور في نشر المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي .(ينظر:الدباغ:معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تكملة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي:تحقيق: محمد ماضور ،مكتبة الخانجى ،مصر-المكتبة العتيقة تونس،د ط،د ت، ج3،ص229).

30- ابن أبي الدينار :المصدر السابق،ص82.(الهادي روجي:المرجع السابق، ج 1، ص154.)

31- ابن أبي الدينار :المصدر السابق ،ص102. (الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص167).

32- الذهبي: سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط،محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة، بيروت ، ، ط9، 1413هـ،ج18، ص140. (ينظر أيضا: الهادي روجي:المرجع السابق، ج 1، ص170).

33- ابن أبي الدينار ،نفسه ،ص82.

34- نفسه ،ص85.

35- الهادي روجي:المرجع السابق،ج 1،ص170.

36- محمد الطمار : المرجع السابق،ص78.

37- الهادي روجي:نفسه،ج 1، ص170.

38-ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص86.(ينظر أيضا :محمد الصلابي: الدولة الفاطمية، ،ص111) .

39-ابن أبي الدينار:المصدر نفسه، ص87-88.

40-حسن حسني عبد الوهاب:مجمل تاريخ الأدب التونسي(من فجر التح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر)،مكتبة المنار ،تونس،1968،ص103.

41-ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،ج8 ،ص188.

42-ابن أبي الدينار: المصدر نفسه ، ص90.

43-محمد الصلابي: المرجع نفسه،ص112.

44-ابن رشيق القيرواني: الديوان،جمع و ترتيب : عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة ،بيروت،دط،دت،ص170-171 . (ينظر أيضا:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ،ص86).

45- ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص91.

46-نفسه ،ص91.

47- أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :كنيته أبو الصلت، كان عالما في الفلك والرياضيات والموسيقى,وطبيبا ولد في بلدة دانية بالأندلس عام(460 هـ)، ونشأ فيها وأخذ علوم اللغة والنحو عن قاضيها أبي الوليد الوقشي (ت 488 هـ) .ثم انتقل إلى إشبيلية فنسب إليها واستقر فيها إلى حين سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس، ملك قشتالة سنة(478هـ) .فهاجر منها متجهاً إلى المهدية بتونس .حيث دخل في خدمة صاحبها تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، الذي أرسله في سفارة يحمل منه رسالة إلى الملك الأفضل بن

بدر الجمالي أمير الجيوش في زمن المستعلي بالله أحمد بن معد الفاطمي. سجن في مصر ثم أفرج عنه فغادر إلى المهدية حيث توفي فيها عام(529 هـ).(ينظر: المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت،ج2،ط1، 1986 ،ص 312).

48-أمية بن عبد العزيز أبو الصلت : الديوان،تحقيق : محمد المرزوقي، دار بوسلامة ،تونس، 1979، ص 122.(ينظر أيضا: محمد الصلابي: المرجع السابق،ص114).

49-عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد (447 - 527 هـ) شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية، اضطرَّ للهجرة إلى الأندلس سنة(471 هـ) بعد أن استولى عليها النورمان ، اتصل ابن حمديس بـ (بني علناس) و(بني زيري).و استقر في (بجاية) بالجزائر وأقام فيها حتى توفي عن ثمانين عاما (ابن حمديس: الديوان ،ضبط وعنون قصائده وعلق عليها: يوسف عيد ،دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005 ،ص5-19).

50- ابن حمديس: المصدر السابق،ص220-221.

51- ابن الأثير : الكامل في التاريخ،ج6، ص524 . (ينظر أيضا:ابن أبي الدينار:المصدر السابق، ص92).

52-ابن أبي الدينار:المصدر السابق،ص92.(ينظر:حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ،ص84).

53- محمد الصلابي: المرجع السابق،ص117.

54- ابن أبي الدينار: المصدر السابق ، ص93.

55-أحمد يزن : النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، ص 63 .

56-أحمد يزن : المرجع السابق، ص 67 .

57-النابغة الذبياني: الديوان،شرح حنا ناصر الحتي، دار الكتاب العربي،بيروت، ط1، 1991،ص126.

58-أحمد يزن : نفسه ، ص 67 .

59 ياقوت الحموي : معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج 1 بيروت، د ط ، د ت. ، ج7 ،ص28

60-نفسه، ج7، ص28.

61-الدرامي:هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن سفيان الدارمي التميمي البغدادي، ولد في بغداد سنة (388هـ) وكان وزيرا ، وشاعرا من بيت علم وأدب ،خرج من بغداد متجها إلى الهند في ضيافة السلطان" محمود بن سبكتّكّن" الذي استقطب بلاطه آنذاك مجموعة كبيرة من الأدباء والشعراء ، وحملة العلم .وبعد وفاة السلطان عاد إلى بغداد في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله ،وقد تزامن قدوم الدارمي إلى بغداد مع قدوم رسول "المعز بن باذّيس" الصنهاجي ،فطلب الخليفة منه التوجه إلى القيروان كرسول إلى المعز ووصل القيروان سنة(439هـ) شهد حصار القيروان ،توفي بطليطلة سنة (454هـ)(ينظر: المقري: المصدر السابق ،ج3،ص111-112).

62-عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، د ت،ج1، ص 40 .

قائمة المصادر و المراجع:

1- ابن أبي الدينار : المؤنس في أخبار إفريقيا و تونس، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ،ط3 ، 1387 هـ.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ،دار صادر، بيروت، ج7، د ط،م 1979 .

3- ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق :جلول أحمد البدوي ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2،1984م .

4-ابن حمديس الصقلي: الديوان ،ضبط وعنون قصائده وعلق عليها: يوسف عيد ،دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005 .

5-ابن خلدون(عبد الرحمن): : المقدمة، تح:على عبد الواحد وافي، دار القلم، بيروت، ط 5، 1984م.
6-ابن خلكان(أبو العباس): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر،بيروت،ج 1، د ط ،1972.
7-ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن): الديوان،جمع و ترتيب : عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة ،بيروت،دط،دت.
8-أبو الصلت (أمية بن عبد العزيز) : الديوان،تحقيق : محمد المرزوقي، دار بوسلامة ،تونس، 1979.
9- أحمد يزن : النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ،مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986.
10-بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر، 1981م.
11-الدباغ(عبد الرحمن بن محمد بن ناجي)::معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تكملة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي:تحقيق: محمد ماضور ،مكتبة الخانجى ،مصر-المكتبة العتيقة تونس، ج3،،د ط،د ت،
12-حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات تونسيات ،مكتبة المنار ، تونس ، ط2 ،م1965.
13-حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس،تحقيق حمادي الساحلي،دار الجنوب للنشر، تونس، 2001م.
14-حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي(من فجر التح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر)،مكتبة المنار ، تونس،1968م.
15-الذهبي(شمس الدين):: سير أعلام النبلاء،تحقيق:شعيب الأرناؤوط،محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة، بيروت ، ج18 ، ط9، 1413هـ.
16-رابح بونار : المغرب العربي تاريخه و ثقافته، دار الهدى ،عين مليلة ، الجزائر، ط3، 2000 م.

17-عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت ، ج1، ط4، 1980 م.
18-عبد العزيز قلقيلة:النقد الأدبي في المغرب العربي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1،ط2، د ت.
19-النابغة الذبياني: الديوان،شرح حنا ناصر الحتي، دار الكتاب العربي،بيروت، ط1، 1991م.
20-محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،د ط، 1981 م.
21-محمد الصلابي : الدولة الفاطمية،مكتبة الإيمان، المنصورة ، ط1 ،2005.،ص98.
22-محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط1،1986م
23-المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي): اتعاظ الحنفاء، تحقيق :جمال الدين الشيّال ، طبع دار التحرير، القاهرة، ج1،دط،1963م.
24-المقري(شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني): : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ج2،ط1، 1986 ،
25-الهادي روجي إدريس:الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن10إلى القرن12م-دار الغرب الإسلامي،بيروت ،ج1، ط1، 1992 .
26-ياقوت الحموي : معجم الأدباء إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج 1 بيروت، د ط ، د ت.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria
Faculty of social and human sciences

JOURNAL OF EL MAAREF

For researches and historical studies

Periodical and international vefereed journal